



أبو عبدو البغل

اليكسى فاسيليف

مصر والمصريون



دار التقدم · موسكو



اليكسى فاسيليف

مصر والمصريون

<http://abuabdoalbagl.blogspot.com>



أبو عبدو البغل

دار التقدم
موسكو

الدكتور ابو بكر يوسف (الفصول ١ — ٤)
الدكتور احمد حسان (الفصول ٥ — ٨)

А. Васильев
ЕГИПЕТ И ЕГИПТЯНЕ
На арабском языке

© Издательство „Мысль“, 1986

© الترجمة الى اللغة العربية — دار التقدم ، ١٩٨٩

طبع في الاتحاد السوفيتى

B $\frac{0804000000-362}{014/01/-89}$ 186-89

ISBN 5-01-001351-7

قال كهنة الاله المصرى القديم آمون : «ان كل من شرب من مياه النيل أسفل جزيرة فيلة هو مصرى» . ولقد شربت مياه النيل خمس سنوات ، سنة كنت فيها طالبا واربع سنوات كنت اعمل خلالها فى القاهرة . ورغم انى لم اصبح مصريا فقد احسست اننى مدين للنيل ، ولمصر ، وللمصريين ، فقررت ان اضع هذا الكتاب .

تمهيد

كان محمود مختار فى ريعان شبابه . وكان راغبا فى الحياة ، والحب ، والتمتع بعبير حقول البرسيم فى دلتا النيل وازهار الياسمين المزدهرة ، ومطلع الشمس كل صباح فوق رمال الصحراء . وأراد محمود مختار ان ينحت ، ويجسد فى الصخر تلك الصور التى تملأ خياله .

ولكن الأمرين كانا متعارضين ، يستبعد احدهما الآخر . لقد حذره الاطباء : «ان مرضك خطير ولكنه ليس فتاكا فلتقلل من العمل اليدوى الشاق . . . ولا تعرض نفسك لاية ضغوط عاطفية . . . وان شاء الله سوف تعيش الى أزدل العمر . بيد ان القرار فى يدك أنت . . . اما ، واما . . .»

واختار محمود مختار الموت .

اختار محمود مختار الخلود .

فى أغلب الاحوال لم تكن مادته هى الرخام ، بل جرانيت

أسوان الصلب الذى لا يلين للازميل . وراح الممثل يعمل بصورة محمومة وهو يحاول الا يفكر فى اسقامه وفى ذراعيه المريضتين اللتين دب فيهما الجفاف وفى قلبه الذى كان يدق فى اضطراب ، مقربا ساعة النصر الابداعى والموت .

كان يؤمن برسالته ، وبمصر . وقد اعتبره انطوان بورديل من أنبغ تلاميذه . وتعلم مختار بلاغة الايجاز فى الصورة النحتية ، والتعميم فى التشكيل الانسيابى ، والتقدير فى استخدام التفاصيل . واتجه مختار نحو الفن المصرى القديم فاكشف ان كثيرا من الاشكال الفنية التى كان يميل اليها قد توصل اليها أسلافه منذ الاف السنين . واذن فقد كان عليه ان يساعد الشعب المصرى على ان يتذكر ذاته فى الصيغ التشكيلية التى نسيها هذا الشعب نفسه .

واستوعب محمود مختار هذه الصيغ فأبدع صوراً للفلاحين والبدو . وقد بحث فى هذه الصور وعثر فيها على اشخاص لم تسحقهم الفاقة والاستبداد ، بل كانوا تجسيدا للصبر والعزة والحكمة . وكان المرض قد تمكن من اوصال الفنان عندما فرغ من قضية عمره كله : تمثال «نهضة مصر» . وفى هذا التمثال تجسد عصر الامال الذى كانت تعيشه مصر والمشاعر التى كانت تجيش فى نفس الفنان . وكأنما حمل مختار على جناحين فورة الحماسة التى انطلقت ولكنها لم تمت وقد فجرتها ثورة ١٩١٩ ، عندما تعانق الهلال والصليب فى شوارع القاهرة رمزا لوحدة المسلمين والاقباط الذين ثاروا ضد الاحتلال البريطانى . وقد حلت خيبة الامال محل النهضة الروحية ، ولكن الايمان بحضارة مصر التليدة وبشباب الوطن شد من أزر الفنان .

هكذا خرجت من تحت ازميله ومن جرائيت أسوان التشكيلية

النحتية «نهضة مصر» ، حيث يبدو ابو الهول — فى صورة اسد جبار له وجه رائع لشاب مصرى — وكأنما نفض عن نفسه السبات لتوه وهو يزور الى الدنيا فى هدوء جليل ، وبجواره فتاة ممشوقة القوام ، قوية ، تضع احدى يديها على رأسه ، ويدها الاخرى ترفع عن وجهها الطرحة . وينظر كلاهما الى الافق ، وكأنما ترى ابصارهما شيئا لا يبدو مرثيا للاخرين .

عمل مختار فى تمثال «نهضة مصر» حوالى عشر سنوات . وفرغ منه فى عام ١٩٢٨ ثم سافر للعلاج . وبعد ذلك ابدع بضعة تماثيل باخر ما بقى لديه من قوة ، ثم وافاه الاجل وهو فى الثالثة والاربعين .

كان تمثال «نهضة مصر» يستقبل الوافدين الى العاصمة عند ميدان باب الحديد ، ميدان محطة قطارات القاهرة . وفى الخمسينات استبدل به تمثال هائل لرئيس الثانى ، اما ابو الهول والفتاة فقد انتقلا الى الجزيرة ، على الضفة اليسرى لنهر النيل ، حيث انتصب التمثال امام ممر يحف به النخيل ويفضى الى المبنى الرئيسى لجامعة القاهرة .

وعندما كنت طالبا كثيرا ما كنت أتفرس وانا فى طريقى الى المحاضرات فى وجهى ابنى الهول والفتاة الواقفة بجواره وكأنما دبت فيهما الحياة تحت اشعة الشمس الصاعدة ، وأفكر فى بطولة مختار ومأساته . وفى عام ١٩٨٤ ، واثناء احدى زيارتى الدورية للقاهرة ، قررت ان أزور هذا التمثال الذى كانت تجمعنى به ذكريات كثيرة ، فتمشيت من مقر السفارة السوفيتية حتى كوبرى الجامعة . كان التمثال فى موضعه ، شامخا بعظمة فوق فوضى أصوات أبواق السيارات الهادرة وصرير فراملها بينما تلفحه ابخرة غازات العادم المنبعثة منها . وكانت الفتاة والاسد الذى له وجه انسان ينظران —

مثلا من قبل — الى كوبرى الجامعة الممتد أمامهما . بيد انه خيل الى ان ابتسامة سخرية تطوف بشفاهما .
وعدت افكر فى بطولة مختار الابداعية ، ولكن بصورة اخرى ، مغايرة لما كنت افكر به فى ايام شبابى . ان المأساة التى حلت بالمثال العظيم بعد وفاته تكمن فى ان «نهضة مصر» اصبح رمزا لوطنه بالنسبة للاجانب ، وللمثقفين المصريين ذوى الثقافة الغربية وليس بالنسبة للجماهير المصرية التى تعيش حسب نظام القيم والصور الفنية الاسلامية . ان الشعب الذى وهبه مختار حياته لم يتعرف على نفسه فى هذا التمثال ولم يعترف بمختار معبرا عن طموحاته ومثله .

وربما كان عدم التعرف وعدم الاعتراف امرا مؤقتا .
ان الفن المصرى القديم لا يلمس الاوتار الحية فى نفوس غالبية المصريين رغم انه يثير عن حق اعجاب الذواقة ولولهمم . والفن الغربى الحى ، او على الاقل النحت والتصوير ، ما يزال كتابا مغلقا بالنسبة للجماهير .

ربما كان مختار مبشرا بتوليفة من فنون مختلف الشعوب والحضارات والعصور ، اما هذه التوليفة نفسها فما تزال فى طي المستقبل . وبوسع المرء ان يقول ذلك فى الثمانينات بصورة اكثر ثقة مما كانوا يقولونه بها فى العشرينات والثلاثينات .

وقد يتساءل البعض : وما معنى تذكر محمود مختار والكلام يدور عن مصر والمصريين فى يومنا هذا ؟ ولكن الجدل ينشب بين الحين والحين ، حتى فى أيامنا هذه ، حول «شخصية مصر» وما الذى يمكن ان يعتبر مكونا لها ، ومن هو المعبر عنها والمفسر لها ، وما هو دور مصر فى العالم ، والى أية حضارة تنتمى .
ومن خلف هذه المجادلات التى قد تبدو مجردة تحتدم الالهواء

السياسية الحية ويجرى البحث عن طرق البناء الاجتماعى والاقتصادى
لمصر .

وفى ايامنا هذه يزداد المرء قناعة بانه لا يمكن فهم مصر
المعاصرة بدون العودة الى العشرينات والثلاثينات ، بدون الغوص
فى بئر تاريخ الاف السنين ، بدون التوجه الى نيلها وصحاريها .

الباب الاول

اللاصحراء

ان كل انسان عاقل (حتى ولو لم يسمع عن ذلك شيئا من قبل) سيقنع منذ الوهلة الاولى ان مصر [السفلى] التى يرتادها الهيلينيون على متن السفن ، يرجع منشؤها الى عهد قريب ، وتعد هبة النهر [النيل] . ومثل هذا هو الجزء الممتد من البلاد على مسافة ثلاثة ايام سباحة الى اعالي النهر . . . وعندما يفرق النيل البلاد ، لا تظهر فوق المياه الا المدن ، وتكاد تكون مثل الجزر عندنا فى بحر ايجة .

هيروdot . التاريخ . القرن ٥ ق . م .

من النيل تفرعت قنوات عديدة محفورة ، ممتدة الى جميع الجهات . ومنها ، اى من هذه القنوات ، تفرعت بدورها ترع صغيرة تروى القرى والنجوع . وقد نصب عليها الكثير من السواقي التى لا يمكن حتى حصر عددها . وكل قرى مصر مقامة على مرتفعات وتلال . وعندما يفيض النهر فان المياه تغرق جميع الاراضى ، ولذلك اقيمت القرى على المرتفعات حتى لا تغرقها المياه . وفى تلك الاونة ينتقل الناس من قرية الى قرية بالقوارب .

ناصر خسرو . سفر نامة . القرن ١١ م .

هناك الهان خلقا ارض مصر ويحرسانها اليوم كما كانا
يفعلان دائما ، وهما الشمس والنيل . هذان الالهان
انجبا واخصبا اكبر واحة خضراء على ظهر الارض . ولكن
النيل نفسه كان من خلق الاله الشمس . . . ومن النادر
ان يسطع الاله الشمس بهذه القوة فى مكان آخر ،
ولما كانت الصحراء الجافة تمتص الرطوبة كلها ، فان
الضباب لا يتصاعد من سطحها ابدا . وهكذا فان الشمس
والماء ، والارض والماء ، والارض والشمس توجد منفصلة ،
فى طهارة عذرية ، دون ان تختلط او تتلوث .

اميل لودفيغ . النيل . وصف حياة نهر ، ١٩٣٥

لو نظرت الى الخريطة لبدت لك مصر على شكل مربع غير
مستوي يمتد طولاً ١٠٠٠ كيلومتر وعرضاً لالف كيلومتر تقريبا فى الشمال
الشرقى من افريقيا . اما شبه جزيرة سيناء — هذا الجزء الاسوى
الصغير من مصر — فلا تؤثر على الصورة العامة . ولكن مصر نفسها ،
وأرضها المنعمورة ، هى جزيرة فى محيط الصحراء ، واكبر واحة
فى العالم وسط اكبر صحراء فى العالم .
ان مصر المكتظة بالسكان هى لاصحراء مساحتها حوالى ٣٥ —
٤٠ الف كيلومتر مربع . اما الواحات الصغيرة الواقعة خارج حوض
النيل فلا تضم الا عددا قليلا من السكان . ومصر التى يروىها
النيل تذكرك فى شكلها بزهره لوتس تنبت من بحيرة ناصر الصناعية ،
واحدى اوراقها هى واحة الفيوم ، وذات فرع حى فى صورة منطقة
قناة السويس . نعم ، فمنطقة القناة هى ايضا تنهل من ماء النيل
وتروى منه حقولها وبساتينها ومزارعها .
ان جغرافية مصر تلوح اشبه بكتاب مدرسى لتلاميذ الصفوف

الاولية لشدة ما تبدو بسيطة . فمصر هي البلد الوحيد على ظهر الارض الذى عاش اهله كلهم على امتداد جميع العصور على ضفاف نهر واحد او القنوات المتفرعة منه . وتبدو صورة تضاريس مصر كالتالى : النهر ، والحقول المزروعة ، واحراج النخيل ، وخط الجبال الجرداء عند الافق .

ويقال ان عمرو بن العاص الذى فتح مصر فى القرن السابع الميلادى كتب الى مولاه الخليفة عمر بن الخطاب رسالة جاء فيها : «هنا تمتد صحراء جرداء ، لا زرع فيها ولا ماء . وهى تعلو من كلا الجانبين ، وبين هذين المرتفعين تقع بلاد العجائب . فمن ناحية الغرب تحفها سلسلة من الكشبان الرملية . ومن ناحية الشرق تبدو كبطن حصان هزيل او ظهر جمل . تلك هى مصر يا أمير المؤمنين ، وثرواتها تأتى كلها من النهر المبارك الذى يسير فيها بعزة الخليفة . وهذا النهر يعلو ويهبط بانتظام مثل الشمس او القمر . فعندما يأتى الاوان يكون فيه على جميع ينابيع الدنيا ان تدفع الجزية لملك الانهار هذا الذى اعلاه الله فوق جميع الانهار الاخرى ، اذ يعلو النهر ساعتها ويفيض عن مجراه ويغمر السهل ويترك هناك غرينه الخصب . عند ذاك تصبح القرى معزولة بعضها عن بعض . ولا شىء يربط بينها سوى القوارب ، وهى كثيرة مثل السعف فى النخلة . ولكن النهر يثوب الى صوابه فيعود الى حدوده التى خطها له القدر حتى يستطيع القاطنون بقربه ان يجمعوا الثروات التى وهبها للارض . فلتعلم يا أمير المؤمنين ان مصر تبدو على التوالى فى صورة صحراء رملية جافة وخط من المياه الفضية ، ومستنقع مغطى بالغريرين الكثيف ، ومرج اخضر فاخر ، وبستان عامر بشتى الازهار ، ثم حقول تفيض بالمحاصيل الوفيرة» .

هذه الرسالة لا تشبه بلاغا من قائد عسكري قاس فظ ، بل

هي أقرب الى ملاحظات دونها رحالة حصيف ، وهب الى ذلك ملكة التفكير الشعري . وايا كان الامر فهي رسالة محكمة ودقيقة بصورة مذهشة .

وتتواءم بساطة تضاريس مصر مع اطراد مناخها وانتظامه . فباستثناء الشريط الساحلي المطل على البحر المتوسط ، حيث تسقط بعض الامطار شتاء ، يعم الجفاف الصحراوي مناخ مصر حتى المدار الشمالي ، مع اختلاف طفيف في متوسط درجات الحرارة بين اقليم وآخر .

ان العداء بين الصحراء الجرداء والواحة الخضراء في دلنا النيل يبدو من البديهيات المسلم بها . ويتحالف الانسان مع المياه ليقاوم القبضة المميتة للصحراء الزاحفة والمتحفزة لابتلاع الحقول والبساتين والمزارع ، ويقوم في بعض الاماكن بغرس سواتر من الطرفاء والسنت في وجه الرمال المتحركة . واذا كنا لا نستطيع ان نقول ان الطبيعة مرتبة بصورة حكيمة ومناسبة ، فهي على الاقل متسقة . فالصحراء تهدد بابتلاع مصر ، ولكنها في الوقت نفسه ، وباعتبارها قوة ايكولوجية جبارة ، تحافظ عليها وتحميها . فالصحراء اللاهبة ، مثل شعلة نار هائلة ، تسخن الهواء ، فيتكون تيار عمودي صاعد ، وتحدث منطقة ضغط جوي منخفض فتندفع نحوها رياح الشمال .

فمن مجموع ايام العام الثلاثمائة وخمسة وستين تهب الرياح الشمالية على مصر طوال ثلاثمائة يوم تقريبا . ومنذ القدم والنقل النهري في مصر يقوم على استخدام تيار النيل في الحركة من الجنوب الى الشمال وقوة الريح في الاشرعة للتحرك من الشمال الى الجنوب . وهذا ينطبق سواء على الحركة في مجرى النيل نفسه ام في فروعه وقنواته . وحتى في أيامنا هذه يرى المرء وهو مسافر في الدلتا اشرعة

المراكب التي تبدو وكأنها تسير على اليابسة . وتمضى هذه المراكب نحو الشمال عبر القنوات بينما لا تبدو هياكلها للعين من وراء عيدان الغاب والقصب النابتة على الشواطئ . وفي عصرنا هذا الذي ترتفع فيه اسعار الطاقة فان رخص وسيلة النقل القديمة والانيقة هذه يكفل لها البقاء وعلى نطاق واسع .

ولكن الرياح الشمالية في مصر ، الى جانب تلطيفها لحرارة الجو ودفعها لاشعة المراكب ، تلعب دورا آخر لا يقدر بثمن . فهي تكنس الرمال التي تسفيها الصحراء ، وتبعدها عن وادي النيل ، أو هي على الاقل توقف زحفها . ولولا مساعدة الرياح ، التي تولدها الصحراء ، لما استطاع الانسان ان يزود عن واحته — الالصحراء . اما الاخطار التي تحيق بمصر من الرياح الجنوبية فتكشف عنها رياح الخماسين .

ان سكان المناطق الجنوبية الشرقية في القسم الاوربي من اراضى الاتحاد السوفيتي يعرفون رياح السفوح القادمة من آسيا الوسطى . فاذا أضفنا الى قيظها عشر او خمس عشرة درجة اخرى ، مع الغبار والتراب ، لاصبحت مثل الخماسين المصرية . والرياح القادمة من الصحراء يسمونها في السودان «الهبوب» ، وفي ليبيا يسمونها «الجبلي» وفي جنوب ايطاليا : «سيروكو» . وكل هذه الرياح اخوة اشقاء . . . وهي جميعا زفير من فوهة الفرن اللافح . . فرن الصحراء الافريقية .

الخماسين مشتقة من كلمة «خمسين» . ولكن هذا لا يعنى ان هذه الرياح تهب خمسين يوما متصلة . صحيح ان موسم الخماسين ، التي تهب من الجنوب الغربي ، يمتد الى خمسين يوما في شهرى ابريل ومايو . بيد ان العاصفة الترابية تعربد يومين

او ثلاثة ، واحيانا اكثر ، ثم تخدم الرياح ، لكي تعصف مرة اخرى بعد بضعة ايام . وفي اليومين الاولين لهبوب الخماسين تقفز درجة الحرارة بشدة . وتكتسب الشمس المضبية المريضة لونا قرمزيا واحيانا— في العواصف الشديدة بصفة خاصة— تخفى تماما . و«يصوى» القمح ، فيصبح حبه ضامرا ، خفيفا اذا ما حلت الخماسين في اوان امتلاء السنابل .

تهب الريح فتغطي الشوارع والحقول بطبقة خفيفة من الرمال . وتبلغ الرمال درجة من النعومة بحيث تتسلل الى محركات السيارات لتختلط بزيتها ، وتنفذ الى الغرف عبر النوافذ والابواب المغلقة ، وترسب في ساعات معدودة طبقة سميكة على الارضية والاثاث ، وتسقط في الطعام وتتر تحت الاسنان . ويصبح التنفس صعبا ، ويشعر المرء بالضعف بسبب الحر وتوتر اعصابه . ويتذبذب ضغط الدم ، ويزداد التهيج العصبى وينقبض القلب . ولكن فترات الانقطاع في هبوب الخماسين تجلب الراحة والطرارة .

وذات مرة ، اثناء هبوب الخماسين ، قام طبيب روسى شاب فى القاهرة باجراء كشف اشعة على رئات الاطفال للاختبار فانزعج بشدة ، اذ ظهرت فيها بقع مظلمة ، وتلك مظاهر مؤكدة للاصابة بالسل . ولكن الاطباء المصريين فسروا ذلك بكلمة واحدة : الخماسين . ولم يصدقهم الطبيب الروسى الا بصعوبة ، ولم يتنفس الصعداء الا بعد ان انتهت العواصف الترابية وعادت رئات الاطفال نظيفة كما كانت .

ورغم الخماسين يعتبر مناخ مصر مناخا مثاليا لعلاج امراض الصدر وخاصة فى فصل الشتاء . ولا يصاب المصريون بالسل الا نادرا جدا ، وفى هذه الايام لم ينتشر السل الا فى الاحياء الفقيرة فى المدن الكبيرة وليس فى الريف .

وبالنسبة لنا ، نحن اهل الشمال ، يعتبر الصيف المصرى موسما شاقا ، فالقيظ يرهق الاعصاب ويسلب القوى ويسبب الارق .
وكم مرة لسعنى مقود السيارة او هيكلها الملتهب . ومع ذلك اعترف بكل صدق بان الحر المصرى الجاف امر مقدور عليه . فالمرء الذى اجتاز فترة التكيف يستطيع بسهولة نسبية ان يحتمل الحرارة حتى الاربعين درجة . اما فوق الاربعين درجة فانك تحس بوطأة كل درجة اخرى . وفى عز الحر كثيرا ما تضطر الى اغلاق نوافذ السيارة لان الهواء الساخن لا يطفئ الحرارة بل يلسعك . والمنقذ هو الراحة فى فترة القيلولة ما بعد الغداء . ويتوقف العمل فى هذه الفترة من ساعتين الى اربع ساعات .

اما برد الشتاء — الذى يتراوح ليلا بين خمس واثنتى عشرة درجة مئوية فوق الصفر — فان تحمله اصعب بكثير . وحين تسأل المواطنين السوفييت الذين عاشوا فى مصر ، ما هو الاصعب هنا : البرد ام الحر ، يجيبون فى صوت واحد : البرد ! ففى درجة الحرارة التى تشعل عندها روسيا كلها المواقد وتعمل التدفئة المركزية او دفايات الغاز والماء الساخن فان مصر ترتعش من البرد ، اذ ان المنازل فى غالبيتها العظمى غير مزودة بالتدفئة . فالبيوت باسقفها العالية ، وتيارات الهواء التى تتخللها ، والشقوق فى الابواب والنوافذ — اما اكواخ الفلاحين فليس بها زجاج عموما — انما تناسب الحر اكثر مما تحمى من البرد . وفى الليل يتغطى المصريون بالبساطين وفى النهار يرتدون المعاطف والملابس الصوفية ويلفون رؤوسهم بالملافح ، تاركين اقدمهم حافية فى احيان كثيرة . وقد يحدث ان يموت الفقراء الضعفاء المنهكو البدن من البرد اثناء نومهم فى الخلاء . وفى الصباح تبقى احيانا حبيبات جليد رقيقة على العشب . وتتساقط اوراق كثير من الاشجار فتقف عارية ، فى هيئة شتوية تماما .

وفي فبراير—مارس تبدأ فترة ازدهار مدهش ورائع للأشجار والخمائل . اما اشجار الاكاسيا—فلامبويان (وتعنى بالفرنسية : الملتهبة) فهي وحدها التي تنتظر مقدم شهر مايو ، تنتظر الحسر الحقيقي ، لكي تكتسى من قمتها الى اسفلها حلة حمراء جزرية من الازهار الملتهبة التي اكسبت هذه الاشجار اسمها الملفت للنظر . والامطار في مصر— ما عدا في اقصى الشمال— شىء نادر في غاية الندرة . فلا تسقط الا عدة مرات في العام ، وربما اقل من ذلك . فاذا سقطت امطار غزيرة فهي كارثة طبيعية ، لانها تذيب البيوت الطينية ذات السقوف الهشة ، وتحول الشوارع غير المرصوفة الى برك من الوحل الغليظ ، وينقطع التيار الكهربائى والاتصال الهاتفى . ولا تعد الامطار مصدرا ، ولو ثانويا ، للمياه . ان النهر الذى يهب مصر الحياة يتكون من التقاء النيلين الابيض والازرق عند مدينة الخرطوم .

يولد النيل الابيض هناك ، حيث الحياة تخطو بعد اولى خطواتها ، في منطقة الامطار الاستوائية والادغال المظلمة الرطبة ، في تلك الاصقاع التي تهاجر اليها طيورنا الشمالية . وينتهى مسار النيل في تلك المنطقة التي شهدت منذ آلاف عديدة من السنين مولد واحدة من اقدم الحضارات على وجه الارض . والنيل الابيض وليد منظومتين مائيتين مرتبطتين احدهما بالاخري : البحيرات الافريقية الكبرى ، وانهار هضبة اثيوبيا . ويبدأ جريانه عند بحيرة فكتوريا شلالا هائلا صاحبا ، كاشفا عن طبعه منذ الخطوات الاولى . ورغم انه يظل نهرا عظيما ويلتقى بالنيل الازرق ، فهو في بعض المناطق في مصر لا يبدو اعرض من نهرنا «اوكا» في مجراه الاوسط * .

* «أوكا» — نهر في روسيا .

وبعد ان يهبط النيل الابيض من الهضبة الافريقية الوسطى حاملا اسم بحر الجبل ، يتسع مجراه في جنوب السودان وتفيض مياهه في سهل مستو واسع ينحدر انحدارا خفيفا نحو الشمال . فلا يبلغ مدى الانخفاض على امتداد حوالي ١٧٠٠ كم من نيمولى حتى الخرطوم سوى ٧٠ مترا فحسب .

وفي جنوب السودان يخفف النهر جريانه الى حد الانسياب البطيء ، ويتفرع الى مئات الفروع والبحيرات ، ويشكل منطقة مستنقعات بامتداد خمسمائة كيلومتر واتساع ثمانمائة ، ومساحتها الكلية تبلغ بضع مئات الالاف من الكيلومترات المربعة . ويفعل الرشح والتبخر يفقد بحر الجبل هنا أكثر من نصف مياهه ، رغم الروافد الكبيرة العديدة التى تصب فيه . وفي موسم الجفاف تتحول هذه المنطقة كلها الى مستنقع هائل ، راكد المياه ، تغطيه الاعشاب وتحف اعواد الغاب والبردى بشطآنه . ولكن ما ان يبدأ موسم الامطار وتنتهى فترة بيات النهر العظيم حتى ينضو النيل الابيض عنه كفته العفن ويشق طريقه الى الشمال ، الى الخرطوم ، ليلتقى بشقيقه النيل الازرق . وتحمل مياهه العكرة المائلة الى الخضرة كثيرا من المواد العضوية . ان العرب يطلقون على منطقة جنوب السودان اسم «منطقة السد» . وهو وصف شديد يشخص تماما طبيعة هذه المنطقة . اذ ان هذه المستنقعات الكثيفة الاعشاب والتي يصعب اختراقها تشكل عقبة ضخمة في وجه الملاحة يصعب تذليلها حتى يومنا هذا .

وبفضل المنظّمات الطبيعية فى صورة البحيرات والجنادل والمستنقعات يتدفق النيل الابيض بانتظام على مدار السنة ولا يرتفع منسوبه الا ارتفاعا طفيفا فى موسم الامطار . ولكن الفضل لا يرجع اليه ، بل الى النيل الازرق ، فى الفيضانات التى يفيضها نهر

مصر الاوحد وبالتالي في امكانية قيام الزراعة على الرى .
بين النيل الابيض والبحر الاحمر تعلق هضبة اثيوبيا بسلسلة جبالها
المرتفعة . انها « Spino Mundi » (ظهر العالم) لدى القدماء .
وهناك تتخلص الرياح الموسمية القادمة من المحيط الهندي من
حمولتها الرطبة فتهطل امطارا غزيرة . وينحدر النيل الازرق من بحيرة
تانا تحت اسم أبأى ، وبعد ٢٠ كيلومترا يهوى شلالا من اجمل
شلالات العالم يسمونه «تيزى زات» (النار الهادرة) ، اذ ان قوس
قزح بألوانه الطيفية ينتصب دوما في ذرات المياه المتطايرة . ويتدفق
أبأى عبر الستمئة كيلومتر الاولى نهرا جبليا فوارا ، ويغور احيانا في
واد جبلى على عمق الف متر وأكثر . ثم يتلقى النيل الازرق روافد
جبارة ، ويتحرر من أسر الجبال ليخرج الى السهل . وهناك يهدئ
سد سنار من نائرة النهر . وفي موسم الجفاف يصل النيل الازرق
الى شقيقه الاكثر هدوءا وقد اصبح نهرا بائسا يمكن عبوره خوضا .
ولكن ابتداء من ابريل ، عندما تهطل الامطار الموسمية ، يندفع
النيل الازرق وهو يلحق الصخور نازعا عنها طبقات من القشور الناعمة
وتحمل مياهه المسعورة مادة البناء هذه الى دلتا النيل .

ويختلط النيل الازرق حاملا الرواسب المعدنية بالنيل الابيض
ذى المياه العكرة الغنية بمخلفات المواد العضوية المتحللة . ومن
اتحاد هذه الجزئيات تكونت عبر آلاف السنين طبقة من طمي
النيل سمكها عشرة امتار— ذلك المعين الذى لا ينضب للخصوبة—
وتحتها الى عمق مئات الامتار ترسبت الرمال والحصى مختلطة ايضا
بهذا الطمي .

اما آخر روافد النيل ، وهو نهر عطبرة ، الذى يلتقى به على
بعد حوالى ثلاثمئة كيلومتر الى الشمال من الخرطوم ، فهو ينبع
ايضا من هضبة اثيوبيا ، غير بعيد عن بحيرة تانا . وهذا النهر

يجف احيانا فى فصل الجفاف ، ولكنه يتحول فى الصيف الى نهر هادر .

ومن عطبرة حتى المصب ، وعلى امتداد ٢٧٠٠ كيلومتر لا يلتقى النيل بأى رافد . ويبدأ فيضان النيل فى اواسط يوليو ويستمر حتى سبتمبر . وخلال موسم الامطار فى جبال اثيوبيا يمد النيل الازرق ونهر عطبرة نهر النيل بحوالى ٩٠٪ من كمية مياهه . اما فى الشتاء فيتكفل النيل الابيض بتوفير أكثر من اربعة اخماس مياه النيل . وفى الفترة التى يبلغ فيها الفيضان ذروته ، فى سبتمبر ، يبلغ تصريف النيل اليومى أكثر من ٧٠٠ مليون متر مكعب من المياه ، اما فى اواسط مايو فلا تزيد هذه الكمية عن ٤٥ مليون متر مكعب .

فى مواسم الفيضانات العالية كان منسوب المياه فى نهر النيل يرتفع بضعة امتار . وقبل بناء السد العالى كانت الجنادل الستة ، الممتدة فى النوبة من شمال السودان حتى اسوان ، هى المنظم الاخير لحركة النهر . اما الان فيختفى الجندل الثانى تحت مياه البحيرة الصناعية .

ان الكشبان الرملية والهضاب الصخرية ، والصخور المتشققة الجرداء فى الصحارى المحيطة بمصر ترقد هامة بلا حياة . فلماذا اذن توجد تماسيح فى البحيرات النادرة التى بقيت فى اعماق الصحراء ، مع ان آلاف الكيلومترات تفصل بين هذه التماسيح وبنى جنسها التى تعيش فى المنطقة الاستوائية الرطبة ؟ ولماذا نرى فى حفريات مضارب الانسان الاول فى تاسيل فى جبال اطلس بالصحراء الكبرى وفى النوبة لوحات جدارية فى المغارات لمناظر صيد الثيران البرية والفيلة والغزلان ؟ ولماذا نجد فى بقايا طعام سكان وادى النيل فى العصر النيوليثى (العصر الحجري الحديث) عظام

وحيد القرن وقشور بيض النعام ؟ ولماذا نرى في النقوش الجدارية من العصور الفرعونية الكثير من مشاهد صيد الاسود ، هذه الوحوش التي لا وجود لها في مصر المعاصرة الا في حديقة الحيوانات ؟ اما في الرسوم العائدة الى عصر المملكة القديمة وعصر ما قبل الاسر فترى الحمار الوحشى والقبيل والغزلان والظباء والاسود والفهود وافراس النهر والتماسيح والثعابين الضخمة ؟ وكيف ولمن بنى قدماء المصريين المعابد الهائلة في الاماكن التي تخلو اليوم من المياه ولا تبلغها الا بعد سفر ايام عديدة على ظهور الجمال التي لم تكن معروفة لمن عاشوا من الالف الخامس حتى الالف الثانى قبل الميلاد ؟ ليس هناك سوى جواب واحد : ان الصحراء التي تحيط بمصر هي صحراء حديثة العهد ، عمرها لا يتجاوز تسعة آلاف الى اثنى عشر الف عام . والمقصود هنا ليس الصحراء الكبرى الموجودة منذ ملايين السنين والتي تنسع تارة وتارة أخرى تتقلص . فقبل بداية ذوبان الثلوج والجليد التي كانت تغطي شمال اوريا ، كانت الرياح المحملة بالرطوبة والقادمة من شمال الاطلسي والمارة اليوم فوق اوريا ، تمر آنذاك الى الجنوب من ذلك ، فتروى بأمطارها حوض البحر المتوسط وشمال افريقيا . وبدلا من الصحراء كانت الارض مغطاة باعشاب السافانا مثل تلك الممتدة الان في الجزء الاوسط من السودان على شواطئ النيل .

وحتى في الالف الثامن قبل الميلاد ، عندما انتهى العصر الجليدى في اوريا وبدأ الجفاف ينتشر في شمال افريقيا ، فقد امتدت مرحلة تحولها الى صحراء الاف السنين . وكانت مياه النيل آنذاك أكثر منها الان بثلاث او اربع مرات ، كذلك كان اتساع وادى النيل . وفي هذه الايام يعثرون على طبقات من طمي النيل غربى الاسكندرية في الصحراء الليبية . وفي منطقة بركة قارون في الفيوم

عثر على ادوات زراعة حجرية من عصر ما قبل الاسر ، اى يمتد عمرها الى اكثر من سبعة الاف سنة . ولكن هذه الادوات عثر عليها فى طبقات التربة التى تعلو بعشرات الامتار فوق الطبقات التى كان يبلغها فيضان النيل حتى وقت قريب ، اى قبل تشييد السدود الضخمة . اما بركة قارون المالحة المياه الان فقد كانت عذبة ، وكان منسوبها يعلو عن منسوبها الحالى بعشرات الامتار . ويبدو انها فى ذلك العصر كانت تلعب دور الخزان فى موسم الفيضان ، ثم تفرغ مياهها فى فترة التحريق ، مثلما الحال تقريبا فى بحيرة تونلى ساب فى كمبوتشيا ، حيث تمتلئ فى موسم فيضان الميكونج وتفرغ مياهها فى فصل الجفاف . وكتب المؤرخون الرومانيون ان المسافر من الاسكندرية الى طرابلس يمر فى معظم طريقه عبر الغابات والاجمات . وعلى شاطئ مصر المطل على البحر المتوسط ، المغطى بالحقول والاجمات والكروم كان يعيش عدد من البشر اكثر مما يعيش الان .

كانت مصر منذ ثمانية—عشرة الاف عام تشبه من حيث الظروف المناخية الطبيعية جنوب السودان حاليا . لكنها لم تكن تشبه منطقة السد ، بل المنطقة الاكثر ملاءمة لحياة الانسان والممتدة على حدود السافانا . فهنا نمت بوفرة الاشجار المثمرة والنباتات الصالحة للاكل ، وتوفرت الظروف المثالية للقنص وصيد الاسماك .

ويبدو ان سكان جنوب السودان ومصر القدماء كانوا على درجة واحدة من التطور ، وتحلوا بمميزات بدنية وذهنية متماثلة تقريبا . فلماذا بقى فريق منهما على مستواه السابق ولم يتحرك الا قليلا تحت تأثير القوى الخارجية لمجتمع متقدم ؟ ولماذا استطاع الفريق الاخر ، بعد استيعاب بدايات الرعى والزراعة ، ان يقيم بعد ذلك

واحدة من اعظم الحضارات فى تاريخ البشرية ؟
اننا لم نتعلم بعد كيف نقدر تأثير تغير الظروف الطبيعية على
تطور المجتمع ولا كيف نقارن بين آثار الكوارث البيئية وآثار القلاقل
الاجتماعية-السياسية . لقد تخلى العلماء الجادون منذ أمد طويل
عن مفهوم «الحتمية الجغرافية» ولكن ، ألم يظهر فى المقابل خطر
تجاهل العوامل الطبيعية او التهوين من شأنها ؟ وكيف لا نأخذ
بعين الاعتبار ، عند الحديث عن مولد الحضارة فى مصر ، تأثير
التناقض المستمر للشريط الزراعى واماكن الصيد والمراعى ومناطق
جمع الثمار البرية على التجمعات البشرية التى القت بها على ضفاف
النيل لعبة الجغرافيا مع التاريخ ؟

لقد كان على الانسان كى يعيش ان يرفع مستوى عمله الى
درجة اعلى فينتقل الى ممارسة الزراعة ، ثم بعد ذلك الى بناء نوع
ما من منشآت الرى . ولولا الجفاف لما كان فى الغالب ثمة حافز
لذلك الجهد الذى اثمر واحدة من اعرق حضارات الدنيا . بيد انه
لولا النيل بالطبع لما توفرت الظروف لذلك الجهد ولثمار ذلك
الجهد .

وهناك فرضية تدعى ان قبائل الرعاة التى دفعها الجفاف الى
شواطئ النيل هى التى مارست الزراعة فى دلتا النيل وليس اهل
الارض الاصليين . ولكننا اذ نعرف مدى صعوبة ومشقة استقرار
قبائل الرحّل حتى فى الازمنة الحديثة والمعاصرة لا يسعنا الا ان
نشك فى قدرة قبائل الرعاة والصيادين على «اختراع» الزراعة فى
فترة تاريخية قصيرة .

اننى لا اسعى الى التفرد والاصالة فى وضع هذا السؤال والاجابة
عليه . فعلماء الانثروبولوجيا والتاريخ يجمعون على ان الوسط المعيشى
فى جنوب السودان كان جد مناسب للانسان . ومنذ قرابة مائة عام

كتب العالم الروسى ا . ن . كلينجين فى مؤلفه «بين آباء الزراعة لشعوب الشرقين الادنى والاقصى» يقول بلغة وتعبيرات ذلك العصر: «ينبغى ان نرجع سبب هذا التخلف فى النمو والثقافة قبل كل شىء الى غياب الدافع الى العمل المستقر المنتظم والاستقلالية . فالطبيعة نفسها لم تكن بالنسبة للانسان البدائى وسطا تربويا متماسكا بما فيه الكفاية ، اذ انها لم تشجعه على الكفاح ، وعلى التعاون ، وعلى الكد . . . فما الداعى لبذل الجهد الشاق وشحذ الهمة اذا كان كل شىء متوفرا وكأنما من تلقاء نفسه ، بل وبوفرة فى كثير من الاحيان . كانت الفاقة الدائمة المستمرة بلا انقطاع والضاعظة مثل مكبس يعمل بضغط معتدل ولكنه مستمر ويحث على التقدم فى العمل والفكر ، كانت تلك الفاقة مجهولة لديه . . .»

وبعد كلينجين تم التوصل الى اكتشافات جديدة تتعلق بحياة الانسان الاول ، بما فى ذلك فى مصر ، وبظروف معيشته وادوات الانتاج التى استخدمها . ولكن الصورة التى رسمها العالم الروسى تبدو فى ملامحها العامة مقنعة . فالظاهر ان ذبول السافانا التدريجى ، ونقصان مياه النيل ، والتدهور البطئ للوسط المعيشى ، اصبحت «مربيا» جيدا للمصرى الاول . وكان على الانسان ، لكى يعيش ، ان يلجأ الى العمل المعقد ، متكيفا مع الطبيعة ومغيرا من الظروف الطبيعية والا تعرض للهلاك . وفى ظروف مصر كان لا بد ان يكون العمل جماعيا ، وكذلك ارادة البشر فى كفاحهم ضد الطبيعة . ان هذه الفرضية ، ببساطتها وقوتها الاقتناعية ، تستميل الكثير من المؤيدين ومن بينهم اشخاص ذوو اسماء كبيرة . غير انها اذ تجيب على سؤال واحد تثير اسئلة اخرى . نعم ، لقد وضعت الطبيعة امام الانسان الاول تحديا ، وقبل هو هذا التحدى . غير انه حتى لدى افضل المربين نجد تلامذة بلداء . فلماذا اتضح ان

هؤلاء «التلاميذ» على درجة من الصلابة وقوة العزيمة والموهبة والتنظيم بحيث استطاعوا ان يستوعبوا «الدرس» ؟ ولماذا لم يهلكوا أو ينقص عددهم على الاقل الى مستوى مجموعة من السكان الذين تكفى ارض وادى النيل المتناقضة المساحة لاشباع احتياجاتهم البسيطة ؟ ولماذا استطاع الانسان البدائي ان يقدم «ردا» على هذا «التحدى» فى ذلك العصر التاريخى بالذات ؟ ألم تولد فى ذلك الزمن تقريبا حضارات اخرى فيما بين نهري دجلة والفرات وفى وادى السند ؟ ولماذا لم يستطع سكان بدائيون آخرون فى عهود أخرى وفى مثل هذه الظروف ان يردوا على مثل هذا «التحدى» ويستوعبوا «درس» الطبيعة ؟

لقد حدث الانتقال الى الزراعة وتربية الماشية — مثله مثل كافة التحولات الكبرى فى تاريخ البشرية — باعتباره ثورة من اكبر الثورات وعصرا من العصور المفصلية فى تطور المجتمع البشرى ، حدث نتيجة جملة من الظروف التى قد لا يكون من الممكن حصرها فى نطاق العلاقة السببية البسيطة فحسب . ولن يمكن الا بجهود الباحثين الشاقة كشف النقاب عن واحد من الاسرار الدفينة لمولد الحضارة ، عن سبب ظهور العمل الجماعى والارادة الجماعية لتطوير هذا العمل عند الانسان القديم .

والى ان يحين ذلك سوف نكتفى بالفرضيات .
وهكذا فقد تحول المصرى القديم الى الزراعة وتربية الماشية ، مما أحدث انقلابا فى حياته كلها وأدى الى تطور سريع فى الحضارة . وسوف نستشهد مرة أخرى بكلينجين الذى يشدنا اليه لا بانتقائه للحقائق فحسب ، بل وبخياله الفنى الذى قد لا يكون أقل اهمية بالنسبة لاعادة تركيب صورة العصور الغابرة :
«مضى الزمن ، واخذت تتسع رقعة الاراضى المزروعة ، وتكاثر

البشر ، ونمت المبادرة الاجتماعية . واصبح لمبدأ التعاونية أهمية
وابعاد لم يسمع بها من قبل .

وجرى في كل مكان شق المصارف ، وشيدت منشآت كبيرة
للتحكم في الفيضان الدوري لمياه النيل ، وتساوت مسطحات الحقول
بفعل الطمي المترسب دوريا اثر فيضان النيل . واجتشت الغابات
واقطعت اشجارها وأزيلت الاحراج . وشتت حرب شعواء على مملكة
البرمائيات ، فهجرت مصر التماسيح وافراس النهر والثعابين الكبيرة .
وحولت المستنقعات المجففة الى مراعى ربيت فيها قطعان ضخمة من
الثيران والمعيز والغنم . ولاول مرة وحدت فكرة التعاون بين الوحدات
المتراصة المتسمة بطابع الدويلات ، والتي ربما كانت تشكل في
البداية اتحادات بين امارات اقطاعية صغيرة . واحتفل الشعب في
حرارة بصباه الاول ، وادرك بوضوح مدى اكتمال نموفه الاصيل
وصورة ارادته الجماعية ، وانتصاره الاول على الوسط المحيط الذي
حوله من مستنقعات برية عطنة وترسبات غرينية مليئة بالحفر العميقة
ومكتظة بالنباتات البرية المختلفة الى سطح مستو من حقول الحنطة
والمراعى الكثيفة الاعشاب» .

ولم تتخلف عن هذه النهضة الجوانب الروحية في الانسان .
«ان عبادة اوزيريس التي تشكلت في عصور ما قبل التاريخ
والقائمة على عبادة النيل بوصفه مصدر جميع الخيرات في مواجهة
روح الصحراء الشريرة الجبارة ، بدت منذ الايام الاولى للتاريخ غير
مكتملة . وسرعان ما تطلبت وجهة النظر الدينية صيغة اكثر عمومية
وذات محتوى اعظم واعمق ، فتحولت الى عبادة حورس المنير ،
اله الشمس ، مصدر كل الوجود ، وباعث كل حياة وفرحة وحقيقة
على ظهر الارض ، وصورة الخلود في العالم الاخر . لقد ادرك
الشعب قوته الروحية . . . وتمشيا مع حضارته العريضة المزدهرة اقام
ابا الهول العظيم . . .

ولكن رغم كل جاذبية الصورة المرسومة لذلك الرخاء فلا ينبغي ان ننسى لحظة واحدة انه قد دفع ثمنا لها كفاح طويل ضد ذلك النيل نفسه وتلك الصحراء ذاتها ، اللذين تستمد البلاد بدايتها من تفاعلها . ولم يكن من الممكن الاسترخاء لحظة واحدة والاستكاثرة الى حصاد المعركة التي تم كسبها» .

ليس النيل هو الذى جعل من مصر مصرا ، بل هو الجهد البشرى الجماعى جيلا اثر جيل والى سنة تلو اخرى . ولم تكن مياه النيل سوى مادة بناء الحضارة مثلها مثل طمى النيل والشمس . ان الحياة مستحيلة بدون الماء ، وهذه بديهية اصبحت رائجة . ولكن الحضارة على ضفاف النيل هي هبة الفلاحين ومهندسى الري المصريين .

وتضاريس الارض المصرية الراهنة هي من صنع يد الانسان بنفس القدر تقريبا الذى صنعت به تضاريس هولندا . وقد شارك الانسان فى تشكيلها هو والمياه والتربة والشمس ، وكان عنصرا ايكولوجيا عظيما لم يخل بانسجام الطبيعة ، وانما كان جزءا من اللاصحراء فى المجابهة الازلية بين الصحراء واللاصحراء .

وبتطور الريّ تغيرت البيئة الطبيعية ايضا . ففي العصور القديمة ، عندما كانوا يستخدمون نظام ريّ الحياض ، كانت مصر المأهولة تتحول اثناء فترة الفيضان الى بحيرة هائلة تمتد الى الف كيلومتر ، وبالاخرى تتحول الى خليج عذب ضحل المياه من خلجان البحر المتوسط . ووسط هذا الخليج تمتد على مسافات متباعدة الجسور والسدود ، وترتفع الجزر التى تقوم عليها المدن والقرى ، وذلك ما كان يميز مصر التاريخ عن مصر ما قبل التاريخ . اما الان ، وبعد ان تحولت مصر كلها الى نظام الريّ الدائم ، فترى عند تدفق المياه مستطيلات الحقول المنمقة .

وإذا استثنينا فترات الفيضانات فإن المنظر الطبيعي الريفى لمصر ظل على ما هو عليه على الأقل منذ عهد هيرودوت . وحتى لا نرجع الى التاريخ القديم سنستشهد بكلينجين مرة اخرى :

«نحن فى الرحاب الواسعة ، نحن فى ملكوت النهر التاريخى القديم ، نحن على صدر وليده تماما ، فأمامنا دلتا النيل . ان البصر لمأخوذ ومفتون بهذا المنظر الخارق . هذا استواء لحدود له واتساع ، والبصر لا يعلق بأقل ربوة ولا بأتفه تلة من طرف السماء الى طرفها . ان هذا السهل يسيطر علينا ، وتشعر بنفسك معزولا فيه بصورة مذهلة ، تشعر وكأنك منفصل بصورة ما وسط هذا السهل المستوى بلا حدود بصرامته الهندسية التى لا ترحم . . . انه ليس سهبا وليس مرجا ، وأمامه تتضاءل كل سهولنا الغربية حتى أكثرها اتساعا ، اذ انها التصقت كشرائط متعرجة بانهارها المطعمه ومضت تتبع تعرجاتها وتفرعاتها النزقة باذعان ، اما هذا الوادى العملاق فقد انبسط ممتدا فوق الافق المنظر كله .

دلتا النيل هى انتصار جلىّ لحضارة عمرها آلاف السنين . فلتنظروا الى حقول الغلال المتساوية هذه وهى تتناوب بلا نهاية ما بين القمح الرمادى الازرق الفاخر والشعير ، بهذه الخطوط المتموجة المذهلة للسنايل الطويلة السفا . لتنظروا الى هذه الاشرطة الخضراء المتساوية والتى تبدو وكأنما رسمتها ريشة ماهرة والمتموجة بشتى درجات الالوان ، اشرطة حقول مختلف انواع البرسيم والفصفاصة (البرسيم الحجازى) والعديسة (بسلة ابليس) والقول والعدس والحمص وعشب الجمل وكثير غيرها من المزروعات التى لا حصر لها» .

وتتوقف نظرة السائح المفتونة الان مثلما توقفت آنذاك على نبات القطن الوليدة المرتبة بصورة هندسية منتظمة كأنما قسمت المسافات بينها بخطط ، وعلى اعواد القصب المجاورة وقد انتصبت

كالجدار العالى ، وعلى قطع ارض صغيرة سوداء مظفأة ، مهياة
لزراعة الارز وقد قسمت بصورة متساوية كأنما بالمسطرة . ويهتف
كلينجين : «من هذا المهندس الرائع الذى سوى هذا السهل الخصب
المثالى بهذه الصورة ؟ اى زحافة سحرية مرت على جميع هذه
القطع الصغيرة المزروعة التى لا حصر لها فأضفت عليها كل هذا
التنوع وكل هذا الثراء فى الاشكال ، وكل هذا التشابه والتوحد من
حيث طول النباتات وغزارتها وامتلاؤها ؟ . . . ان هذه الزحافة هى
ابداع الفلاح المصرى الكادح الذى لا يعرف الكلل منذ مائة قرن ،
هذا الابداع الاقدم بما لا يقارن من كل تاريخ الفراعنة الاحتفالى
والمدون بنقوش الهيروغليفات» .

وفى كل مكان يدركه البصر ترى الحقول مغطاة بشبكة كثيفة من
البحور وترع الرى الكبيرة والصغيرة . فالرياحات الملاحية الكبيرة
تجلب الماء من بعيد ، من الشريان الرئيسى : نهر النيل الفياض .
ومن هذه الرياحات الرئيسية تتفرع الى جميع الاتجاهات بحور أقل
درجة ، ومنها تتفرع بدورها ترع تمتد بالمياه قنوات الرى الصغيرة
كفروع الاغصان الدقيقة .

يقول الرحالة السابق : «لهذا الغرض تخدم منذ القدم فى مصر
شتى الادوات من مختلف التصميمات والانواع . فهذا هو الشادوف
القديم . . . وهذه هى الساقية التى لا تقل عنه قدما . . . ان هذا
الاقتصاد هو «مائى» فى طبعه الغالب . وهنا لا ينتظرون المطر
المغيث انتظارهم لنعمة . وهنا تجرح اذن الفلاح الروسى عبارة
«الحمد لله ان المطر لم يسقط تقريبا ، والا لساءت الامور» .
واقراً ماكتبه الرحالة الروسى كلينجين ، وأراجع انطباعاتى الخاصة
واقارنها بملاحظات الرحالة وأفكر فى العنصر او الملمح الذى يمكن
ان اضيفه الى تلك الالوان الحية النضرة للوحته . ربما يمكن ان

نضيف الى تلك اللوحة مضخة مياه تعمل بالبتزين او بالكهرباء وتقطع على شاطئ قناة الري ، او الجرار الذى اخذ يظهر أكثر فاكثر فى حقول مصر . وربما أضفنا ايضا الطنبور (لؤلؤ ارخميدس) الذى لم يره ارخميدس آنذاك فى الدلتا ولكنه — اى الطنبور — خدم الفلاح آلاف السنين مع الشادوف والساقية ومازال يخدمه الى الان . وربما أضفنا ايضا مزارع الورد والياسمين لانتاج زيوت العطور . ولا شىء آخر ؟ يبدو ان هذا كل ما هنالك .

لقد تغيرت صورة الحقل المصرى خلال تاريخه الطويل . توطنت فيه المحاصيل الامريكية — الذرة والطماطم والبطاطس — جنبا الى جنب مع المحاصيل الاخرى : الذرة العويجة الافريقية والبصل والبطاطا العسلية . واصبح القطن الطويل التيلة — الذى كان ملك القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين — مثله مثل بقية المحاصيل ، بل أخذت تزاخمه محاصيل أكثر دخلا مثل الفواكه والخضروات ومحاصيل العلف وخاصة البرسيم . بيد ان ذلك كله ليس سوى تغيير فى التفاصيل لا يمس الجوهر . واما الجوهر فهو نظام الري الموحد من اسوان حتى البحر الابيض المتوسط . ومعروف قسم اوزوريس فى مصر القديمة : «انا لم لوث مياه النيل ، ولم اقطع مجراه فى وقت الحاجة ، ولم أسد القنوات» . ان كل هذه الجرائم لا يمكن ان تكون من فعل الفلاح ، والاقرب الى الصواب ان هذا القسم كان اشبه «بقسم ابى قراط» يؤديه مهندسو الري فى مصر الفرعونية .

ونظام الري هو ثمرة جهد مئات والاف وملايين البشر . بيد ان البشر ليسوا نحلا او نملا ، ولا تحركهم الغريزة بل العقل ، وعقل مهندس الري هو الذى كان المرشد فى بناء السدود وشق القنوات وتوزيع المياه . لقد كان مهندس الري فى مصر القديمة

على ما يبدو يحتل في الحياة الاجتماعية منزلة لا تقل عن منزلة المحارب والقائد العسكري . وكانت القدرة على انشاء نظام للرى وضمان تشغيله تضىفى على القائد فى عيون الشعب صفات خارقة . وربما كان الهة مصر القديمة الرئيسيون : رع ، اوزوريس ، بتاح ، حورس ، الذين خلعت عليهم وظائف التصرف فى قوى الطبيعة او الاشغال العامة ، ربما كانوا فى زمن ما فراعنة مهندسين حقيقيين او كهنة متخصصين فى شئون الرى ، ثم تحولوا الى الهة بعد الممات .

وثمة خصيصة أخرى مهمة .

ان مصر لم تعرف الملكية الخاصة للارض بوصفها الشكل الرئيسى للملكية لا فى الماضى القديم فحسب ، بل وحتى حديثا ، الى نهاية القرن التاسع عشر ، ولم تعرف نظام الملكية الخاصة للمنتج (اى ملكية عبيد الارض) بصفتها الشكل المحدد لعلاقات الانتاج . ففي ظل نظام الرى المركزى كان لا بد من تجميع جهود المجتمع كله . وتطلب الانتاج ، الذى كان زراعيا فى اساسه ، جذب العمل الاسرى والعشائرى ولكن كأجزاء فى العمل الجماعى العام ، لان شخصا بمفرده ، او حتى عشيرة بمفردها ، لم يكن بمقدوره او بمقدورها شق قناة وبناء سد وتشيد خزان مياه . وتطلب الامر وجود ادارة للاشراف على هذه الاعمال ولتعبئة الموارد . وفى مرحلة ما تحول الجهاز الذى تكوّن فى مصر من اجل تنظيم الانتاج ومن اجل ادارة المجتمع ، الى جهاز فوق المجتمع ، الى سلطة دولة ، الى دولة اصبح تنظيم الانتاج بالنسبة لها مجرد وظيفة ثانوية بالاضافة الى الوظيفة الاساسية الا وهى استغلال الكادحين . غير ان هذا الاستغلال كان فى ظروف مصر استغلالا جماعيا فى المقام الاول ، وفى ظله كان الجزء الاكبر من المنتج الاضافى ، الناتج

اساسا من عمل الفلاحين ، يوزع من اعلى الى اسفل ، من قمة الهرم الاجتماعى التى يمثلها الفرعون او السلطان الى الجزء الاوسط . ومن الجائز ان عملية نشوء الطبقات فى عصر ما قبل الاسر ، عندما بدأ المصريون يشيدون منشآت الرى الاولى البدائية ، قد ترافقت مع تبلور القمة العشائرية ، وبعد ذلك سارت عملية انشاء «الجهاز الادارى الهندسى» لمزيد من التوسع فى اعمال الرى فى وقت واحد مع عملية نشوء الطبقة الحاكمة . ولكننا لا نملك وثائق او مصادر تؤكد ذلك .

وفى تاريخ مصر الموحدة انهارت ملكية الدولة العليا للارض مرتين ، على الاقل فيما بعد الميلاد . وكانت المرة الاولى فى العصر الرومانى البيزنطى ، والمرة الثانية فى العصر الحديث والراهن . ففى بداية القرن الرابع الميلادى حدث تقلص شديد فى اراضى الدولة وتوسع فى الملكية الخاصة للارض فيما يبدو بتأثير الاوضاع السائدة فى الامبراطورية الرومانية . وسارت عملية الانتقال الى الاقطاع فى مصر فى الفترة ما بين القرن الخامس والسابع باشكال تشابهت نوعا ما مع ما حدث فى الاقاليم الشمالية والغربية من الامبراطورية البيزنطية . فظهرت فى مصر اقطاعيات كبيرة للاستقراطية اليونانية . ولكن ألم تناقض هذه العملية المنقولة من الخارج تناقضا جذريا مع متطلبات الاداء الوظيفى الطبيعى لمجمل نظام الرى فى مصر ؟ ألم يكن ذلك أحد التناقضات الحاسمة بين مصر وبيزنطة ؟ (علاوة على النهب الضريبى المباشر لمصر من قبل القسطنطينية وملاحقة الاقباط المصريين) ، ذلك التناقض الذى يفسرون به سهولة «فتح» العرب لمصر فى القرن السابع الميلادى ؟ فالتشريع الاسلامى قد وضع الملكية العليا للاراضى فى ايدى الخليفة ، اى انه اعاد العلاقات الزراعية الى وضعها التقليدى .

وكان بإمكان الخليفة ان يحصل على الموارد عن طريق موظفيه وذلك بتسليم الارض للفلاحين ليزرعوها . والامر الاكثر شيوعا كان تملك الارض تملكا مؤقتا ، وبالاحرى تسليم الارض لاحد ممثلى الاستقرائية الاقطاعية لادارتها مقابل تقديم الخدمات العسكرية والمدنية او الدينية للدولة . وكانت هناك ايضا «اراضى الوقف» الموقوفة على اعمال الخير وللاغراض الدينية . ولم يكن هناك الا جزء يسير من الاراضى مملوكا تملكا خاصا . وساعد عدم وجود التملك الوراثى للارض على تجنب ظهور الاستقرائية الاقطاعية الاوربية الطابع فى مصر . ولم يبدأ انتشار الملكية الخاصة للارض فى مصر الا فى بداية القرن التاسع عشر بتأثير من الغرب ، بينما لم يصبح لها سند من القانون سوى فى نهاية القرن الماضى .

لقد كتب الكاتب الالمانى اميل لودفيغ عن مصر : «فيما يتعلق بالمصريين يمكن القول ان القنوات هى ملحماتهم ، والسدود هى دراماتهم والاهرام فلسفتهم» .

وقد ادرك لودفيغ عن حق ان المنشآت المادية البحتة تشغل مكانة ضخمة فى حياة الشعب المصرى الروحية سواء فى العصور القديمة ام فى الوقت الراهن .

ان طول القنوات فى مصر يبلغ عشرات الالاف من الكيلومترات ، ولو صوّت السدود صفا واحدا لبلغ طولها آلاف الكيلومترات .

وعلى نهر النيل ، سواء فى مصر ام فى السودان ، شيدت عدة سدود . وبعض هذه السدود يقوم بتخزين المياه والبعض الاخر يقوم فقط بتوزيعها . وقبل ظهور السد العالى كانت هناك ثلاثة سدود تخزن مياه البحيرة الصناعية : سد اسوان القديم الذى كان خزان مياهه يحجز 5 مليارات متر مكعب من المياه ، وسد جبل الاولياء فى السودان الواقع على بعد حوالى خمسين كيلومترا جنوب الخرطوم

والذى يحجز ٣ مليارات متر مكعب من المياه ، وسد سنار على النيل الازرق بالقرب من العاصمة السودانية ، ويحجز خزانة مليار متر مكعب من المياه .

وعلى نهر النيل فى مصر قامت قناطر توزيع المياه فى اسنا ونجع حمادى واسيوط وديروط واللاهون وقناطر محمد على جنوب القاهرة . وهذه القناطر توزع المياه على الرياحات والترع الكبرى .

ومع حلول العقد الخامس من هذا القرن بدا وكأن الصراع الازلى بين الالصحراء والصحراء ، بين طاقة الانسان الحية وقوى الرمال المميتة قد اشرف على بلوغ منتهاه . ففى ظل السدود القائمة لم يكن فى وسع النيل ان يروى سوى ٦ ملايين فدان (الفدان يساوى ٠,٤٢ من الهكتار) او ما يعادل ٩,٣ مليون فدان اذا راعينا ان الارض تعطى محصولين او ثلاثة فى السنة . ولكن السدود القائمة آنذاك لم تكن تحمى مصر لا من الفيضانات العالية او نقص المياه . وكاذ متوسط تصريف النيل فى مصر ٨٤ مليار متر مكعب سنويا ، يرتفع فى بعض السنوات الى حده الاقصى ١٥٠ مليار متر مكعب ، ويهبط فى سنوات الجفاف المدمرة الى ٤٠ مليار متر مكعب .

وتحتم على مصر ان تبذل آخر ما فى وسعها لتقتطع من الصحراء بعض مئات الالاف من الفدادين لتحويلها الى حقول وبساتين . كانت مصر بحاجة الى السد العالى ليستمر وجودها الطبيعى أتذكر شهر يناير ١٩٦١ . كنا نستقل قطارا ينبعث منه

الصرير والقرقعة ، والغبار يغطى مقصورتنا ، ورحنا نتجادل طوال الليل والنهار ، وبين الحين والحين نهرح الى النوافذ لنلتقط بأعيننا صورة المناظر المصرية ومياه النيل الرمادية وخضرة الحقول البهيجة وخطوط الرمال الصفراء المحدقة بوادى النهر ، والقباب الشفافة

للكنائس القبطية ، والمآذن التي لا حصر لها وهي تعلو فوق القرى
العديدة ذات اللون الرمادي المائل الى البنى . كنا طلبة فى جامعة
القاهرة من جنسيات مختلفة : روس ، وإيطاليون والبانيون ، وألمان ،
ولبنانيون ، ويوغسلافيون ، وسويديون ، وهولنديون ، ومعنا بالطبع
مصريون ، وكنا مسافرين الى أسوان . وراح المصريون يغنون «قلنا
حنينى وادينا بنينا السد العالى . . .» .

وفى أسوان اخلدت هذه المجموعة المتعددة الاقوام الى السكون
قليلا وقد سحقت وضاعت فى تلك الدوامة البشرية الهائلة . كان
يجرى بناء عظيم ، بعشرات الالاف من العمال ، بدوى الالات
والكلمات العربية — الروسية ، والسباب ، والغبار ، والطاقة البشرية
المتفجرة والصراخ والنجاحات الاولى . وكان الرئيس جمال عبد
الناصر قد ضغط منذ سنة على زر فى لوحة التحكم مفجرا اولى
الصخور الجرانيتية فى طريق قناة التحويل . اما الان فقد امتد العمل
ليشمل مساحة اوسع . وكنت انا الوحيد من بين افراد المجموعة
الذى رأى مشروعا مشابهها — فقد كنت مراسلا لجريدة «فولجسكايا
كومونا» السوفييتية فى موقع بناء محطة كوبيشيف الكهرومائية —
ولذا اخذت احاول ان اشرح كل شىء واوضحه لزملائى منتفخ
الصدر بعزة الشباب . ثم ركبنا الزوارق الشراعية لتنتزه فى النيل ،
واستحمنا فى مياهه رغم تحذير الاطباء ، ثم زرنا الاسطورة :
معابد فيلة الغارقة الى وسطها فى مياه بحيرة السد القديم . ثم
طريق العودة وقد امتلأت بادراك انك رأيت شيئا عظيما ، هائلا .
وعدت لزيارة المكان بعد خمسة عشر عاما . وجدت اسوان
مدينة من مدن الريف الهادئة التي يقصدونها للاستجمام ، والحدث
الرئيسى فى حياتها الريفية آنذاك كان تصوير فيلم «جريمة على
النيل» للكاتبة آجاثا كريستى . وكانت هناك عدة مصانع قد

شيدت ، ولكنها ظلت على هامش حياة اسوان . وفي محطة السد كان يعمل بضعة خبراء سوفيت من المتخصصين فى تصليح وصيانة التوربينات . وكان الموقع محميا بمدافع مضادة للطائرات وصواريخ ، ويجوارها نام الجنود .

كانت تلك سنوات الحملات الهستيرية المهينة المتزايدة التى شنها الرئيس السادات على الاتحاد السوفيتى . كان يحرق جسوره مع موسكو ويشق طريقه نحو القدس ، نحو كمب ديفيد . لقد ارادوا ان يمحوا من اذهان المصريين سنوات تعاوننا المشترك ، وكم كذبوا . . . ولكن اسوان . . .

على شاطئ البحيرة يقوم تمثال الصداقة السوفيتية المصرية الذى يشبه بخطوطه زهرة لوتس ضخمة . وفى داخل المبنى تشع الاحرف الذهبية من كلمات تشيد بهذه الصداقة .

ولم يجرؤ احد حتى فى ذروة الحملة الموتورة على الاتحاد السوفيتى ومحاولات النيل من السد العالى ان يرفع يده على زهرة اللوتس الاسوانية الكبيرة .

لقد ردّ لنا المصريون دينهم بالكامل مقابل سد اسوان . ولكن لا ! ان بناء السد العالى لم يكن عملية بيع وشراء معدات بالتقسيط مع تأجيل السداد . ولم تكن عملية نقل المعارف التكنولوجية على طريقة "know-how" حسب المصطلح الانجليزى . بل كانت عملية تبادل روحى وعملى سام ، رغم صعوبته ، بين شعبين جد مختلفين ، عملية ابداع مشترك فى اكبر واهم مشروع فى تاريخ مصر . كانت عملية اتحاد سياسى وان كان مؤقتا . ولم يكن العمل المشترك يسيرا ، ولا البحث عن سبل للتفاهم والتعاون ، ومع ذلك تم تجاوز كل شىء وتشيد البناء ! ومن الممكن محو الكثير من الذاكرة البشرية ولكن لن ينسى احد ، ولا حتى

الاعداء ، ان السد العالى فى اسوان هو ثمرة التعاون بين شعبينا .
دعونا لا نظن ، كما يعتقد البعض فى سذاجة ، ان التعاون
السوفييتى المصرى كان شارعا باتجاه واحد . فالقضية لا تنحصر فى
تسديد قرض بناء السد العالى . ودعونا جانبا من الاستناد الى
مبادئ سياستنا ، فقد كان التعاون الاقتصادى والسياسى متفقا لا
مع مصالح مصر فحسب بل ومصالح الاتحاد السوفييتى ايضا .
ودور السد العالى فى هذا التعاون لا يقدر بثمن . مع العلم بانه لم
يكن من السهل على الاتحاد السوفييتى ابدا توفير الموارد والامكانيات
للقيام بهذا المشروع الضخم خارج الحدود .

لقد قال لى الكاتب الصحفى المصرى المعروف لطفى الخولى
فى عام ١٩٧٦ : «كنت اقرأ محاضرات فى الولايات المتحدة
عن الوضع فى مصر ، فسألنى احد موظفى الخارجية الامريكىة
«ما الذى نستطيع نحن الامريكيين ان نفعله فى مصر لتترك اثرا
كذلك الذى تركه الروس الذين شيدوا مع المصريين السد العالى ؟» .
فأجبتة : «ساعدونا على بناء سد عال ثان» .

كان لطفى الخولى يمزح . فلن يبنى فى مصر سد عال ثان ،
فجميع السدود الاخرى — كمنشآت للرى — هى سدود ثانوية وقليلة
الشأن . والسد العالى هو قمة ترويض النيل وثمره جهود بذلها الشعب
المصرى على مدى آلاف السنين . وكان لا بد ان يبنى هذا السد
فى كل الاحوال . فبدون الاتحاد السوفييتى كان سيبنى لا فى
الستينات — السبعينات ، بل فى الثمانينات — التسعينات او فى
القرن الحادى والعشرين فى نهاية الامر . بالطبع كانت مصر ستدفع
ثمنا اجتماعيا — اقتصاديا باهظا لهذا التأخير ، ومع ذلك كان السد
سيبنى حتما ، لان مصر لا تستطيع ان تعيش بدونيه . بيد ان واقع
مشاركة السوفييت بالذات للمصريين فى بنائه سيقى الى الابد

لؤلؤة تعاوننا المشترك واستثمارا انسانيا وسياسيا للاتحاد السوفيتى فى مصر رغم جميع تقلبات الدهر .

لم يكن بناء السد العالى من حيث عدد العمال اضخم مشروع بناء فى تاريخ مصر . فقد شارك مائة الف شخص فى بناء هرم خوفو على مدى ثلاثين عاما . لكن السد العالى وهرم خوفو اشبه بالاصحراء والصحراء فى مجال الابداع البشرى .

لقد عقدت المقارنات بين السد العالى وهرم خوفو . فكلمتا المنشأتين تبهر العقل بضخامتها وابعادها . ومثل هذه المقارنة جائزة بالنسبة لمصر ، اما على مستوى البشرية فليست فى محلها ، اذ سوف تكون مشروعات مائتة بل وتوجد بالفعل منشآت اضخم واعظم من السد العالى .

ان السد العالى هو وليد العقل البشرى .

والهرم شىء رهيب ولده الجنون .

السد العالى شىء عقلانى من حيث الغرض منه : ان يعطى الماء والطاقة للبشر .

والهرم شىء لاعقلانى . لقد شيد لاشباع الغرور المتضخم لدى انسان فان واحد اراد ان يكفل لنفسه الخلود .

السد العالى رمز الحياة .

والهرم رمز الموت .

وليكن ان «الاهرام هى آثار العصور الخوالى وتحف فنية واسرار لم تكشف بعد للهندسة القديمة ، وتجسيد مادى للدين والفلسفة لدى المصريين القدماء» . اننى موافق . وانى على استعداد لان اتملى مبهورا زاويا الاهرام على خلفية السماء الزرقاء وابدى اعجابى بعظمة اشكالها وبساطتها ووضوحها . وبوسعى ان اتصور بريقها الاسطورى الخيالى فى تلك المجموعة الرائعة المؤلفة من المعابد

وابى الهول ، عندما كانت ماتزال بعد مكسوة بالرخام الملون المصقول المغطى بالنقوش الهيروغليفية (مكتبة كاملة من النقوش ! ويشهد الرحالة بان ما تبقى منها حتى القرن الثامن الى العاشر الميلادى كان يكفى لونقل الى الورق لملء عشرة آلاف صفحة !). وقد انعقد لسانى امام الفكرة الهائلة ، الكونية تقريبا ، فكرة تأليه الذات ، وامام الخيال الجهم الذى لا يعرف حدودا ، والرغبة الجامحة فى ان يأخذ الفرعون معه الى العالم الاخر كل الثروة والسلطة وجميع الخيرات المترفة التى كان يملكها فى الدنيا .

لقد اهلك الفرعون خوفو على مذبح جنونه الشيطانى الشره القوى الحية لجيلىين من المصريين وضحى باعداد لاحصر لها وبدد موارد الدولة وكل ثروات المعابد ، بل وحسب رواية هيرودوت ضحى بابنته الجميلة فجعل منها بغيا لتجمع الموارد اللازمة لبناء الهرم . وكان صفير الاسواط فى ايدى الحراس يتجاوب مع اناشيد الكهنة وصلواتهم . كانت تجرى عملية غسيل مخ للرعايا ، كما نقول بلغة اليوم ، حيث كانت القوة وحدها غير كافية ، بل يجب اقناع الناس بانهم يعاونون هذه الالام لا من اجل الفرعون البشر ، بل الفرعون الاله ، وانهم يموتون لا فى سبيل فكرته الجنونية بل فى سبيل المثل العليا ، اى من اجل انفسهم كما زعم لهم .

وتجسدت الفكرة المستحيلة فى بناء من الحجر ، واحس الفرعون المحتضر بالظفر وقد اقنع نفسه والاخرين بطبيعته الالهية .

وسخر التاريخ منه . . . فقد نهبت مقبرة خوفو ، مثلما نهبت معظم مقابر الفراعنة الذين حكموا مصر خلال ثلاثة — اربعة آلاف سنة ، باستثناء مقبرة توت عنخ آمون التى نجت بالصدفة . فقد تسلل الى مقبرة خوفو اناس صفيقون ولكنهم ذوو عقل دنيوى راجح ، والاقرب الى الظن انهم هم نفس الكهنة والمهندسين الذين اشرفوا

على البناء ودبروا شتى الفخاخ الماكرة والممرات الخفية ليقعوا فيها
الآخرين . وهل كان يعينهم فى شىء غرور الفرعون الراحل الجنونى !
وهل كان يعينهم العالم الآخر ! لقد كان التحرق الى الثروة والمتع
فى هذا العالم لا فى العالم الآخر هو دافعهم .

ولكن سخرية التاريخ تكررت . فقد شيد الفراعنة الجدد اهرامات
جديدة ومنشآت لا ضرورة لها تضم خمسة آلاف غرفة ، واغلقوا على
التحف الفنية اغطية التوايت الحجرية . وحصل للصمص الجدد
على الكنوز التى جمعها الفراعنة للحياة الآخرة .

وربما كان بوسع هذا الجنون ان يستمر طويلا ، وطويلا جدا ،
ولكن ليس الى ما لا نهاية . لقد ذبلت مصر القديمة وافلت ، وانهدت
حيل الفراعنة . وليس بمقدورنا ، وربما لن يكون بمقدورنا ابدا ،
ان نقدم جوابا شافيا على السؤال عن سبب ذلك . اما بالنسبة لى
فلا شك عندى فى أمر واحد : ان اهدار قوى الاحياء بلا حدود
فى سبيل فكرة الموت كان أحد اسباب هلاك مصر الفرعونية .
غير اننا استطرنا فابتعدنا كثيرا عن السد العالى الدنيوى الوظيفى
الرشيد .

ولن ننسى ان هذا المشروع كان فى زمنه أكثر المشاريع الهندسية
التصاقا بالسياسة فى العالم كله .

لقد اقترح العالم الانجليزى المعروف بدراسته للنيل هيرست فى
عام ١٩٤٦ بناء سد فى اعلى النيل الابيض ، على بحيرة البرت .
لكن حكومة مصر الثورية التى وصلت الى السلطة عام ١٩٥٢
رفضت هذه الفكرة ، اذ كانت تعنى تسليم التحكم فى مياه
النيل الى ايد غربية ، هى ايدى الانجليز ، فقد كان السودان
واوغندا آنذاك ضمن نطاق الامبراطورية البريطانية . وعلاوة على
ذلك فالكمية الرئيسية من مياه الفيضان تأتى من مياه النيل الازرق .

لقد اشارت كل من السياسة والهيدروجيولوجيا الى اسوان باعتبارها المكان الامثل لبناء سد عال ، جديد . اما هيرست ، فقد اعترف ، كمهندس شريف ، في عام ١٩٥٧ ، بأن «مشروع السد العالى فى اسوان هو افضل مشروع ، فسوف يساعد على تخزين جزء كبير من مياه الفيضان القادمة من النيل الازرق وعطبرة ، حيث انه لا يمكن الا قرب اسوان بناء خزان مياه بحجم مناسب» .

فى ذلك الحين انتهت لجنة دولية مشكلة من افضل الخبراء العالميين الى استنتاج بامكانية تنفيذ المشروع من جميع وجهات النظر . وكانت فوائد المشروع بادية للعيان ، اذ سيصبح الرى مستقرا وستحصل الارض على كمية المياه اللازمة بغض النظر عن نزوات الطقس فى افريقيا الاستوائية . وستزداد الاراضى الزراعية زيادة كبيرة تصل الى ١,٣ مليون فدان ، بينما سيمكن تحويل من ٧٠٠ الف الى مليون فدان من رى الحياض الى الرى الدائم . اما محطة توليد الكهرباء فسوف ترفع توليد الطاقة الكهربائية بمقدار ١٠ مليارات كيلوواط/ساعة فى مقابل مليار كيلوواط/ساعة هى مجمل انتاج الطاقة الكهربائية فى مصر كلها عام ١٩٥٢ . وسيزداد المنتج القومى الاجمالى بنسبة الربع .

وكانت مصر بحاجة الى المال ، الى مال كثير ، الى ٢١٠ ملايين جنيه مصرى ، بل الى ٤٠٠ مليون جنيه اذا حسبنا حساب المشاريع الاضافية المكملة . وكان هذا المبلغ آنذاك مبلغا هائلا بحسابات ذلك الزمن الذى لم تكن فيه دولارات النفط والتضخم قد حولت بعد القروض الى ارقام ذات عشرة اصفار .

وكانت الاموال متوفرة لدى البنك الدولى للانشاء والتعمير ، ولكن هذه الهيئة المالية الدولية كانت تحت سيطرة الولايات المتحدة . وكانت الشروط التى ابدى البنك استعداداه لتقديم القرض على اساسها

تعنى فرض الوصاية على الاقتصاد المصرى والشئون المالية المصرية . وكان وزير الخارجية الامريكية آنذاك هو جون فوستر دالاس ، صاحب سياسة فرض الارادة الامريكية فى الشئون الدولية . كانت «الحرب الباردة» مستعرة آنذاك ، وفى معمعان تلك الحرب رفض عبد الناصر المشاركة فى ائتلاف عسكرية مثل «قيادة البحر المتوسط» و«حلف بغداد» ، وبدأ يتعاون مع الاتحاد السوفيتى واعترف بالصين الشعبية . وكان لابد من معاقبة عبد الناصر على عداوته للامبريالية ، فرفضت الولايات المتحدة وانجلترا والبنك الدولى للانشاء والتعمير تمويل مشروع السد العالى . وبدا ان مصر قد حصرت فى الركن . ولكن الموارد المالية كانت متاحة . انها اموال كسبها المصريون بعرق جبينهم وبدمائهم ، بكدهم هم واباؤهم واجدادهم ، ولكنها كانت تصب فى جيوب غير جيوبهم . لقد كانت قناة السويس تمر عبر الاراضى المصرية . وقد شقها المصريون ، ولكنها اصبحت ملكا لرؤوس الاموال البريطانية والفرنسية . ولم تكن مصر تحصل فى بداية الخمسينات الا على مليون جنيه مصرى فقط من الدخل السنوى للقناة الذى بلغ ٣٠ مليون جنيه .

كانت قناة السويس ملكا مشروعا للشعب المصرى ، وكان لابد ان تعود اليه . وفى خطابه الشهير من شرفة بورصة القطن فى الاسكندرية فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ اعلن عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس . «سوف نستخدم هذه الاموال لبناء السد ، وليمت الامريكيون بغيظهم ، فسوف نبني السد . ان شركة قناة السويس اصبحت منذ هذه اللحظة ملكا لنا» . وكانت هذه العبارات شفرة للامر الصادر لمجموعة العمليات العسكرية باحتلال جميع مباني شركة قناة السويس .

ولن نتوقف هنا عند ما حدث بعد ذلك من عدوان انجليزى

فرنسى اسرائيلى فى عام ١٩٥٦ ومقاومة المصريين له . سنشير فقط الى الانذار السوفييتى الى انجلترا وفرنسا الذى اجبرهما على وقف العدوان ثم الانسحاب من مصر فى نهاية المطاف . وتبع ذلك حصار اقتصادى فرضته الدول الغربية على مصر . واغلقت قناة السويس مؤقتا فى وجه الملاحة ، ومنيت مصر بخسائر كبيرة . وظلت معلقة مسألة من سيمول بناء السد العالى ، بل ومن الذى سيشارك فى بناء السد بتوريد الآلات والمعدات . وراحت الولايات المتحدة تبتز مصر . واعلن جون فوستر دالاس : « طالما بقيت وزيراً للخارجية فلن تحصل مصر على سنت واحد لسد أسوان » . وفى هذه المرة كذلك ، كما اثناء العدوان « الثلاثى » ظهر الاتحاد السوفييتى على ساحة الشرق الاوسط . وكان لقراره بمد يد المساعدة لمصر فى بناء السد العالى جانب اقتصادى (تقديم قروض لتغطية تكاليف الآلات والمعدات والعمال) وجانب سياسى ، اذ كانت مساعدة لبلد يناضل متحديا نظام الغرب الاستعمارى .

وفى ٢٧ ديسمبر ١٩٥٨ تم توقيع اتفاقية بين الاتحاد السوفييتى والجمهورية العربية المتحدة يمنح الاتحاد السوفييتى بموجبها قرضا طويل الاجل لمصر قيمته ٩٠ مليون روبل لتغطية توريد المعدات والمعونة التقنية فى بناء المرحلة الاولى من المشروع على ان يبدأ تسديد القرض فى عام ١٩٦٤ بأقساط سنوية متساوية خلال اثني عشر عاما وبفائدة سنوية ٢,٥ ٪ . وفى عام ١٩٥٩ ادخل الخبراء السوفييت تعديلات جوهرية على المشروع الاول . فانطلاقا من خبرة بناء السدود الضخمة اقترح الخبراء السوفييت شق قناة تحويل مكشوفة جزئيا بدلا من الانفاق الستة المقترحة ، كما غيروا موقع المحطة الكهرومائية ، الامر الذى من شأنه ان يؤدى الى تبسيط عملية البناء وتوفير الاموال . وفى نفس السنة عقدت مصر اتفاقية مع السودان

بشأن استخدام مياه النيل بعد انتهاء بناء السد ، بحيث تصبغ
حصه مصر ٥٥,٥ مليار متر مكعب من المياه وحصه السودان ١٨,٥
بليار متر مكعب .

وفي عام ١٩٦٠ وافقت الحكومة السوفيتية على المشاركة في
المرحلة الثانية من المشروع .

وواجهت البناء بعض المصاعب . فقد تطلبت طبقة الترسبات
الرمليه والغرينية التي يبلغ سمكها مائتي متر بناء ستار مثلث ضد
الرشح . اما خزان مياه اسوان القديم الذي يبلغ عمقه ٤٠ مترا فقد
زاد من صعوبات العمل ، الامر الذي تطلب ردم مئات آلاف
الاطنان الاضافية من الحصى والتراب . ويبلغ الحر في كبائن
الحفارات درجة ستين مئوية ، الامر الذي تطلب ايجاد ظروف
لتأقلم الميكانيكيين ابناء الشمال الروسى البارد . واخذت المعدات
المعقدة تتوقف عن العمل بسبب اهمال العمال المصريين من
الذين تنقصهم الخبرة او نتيجة اعمال تخريب من جانب اجهزة
المخبرات الغربية . ولذلك بدأ تدريب العمال المصريين «على
الماشى» واقامت حراسة مشددة فى مواقع العمل . ولم تكن المعدات
تسحن من الاسكندرية الى اسوان فى الوقت المناسب ، فتطلب
الامر تدخل الرئيس بعد عدة مذكرات تقدم بها الخبراء السوفيت .
واثناء جفر عاجل لبعض الابار الاضافية اوقفت الشركات
البريطانية توريد رؤوس الحفر الماسية . . . وكان على اناس جد
مختلفين ، كالروس والمصريين ، ان يجدوا لغة مشتركة ويذلوا
الاختلافات السيكولوجية ويتوصلوا الى حلول وسط ومساومات . . .
وتم تحويل مجرى النيل فى الموعد المحدد ، فى مايو ١٩٦٤ ،
فى الشهر الذى تبلغ فيه المياه ادنى مستوى . ومع الموعد المحدد
للتحويل كان قد تم بناء جميع الانفاق واقامت البوابات الست

عشرة وروافعها . وكان الرئيس جمال عبد الناصر قد ألقى في ٩ يناير ١٩٦٣ بأول حجر جرانيتي في مجرى النيل ايدانا بالبداية في بناء السد ، ثم وضع حجر الاساس للمحطة الكهرومائية .

اما عملية تحويل مجرى النهر نفسها فاستمرت ٦٢ ساعة . واستخدمت في هذا العمل ٨٥ شاحنة قلابة حمولة ٢٥ طنا ، و١٢ صندلا ذاتي التفريغ من أفضل المعدات الحديثة لذلك العهد . لقد اتحدت العقول الهندسية مع الارادة السياسية لعشرات الالاف من الروس والمصريين فأعطت الثمرة المرجوة : ففي ١٥ مايو ١٩٦٤ بدأ النيل يتدفق في مجرى جديد .

ان مجلة «لايف» الامريكية التي انتهت حياتها الان ، اما آنذاك فكانت في ذروة مجدها ، هذه المجلة الصفيقة والمعادية للاتحاد السوفيتي ولكن بذكاء ، قد كتبت في تلك الايام تقول : «خلال السنوات الاربع الاخيرة استطاع شعبان . . . وحدا جهودهما ، ان يصنعا تحفة لم يكن يعتقد بامكانية تحقيقها الى وقت قريب سوى عدد قليل في العالم الغربي» .

كانت تلك لحظة مجد الرئيس عبد الناصر شخصيا . وراح يخاطب المصريين «يا أهل مصر ، يا رجالها ونساءها واطفالها . ها هنا ، امام انظار العالم اجمع ، رمز حي لارادتكم وعزمكم وقدرتكم على الكد والتضحية . ها هنا ، في هذا السد ذكري لانتصاركم على كل قوى العدوان ، على كل الصعاب . ايها الاصدقاء ، ايها المواطنين . اننا نقف على سد اسوان العالي . هنا تداخلت واتحدت هنا معارك الشعب المصري السياسية والاجتماعية والقومية مثل كتل الصخور الضخمة التي ستسد مجرى النيل القديم وتحجز مياهه في أكبر بحيرة صنعها الانسان لتصبح موردا دائما للرفاهية» . وقال الرئيس مخاطبا الضيوف السوفيت الكبار : «لقد قدم الاتحاد

السوفيتى لمصر معونة شريفة نزيهة غير مشروطة ، تدعم الصداقة العربية السوفيتية» .

ان الحياة السياسية فى مصر لم تكن قط ملساء كسطح القناة ولا وردية اللون دوما . ولكن ذلك موضوع آخر يحتاج الى ابحاث جدية . وسنكتفى فقط بالاشارة الى انه فى عام ١٩٦٤ بدأ الافراج عن الشيوعيين والديمقراطيين وغيرهم من الشخصيات اليسارية من السجون ومعسكرات الاعتقال ، بل ان بعضهم انتقل من فرشة السجن الى كرسى الوزارة مباشرة . وكان لبناء السد العالى تأثيره على السياسة الداخلية لمصر .

واستمر بناء السد ايضا بعد عدوان يونيو ١٩٦٧ ، بعد الصدمة التى سببتها الهزيمة فى الحرب العربية-الاسرائيلية ، وكان بمثابة بارقة الضوء بالنسبة للمصريين فى ظلام المهانة القومية والانسانية . وفى صيف عام ١٩٦٧ ولدت محطة اسوان الكهربائية التيار الكهربائى لأول مرة ، وفى عام ١٩٧١ تم الانتهاء من بناء السد العالى تماما . وبارتفاع منسوب المياه تدريجيا فى بحيرة السد الصناعية تزايدت قدرة مولدات المحطة . واخيرا بلغ حجم مخزون المياه فى بحيرة ناصر ١٦٥ مليار متر مكعب .

وظلت محطة السد الكهرومائية لفترة طويلة المصدر الاساسى لتوليد الطاقة الكهربائية فى مصر . وتم على اساس طاقتها بناء عدد من المشروعات الصناعية ، بما فى ذلك مجمع الالومنيوم فى نجع حمادى الذى شيد بالتعاون مع الاتحاد السوفيتى . وتمت كهربية الريف المصرى كله تقريبا . ان قيمة الوقود الذى وفرته المحطة خلال ١٢ سنة من بدء انتاجها قد فاقت جميع نفقات تشييدها هى وخطوط نقل التيار ومحطات التقوية الفرعية .

اما الزيادة فى الرقعة الزراعية فكانت اقل مما كان منتظرا .

فقد التهم الزحف العمرانى غير المحكوم آلاف الافدنة الزراعية
الخصبة . ولكن لولا السد العالى لكان الوضع اشبه بكارثة .
وإذا كان السد العالى قد بدأ كمشروع مائى ذى طابع سياسى ،
فقد استمر بعد بنائه يحمل هذا الطابع ، وربما كان أكثر المشاريع
«تسياسا» فى العالم .

ان اهمية السد العالى بالنسبة لمصر كانت فيما يبدو واضحة
للعيان ، بيد انه فى فترة الافتراء على التعاون السوفيتى المصرى
ظهرت محاولات للنيل من السد العالى . قيل ان الطمى لم يعد
يصل الى الحقول ولذلك اخذت تفقد خصوبتها ، وقيل ان شواطئ
النيل والدلتا تتعرض للنحر ؛ وقيل ان فاقد المياه فى بحيرة ناصر
«كبير للغاية» ، وان كمية سمك السردين فى البحر المتوسط قرب
شواطئ مصر انخفضت .

وفى تلك الفترة يكتب الصحفى المصرى فيليب جلاب كتيباً
بعنوان : «هل نهدم السد العالى ؟» متهمكاً على الذين يكيلون
الاتهامات للسد العالى .

ان بناء مشروعات ضخمة مثل السد العالى يؤدى عادة الى آثار
جانبية كبيرة بالفعل ولا يمكن دائماً التنبؤ بها . بيد ان جوقه
الحاقدين عددت بالذات تلك الآثار الجانبية التى امكن التنبؤ
بها باعتبارها من الآثار التى يمكن احتمالها .

وبالفعل فمياه النيل اذ تبطئ من تدفقها فى بحيرة ناصر فانها
ترك فيها ثروتها : الطمى . وبالفعل ستمتلئ البحيرة بهذا الطمى
بعد ٥٠٠ — ٦٠٠ سنة وسوف تنخفض خصوبة الحقول بدون
الطمى . غير انه فى البلدان التى لا تعتمد على الرى بل على
الامطار ، وتعتبر الزراعة فيها عالية المحصولية ، لا تأتى الامطار
بالطمى او الاملاح المعدنية ، بل تعتمد الزراعة على الاسمدة

المعدنية والعضوية وعلى الوسائل الزراعية العالية التطور . وفي مصر تبلغ تكاليف تطهير الترع والقنوات من الطمي أكثر من تكاليف بناء مصانع الاسمدة المعدنية . وإذا وضعنا القضية هكذا : اما حقول بدون مياه ولكن ذات طمي خصب ، واما حقول بمياه ولكن بدون طمي العام السابق (لأننا لا نتحدث عن طبقة الطمي التي سمكها عشرة امتار والتي تكونت على مدى آلاف السنين) فان الخيار يبدو واضحا .

لقد اصبحت بحيرة ناصر والسد العالي جزءا من التضاريس التي صنعها الانسان في مصر . اما بخصوص امتلاء بحيرة ناصر بالطمي فمازال امام البشرية الكثير من الوقت للاهتمام الى حل ما . وهناك نحر لشواطئ النيل . ولكن الدراسات الميدانية أظهرت انه في معظم الاماكن اقل مما كان عليه قبل بناء السد العالي . وقد ازداد النحر في الجزء الشمالي من الدلتا ، ولكنه قبل بناء السد العالي كان يسير بمعدلات سريعة .

وبالفعل هجرت اسراب كثيرة من السردين شواطئ مصر المطلة على البحر المتوسط لفترة من الزمن . وبعد ذلك عاد جزء منها . ولاشك ان اسباب هجرة الاسماك تتطلب دراسة ، والعلاقة بين هذه الهجرة ونقص تدفق الطمي الى البحر المتوسط مسألة تحتاج الى اثبات . بيد انه بدلا من السردين اعطت بحيرة ناصر وتعطى عشرات الاطنان من سمك البلطي النيلى الكبير .

وحتى قبل ان يتم تحويل مجرى النيل راح كثير من الصحف الغربية يتباكى على «روائع الفنون المعمارية المصرية القديمة التي ستندثر تحت مياه السد» . فقد كانت مياه بحيرة ناصر ستغمر تماما معبد ابي سنبل وجزيرة فيله . وابو سنبل معبد يضم اربعة تماثيل ضخمة جالسة وقاعات داخلية محفورة في الصخر ومزينة بلوحات

جدارية لا مثيل لها . اما جزيرة فيله فتضم معبد الالهة
حتحور والالهة ايزيس وآثارا من العصرين اليونانى والرومانى . ولم
يتباك أحد عندما شيد سد اسوان القديم واصبحت جزيرة فيله شبه
غارقة واخذت الاثار القديمة فى التآكل بسرعة . على ان التباكى
فى هذه المرة كان ايضا «مسيّسا» .

وقد تمكن المصريون بالتعاون مع منظمة اليونسكو والمنظمات
الدولية الاخرى من انقاذ الاثار المعمارية القديمة . واصبحت اعمال
الانقاذ نفسها تحفة من تحف التنفيذ الهندسى . فقد قسمت التماثيل
الى كتل وقطعت قطعاً جرى نقلها الى اماكن آمنة ثم اعيد جمعها .
وفى البداية احيطت جزيرة فيله بسور حديدى وضخت منها المياه .
ولم يتم انقاذ الاثار وحدها بل والتضاريس كذلك ، حفاظا على
وحدة المعمار والبيئة المحيطة . ففوق ابى سنبل السابق اقيم تل ،
هو صورة طبق الاصل من التل السابق و«ركب» فيه المعبد القديم .
وبالقرب من فيله عثر على جزيرة اعلى واضفى عليها شكل وابعاد
فيه القديمة ، واقامت عليها المعابد بنفس التوزيع السابق . ولو
كان المعماريون القدماء هم الذين وزعوا الاثار فى الجزيرة لربما
وجدوا طريقة افضل ، غير ان جوهر اعمال الانقاذ كان ينحصر فى
الابقاء على كل شىء مثلما هو عليه وكما وصل الينا تاريخيا .

ومرة اخرى نقول : كان من المستحيل التنبؤ بكل شىء .
والتغييرات الايكولوجية التى تتسم بهذه الضخامة لا بد وأن تسفر عن
مفاجآت ، ولكن . . . ان كل تلميذ يعرف ما هو مقياس النيل .
وقديما كتب المؤرخ الرومانى بلينوس انه اذا ما اشار مقياس النيل
الى اثنى عشر ذراعا (الذراع حوالى ٦٠ سم) فذلك معناه الجوع ،
والى ثلاثة عشر فمعناه اليسر ، والى اربعة عشرة فمعناه الفرحة
الشاملة ، والى خمسة عشر فمعناه القلق ، والى ستة عشر فمعناه

الكارثة والفيضان الرهيب . لقد علّم النيل المصريين ان الشح
والزيادة المفرطة كلاهما مهلك . وجاء السد العالي فأزال خطر
الشح والزيادة المفرطة في تزويد مصر بالمياه وحولهما الى ما يسمى
بلغته المهندسين «النظام الانسب» . وهذا هو المهم ، اما ما عدا
ذلك فالشعب الخبير بشئون الري قادر على التكفل به .
لقد كُرس المصريون القدماء نشيدا مهللا للنيل الذي عبده ،
للالة حامي :

ايها النيل ، مياحك الجارية في الحقول اشبه بالعنبر
وعذبة كالعسل .

شاطئك بوابة الجنة ،

وواديك اجمل مكان في الدنيا .

ايها النيل ، حبك كالنسيم العليل .

فاذا غابت المياه غابت الحياة في الارض .

ايها النيل ، من ذاق مياحك مرة

فسيبقى معك الى الابد .

النيل خالد في حياة المصريين ، في اشعارهم واغانيتهم وامثالهم
وحكمهم الشعبية .

النيل خالد كجزء من الطبيعة ، كالتاريخ ، كدم الاقتصاد .

والنيل يقطع خمسة آلاف كيلومتر قبل ان يصل الى حدود مصر ،

ولكن قدرته على بعث الحياة لا تتجلى بأقصى طاقتها الا في مصر .

وذلك بفضل كد الفلاح .

الباب الثانى قاعدة الهم

لم يسلم (الفلاح) من الهلاك التام الا بالانحناء الى الارض فى وقت العاصفة كما ينحنى العود الضعيف الذى يشنى ولا ينكسر . والمثل يقول : «الناس كالسمسم ، ينبغى عصره لتستخرج منه الزيت» . ولكن الشعب ، خلافا للسمسم ، اعطى كل ما طلبوه منه من دسم وظل سليما . ومن اعماق الروح الغاضبة تنطلق لا اراديا صرخة الشفقة والعطف . الرحمة والرافة للشعب المضطهد ! العدل والانصاف ! للشعب الذى عمل من اجل تقدم البشرية بامانة واخلاص ! له المنهوب والمجرد من الثياب حتى العرى ! له المهزوم بطيبته ووداعته !

اى . ن . كلينجين . بين آباء الزراعة — شعوب الشرقين الاوسط والاقصى ومصر والهند وسيلان والصين . موسكو ، ١٨٩٨

تسيطر الارض ، والانتماء للارض ، على جميع مشاعر الفلاحين . . . ان الفلاح ، المستقر على عاداته ، والمنغلق فى قراه ، هو اقرب الى الارض التى يعرفها منه الى الدولة التى لا يعرفها . والطمى لم يصبح بهذه الدرجة من الخصوبة الا لان الفلاح «انغرس» فيه . ومصر هبة النيل ، ولكنها ايضا ، وبدرجة لا تقل عن ذلك ، هبة الفلاح ذاته . ولان الارض «تجسدت» فى الفلاح

فقد أصبح صبورا الى هذا الحد ، ولكنه أصبح ايضا ماديا ومحافظا .

أ . آيرو . فلاحو مصر . ١٩٥٢

كانت ارض مصر على مدى التاريخ وفيرة المحاصيل متنوعة الخيرات وذلك لان الفلاح رواها بعرقه في سخاء . ان كلمة «فلاح» العربية اصبحت كلمة دولية . فهي مشتقة من فعل «فلاح» اى شق الارض وحرثها . واصبحت كلمتا «فلاح» و«كادح» مترادفتين في ذهن العرب والاجانب . والفلاح المصرى بكده لا يجعل الارض تجود بالخيرات فحسب ولكنه يضيف عليها «طابعا انسانيا» .

لقد ظهر فى الحقول المصرية الكثير من الجرارات وتزداد مضخات الري ، ولكن الاعمال الزراعية الرئيسية ظلت ، كما فى ايام الفراغة ، تتم يدويا . وظلت ادوات الانتاج الرئيسية لدى الفلاح هى الفأس نفسها والمحراث نفسه الذى تجره الجاموسة . والجاموسة يمكن ان تعطى لبنا دسما غزيرا ولحما طيبا ، ولكن الغرض الاساسى منها هو جر المحراث .

وحتى القرن التاسع عشر ساد فى الزراعة ما يسمى بنظام رى الحياض ، اى اقامة احواض كبيرة تغمرها مياه الفيضان التى تتسرب فى التربة وتترك فيها الطمي وعندما تنحسر مياه الفيضان تبذر البذور . وادى الانتقال من نظام الحياض الى الرى الدائم الى اطالة امد السنة الزراعية وضغط وقت العمل ، لكنه لم يغير طابع العمل تغييرا جوهريا .

والحقل بدون الماء لا شىء . والسهر على تشغيل نظام الرى ، وضخ المياه من الترع الى الحقول هو جزء من عمل الفلاح . واذا

كانت الحدود بين الحقول قد استقرت منذ اجيال ورسمت بدقة ووضوح كافيين بحيث نادرا ما تثير المنازعات ، فان الخلافات حول المياه ليست بالشئ النادر ، بل وقد تتحول الى مصادمات دائمة . ان المياه تحيي الارض عن طريق كد الفلاح وكد اسلافه ، لان الاف الكيلومترات من الترع لم تشق في مصر ولم تشيد فيها كل هذه السدود خلال حياة جيل واحد ! وصيانة منشآت الري ليست بالعمل السهل . فرغم ترسب الكمية الاساسية من الطمي في بحيرة ناصر فهناك جزء منه يصل الى الترع والقنوات التي يجرى تطهيرها على حساب الدولة ولكن بأيدي الفلاحين . وقد الغى نظام السخرة في نهاية القرن التاسع عشر ، ولكن بقيت الاشغال العامة — مثل تقوية السدود والجسور وحفر الترع وتطهيرها . اما قنوات الري فلا يمر يوم من ايام الفيضان الا والفلاح عاكف على تقويتها وتصليحها وتحسينها والمحافظة عليها في افضل صورة .

وتغلق الترع في يناير — فبراير من كل عام ، وعندئذ يقوم الفلاحون بتطهير القنوات من الطمي بأيديهم — بالمعنى الحرفي للكلمة — ويلقون به على الشواطئ . وحينما يكون منسوب المياه منخفضا عن مستوى الحقول يقوم الفلاحون برفعها بواسطة تلك الادوات نفسها ، التي كان يستخدمها الفراعنة .

فاذا كان الارتفاع قليلا ، حوالى نصف متر ، يستخدم لولب ارخميدس (الطنبور) الذي ينغمس احد طرفيه في الماء ، ومن الطرف الاخر يتدفق الماء الى القناة . ويدير الطنبور فلاح او اثنان وهما ممسكان لساعات طويلة بذراع الطنبور المتصلة بمحوره الحديدي الذي يدور حوله لولب داخل اسطوانة خشبية .

وإذا زاد الارتفاع عن متر ترفع المياه بواسطة الشادوف . والشادوف اشبه برافعة ، يثبت في ذراعها القصيرة حجر او جوال مملوء بالرمل

او حتى مجرد كتلة كبيرة من الطين ، ويثبت في ذراعها الطويلة دلو جلدى او سطل يغرفون به الماء ويصبونه فى قناة الري . ويقف الفلاح ساعات طويلة وهو يغرف الماء بحركات بطيئة رتيبة . وخلال اثنتى عشرة ساعة من العمل المضمنى طوال النهار يستطيع فلاحان ، يتبادلان العمل ، ان يرويا بهذه الطريقة خمسمائة متر مربع . ان وطن الشادوف—على الاقل فى الشرقين الادنى والاوسط—هى مصر . ومن هنا انتقل الى البلدان المجاورة .

واحيانا تستخدم عدة شواذيف لرفع المياه من مستوى ما الى مستوى آخر ، ومنه الى مستوى ثالث وهكذا دواليك بحيث ترفع المياه لعدة امتار . ولكن هذه الانتاجية المتدنية فى العمل—حتى مع ابخس الاجور—لا تبرر استخدام نظام الري بالشادوف .

اما الساقية فلعلها الاصل القديم لجميع انواع تروس نقل الحركة فى الآلات الحديثة . ترى فى اى عهد سحيق قبل الميلاد ظهرت؟ يبدو انها ظهرت فى الالف الثانى قبل الميلاد . وبالنسبة لذلك العصر كان اختراع الساقية مساويا للاختراع التقنى الثورى للعصر الحديث الا وهى الآلة البخارية او محرك الاحتراق الداخلى . بيد ان الساقية ليست شيئا من مخلفات الماضى البالية ، ليست معروضا نادرا فى متحف ادوات الحضارة . انها آلة تعمل وتكدح حتى يومنا هذا . وصريرها الثقيل الاشبه بصرير عربة جر مألوف لسمع الفلاح مثل هدير المحركات لصاحب المزرعة فى بلد متقدم . تتألف الساقية من عجلتين ، واحدة تدور افقيا والاخرى تدور رأسيا .

والعجلة الافقية تديرها جاموسة او زوج من الجاموس فى حركة دائرية . وهذه العجلة متصلة بواسطة تروس بالعجلة الرأسية ، التى تثبت عليها جرار او دلاء تغرف الماء عندما تكون فى اسفل العجلة ثم تصعد به فتفرغه فى مجرى خاص او قناة .

والاخذ الشقيقة للساقية هي الناعورة . واشهر نواعير الشرق الاوسط تقع بالقرب من مدينة حماة السورية . وتدور هذه العجلات الشاهقة الارتفاع بقوة تيار المياه فى النهر . وهى تغرف المياه فى الاسفل وترفعها بجرارها الى قناة السور . والنواعير تستخدم فى شمال افريقيا وجنوب افريقيا ، اما فى مصر فعددها قليل .

والفلاح يعرف ان اساس المحصول ليس الماء وحده بل والسماذ ايضا . وحتى عندما كان النيل يترك بعد الفيضان طبقة من الطمى الخصب على ارض كل فدان كان الفلاح يسمد الحقل بالسماذ العضوى . وهو يستخدم روث الجاموس وزبل الحمام والدجاج ، والطمى المستخرج من القنوات عند تطهيرها ، ولكنه ، خلافا لفلاحى شرقى آسيا ، لا يستخدم ابدا براز الانسان . وتستخدم انقاض المباني القديمة ايضا فى التسميد لانها شيدت من مخلوط الطمى والطين والقش والروث والمخلفات العضوية التى كانت تجمع فى القرى . ومع بداية القرن العشرين اخذ الفلاح يستخدم الاسمدة الكيمايائية (المعدنية) حتى اصبح معدل استخدامها الان بالنسبة لوحدة المساحة من اعلى المعدلات فى العالم .

ان اساس حياة الفلاح ، وحياة المجتمع ، وحياة مصر هو العمل ، ثم العمل ، ثم العمل . فهل هى حقيقة بديهية ؟ هل هى مقولة معتادة ؟ ربما ، ولكن هناك فرقا بين عمل وعمل . فالفلاح الاوروبى او الروسى يرتاح ايام الاحاد — باستثناء موسم جنى المحصول — وفى الشتاء تنقلص مشاغله او تنتهى تماما ، اما الفلاح المصرى ، سواء كان مسلما ام قبطيا — فلا يعرف للراحة طعاما لا أسبوعيا ولا موسميا . والامثال الشعبية تنصح بالعمل : «أزرع يوماتى تشبع يوماتى» و«اشتغل فى الجمعة وفى العيد تعيش سعيد» و«خلى الكسل لعدوك» . . الخ .

ان حياة الفلاح هي سلسلة من الكد المتصل طوال العمر في جميع الاوقات وجميع الفصول . فهذا ما يفرضه مناخ مصر ونظام الزراعة فيها ، وتلك هي متطلبات مواقيت الاعمال الزراعية غادرت مصر آخر مرة في ١٤ نوفمبر ١٩٨٤ ، وحين فتحت الجريدة التي ابتعتها في المطار وجدت ان هذا التاريخ يوافق ٢٠ صفر سنة ١٤٠٥ هجرية و٥ هاتور سنة ١٧٠١ قبطية . لقد جاء العرب المسلمون الى مصر بالتقويم الهجرى وأقروه ، وهو تقويم قمرى يبدأ من عام ٦٢٢ الميلادى ، العام الذى هاجر فيه الرسول محمد من مكة الى المدينة . وهذا التقويم الذى يصلح للبدو من الرعاة الرحل لا يلبي متطلبات حتى سكان الواحات المستقرين فى شبه الجزيرة العربية . فقد كان تبدل الفصول اهم لديهم بكثير من تعدد منازل القمر . وفى مصر يستخدم التقويم الهجرى لتحديد مواقيت الاعياد والطقوس الدينية وبدء الصيام والحج . اما الفلاح فتمضى حياته على اساس التقويم الشمسى القبطى .

وبداية التقويم القبطى هو عام ٢٨٤ الميلادى ، العام الذى هبت فيه مصر ضد طغيان روما ، لكن التقويم الشمسى وضع من ايام الفراعنة ، وقد اشار اليه هيروdot فى «تاريخه» ، ولكن حتى فى ايام هيروdot كان هذا التقويم ، الذى يقسم السنة الى ٣٦٥ يوما ، معروفا لدى المصريين من عهود سحيقة منسية ، وكانت اسماء الشهور مرتبطة احيانا ارتباطا مباشرا باسماء الالهة المصريين القدماء . وقد ابقى جميع غزاة مصر على هذا التقويم . ولم يتغير نظام الحياة لدى الفلاحين المصريين حتى بعد ادخال التقويم الجريجورى رسميا الى مصر عام ١٨٧٥ مع اسماء الشهور اللاتينية . وهكذا اصبح الشعب المصرى يعيش وفق ثلاثة تقويمات دفعة

واحدة تشر كلها يوميا على صدر الصحف .

لقد تعلم المصريون كيف يتابعون حركة الشمس والاجرام السماوية الاخرى ويقرون حركتها بنظام تصريف النهر ، ويبدو انهم كانوا أول من ربط بين المجهود الانتاجي وتواريخ التقويم فى تاريخ البشرية .

وتبدأ السنة القبطية من شهر توت ، الذى يوافق شهر سبتمبر ، وذلك حين يبلغ فيضان النيل ذروته ، وتمتد السنة القبطية ١٢ شهرا . ولكل شهر من هذه الشهور محاصيله الزراعية المحددة ، بل وامثله الشعبية ايضا . فالمصريون يقولون : «برمها ت — روح الغيط وهات» اى اذهب لجمع المحصول . وهذه الامثال فى غاية الشاعرية وفى الوقت نفسه ترتبط ارتباطا وثيقا باسمااء الاشهر بحيث تصعب تماما ترجمتها وتفقد معناها . ولكن هناك ملاحظة طريفة للغاية ، وهى ان كثيرا من هذه الامثال المرتبطة بعمل الفلاح تتضمنها الكتب الدراسية لكليات الزراعة فى مصر .

لقد ترك لنا المؤرخ المصرى العظيم فى القرنين الرابع عشر — الخامس عشر تقى الدين المقرئى وصفا للاعمال الزراعية مقسمة حسب المواسم والشهور . والمعلومات التى أوردها تتفق والاعمال التى يمارسها الفلاح حاليا الى درجة تبدو معها وكأنها نقلت عن الواقع الحى لثمانينات القرن العشرين اللهم الا مع بعض الاستثناءات القليلة :

توت : فى هذا الشهر يجمع الزيتون ، وتشقق اشجار البلسم لاستخراج عصيرها ، ويجهز كل ما يلزم لاصلاح السدود . وفى توت «يجرى حصر زمام الاراضى وترسل الخرائط والكشوف ، وتجهز بذور الغلال للبذار . وينضج الرمان والبلح والبرقوق والقطن والجوافة» . وفى ١٧ توت تقريبا يتوقف ارتفاع المياه فى النيل .

بابه : «فى أوله يحصد الارز ويزرع الفول والبرسيم والغلال التى لا تتطلب زراعتها حرث الارض . وفى هذا الشهر تنحسر المياه عن الارض ، وتأتى اللقائى المهاجرة ويزرع الكتان ويبدأ حرث الارض فى مصر العليا استعدادا لزراعة القمح والشعير . وتعتقد حلاوة الرمان . . . ويملح فى هذا الشهر سمك البورى ، وتصبح الغنم والمعيز والابقار هزيلة ولحومها غير لذيدة الطعم . وتنضج الموالح» . هاتور : «الخامس من هاتور يوافق بداية نوفمبر . . . وفى السادس منه يزرع الخشخاش ، وفى السابع منه تنحسر المياه عن الارض المخصصة لزراعة الكتان ، وفى منتصف الشهر يبذر الكتان وفى آخر الشهر تسمد الارض» . ويرتدى سكان مصر الملابس الصوفية ، ويزداد استهلاك قصب السكر المخصص لصناعة «البوظة» والحلوى والعسل . «وفى هذا الوقت يهتمون باعداد العلف للمواشى والجمال بعد بيع النياق العجوز والمريضة وشراء أخرى بدلا منها . ينضج السبانخ ، وتظهر الحملان الجيدة ، ومن قوص يجلب عنب كثير» .

كيهك : فى هذا الشهر تحل اعياد البشارة والميلاد . «وفى هذا الشهر يزرع الخيار عندما تنحسر المياه عن الارض وينتهى بذر القمح والشعير والبرسيم . . وفيه ينضج النرجس والموالح والفول الاخضر والكرنب والعجزر واللقت . . وتولد الجداء التى تعد افضل منها فى اى وقت آخر . . وفى كيهك يجبى الخراج عن البرسيم فى مصر العليا» .

طوبة : الحادى عشر منه يوافق التعميد ، وتبدأ زراعة العدس ، ويغرس النخيل . تتوالد الجمال ، وتصبح مياه النيل صافية وينضج البرسيم . وفى هذا الشهر تقلم الكروم وتعزق مزروعات الحبوب ، وتنقى غرسات الكتان ، وتمهد الارض للمحاصيل الصيفية ،

ويعتنى بمنشآت الري ، وتحفر الابار وتشتري الثيران . «وفي طوبة يطالب الجبابة بالخراج وفقا للكشوف الموجودة لديهم ويستخدمون في ذلك كل سلطانهم وجبروتهم» .

امشير : ينتهى تقليم الكروم وغرس الاشجار ، ويتوالد النحل . يجنى اللفت ، ويوضع البيض فى الحضانة لمدة اربعة اشهر ، وتصنع الانية الفخارية لتبريد المياه لان الطين يتميز فى هذا الشهر بجودة عالية . يبدأ هبوب الرياح الدافئة . يدفع الناس ربع قيمة الخراج المفروض عليهم .

بومهات : يظهر دود القز . «وفي هذا الشهر ترزع الخضروات والمحاصيل الصيفية وينضج الفول والعدس ، ويجمع الكتان ويزرع قصب السكر فى الاراضى التى نظفت واخليت من المزروعات منذ زمن طويل» . يطالب الجبابة الفلاحين بالربع الثانى من الخراج وبشمن الخراج .

برموذة : يبدأ جنى الفول وحصد القمح وقلع الفجل . «وفي هذا الشهر يعنى باجتثاث اشجار السنط فى الخمائل ونقلها الى الشاطئ لكى تنقل بعد ذلك فى النيل الى ساحل القسوطا لبناء المراكب او لاستخدامها وقودا لمطابخ السلطان» . وترزع القرفة والملوخية والبادنجان ، وتجنى اول قطعة عسل وينفض الكتان . يستمر جمع نصف الخراج .

بنس : يزرع الارز والسوسم . «فى هذا الشهر تدرس الغلة وينفض الكتان . . . تغرس اشجار البلسم وتقليم وتروى» . تنضج بعض انواع التفاح والشمام والبطيخ والخوخ والمشمش . وتجبنى السلطات مزيدا من الرسوم على الكتان والبرسيم وعلى المراعى . ينتهى الحصاد .

بؤونة : يشتد الحر ويبدأ فصل الصيف . «فى هذا الشهر تمضى

المراكب محملة بالقمح والتبن والحلوى والعسل وغيرها من مديرية القوصية ومن مديريات مصر السفلى . يجمع عسل النحل وتقليم الكروم وتدفع عنها الزكاة ، وينقع الكتان ويقلب طوال بثوثة وأيب . . . وفيه تزرع النيلة في مصر العليا ويجمع المحصول بعد ١٠٠ يوم» . ينضج التين الفيومي والخوخ والكمثرى والبرقوق وغيرها من الفواكه ويبدأ الزعفران في النضج .

أيب : ينتهى قطع الاشجار ويستمر نقع الكتان «وتكثر الكمثرى السكرية ، ويصبح البلح لذيذا . . . يجمع ما تبقى من العسل ، وتعلو مياه النيل تدريجيا . . . ينضج العنب وينتهى جمع ثلاثة ارباع الخراج» .

مسرى : يجنى القطن وينضج الليمون والموز . تدفع الزكاة عن الفواكه الناضجة . يبدأ نضج الرمان . من العنب يصنع النبيذ والخل . «وينتهى نفض الكتان احيانا في مسرى (وأحيانا في أيب)» . ويسدد الفلاحون ما تبقى من الخراج على الاراضى الزراعية .

ان كلينجين ، الدقيق الملاحظة ، قد أدرك جيدا الفرق بين عمل الفلاح في مصر وفي روسيا آنذاك فكتب يقول : «الفلاح مضطر للعمل طوال اشهر السنة الاثنى عشر كلها بشكل منتظم من الشروق الى الغروب ، وعلاوة على ذلك يعيش فترة من القلق اثناء موسم الفيضان الى ان تنتهى تماما عملية غمر الحقول بالمياه ، والتي تحدد نهائيا مصير المحاصيل الرئيسية . . . وما أقل ما لديه من ماشية عمل ، وما أبسط ما يملكه من ادوات ، ولكنه ينجح في انجاز كل شيء ، فى المقام الاول بفضل ذراعيه القويتين الطويلتين الملتصقتين بمنكبين عريضين الى درجة غير عادية ، ذراعيه اللتين لا تتقاعسان عن اداء اى عمل ولكنهما «لا تتمزقان فى

العمل» حتى درجة الاعياء التام ، كما يحدث في فورة الاندفاع ،
مثلما هو الحال لدى فلاحنا الذى ينبغى عليه خلال موسم الزراعة
القصير ان يسطر آيات الجسارة والمقدرة والمهارة . . .

اما الفلاح المصرى فعلى العكس من ذلك ، يعمل على مهل ،
بصورة منتظمة ، هادئة ، دون اجهاد ، وفي كل يوم مثلما فى
غيره من الايام ، وكأنه يوزع قواه مسبقا على مدى عمره الطويل
فى خدمة الارض المطعمة . فما ان تبرز اولى اشعة الشمس على
الحقول حتى يكون الفلاح هناك وقد بدأ العمل . وما أن تمس
شمس الغروب حافة السماء وتميل الى الراحة ، حتى يهرع الفلاح
مسرعا الى بيته الذى يقع دائما على مقربة من الحقل ، والا دهمه
الظلام حتما وهو فى الطريق ، لان فترة الغروب هنا قصيرة جدا ،
والليل يحل محل النهار بسرعة .

والفلاح المصرى لم يعرف ابدا رحابة الحقول . فما ان تترك
احدى القرى خلفك وتسير مع الجسر او بحذاء القناة ثلاثة او اربعة
كيلومترات ، وربما اقل ، حتى تجد امامك قرية اخرى . وهكذا
دواليك فى مصر كلها . والفلاح يقضى النهار كله فى الحقل ،
ويتغدى هناك ويستريح فترة القيلولة ، ولكنه لا يبيت خارج قريته
الا نادرا ، وفى الظروف الاستثنائية ، عندما يتطلب الامر حراسة
المحصول .

وبيوت الفلاحين البنية الغبراء تشكل قرى يسكن القرية منها
خمسة عشر او عشرون الف فلاح (وهذه القرى عددها فى مصر
اربعة آلاف علاوة على ثلاثين الف عزبة) .

والخشب مادة بناء غالية جدا فى مصر ، ولذلك لا يستخدمه
الفلاح الا لتسقيف البيت ، وفى احيان نادرة فى هيكل المبنى .
وهو يستخدم فى ذلك جذوع النخيل . والفلاح يعيش بالارض ،

وعلى الارض ، وبمعنى من المعانى يعيش فى الارض . فهو بينى
بيته من ذلك الطمى النيلى نفسه بعد خلطه بالتبن والروث والطين .
وتصنع الجدران من قوالب الطوب اللبن على اساس من أعواد
الذرة او أعواد القصب الجافة ، ثم تطفى القوالب بالطين . ومادة
البناء الهشة هذه تتطلب ان تكون الجدران سميكة نسبيا ، بعرض
ثلاثين او اربعين سنتيمترا . ويصنع الاساس من الطوب المحروق
(الاحمر) او قطع الاحجار الصغيرة ، وذلك لمنع تسرب المياه
الى المنزل . وبدلا من النوافذ تصنع فتحات صغيرة (طاقات) لا
تزيد مساحتها عن نصف متر مربع ، وتسد بالخرق فى ايام الشتاء
الباردة . وفتحة الباب تسد بحصيرة لان الابواب الخشبية غالية .
ويغطى السقف بسعف النخيل واعواد الذرة الجافة وحطب القطن او
اعواد الغاب ، وتفرش فوقها الحصر ثم تغطى بطبقة من الطين
المخلوط بالرماد ، وتدك جيدا . ولما كان المطر لا يسقط تقريبا
فان الاسطح مستوية ، وتستخدم كمخازن للوقود : القش والحطب
والروث الجاف . وعلى الاسطح قد يربى الدجاج ، ويبيت الناس
هناك فى الليالى الحارة .

وفى الجو المصرى الجاف والحر يشكّل الوقود المتراكم على
الاسطح الملتصقة مادة قابلة للاشتعال ، ولذلك تلتهم النيران كل
سنة منازل الفلاحين فى عشرات القرى وتسقط ضحايا بشرية .
وغالبا ما تنهار البيوت بفعل البلى او انقضا صاعقة مفاجئة . وعمر
بيت الفلاح لا يزيد عن عشرين — ثلاثين سنة . وفى مكان المنزل
المنهار يقيم الفلاحون بنفس الطريقة بيتا آخر ، مثل البيت السابق ،
ويفضلون عدم ازالة الانقاض بل يدكونها ويعلون الاساس .
وإذا نظر أحد الرحالة الى القرية المصرية فقد يقول : «القرية
المصرية تتألف كلها من منازل جديدة» ، بينما قد يعترض آخر قائلا :

«بل تتألف كلها من منازل قديمة» . وسيكون كلاهما على حق .
فالقرى المصرية جديدة من حيث المباني وقديمة من حيث التخطيط
والشكل والطابع . فالمبنى — الاطلاع — الطمى — البيت الجديد
تلك هي الدائرة الابدية لوجود الفلاح المادى . والقرى هي أثر
من آثار الحضارة المصرية مثلها مثل وادى النيل الذى زرعه
المصريون ، بحقوله وغابات نخيله ، بقنواته وجسوره . وتبدو القرى
وقد ظللتها قمم النخيل جميلة جذابة المنظر ، ولكنها لا تختلف
احداها عن الاخرى على امتداد الريف المصرى من الاسكندرية
الى اسوان . فكلها ذات وجه واحد ، وتصميم واحد ، ومعمار
واحد ، سواء فى مصر العليا ام فى الدلتا . ليس ثمة تفرّد فى
القرى او البيوت ، فهى جزء من كل ، عين فى خلية نحل ،
وليس من الطبيعى ان تتفرد احداها عن الاخرى . ولا نجد
اختلافا الا فى الاماكن التى يعيش فيها الاقباط ، حيث ترتفع
قباب الكنائس الى جوار المآذن البيضاء .

اليوم مثله مثل الامس ، مثل امس الاول ، ومثل الف عام
مضى . فهل يكون الغد كالיום ؟ لا يستطيع ان اتنبأ بثبات القرية
المصرية وبقاء منازل الفلاحين المصريين مثلما هى عليه الان . ولو
فكرنا بمقاييس حياة جيل واحد فسوف تبقى كما هى الان . فالفقر
شديد ، ومواد البناء الاخرى باهظة الثمن ، وتعلق الفلاح بالعادات
والتقاليد قوى . بيد ان الفلاح ، وقد رأى العالم والحياة الافضل ،
لن يفضل ابدا بيته الطينى على بيت من الحجر . وقد اخذت
الهجرة والاجور المرتفعة فى الخارج تعبيراً بسرعة حتى المظهر الخارجى
للقرية المصرية . فبيوت الموسرين من الفلاحين اصبحت تشبه
بيوت البلدان الاخرى فى حوض البحر المتوسط من حيث العمارة
ومواد البناء ، وان كانت المنازل هنا ، بسبب ضيق مساحة الارض ،

تنتشر رأسيا لا أفقيا . والهياكل الخرسانية الممتدة من الاسطح
والمخصصة لتشييد الطوابق الثانية والثالثة والرابعة هي الان سمة
مميزة لبيوت اغنياء الفلاحين الجدد مثلما كانت في الماضى ابراج
الحمام !

ان ابراج الحمام الطينية ، المستطيلة او المدورة ، هي التى
تبعث الحياة فى المنظر الريفى للقرى المصرية . وحيانا تطلّى هذه
الابراج بالجير الابيض او ترين بالنقوش البسيطة . وتثبت الجرار
المكسورة القعر فى جدران الابراج كأعشاش جاهزة . وفى مصر
يأكلون الحمام ، ويعتبر لحمه من اللحوم اللذيذة . ولكن احدا
لا يعرف مدى الخسائر التى يلحقها الحمام بالحقول .

وعبر القرية يمر شارع رئيسى او شارعان او ثلاثة ، وحيانا يمر
هذا الشارع بحذاء التربة . وقد تتسع هذه الشوارع لممرور سيارة ،
ولكن فى الحارات الضيقة اذا مددت يديك ، لمست الجدارين
المتقابلين . ومن الصعب ان تمر من هنا حتى عربة الجر ، ولولا الشمس
والجفاف والحرارة لاصبح الوحل والقاذورات فى الحارات والازقة غير
المرصوفة مصدر تهديد لحركة النقل ولصحة البشر .

وفى القرى الكبيرة توجد بضعة مساجد وكنائس . وليس من
الضرورى ان ينفرد المسجد بمبنى مستقل ، اذ تكفى للصلاة اى
مساحة ارض مستوية ونظيفة نسبيا .

ولكن نداء المؤذن للصلاة لا يستجيب له جميع السكان فى
كل مرة ، بل ولا حتى اغليبتهم ، بيد ان صلاة الجمعة يحضرها
تقريبا جميع الرجال المسلمين ، وصلاة الاحد فى الكنيسة يحضرها
الاقباط مع افراد عائلاتهم .

فى وادى النيل الضيق تبعد القرى عن الحقول لتوفر الارض
الثمينة للزراعة ، وتلتصق هى بأطراف الصحراء . ولكن الصحراء

عالم غريب معاد ، تسكنه الارواح الشريرة والعفاريت ، وهناك يمكن اقامة المقابر ، غير ان الفلاح لا يحب الصحراء ولن يذهب اليها ، بله ان يعيش فيها . وفي دلنا النيل قد تجد المقابر في وسط القرية ، وان كانت بيوت الاحياء هي التي زحفت في الحقيقة على المقابر واحاطت بها بحثا عن متسع من المكان . وفي المقابر قد يقوم ضريح ايض ذوقبة لاحد اولياء الله الصالحين المحلين . ويتولون كنس الضريح وتبييضه وانارته بالكهرباء . والفلاحون «المحترمون» يترددون على المقهى احيانا فيتناولون الشاي عادة والقهوة نادرا . والمقهى الحالى ، المزود بجهاز تليفزيون ، ليس مجرد نوع من النوادي ، بل هو مركز من مراكز صياغة الرأى العام بما قد يتفق وقد يتعارض مع الاراء التى تفرضها التقاليد والشيوخ وائمة المساجد ومؤذونها وعمدة القرية .

وفي ساحة قرية من المسجد عادة يقع سوق القرية ، حيث تباع اللحوم والمواشى والانابة الفخارية وقصب السكر والجبن المنزلى والسمن البلدى والسلال والمنسوجات . والاسكافى يخطط لك الصندل وانت واقف امامه ، والحلاق يحلق لزبائنه . بيد ان ايام عزلة مصر عن السوق العالمية قد مضت الى غير رجعة . ففي اسواق القرى النائية لا تباع الدراجات الاجنبية او المنسوجات الزاهية فحسب ، بل واجهزة الترانزستور المستوردة من هونج كونج ، والبطاريات والمصايح الكورية الجنوبية ومعلبات اللحوم الارجتينية او معلبات السردين الايسلندى . واصبح ازيز الدراجات النارية والشاحنات هنا اكثر من نهيق الحمير وهدير الجمال الغاضبة .

فلندلف الى دار الفلاح لكى نتعرف عليها من الداخل . وقبل ان نقدم على ذلك ينبغي ان نتذكر ان عالم الفلاح كان ، ومازال على الارجح ، عالما غريبا وغير مفهوم للمثقف ابن المدينة ،

فضلا عن الاجنبى ، وكتابا بلغة غير معروفة نادرا ما يستطيع
الغريب ان يقرأه . ولنأخذ على سبيل المثال رواية «عودة الروح»
لتوفيق الحكيم ، التى اصبحت جزءا من الادب الكلاسيكى
المصرى :

«فدخل مترددا وجعل ينظر الى المكان ، فرأى رحبة صغيرة
مغطى نصفها بسقف من حطب القطن والاذرة الجاف ، ثم قاعة
صغيرة ! . . . وكان باب القاعة مفتوحا كذلك . . . فالتفتى «محسن»
عينية على ما بها فألقى منظرا لن ينساه ، رأى ان تلك القاعة انما
هى قاعة النوم لاصحاب الدار ، اذ بها فرن وفوق الفرن حصير
واغطية ، الا انه رأى كذلك فى ركن منها بقرة امامها حمل برسيم ،
وبين رجليها الخلفتين عجل رضيع جميل يشب الى ضرعها . . .
غير ان ما ادهش «محسن» انه شاهد بجانب هذا العجل
الرضيع طفلا رضيعا ايضا — لعله ابن اصحاب الدار — وهو يزاحم
العجل ويدفعه على ضرع البقرة ، والبقرة ساكنة هادئة لا تمنع هذا
ولا ذاك ، وكأنها لا تفضل احدهما على الاخر ، كأنما العجل
والطفل كلاهما ولداها . . . ما أجمله منظرا ! وما اروع معناه ! . .
لكن اليس فلاحو مصر الان يمجدون الحيوان بقلوبهم ولا يأنفون
العيش معه فى مسكن واحد ، والنوم معه فى قاعة واحدة ؟ . . .
ليس ان مصر الملائكية ذات القلب الطاهر ما برحت مصر ؟ . .
وانها ورثت — على مر الاجيال — عاطفة الاتحاد بدون ان تعلم ؟ . . .»
ان هذا الكاتب الكبير «الفرانكوفونى» من حيث ثقافته ، الليبرالى
من حيث معتقداته السياسية ، قد قرر فى ايام شبابه ان «يغوص»
فى اعماق شعبه . وعندما فعل ذلك كان اول ما شعر به هو
الفرع ، ولكنه دفع عنه الرهبة وخيبة الامل بان شعر بالتأثر ورسم
بريشة موهبته وخياله صورة مثالية للفلاح ، وكأنه وعاء احتفظ بكل

الفضائل دون ان تنسكب منه أو تراق . ومع ذلك فقد اتسمت مؤلفات الكاتب الاخيرة عن الريف بمسحة واقعية . وحينما تقرأ «عودة الروح» تتذكر لا اراديا تلك العبارات المريرة التي قالها أ . آيرو الذي عرف الفلاح وفهمه أكثر من اى شخص آخر : «عندما تطرق الشعراء والفنانون الى موضوع «الزراع» و«جمال الحقول» ، وخططوا الفلاح بالمنظر الطبيعي . . . فقد عملوا على تزويق الواقع الريفى . لقد رسموا لوحات رائعة ، ولكنهم عودونا الا نرى فى حياة الفلاح سوى جوانبها الجميلة والعاطفية وان نأخذ الصورة مأخذ الواقع . فكانت «حركة الباذر المقدسة» تخفى عنا فى العادة الباذر نفسه» .

مسكن الفلاح الفقير يتكون من غرفة واحدة ، يعدون فيها الطعام على النار فوق موقد يتصاعد دخانه ويخرج من فتحة فى السقف . وفى هذه الغرفة ينام الفلاح واسرته ، وفيها كذلك تعيش ماشية الفلاح التى اثار منظر التفاهم بين الطفل الرضيع وبينها اعجاب بطل رواية توفيق الحكيم . وأرضية المسكن من التراب المدكوك . ومتاع الفلاح هو عدة قدور ووابور غاز وموقد وطبليّة ، وبضع قليل فخارية وقطعة مرآة وصندوق خشبى . ولدى الاقباط تصادف فى الدار خنازير ، الامر الذى يستحيل ان تجده لدى المسلمين . اما البيوت الاكبر من ذلك فتضم غرفتين او ثلاثا ، وبها غرفة نوم ومطبخ فى نفس الوقت ، ومعلف وغرفة ضيوف او معلف مستقل وباحة داخلية . ولكن حتى الفلاح الغنى تجده يسكن منزلا ضيقا . فالبيت يستخدم كمكان للنوم أكثر منه مكانا للسكن . فالفلاح يقضى معظم الوقت خارج البيت . وكثيرا ما يتناول طعامه فى الهواء الطلق ، وفى الصيف ينام على السطح . وفى هذه الايام تتغير المساكن وتتغير محتوياتها . اذ يحمل

الفلاحون الى منازلهم — بعضهم على الحمير وبعضهم على الدرجات النارية — اسطوانات البوتاجاز ، وها هي الفلاحات يعددن الفاصوليا على البوتاجاز لا على المواقد القديمة وتختلط الدلاء المصنوعة من البلاستيك بالجرار الفخارية ، وتظهر في غرف الجلوس الكراسي الفوتيل والخزانات واجهزة الترانزستور . وفي البيت الذى لم تدخله الكهرباء تجد على الارض الترابية بجوار الجاموسة التى تزفر بصوت عال جهاز فيديو يابانيا من احدث طراز ويعمل بالبطاريات مع تليفزيون ملون تتصاعد منه الاغاني والصيحات والموسيقى وتتوهج فيه الالوان . لقد عاد صاحبه الفخور بنفسه ، من العمل فى الكويت أو ابو ظبى حاملا معه هذه الاعجوبة الاليكترونية الاجنبية .

وكمسكن الفلاح الخالى من القسماى المتميزة تبدو ملابسه هى الاخرى اشبه بزى موحد . وهو يضع على رأسه طاقة قد يلف عليها فى الاعياد عمامة ، واذا كان غنيا فقد يضع على عنقه تليفعة حريرية . ويرتدى الفلاح جلابية طويلة مسدلة حتى القدمين وبكمين واسعين وبدون ياقة . والفلاحون الاغنياء يرتدون جلابيب من الصوف الناعم الجيد ، اما الفقراء فيصنعونها من الاقمشة الرخيصة ذات اللون الازرق او الالبيض او البنى فى الغالب . وحين يعمل الفلاح فى الحقل يحشر طرف جلابيه فى خصره او يخلعه عنه ويبقى بسرواله الالبيض المنسدل الى اسفل الركبتين وبقميصه القصير وصديريه . وفى القيط ، وخاصة عندما يعمل على الشادوف أو الطنبور يتعرى حتى الخصر . وقد تكون لدى الفلاح «بلعة» ، ولكنه عادة ما يسير حافيا . ويرتدى الصبيان جلابيب قصيرة مقلمة ، او يركضون بالبيجامات مثلما فى المدينة . ويقبل الفلاحون الشبان الان على ارتداء اللباس الاوربى — السروال والقميص — ولكن هؤلاء لا يشكلون الاغلبية .

اما النساء ، حتى الشابات منهن ، فاكثر محافظة في ملبسهن . وكلهن تقريبا يرتدين الملاءات السوداء او البنية التي تنسدل حتى اخصص القدمين . وفي مثل هذا الزي تقف الفتاة بجوار ابي الهول في تمثال «نهضة مصر» ويضعن على رؤوسهن طرحة او منديلا . وذراعا المرأة مستورتان ، وثوبها مضيّق تحت الصدر . وظهور الاقمشة الارخص والازهى يساعد على اضاءة لون من التنوع في هذا الزي . وحتى افقر امرأة تحمل حليا ، وهى حلى ذهبية فى نادر الاحوال اما فى الغالب فهى من الفضة والنحاس ، اما الخخال فهو حلية شائعة .

وثياب الفلاحين والفلاحات صحية بصفة عامة ، رغم انها طويلة تتجرجر جامعة غبار الطريق ، وهى ثلاثم المناخ وتنسجم مع البيئة . وقد كتب أ. آيرو يقول : «الملبس كالعامل ، لا يعزل الفلاح عن بيئته الطبيعية : عن الهواء والشمس ، والارض ، والماء ومن هذا الاندماج مع الوسط المحيط يبدو وكأن الفلاح يستمد قوته البدنية . فجسمه القوى القادر على التحمل متلائم جيدا مع الطبيعة ، وهو لا يحتاج الى مرتبة او فراش مريح ، ولا يصرخ من الالم اذا جرح . وهو يتحمل فى صبر نزلات البرد والصداع ولدغ البعوض والبراغيت والقمل ولا تزعجه افضع الروائح ، وهو لا يفقد شهيته مطلقا .

ولكن كثيرا ما يحدث ، للأسف ، ان تنقلب هذه الطبيعة الودود تجاه الفلاح فتصبح ضده ، وتغدق عليه الامراض التى تهد كيانه وتضعفه» .

وبفضل مجهود الفلاح تعطى ارض مصر شتى انواع الثمار الرائعة . ولكن ما الذى يصل منها الى مائة الفلاح نفسه ؟
... ذهبت ذات مرة الى قرية مصرية . السكون

يلف المكان ، ولا يعكر صفوه سوى صرير الساقية وصياح الدجاج لدى الجيران . صاحب الدار فلاح متوسط الحال ، بالمقاييس المصرية ، يملك فدانا ونصف من الارض . وبعد ان ثنينا بصعوبة عن عزمه على ذبح جدى صغير للضيوف جلسنا لتناول غداء فلاحى عادى . فى وسط طاولة منخفضة مستديرة (طبلية) لسته اشخاص وضع طبق به قطع من الجبن الابيض القديم ، لا يزيد وزنها كلها عن مائة وخمسين جراما ، ووضعت ربة الدار امام كل منا رغيفين من الخبز المصنوع من دقيق امريكى فى مخبز القرية ، وبصلا اخضر يانعا وعدة قرون من الفول الاخضر الكبير اللذيذ ، وقلقا حريفا و... هذا على ما اعتقد كل ما هنالك . وكان الحلو عبارة عن طبق من «العسل الاسود» ، كما يسمى الفلاحون هنا الدبس المصنوع من قصب السكر ، تميزا له عن العسل «الابيض» الطبيعى . ثم قدم لنا شاي مغلى ثقيل الى درجة السواد وشديد الحلاوة . اما شوربة العدس الحارة فلا يتناولها الفلاحون الا فى المساء .

كان الطعام بسيطا ، فكيف كان فى السابق ، وهل يا ترى تغير ؟ فلنتذكر ما كتبه المستعرب البريطانى أ . و . لاين الذى قضى فى مصر سنوات طويلة فى النصف الاول من القرن التاسع عشر وترك لنا مؤلفه الكلاسيكى «حياة وتقاليد المصريين المعاصرين» . لقد كتب يقول : «طعام الفلاحين هو الخبز (من دقيق الذرة او الذرة العويجة) واللبن ، والجبن القريش ، والبيض ، والسمنك الصغير المملح ، والخيار ، والعجور ، والقرع المختلف الانواع ، والبصل ، والكراث ، والفول ، والحمص «التركى» ، والترمس ، والعدس ، والبلح (الطازج والمجفف) والمخللات . ويتناول الفلاحون الخضروات فى معظمها نيئة . وعندما تنضج الذرة ينزع الفلاحون

كيزانها ويأكلونها مشوية على النار او فى الفرن . اما الارز فهو غال بالنسبة للفلاحين ، واللحم نادرا ما يأكلونه . ومع ذلك فلدتهم فى حياتهم هم ايضا بعض الترف ، الا وهو تدخين التبغ المحلى الرخيص . وعلى الرغم من رخص المواد الغذائية المذكورة فكثير من الفلاحين لا يجد ما يغمس به ارغفته الحاف . . . ومن المذهل انه رغم هذا الطعام البدائى البائس يتمتع معظم الفلاحين بصحة جيدة وبنية قوية وبالقدرة على اداء اشق الاعمال» .

وفى الماضى كان الفلاحون يخبزون الخبز من دقيق الذرة مع اضافة قليل من الحلبة والذرة العويجة والقمح . اما فيما يخص اللبن والجبن القريش فلم يدخلها قائمة الطعام الا لدى الفلاحين الذين يملكون الجاموس ، اما لدى غالبية الفلاحين فالمعيز هى ماشية الالبان .

لقد تغيرت معدلات التغذية ومركباتها لدى الفلاحين منذ عهد لاين ، فتدهور مقنن طعام الفلاحين تدهورا شديدا فى النصف الاول من قرننا الراهن . فقد اثرت الحروب والازمات والركود الاقتصادى على مآكلهم . وادى تطور الرى الدائم الى اصابة الفلاحين بأمراض معينة لم تكن معروفة على نطاق واسع من قبل . واطهرت الدراسات على بعض العينات انخفاض القوة البدنية والقدرة على التحمل لدى الفلاحين ، وتزايد تعاطى المخدرات ، وبصفة خاصة الشاى الثقيل جدا الذى اصبح بديلا للمخدرات . وهم يتناولونه عدة مرات فى اليوم كمنشط صناعى ولكنه مدمر للبدن . لقد عرفت مصر الفقر والفاقة والجوع ، لكنها لم تعرف المجاعة الشاملة فى القرنين التاسع عشر والعشرين . وكان يحدث نقص فى المواد الغذائية لكن الناس يصمدون للمحنة . وكان طعام الفقراء والمعوزين والعمال الموسمين من حيث كمية السعرات اقل من

المعدل الموضوع لمن يزاولون العمل البدنى فى هذه المنطقة . وقد تحسن طعام ذوى الدخل المحدود فى ستينات هذا القرن ، ثم تحسن لدى مجموعات اخرى من السكان فى السبعينات . ولكن تركيب الطعام ظل بعيدا عن المتطلبات الحديثة ، اذ ان استهلاك البروتين الحيوانى والخضروات والفواكه ظل اقل من المعدل عدة مرات لدى الاغلبية الساحقة من المصريين ، حتى مع ازدياد كمية السعرات التى يحصلون عليها .

ومن الصعب ان تحافظ على النظافة العامة عندما لا تكون هناك مياه للشرب فى الانابيب بل يحمل الماء الى البيوت فى الجرار . بيد ان لدى الفلاحين تقاليد معينة وغرائز نظافة ، ثم ان الاسلام يفرض على المسلمين ان يتوضأوا قبل الصلاة . فاذا وجد الفلاح نفسه بجوار قناة بعد الفراغ من عمل شاق فانه يحرص على الاستحمام فيها ، لكن الفلاحة لا تستطيع ذلك ، لان التقاليد تحرم عليها الاستحمام علنا ، ولهذا فسوف تستحم فى البيت . اما بخصوص مياه الشرب النقية فما زالت الى اليوم لا تصل الا الى ثلث القرى . والغالبية العظمى من الفلاحين يشربون من النيل ومن الترع التى يستحمون فيها ويغسلون فيها ثيابهم ويلقون فيها بالفضلات . والمياه المخزونة فى الاوعية الفخارية ترشح منها فتصبح اكثر نقاء ولكنها لا تتطهر من الجراثيم .

والظروف غير الصحية فى الريف تؤدى الى انتشار الدوسنتاريا . وكثير من الفلاحين مصابون بالتراخوما (الرمد الحبيبي) ، وفى كل مكان يمكنك ان تلقى العميان والعمور .

وافريقيا الاستوائية ترسل الى مصر—الى جانب الخصوبة—أمراضها . وسنذكر واحدا منها ، الا وهو مرض البلهارسيا . وتأتى القواقع الحاملة ليرقانات المرض من السودان ، وتدخل اليرقانات

عبر الجلد الى جسم الانسان الذى يستحم فى المياه او ينزل اليها
بقدمين عاريتين . وتحول اليرقانات الى ديدان رفيعة طول الواحدة
منها قد يصل ٢,٥ سينتيمتر وتتحرك مع الدورة الدموية واضعة بيضها
على جدران الامعاء والمثانة مسببة جروحا وقروحا ونزيفا دمويا فى
البول . ان هذا المرض يفتك بأبدان حوالى نصف المصريين ،
وهو يصيب الرجال أكثر من اصابته للنساء ، اذ ان الرجال يعملون
فى المياه أكثر من النساء . ويستمر المرض حوالى عشرين عاما
ويؤدى بالمريض الى الهزال وفقدان القوة بالكامل . وقد اكتشفت
الان طرق فعالة لعلاج هذا المرض الفتاك ولكن تخليص الريف
المصرى منه يتطلب زمنا .

وعندما نتحدث عن الفلاحين فاننا نعنى بالدرجة الاولى الزراع ،
رغم ان مربى الماشية هو ايضا فلاح بالمعنى الواسع للكلمة .
وكلمة «فلاح» باللغة العربية تعنى الزراع فقط ، اى من
يفلح الارض ، اما رعاة الابل الرحل فهم البدو . ورغم ان
مصر هى بلد الفلاحين فلا يسعنا الا ان نتحدث قليلا عن
الرحل .

على مدى التاريخ كانت العلاقات المعقدة المتشابكة المتراوحة
بين العداة والتعايش ، بين السلب الحربى والتبادل الاقتصادى ،
والقائمة بين الرحل والقبائل المستقرة على امتداد المساحة الهائلة من
الارض فى شمال افريقيا والشرق الادنى . . . كانت هذه العلاقات
عنصرا من اهم عناصر الحياة الاجتماعية - الاقتصادية . وبالنسبة
لمصر بعد زحف رعاة الخيل الهكسوس عليها فى القرن السابع عشر
قبل الميلاد ، اصبح معنى الرحل ، وخاصة مع بداية العصر
الميلادى مرتبطا برعاة الابل . فقد ادى جفاف السافانا الى ان
تصبح الخيول حيوانات نادرة ودليلا على البذخ وحيوانات حربية

للاستقرابية . واصبح الجمل حيوان النقل الرئيسى ، وظل كذلك حتى مطلع القرن العشرين .

ولدى مقارنة القوة الحربية لكل من الفلاحين والبدو فان التفوق عادة ما يكون لاهل الصحراء . وقد مكنهم امتلاكهم لقطعان كبيرة من الجمال من التجمع بسرعة ودون علم العدو وحشد اعداد كبيرة لانزال الضربات ، ثم التفرق فى حالة الفشل والاختفاء فى الصحراء التى لا يستطيع العدو معرفة خباياها . كما ان نمط الحياة نفسه كان يجعل من البدوى محاربا جيدا . واخيرا فان التنظيم الحربى الديمقراطى للقبيلة هو بمثابة هيكل جاهز وملامم لاقامة تشكيل عسكري صرف ، كما انه يسهل عملية السيطرة على اعداد كبيرة من الناس خلال الحملات واثناء القتال .

ولم يكن بوسع حكام الاقاليم المستقرة فرض الاستغلال على البدو الرحل لان تربية الابل لم تكن تدر سوى دخل ضئيل ، كما ان الحملات العسكرية ضدهم ، حتى فى حالة نجاحها ، كانت باهظة التكاليف . ولذلك كان الحكام المستقرون يفضلون اتقاء شر البدو الرحل بدفع اتاوة لهم ولا يشنون ضدهم حملات تأديبية الا فيما ندر . وعلى العكس ، كان البدو هم الذين يفرضون نظم الاتاوة على الفلاحين ورعاة الغنم شبه المستقرين .

وفى مصر المعاصرة يعتبر الدور العسكرى والسياسى والاقتصادى للبدو الرحل ضئيلا . وعددهم البالغ من ١٠٠ الى ٢٠٠ ألف شخص يشكل بالنسبة لتعداد مصر البالغ ٤٨ مليون نسمة نسبة تافهة . لكن هذه النسبة لم تتشكل الا حديثا نسبيا . فقد كان عدد البدو فى عهد الحملة الفرنسية على مصر فى نهاية القرن الثامن عشر حوالى ٣٠٠ — ٤٠٠ الف شخص بالنسبة لتعداد السكان البالغ ٢,٥ مليون نسمة . وقد أعطاهم ذلك ، بالاضافة الى تنظيمهم

العسكري ، دورا ونفوذا كبيرا في البلاد لا يتفق ونسبتهم العددية .
ومنذ الفتح العربى لمصر ساعد البدو الرحل على تعريب الفلاحين
وأثروا في بعض المناطق على تشكيل نمطهم الاثنوغرافى . لكن
قناعة البدو بنبالة دمائهم حدثت من اندماجهم بـ«زراع الارض»
والتزوج بهم . وكان أفقر بدوى يأنف من تزويج ابنته بفلاح ثرى .
ان الخوف من الصحراء يقترن فى لاوعى كثير من الفلاحين
بالذكريات شبه المنسية عن غارات البدو . واصبح التعارض بين
مفهومى «الاستقرار» و«الرحل» معروفا فى الحياة السياسية وفى الحياة
اليومية وفى ايدولوجيا المجتمع التقليدى . ففي العشرينات والثلاثينات
حاول بعض الكتاب المصريين الاشادة «بالفرعونية» ورسم صورة
مثالية للفلاح ، ومواجهة المصريين بجميع العرب ، وهم يقصدون
بكلمة «العرب» بالطبع البدو الرحل . ولنستمع الى ما يقوله توفيق
الحكيم فى الرواية المذكورة :

« . . . فأجابه الخفير البدوى فى صلف بان هذا الفتى الفلاح
«عرجاوى» يريد الزواج من اخته البدوية ، وان اخته هامت بهذا
الفلاح ، ولم يفلح فى ارجاعها عنه لا الضرب المبرح ، ولا
النصح ، ولا المعايرة بنزولها عن «محتدها البدوى» الى الاقتران
بفلاح ! . . . وفى النهاية اتفقت مع «عرجاوى» على الهرب والزواج
به على الرغم من ارادة اخيها «عبد العاطى» ، فأقسم «عبد العاطى»
الا تقع عينه على «عرجاوى» هذا حتى يقتله ، وقد حاولوا الصلح
بينهما ، وحاولت الفتاة العربية استعطاف اخيها ، وسأقت اليه من
يغير رأيه فيها وفى زوجها الفلاح ، فلم ينفع كل ذلك . وأصر
عبد العاطى على تنفيذ حكمه ! . . . هذا ما فهمه «محسن» من
هذا البدوى ، وعندئذ نظر اليه وسأله فى رفق :

— بقى البدوى أحسن من الفلاح يا عبد العاطى ؟ . .

فأجاب المخفّر وهو يحدّق به مستغرباً جهله :

— كيف يا بيه ، «البدوى» مثل «الفلاح» ؟؟ !

— ايه الفرق بين الاثنين ؟

— كيف يا بيه . . كيف ؟ البدوى أصيل !

— والفلاح مش أصيل ؟

— الفلاح عبد بن عبد . . احنا بدو ما نرضى الضيم !

وبعد ذلك يمضى توفيق الحكيم يبطله الشاب الى شيخ البلد :

«ذهب «محسن» بعدئذ الى «الشيخ حسن» وجلس بجواره على

المصطبة ، ونظر اليه قليلا والى لحيته البيضاء ، ثم قال :

— يا عم الشيخ حسن ، البدوى أحسن والا الفلاح ؟

فالتفت اليه الشيخ ، ثم اجاب وهو يسبح بسبحته :

— البدو دول يا جناب اليه جماعة خطافة جرايع ! لا

لهم دين ولا ملة ، ولا يعرفوا رحمة ولا اسلام !

— ازاي ؟

— الفلاح منا يبقى خيره عليهم : بكرمهم ويساعدهم ويخاويهم

وهم بتكبروا عليه ، كأن دمهم دم واحنا مية ! . . روح الفلاح عندهم

ما تسوى أكثر من حق عيار رش بقرش صاغ . . أصل البدو لا

تعرف تزرع ولا تقلع ، ناس لا مؤاخذة ما يفلحوا الا فى الضرب

والخطف . . .

. . . والفلاح لا يرى فى العمل فرضا يقدهه الدين فحسب .

فالمثل يقول : «العمل عبادة» . وحكمة التجارب والخبرة تحذر من

الكسل ، رغم ان الفلاح يدرك جيدا ان مردود عمله لا يساوى ابدا

ما بذله من جهد . فثمة هرم كامل من الطفيليين الذين يعيشون

على حسابه .

كتب أ . آيرو فى بداية الخمسينات : «اذا كانت الارض ،

التي يمسدها الفلاح بيديه ورجليه بكل معنى الكلمة ، ملكا له فانه يقبل على فلاحتها بكل قلبه . لكنها ليست ملكا له ابدا في معظم الاحوال . فهنا ليست الارض ملكا للانسان بل الانسان ملك للارض . وهنا يكمن سبب كسل الفلاح وفقره» .

كسل الفلاح ؟ الا يتناقض ذلك مع ما سبقت الاشارة اليه توا من حب الفلاح المصرى للعمل ؟ كلا على الاطلاق . الفلاح يعمل لانه لا يمكن ان يعيش بغير ذلك . ولكنه يدرك ان الجهد الشاق لا يكافأ عليه ، واذا بذل مجهودا اكبر فلن يعنى ذلك ان حياته ستتحسن ، بينما قد يخسر قواه . وهو يعمل بأقصى طاقته في ظل طعامه الفقير وأمراضه والقيظ الصيفى المضمنى اذا كان عائد العمل راجعا اليه . فما الذى يحثه على العمل المتفانى فى سبيل مصلحة الاخرين ؟

ان عدم تملك الارض هو المأساة الحقيقية للفلاح . وكانت تلك ظاهرة عامة فى بداية الخمسينات عندما نشر آيرو كتابه «فلاحو مصر» . واصبحت هذه المشكلة اكثر حدة بعد مضى ثلاثين عاما وذلك بالرغم من تحقيق الاصلاح الزراعى .

كان الاصلاح الزراعى احدى المهام الاولى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . فقد كان الظلم الاجتماعى فى القرية صارخا ، وبلغ الاستقطاب درجة اصبح فيها اثنا عشر الف اقطاعى وعائلاتهم يملكون اكثر من ثلث مساحة الارض . وفى القطب الثانى اكثر من مليونى اسرة ، اى حوالى ١٥ مليون شخص لا يملكون شيئا او يملكون قطع ارض ضئيلة . وكانت شريحة متوسطى الملاك تافهة . كان احد القطبين يمثل الطفيلية البشعة ، والقطب الاخر يمثل اعمال السخرة . فى أحد القطبين كانت العائلة المالكة ، التى تستحوذ على عشرات الالاف من الفدادين وتغرق فى البذخ والفجور ،

بما تملكه من قصور وجواهر ويخوت وسيارات وجوار وخدم وحشم ،
وفي القطب الاخر مواطنون احرار شكليا واشباه عبيد عمليا ، يبلغ
عدددهم حوالي مليون عامل زراعى من عمال التراحيل . واليكم رقما
آخر : كان حوالي مليون رجل وامرأة وطفل يعملون لدى ٦١ عائلة
من اغنى العائلات ، تملك ٢٧٧ ألف فدان . وما اكبر ما كان
يكنه رجال قمة الهرم الاجتماعى فى مصر من ازدياء واحتقار للقرية ،
لاولئك الذين كانوا يطعمونهم ويكسونهم ويكفلون لهم حياة البذخ ،
لاولئك «الفلاحين الاجلاف» . وكانت كلمة «فلاح» فى ذلك
الوسط تعتبر اهانة وترادف فى معناها كلمة «القروى المتخلف» او
«الغبى» او «الجلف» .

وقد انعكس ذلك فى عدد من الامثال التى تصور الفلاح حيوانا
غيبيا بليدا . واحيانا نجد فى هذه الامثال سخرية الفلاح من نفسه ،
ولكن تلك الامثال فى معظمها قد ولدت فى بيئة اخرى . وقد
اطلق الباحث والاديب المصرى ابراهيم شعلان على هذه
الامثال وصف «الحرب النفسية» التى يشنها المالكون ضد
الفلاحين .

ولم تعرف القرية المصرية تقريبا فى ذلك العهد نظام المزارع
والانتاج الزراعى الرأسمالى فى صيغته الخالصة . فما الداعى لشراء
الات اذا كانت اليد العاملة الفلاحية رخيصة الى هذه الدرجة ؟
لقد كان الاقتصاد الاقطاعى اقتصادا سلعيًا ، اى انه كان ينتج
السلع للبيع فى السوق ، لكن استغلال الفلاحين كان يجرى بأساليب
سابقة على الرأسمالية . وكان نظام المشاركة او المحاصة شائعا ،
وبدلا من الاجر كان الفلاحون يعطون نصف او ثلاثة ارباع فدان
ليفلحوه . والاحصائيات عن تلك الفترة غير دقيقة ، فمن الصعب
وضع حدود بين الفلاحين ذوى الملكية الصغيرة والمستأجرين ،

وبين المستأجر الذى لا يملك شيئا ، والفلاح المعدم الذى يفلح قطعة أرض ليست له .

ولم يكن فقر الفلاح يعنى الجوع والامراض وانخفاض انتاجية عمله فحسب ، بل ويعنى كذلك امكانية محدودة جدا امام تسويق المصنوعات المصرية . فقد كان الفلاح ينتج ، ولكنه ، باستثناء المواد الغذائية ، لم يكن يستهلك شيئا تقريبا ، اما الارستقراطية فكانت تفضل السلع المستوردة .

وبينما ابقى الاقطاعيون على الاستغلال الاقطاعى وشبه الاقطاعى للفلاحين فى القرية مضوا هم ، الذين كانوا يعيشون عادة فى المدن ، الى مجال النشاط الاستثمارى . ويكتب الباحث السوفيتى ل . فريدمان : «اصبح من المميز للاسرة الاقطاعية القديمة تشعب وتعدد روابطها بالشركات المساهمة العاملة فى مجالات اقتصادية بعيدة عن بعضها كل البعد ، مثل مجال الطبع والنشر ، وصناعة التعدين ، وتجارة القطن بالجملة ، والنقل النهري ، والبنوك ، واعمال العقارات وبيع الاراضى فى المدن ونتاج الافلام السينمائية» .

ووضع الاصلاح الزراعى فى عهد عبد الناصر حدا اقصى للملكية الزراعية ١٠٠ فدان وصفى طبقة كبار الاقطاعيين المصريين . وبعد ان صفت سلطتهم السياسية تم تفويض قوتهم الاقتصادية . كما حرّمهم تأمين الصناعة الكبيرة وجزء من الصناعة المتوسطة من رؤوس اموالهم التى كانوا يوظفونها فى ميادين النشاط غير الزراعى . وبحلول اواسط الستينات بلغت مساحة الاراضى المصادرة من الاقطاعيين ٨٧٥ ألف فدان .

ووزعت الارض قطعا تتراوح مساحتها بين ثلاثة وخمسة افدنة وفقا لنوعيتها ، وأعطيت الاسبقية لمستأجرى هذه الارض او للاجراء الزراعيين من ابناء القرية التى تقع هذه الاراضى فى نطاقها ، وكذلك

لذوى العائلات الكبيرة العدد . وبحلول عام ١٩٧١ كان قد تم توزيع حوالي مليون فدان ، منها أكثر قليلا من ٨٠٠ الف فدان من الاراضى المصادرة من الاقطاعيين ، وحوالى ٢٠٠ الف فدان من الاراضى التابعة للدولة وحوالى ٣٠ الف فدان من اراضى طرح النهر .

لقد اعطى الاصلاح الزراعى الارض لحوالى ٣٢٠ الف اسرة فلاحية . كما ان الارض التى تم استصلاحها فى الستينات قد ساعدت كذلك على سد رمق الجائعين الى الارض .

بيد ان الزيادة السريعة فى سكان الريف لا يمكن ان تصحبها زيادة مماثلة فى مساحة الاراضى المزروعة . فخلال عشرين عاما لم تزد الاراضى الزراعية الا بمقدار مليونى فدان ، وجاءت الزيادة اساسا بفضل تحويل اراضى رى الحياض الى الرى الدائم . ويحدث ايضا تفتيت للملكية ، واذ يقسم الفلاح المتوسط فدائنه الخمسة بين اولاده فانه يحكم عليهم بان يصبحوا من المعدمين . ويسخر الفلاحون قائلين ان كثيرا من الحصص يمكن ان تغطيها بالجلباب . وثلاث الفلاحين تقريبا لا يملكون ارضا ، وهم بذلك يمثلون البروليتاريا الريفية او اشباه البروليتاريا من عمال اليومية والاجراء والمستأجرين . ولا تزيد ملكية أكثر من نصف المزارع الفلاحية الان عن نصف فدان او أقل . ويطلق الباحثون السوفيت على هذه الملكية عن حق وصف «الملكية المزعومة» . فالعائلة التى تملك فدانا لا تستطيع ان تلبى سوى ثلث احتياجاتها .

ويأتى حنين الفلاح الى ملكية ماشية العمل فى المرتبة الثانية بعد حنينه الى ملكية الارض . بيد ان فقراء الفلاحين لا يملكون جاموسا او بقرا .

ان «فيض» الايدى العاملة فى الريف لم ينشأ فى الثمانينات

ولكنه اصبح يمثل عنصر ضغط متزايد خاصة في هذه الايام .
وقد اظهرت الدراسات على بعض العينات في نهاية السبعينات ان
الزراعة نفسها لا تشكل سوى نصف دخل سكان الريف ، اما
النصف الثانى فيأتى من الاعمال العارضة والحرف وقطاع الخدمات
والبناء ومن مصدر آخر يتزايد حجمه الا وهو تحويلات العاملين في
الخارج . ويبدو ان هذه النسبة قد مالت اكثر في الثمانينات في
غير صالح الزراعة .

ولكن قطاع متوسطى الملاك الذين عزز الاصلاح الزراعى وتوزيع
الاراضى المستصلحة فى الستينات مكانتهم قد تقلص فيما بعد ،
واصبح عدد الفلاحين الذين يملكون من خمسة الى عشرة فدادين
الان اقل مما كان عليه فى بداية الخمسينات .

يبد ان الاحصائيات مسألة مأكرة . وانا مثلا لا استطيع ان
اجزم فى مسألة تحديد وضع الفلاح المتوسط انطلاقا من حجم
ملكته فحسب . فملكية مزرعة خضروات او ازهار على مساحة
فدانين قد تجعل من الممكن نسبة هذا المالك الى عداد اغنياء
الفلاحين ، بينما ملكية خمسة او سبعة افدنة من الاراضى الفقيرة
التربة او الاراضى الملحة قد لا تكفى لاطعام اسرة واحدة . والفلاح
الاحصائى المتوسط» والفلاح الحقيقى شيان مختلفان وليسا دائما
شيئا واحدا . لكنك لن تستطيع تعميم النتائج الا باللجوء الى
قدر من التجريد مع احتمال الخطأ .

واذ اتحدث عن عمل الفلاحين وآلات الرى القديمة اجد
نفسى اتساءل لا اراديا : الست بذلك اضفى طابع القدم على
حياة الفلاح وعمله ونفسيته ؟ بالطبع لم تعد القرية المصرية الحالية
ولا الفلاح نفسه مثلما كانا عليه منذ ثلاثين سنة . ولكن كما هى
العادة حين تدرس المجتمع فى احدى البلدان العربية او الاسيوية

او الافريقية فانك لا تجد اجابات قاطعة عن الاسئلة القاطعة .
ان مستوى معيشة غالبية الفلاحين وحياتهم اليومية ونفسياتهم مازال
الى حد كبير يتناسب وعصر الطنبور . بيد انه في حقول مصر يعمل
اليوم ثلاثون الف جرار وآلاف مضخات المياه واجهزة الري المختلفة .
صحيح ان ثلاثة ارباع الجرارات واكثر من نصف المعدات الاخرى
بتركز ملكيتها في اقل من ٥ ٪ من المزارع . وهذه المزارع تملك
اكثر من خمسى المساحة المزروعة ، وهى تنتج ما يزيد على نصف
الدخل القومى فى قطاع الزراعة فى مصر . ويبلغ عدد اصحاب هذه
المزارع اقل من مائتى الف عائلة ، ولكنهم يسيطرون على جميع
المواشى المعروضة للبيع وعلى القسم الاكبر من انتاج المحاصيل
الزراعية ، ويحصلون على الجزء الاكبر من العلف الذى توزعه الدولة
باسعار مخفضة ، وعلى معظم قروض البنك الزراعى ، والتقاوى
المنتقاة ، والاسمدة الكيماوية .

لقد اجتث الاصلاح الزراعى الناصرى القمة العليا لكبار ملاك
الاراضى . ولكنه ساعد موضوعيا على نمو الرأسمالية فى الريف .
وانشئت ومازالت تعمل الجمعيات المسماة «الجمعيات التعاونية
للاصلاح الزراعى» التى جمعت الفلاحين الذين حصلوا عن طريق
الاصلاح الزراعى على ارض الاقطاعيين السابقين ، دون ان تصبح
هذه الجمعيات مزارع جماعية . وتوجد كذلك الجمعيات التعاونية
للتموين والاستهلاك والتى تضم فى عضويتها اكثر من نصف مليون
فلاح . بيد ان المسيطر على هذه الجمعيات وتلك هم موظفو الدولة
واغنياء الفلاحين (الكولاك) .

ومن الطريف ان كلمة «الكولاك» ، الروسية مستخدمة لدى
كثير من الباحثين المصريين الذين يطلقونها على اغنياء الفلاحين ممن
يستخدمون العمل المأجور ويشكلون شريحة من البرجوازية الريفية .

وقد تعزز هؤلاء الكولاك فى عهد الحكم الناصرى وازدادوا غنى واشتروا اراضى الاقطاعيين السابقين والملاك المفلسين . وتحول من تبقى من الاقطاعيين الى الطريق الرأسمالى بعد ان قسموا اراضيهم بين اقربائهم متحايلين بذلك على قانون الاصلاح الزراعى وافلتوا من مصادرة اراضيهم . وعندما تعززت البرجوازية الريفية وجمعت على لحمها الشحم تحولت من نصير للاصلاحات الناصرية الى خصم لها لان هذه الاصلاحات كانت تعوق نموها وسعيها الى نهب الاخرين من بنى قومها دون قيد . واصبحت هذه البرجوازية السند الاجتماعى العريض لثورة السادات المضادة التى جرت دون اراقة دماء . واعلن نظام السادات عن دعمه للبرجوازية الريفية ، اى للكولاك وللاقطاعيين «المتبرجين» .

وهناك قسم من الاراضى والعقارات ورؤوس الاموال العائدة لملاك الاراضى لم يقع تحت طائلة الاصلاح الزراعى ولكنه صودر لصالح الدولة ووضع تحت الحراسة . بيد انه صدر فى عام ١٩٧٤ قانون الغاء الحراسات ، واعادة اكثر من مائتى الف فدان وكذلك القصور والفيلات والحسابات المصرفية والسندات والاسهم المصادرة الى اصحابها او تعويضهم عنها تعويضا مناسباً .

واصدر الرئيس السادات فى عام ١٩٨١ مرسوما جمهوريا بالغاء الحراسات تماما ، وحصلت حوالى ثلاثة الاف اسرة ، من بينها كثير من اصحاب الاراضى ، على ممتلكاتها السابقة او على تعويضات عنها . وفى ١٩٧٨ و ١٩٨٢ صدرت قوانين بتخفيض الضرائب على كبار الاغنياء المصريين .

وفى يونيو ١٩٧٥ صدق البرلمان على اضافات على قانون الاصلاح الزراعى لعام ١٩٥٢ ، فسمح رسميا بنظام الشراكة وزيدت الضرائب وايجار الارض ، واصبح من حق المالك طرد الفلاحين

والمستأجرين من الارض فى حالة تأخرهم عن سداد الايجار لاكثر من شهرين . ومثل هذا القانون انتهاكا صارخا لمصالح فقراء الفلاحين بحيث اجل تنفيذه ، ولم يبدأ العمل به الا فى عام ١٩٧٩ بعد اصرار وضغوط من جانب نواب الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم فى البرلمان .

ومن الخصائص المميزة للاقتصاد المصرى ان انتاج بعض انواع السلع الزراعية—كالقطن والقمح وبعض السلع الاخرى— يخضع لتقنين صارم من قبل الدولة . وهناك معدلات ثابتة لتوريد هذه المحاصيل الى الدولة وفق اسعار محددة ولكنها أقل بكثير من اسعار السوق الحرة . ويقع عبء هذه التوريدات على عاتق افقر الفلاحين بالذات . ويمقت الفلاحون محاصيل التوريد هذه ، كالقطن والقمح ، لانهم لا يجنون منها سوى الخسارة وذلك بسبب انخفاض مستوى الانتاج الزراعى الحالى وبالتالى ضعف المحاصيل . وحيانا كنا نرى ونحن نمر بالدلتا مشهدا كان لا يمكن بالامس ان تصوروه ، حين يقوم الفلاحون بقطع اعواد القطن المحملة باللوز الذى لم يجمع بعد ، ويجمعونها اكواما ليستخدموها كوقود . ذلك ان اتلاف القطن احيانا يصبح اقل ضررا من جمعه .

ويتنقل المستثمرون الريفيون الان الى انتاج محاصيل اخرى والى تربية الماشية والدجاج مستغلين مزايا المناخ والارض . فمنذ عام ١٩٥٢ ضاعفوا انتاج الخضروات اربعة اضعاف وانتاج الفواكه حوالى ثلاثة اضعاف ، واخذوا يزرعون المزيد من الاعشاب الطبية المخصصة للتصدير والخضروات المبكرة والازهار وكذلك البرسيم لعلف ماشية الالبان واللحوم . وفى الوقت نفسه افلست كثير من المزارع الفلاحية المتوسطة والصغيرة لافتقارها الى رؤوس الاموال والالات والاسمدة والتقاوى الجيدة ووقوعها تحت ضغط التوريدات

الحكومية للمحاصيل غير المربحة . وقد يقال ان هذه المزارع محكوم عليها بالزوال ، ولكن ارتباط الفلاح وتعلقه الشديد بالارض ، واقدامه على اى تضحية فى سبيل الاحتفاظ بارضه بالاضافة الى بساطة متطلباته وصبره ومحافظةه ، يجعل من الممكن القول بان هذه المزارع الصغيرة ستبقى قائمة فى المستقبل المنظور .

ان ارض وادى النيل ، هذه الارض المطعمة التى فلحتها وسمدتها مئات الاجيال وروتها بعرقها ، وانشدت فيها الاغاني وعبدها القدماء ، هذه الارض لم تعد تطعم مصر ، او بالاحرى لم تعد قادرة على اطعام جميع المصريين . ومصر التى كانت مزرعة القمح للامبراطورية الرومانية اصبحت اليوم تعيش على استيراد القمح والمواد الغذائية . وكان معدل نمو المحاصيل فى بداية الستينات قد فاق معدل النمو السكانى ، ولكن هذه النسبة تغيرت بعد ذلك ، وفى السبعينات ازدادت الهوة بينهما . والفلاح المصرى لا يستطيع ان يطعم الان سوى ستة اشخاص من كل عشرة ، ولا يمكنه ان يكفل رغيف الخبز الا لثلاثة اشخاص من كل عشرة مواطنين . تستورد مصر اكثر من خمسة ملايين طن من القمح فى السنة ، وبحلول عام ٢٠٠٠ ربما يرتفع الاستيراد الى ١١ مليون طن من الحبوب معظمها من القمح . وبسبب ازدياد الاستهلاك الداخلى انخفضت بصورة حادة صادرات الارز والموالح . والادهى من ذلك ان مصر التى كانت مصدرا للمواد الغذائية اصبحت مستوردا لها : اذ ان قيمة جميع المحاصيل التصنيعية (بما فيها القطن) والغذائية المصدرة من مصر اقل بسبعة امثال من قيمة السلع الغذائية المستوردة . وتتفق البلاد اكثر من مليارى دولار سنويا على استيراد السلع الغذائية بينما هى فى اشد الحاجة الى هذا المبلغ لانفاقه على التنمية الاقتصادية والتصنيع . ولكن علينا ان نراعى هنا ان الارقام

لا تعكس دائما الصورة الحقيقية وقد تشوهها . فالدولة تدعم اسعار الدقيق ، كما انها تحصل على جزء منه ضمن المساعدات الامريكية . وقد ادى ذلك الى ان اسعار القمح فى السوق المصرية اصبحت اقل من اسعار التبن ، ومن ثم اقبل الفلاحون على اطعام الماشية خبزا .

فهل الوضع ميئوس منه الى هذا الحد ؟ من الناحية النظرية قد لا يكون كذلك . فمن المقرر حتى عام ٢٠٠٠ استزراع اربعة ملايين فدان جديدة من الحقول والبساتين والمزارع الصغيرة فى سيناء والدلتا ووحدات الوادى الجديد الواقعة غربى النيل فى مصر العليا . وهذه الخطط ليست مستحيلة التنفيذ ، لكن القليلين هم الذين يؤمنون بامكانية تنفيذها . فكل فدان جديد مستصلح يكلف اكثر من سابقه . وعلاوة على ذلك يتطلب الامر نفقات باهظة على المرافق ، كالطرق وشبكة الكهرباء والمواصلات والاسكان . والفلاح لا يقبل على استيطان الاراضى الجديدة ، وهو يحسب حساب الارباح والخسائر ، ولا يريد ان يستبدل امرا مجهولا بحياته المستقرة رغم ما فيها من شقاء . ولهذا تباطأت عملية استصلاح الاراضى فى السبعينات .

فهل تغيرت الظروف فى الثمانينات ؟ وهل ستغير فى التسعينات ؟ ليس هناك الى الان وقائع تبعث على التفاؤل . ولكن مصر مضطرة الى توسيع رقعة الاراضى الزراعية حتى لو كانت معدلات التوسع اقل من المخطط لها .

ومع ذلك نكرر السؤال : هل الوضع ميئوس منه الى هذا الحد ؟ ومرة اخرى نقول لا . فلم تستوعب بعد كافة الامكانيات لانتاج المحاصيل التصديرية العالية المردود مثل الزهور وزيت العطور والبطاطس البدرية . وفى هذا المجال تستطيع مصر ان تستفيد

من وضعها الجغرافى الملائم ومناخها المعتدل وطبيعة تربتها الخصبة بشرط ان تعرف كيف تستفيد من ذلك . ومن الممكن تحويل ميزان الصادرات والواردات لصالح مصر . ومن العوامل الحاسمة فى هذا الصدد ان الفلاح — رغم ما يبدو فى ذلك من مفارقة للوهلة الاولى — لم يستنفد خصوبة الارض بالكامل . فمصر لا تدخل فى نطاق الدول العشر الاولى فى العالم من حيث المحصولية بالنسبة للقمح والارز والذرة . فهل الجو او التربة فى مصر اسوأ مما فى هولندا او المانيا الديمقراطية او اليابان ؟ كلا ، ان القضية ليست فى التربة او المناخ ، بل فى مستوى الحضارة الزراعية وفى الآلات والمبيدات والتقاوى والاسمدة ، وفى مستوى ثقافة الفلاح وروح المبادرة لديه ومصالحته فى نتيجة عمله . اما الان فانتاجية عمل الفلاح المصرى ادنى بمائة مرة تقريبا من انتاجية المزارع الامريكى . وهذا يعنى ان المشكلة هى فى الهيكل الاجتماعى — الاقتصادى للريف المصرى ، وبدون اعادة صياغة هذا الهيكل لن يمكن حل المشاكل اللعينة الموروثة عن السبعينات .

... كان ذلك فى اول ايام الربيع المصرى الموافق لعيد الفصح القبطى . واستيقظت مبكرا اذ كنا ننوى الذهاب الى واحة الفيوم فى عيد شم النسيم ، لنرى كيف يحتفلون بهذا العيد «على الطبيعة» كما يقال ، اى وسط الناس الذين لم تطبعهم حياة العاصمة بطابعها . وحسب العادة المصرية القديمة شققت بصلة نصفين وشممتها ، والقيت بها وراء ظهرى وخرجت من البيت دون ان التفت تاركا خلفى كل الهموم والمتاعب . وربما فعل الشئ نفسه فى هذا اليوم ملايين المصريين مسلمين واقباطا .

عندما وصلنا الى الفيوم وجدناها قد غصت بكتل البشر المرحين المنتزهين . وتعالى صيحات باعة الحلوى واللبن والفول السودانى .

وعزفت فرقة من عازف على الربابة وضارب على الدف تدعو الجمهور اليها .
وتجتمع عدد كبير من المتفرجين حول جماعة من مروضى القرد
الجواله . لقد خرج المصريون بعائلاتهم الى المتنزهاة القليلة
والحدائق والحقول القريبة فى نزهاة جماعية . والوجهة الاساسية فى
ذلك اليوم هى «الفسيح» (سمك مملح وعفن الرائحة بعض الشئ)
والبيض الملون . وامطى الاطفال المسرورون الحمير والجمال . وعلقت
فوق الابواب حزم البصل ، واحيانا كانوا يضربون البصل بالعصى
لتسقط بضع قطرات من عصيره على عتبة الباب فتحل بالبيت
السعادة .

واحتشد اكبر تجمع فى ذلك اليوم على شاطئ «بحر يوسف» ،
فكانت الزوارق المزينة بالاشرطة الملونة والاعلام تدرع هذه القناة
طولا وعرضا ، بينما راح الرجال يستحمون فى مياهها العكرة .
والناس هناك يعتقدون ان مياه بحر يوسف تجلب الشفاء وخاصة من
الرمد والحمى وغيرهما من الالوجاع . ولذا فقد اخذوا يصيحون وهم
ينزلون الى الماء : «بركة ، بركة ، بركة !» معتقدين ان مياه
القناة فى هذا اليوم بصفة خاصة تحل بها البركة فتصنع المعجزات .
وتقول احدى الاساطير ان القديس يوسف كان يترىض هنا وهو
يسحب عصاه على الارض ، واذا بالمياه تتدفق فى الخط الذى
خلفته عصاه على الارض حتى بلغت بحيرة قارون . ولكن اسطورة
اخرى تتحدث عن منشأ آخر للقناة : فعندما بلغ يوسف المائة من
عمره اخذ المحيطون به فى بلاط الفرعون يحيكون الدسائس ضده
متهمينه بالعجز والضعف بسبب كبر سنه . ولكى يثبت لهم يوسف
طاقته جمع العمال وأبدى آيات من الاعجاز العملى والتنظيمى فشق
هذه القناة فى سبعين يوما وحول مستنقعات الفيوم الى بساتين غناء
وحقول خضراء وضاعف دخل الفرعون .

ان قدم بعض التفاصيل المادية فى حياة المصريين وعراقه
عاداتهم تثير العجب . فلم يبق لديهم من ايام الفراغة عيد شم
النسيم واسطورة يوسف فحسب ، بل والساقية (الناعورة) التى يتردد
صريها فى وسط مدينة الفيوم ، والطناير ، وعادة تكحيل العيون
وختان الاطفال والوشم على الجلد والوجه ، واقامة المصاطب الطينية
امام البيوت ، وحلاقة شعر الاطفال مع ترك خصلة واحدة بدون
حلاقة ، واقامة اعياد وفاء النيل .

وقد يبدو ان هذا كله دليل على رسوخ الفلاح واستقراره وعدم
تغيره منذ القدم وحتى الان . . الفلاح الذى يمثل قاعدة الشعب
المصرى و«ملح الارض» المصرية . لقد كتب أ. آيرو منذ ما يزيد
قليلا عن ثلاثين عاما : «ان فلاح اليوم ما يزال كما كان عليه منذ
ايام الدولة القديمة فى فترة اوج ازدهارها . وتبدلت عهود سيطرة
الفرس والاعريق والرومان والبيزنطيين والعرب والاتراك والفرنسيين
والانجليز . وكانت هذه السيطرة او تلك تمتد من عدة سنوات الى
عدة قرون ، ولكن الفلاح ظل كما كان . . .»

لقد اصبح هذا الحكم الذى اصدره ذلك الباحث الذكى
الشريف المخلص لقضية الفلاح حكما باليا بالنسبة لليوم الحاضر .
فلم يعد الفلاح كما كان بالامس فضلا عما كان عليه من ثلاثين
سنة . لقد ورث الكثير عن الماضى ، ولكنه لم يعد ينتمى الى
ذلك الماضى .

والفلاح بطبعه محافظ ، يميل الى التقليد ومحاكاة القديم لا
الى التجديد والاختراع . بيد ان رياح التغيير هبت على مصر ،
وبلغت كذلك الريف المصرى ، وراحت وتائر هذا التغيير تتسارع
وتتمتد لتشمل الاقتصاد وادوات العمل ونمط الحياة والقدرات —
وبشكل ابطأ بكثير— العلاقات الاسرية ، والصفات السيكولوجية .

وربما تكون التغيرات الحالية اعمق تغيرات حدثت منذ فتح العرب
لمصر ودخول الاسلام اليها . ولكنها لا تعنى دائما تحطيم القديم ،
فالجديد يتجاور مع القديم رغم ما يبدو احيانا من استحالة هذا
التعايش . فالعادات الاقتصادية القديمة والعلاقات الاجتماعية والتقاليد
تتلاشى او تتغير اشكالها ، ولكنها تبقى لدى بعض شرائح السكان
بالرغم من رياح التغيير المتزايدة .

ان تعدد طبقات الريف المصرى ، وتعايش القديم والجديد ،
وبالالى والعصرى ، الركود والتفجر ، لا يمكننا من التنبؤ للفلاحين
بحياة هانئة . فقد تراكم فى الريف الكثير والكثير من التشوهات
والمرارة والسخط . والهوة سحيقة بين الامال والواقع . واتسع افق
الكثير من الفلاحين فاصبحوا لا يقبلون باذعان ذلك الوضع الذى
يفرضه المجتمع عليهم وتلك الهوة التى تفصل المالكين عن المعدمين
والقصر عن الحظيرة .

لقد سبق ان اشرت الى ان اكثر من نصف سكان الريف لا
يفلحون الارض الان ولا يربون الماشية كسبا لقوت يومهم . فاذا
اضفنا الى ذلك زحف المدينة الجبار المستمر على القرية وسرعة
تنامى سكان المدن فلن يكون بوسعنا ان نقول عن مصر— بالمعنى
الدقيق للكلمة— انها بلد الفلاحين ، بل هى تتحول الى بلد
الحضرين .

الباب الثالث

رأس عملاق على جسد ضعيف

وفي هذا المكان ولدت القاهرة العظيمة «المحروسة» .
شوارعها الضيقة الطويلة الملتوية غاصة بالحوانيت
ودكاكين الحلاقة والمقاهى والكراسى والمناضد والبشر والحمير
والكلاب والجمال . ومنشدها ورواتها يروون بطولات «علي»
صهر النبى المعروفة للعالم اجمع . ولاعبو الشطرنج
فيها والمدخنون صامتون وحكماء . واسواقها تضاهى في
ضوضائها وغناها اسواق اسطنبول ودمشق . اما
الشيء المهم فهو ان فى القاهرة نصف الف مسجد ومئات
الآلاف من المقابر التى تثوى فى سكون الصحراء
المحيطة بها . وتسمو المساجد والمآذن فوق كل شىء .
والمساجد عريضة المناكب ، مخططة كالعباءات ،
تعلوها كثرة من القباب — العمام ، والمآذن مزخرفة ،
عالية ودقيقة كالحراب . أليس هذا هو العصور الاسلامية
القديمة ؟

ايقان بونين . الضوء البروجى . ١٩١٥

ليس هناك معيار يمكن ان نطبقه على القاهرة لان لها
معيارها الخاص الذى تتعامل به مع نفسها . . . ان المدينة
الحديثة تصطدم كالخفاش بجدار السماء المتربة
والصحراء القائظة الذى يشل حركتها . وهى تنمو كالصبار
وتصبح صاحبة ، فظة ، رثابة ، عملية ،

تستشق بنهم رياح القدر الاربع . . . القاهرة ، مثلها
مثل المصرى الحقيقى ، تقدم للضيف قلبها لا عقلها .

جيمس أولدريج . القاهرة . ١٩٦٩

القاهرة هى مركز جاذبية للبلاد بنفس الدرجة ان لم يكن
اكثر مما هى عليه باريس بالنسبة لفرنسا . ففيها
ربع مجموع السكان اما الدلتا والصعيد ففيهما عدد
متساو تقريبا من السكان . وتبدو القاهرة كأنها تمسك
بمروحة الدلتا و«يد» مصر العليا فى نقطة اتصالهما .
الدكتور جمال حمدان . شخصية مصر . ١٩٦٧

ظلت ارض مصر الخصبة على مر العصور مكسبا لا يقدر بثمن .
وكانوا يقطعون منها على مريض الرقع المخصصة للبناء . ولذلك
فأهم مدن الدلتا تقع اما بقرب البحر او بقرب الصحراء . ولم
يتبدل الحال الا فى الربع الاخير من هذا القرن عندما اندفع
طغيان الحضر والانفجار السكانى ليجعلا من طنطا فى وسط الدلتا
مدينة ضخمة . اما المدن الاخرى فعلى اطراف الدلتا :
الاسكندرية ، رشيد ، دمياط ، الزقازيق ، مدن قناة السويس .
وعلى مدى التاريخ لم تكن فى مصر العليا مدن ضخمة باستثناء
طيبة (الاقصر حاليا) . اما الان فالوضع هناك يتغير مثلما فى الدلتا ،
اذ تقترب اسيوط من حدود النصف مليون نسمة ، وتتمو اسوان
وقنا . وعموما فالاراضى التى اضافها السد العالى الى مصر لاتكاد
تغطى فاقد الاراضى الزراعية الخصبة التى يلتهمها البناء .
بيد انه اذا لم تكن هناك سابقا مدن ضخمة لا فى الدلتا ولا
فى مصر العليا ، فقد نشأت فى نقطة الوصل بينهما مدينة القاهرة .

ففى نطاق القاهرة الكبرى الحالى وجدت فى الماضى عواصم مصر
الموحدة السابقة : مدينة أون (عين شمس) ، وممفيس ، والفسطاط
والقاهرة الاسلامية فى العصور الوسطى . واصبحت القاهرة مركزا
قوميا طبيعيا . والعاصمة ليست همزة وصل بين الصعيد والدلتا
فحسب . فاحيانا ينتقل المسافرون من طرف الدلتا الى طرفها الاخر
عبر القاهرة ، لان خطوط المواصلات داخل الدلتا يصعب التوسع
فيها بسبب كثرة الترع والقنوات ، بينما تنطلق من العاصمة ،
كالاشعة ، طرق السيارات الجيدة .

وكانت الاسكندرية عاصمة لمصر فى العصور الرومانية —
اليونانية — البيزنطية . اذ ان سادة البلاد آنذاك قد جاءوا من البحر ،
وكانوا فى حاجة الى تدفق مستمر للجنود من الخارج ، كما كانوا
يخشون ان يذوبوا فى كتل المصريين التى تستوطن المركز . وفى
العصر الاسلامى — بعد القرن السابع الميلادى — بدأت الاسكندرية
تفقد اهميتها ، ولم تبعث نسبيا من جديد ، كبوابة مصر البحرية ،
الا فى القرن التاسع عشر . ولكنها كانت تعد الى عهد قريب
مدينة «الخواجات» بسبب كثرة الاجانب المقيمين فيها وخاصة
اليونانيين والايطاليين ، ولم يكن من الممكن ان تصبح مركزا للحياة
القومية .

وللقاهرة من حيث عمرها كعاصمة منافسون . فدمشق تستطيع
ان تتباهى بانها كانت عاصمة لآلاف السنين ، اما بغداد ، او
المدن القريبة منها ، فقد استطاعت بفضل موقعها الجغرافى ان
تصبح مركزا طبيعيا لبلاد ما بين الرافدين (العراق) .

لكن اهمية القاهرة لمصر كانت دائما اكبر بكثير من اهمية
دمشق لسوريا او بغداد للعراق . فخلافا عن سوريا او العراق لم
تعرف مصر فى العصر الميلادى مظاهر الاقليمية واستقلال المقاطعات

الذاتى او جنوح بعض الاطراف الى الانفصال . فمحافظات مصر لم يكن بامكانها وليس بامكانها ان تتواجد بصورة مستقلة ، الامر الذى كان ممكنا فى سوريا او العراق .

ولعل مصر هى البلد الوحيد فى العالم الذى حافظ على كيانه كدولة موحدة على امتداد ستة آلاف سنة دون انقطاع تقريبا باستثناءات نادرة . حتى عندما كان الغزاة يستولون عليها لم تكن تقسم بينهم بل تبقى من نصيب طرف واحد . اما سوريا والعراق القريبتين فكان الغزاة يستولون عليهما كليا او جزئيا ، ويقسمونهما ، ويفتونهما ثم يعيدون توحيدهما . ان الجهاز الاقتصادى فى مصر ، ونظام الري المركزى وتضاريس المكان والمواصلات النهرية عبر النيل والترع الملاحية ، وسهولة الوصول الى اى جزء من اجزاء البلاد . . كل ذلك تطلب وافترض الوحدة ، وكان غيابه يعنى التدهور والانحطاط . ولم تكن المشكلة التى تواجه الغزاة الاقوياء هى فرض سيطرتهم على مصر بل مشكلة الوصول اليها . اذ كان يكفى احتلال العاصمة حتى يتم احتلال البلاد والسيطرة عليها . فلم يكن هناك فى الاطراف اساس مادى لابداء اى نوع من المقاومة الطويلة الامد . والاستثناء الوحيد هم الهكسوس ، الذين اقتصر احتلالهم لمصر فى القرن السابع عشر قبل الميلاد على الدلتا فقط ، بينما انتقل مركز المقاومة طوال ثلاثمائة عام الى مصر العليا . بيد ان ذلك العهد بعيد غاية البعد عن ايامنا هذه وكثير من الامور فيه غير واضحة . وربما كان سبب ذلك الغزو راجعا الى كارثة طبيعية ادت الى انحسار مياه النيل فتحولت ارض الدلتا من مستنقعات وحقول الى مراعى ملائمة للهكسوس الرعاة .

ان البنية المركزية لمصر ، وابعادها ، وطابع النشاط الاقتصادى فيها تؤدى الى سيطرة العاصمة فى جميع المجالات ، لا فى

المجال السياسى فحسب ، بل وفى الصناعة ، والتجارة ، والحياة الثقافية . ولذا يقال ان لمصر رأسا عملاقا وجسدا هزيلا . هكذا كان الحال فى عهد الفراعنة ، وفى عصر البطالسة وفى ظل الحكام المسلمين . وهكذا الوضع اليوم ايضا .

لقد كان تاريخ مصر تاريخا لعواصمها . وكانت الاقاليم تطعم العاصمة وتمدها بالمواد الغذائية والسلع والموارد المالية وتحصل على مقابل قليل جدا وربما لا تحصل على شىء . ويشهد على دور العاصمة فى مصر الحديثة والمعاصرة اساطين علم التاريخ المصرى عبدالرحمن الجبرتى ومن قبله جلال الدين السيوطى وابن اياس . وبالطبع فقد لعبت بعض اقاليم مصر دورا هاما من بعض الوجوه ، غير ان ذلك جرى فى حدود ضيقة للغاية . وفى المائة سنة الاخيرة مثلا نمت منطقة قناة السويس ، ولكنها كانت هى ايضا خادمة القاهرة الفقيرة .

وفى عصر البطالسة بلغ سكان الاسكندرية حوالى مليون نسمة ، بينما لم يزد الحد الاقصى لسكان مصر عن عشرة ملايين نسمة . وفى العصور الوسطى كانت القاهرة واحدة من اكبر مدن زمانها ، على الرغم من التقلص الشديد لوزن مصر بالنسبة للدول الاخرى من الناحية السكانية والاقتصادية والسياسية والثقافية . وكتب الرحالة الايطالى بيلوتى فى القرن الخامس عشر : «القاهرة هى اكبر مدينة بين مدن العالم التى نعرفها» .

وفى عهد الحملة الفرنسية على مصر فى اواخر القرن الثامن عشر ، عندما كان سكان مصر لا يزيدون على ٢,٥ مليون نسمة ظل سكان القاهرة مع ذلك يمثلون عشر سكان البلاد . وتوقفت المدينة عن النمو نصف قرن بالرغم من ازدياد عدد الفلاحين بمقدار الضعف . وفى النصف الثانى من القرن الماضى اخذت النسبة بين

الاقاليم والعاصمة تميل لصالح القاهرة . فمن عام ١٨٨٢ حتى عام ١٩١٤ تضاعف عدد سكانها ، وخلال الخمسة والعشرين عاما التالية تضاعف العدد مرة اخرى ، ومازال معدل النمو فى ازدياد . ويسكن القاهرة الكبرى (بما فيها الجيزة وشبرا الخيمة وغيرها من المدن المحيطة بها) حوالى ١٠-١٢ مليون نسمة حاليا ، بينما تبلغ الزيادة السنوية ٢٠٠-٣٥٠ الف نسمة .
وتدخل القاهرة حاليا فى عداد أكبر عشرة مدن فى العالم ، وهى أكبر مدينة لا فى الشرقين الاوسط والادنى فحسب ، بل فى العالم القديم كله حتى الهند .

ان زحف العمران هو احد ملامح عصرنا . وقد انتشر فى العالم اجمع واخذ يغير صورة العالم وطابعه وبنيته الاجتماعية تغييرا جذريا . ومن الممكن ابراز فترتين مختلفتين تماما فى هذه العملية خلال القرن العشرين : فقبل اواسط القرن كان معظم الزيادة العامة لسكان المدن فى العالم يأتى من الدول الصناعية المتقدمة والاتحاد السوفيتى ، اما ابتداء من الخمسينات فتأتى هذه الزيادة من الدول النامية . وفى عام ١٩٢٠ كانت هذه الدول تقدم اقل من ثلث زيادة سكان المدن فى العالم ، وفى منتصف القرن قدمت حوالى خمسى الزيادة . والان تقدم حوالى النصف ، اما فى عام ٢٠٠٠ فسوف تضم هذه الدول ما لا يقل عن ثلثى سكان المدن فى العالم .
وقاهرة ليست استثناء من القاعدة . فمن السمات المميزة للبلدان النامية تفوق معدلات نمو العواصم والمدن الكبرى . وحتى نهاية هذا القرن على الاقل ستظل معدلات نمو المدن الضخمة فى «العالم الثالث» اعلى مما فى الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة .
وحسب تنبؤات الامم المتحدة فمن بين أكبر ثلاثين مدينة عملاقة فى العالم ستوجد تسع عشرة منها فى البلدان النامية . وستكون «الزعامة» فيها

لمكسيكو (٣٢ مليون نسمة) وسان باولو (٢٦ مليون نسمة) وريو دي جانيرو (١٩ مليوناً) وبومباى وكلكتا وجاكرتا (كل منها حوالى ١٧ مليوناً) ، اما القاهرة فسوف تبلغ حدود ٢٠ — ٢٨ مليون نسمة . وفى القاهرة يتركز الجزء الاكبر من الطاقات الصناعية . وتشكل القاهرة وضواحيها مركز جذب رئيسى لبناء المؤسسات الجديدة ، الامر المميز للدول النامية . وفى القاهرة ايضا فروع الشركات المتعدية للجنسية والبنوك الاجنبية .

والقاهرة مركز جبار للتقدم وللتحولات الاجتماعية والاقتصادية ومولّد للافكار وللأشكال الجديدة لاستهلاك السلع والخدمات ، ولكن نموها متضخم بصورة مرّضية .

ومثل هذا النمو للعاصمة يسمى احيانا بـ«ال عمران الزائف» . فهو نمو كمي لا يتواءم مع النمو الكيفى لوظائفها الاجتماعية-الاقتصادية . وبمعنى من المعانى فهذا نمو لشريحة طفيلية فى البنية الاجتماعية للمدينة على حساب البلاد بأسرها . فمصر تعيش من اجل القاهرة وليست القاهرة هى التى تعيش من اجل مصر .

ومن حيث الثقل الثقافى والسياسى والاقتصادى تطغى القاهرة على مصر كلها . ولو احصينا الاجور التى تنفق فى القاهرة ، ومجالات الخدمات ، والمواصلات ، وعدد العلماء والمهندسين والاطباء ، فسوف يكون ثقل القاهرة اكبر بكثير مما لو وضعنا فى اعتبارنا الحسابات السكانية البحتة . ففي القاهرة يتركز خمس سكان مصر وثالث الموظفين ومن النصف الى اربعة اخماس الاطباء والمهندسين ، اذا لم نحسب حساب المهاجرين للعمل فى الخارج . وقد أدى تركز الكوادر والادارة فى القاهرة وغيرها من المدن الى حرمان الريف المصرى من كثير من الاجهزة والخدمات .

لقد افرخ الاقطاع المصرى فى نهاية القرن التاسع عشر والنصف

الاول من القرن العشرين نوعا من الاقطاعيين الغائبين ، الذين كانوا يعيشون فى القاهرة او الاسكندرية ، وهناك يربون اطفالهم ويعلمونهم وينفقون اموالهم التى تأتيتهم من ريع املاكهم الزراعية . وانقسم المجتمع المصرى بين المدينة التى تنفق والقرية التى تنتج . وحتى فى الثمانينات فمازال الاقطاعيون وجزء كبير من البرجوازية الريفية يفضلون انفاق اموالهم فى العاصمة ، اما على شراء سلع استهلاكية اغلى ثمنا واما بتحويل النقود الى اقربائهم الذين هجروا الريف .

وفى عهد الرئيس عبد الناصر بدأ فى مصر تشييد مراكز صناعية على امتداد النيل : فى نجع حمادى (مجمع الالومنيوم) وفى أسوان (الصناعات الكيماوية) وفى حلوان (مجمع الحديد والصلب) وغيرها . كما تطورت منطقة قناة السويس التى هدمت اثر عدوان ١٩٦٧ ثم اعيد تعميرها . وجرى تشجيع الصناعات المحلية والفن الشعبى والفنون عامة . وقد ادى ارتفاع اسعار الارض فى القاهرة بصورة خرافية وازدياد اجور الايدى العاملة فى السنوات الاخيرة الى ابعاد جزء من الصناعات باتجاه الاقاليم ، بيد ان الوضع بصفة عامة لم يتغير ، اذ ان العاصمة لا تتفوق او تسيطر فحسب على البلاد بل وتقهرها قهرا .

ان المجتمع المصرى تكوّن تقليديا وفق مبدأ القاعدة العريضة المنخفضة والقمة الضيقة المرتفعة عاليا ، ولا توجد هناك تقريبا طبقات او فئات وسيطة . وفى العصر الحديث ايضا لم تعرف مصر ولا تعرف تقريبا ما يسمى فى الغرب بـ«الطبقة الوسطى» . فقمة المجتمع المصرى كانت جماعة من كبار الاغنياء يعيشون على حساب القاعدة المتكونة من الفلاحين الاجراء الفقراء او المعدمين او اشباه البروليتاريا . وقلص العهد الناصرى ملكية كبار ملاك الاراضى ،

ولكن فى عهد السادات ظهرت فئة «الاغنياء الجدد» فى قمة الهم ، وهى الفئة التى تكس ثروتها مباشرة او غير مباشرة من عرق الفلاحين والعمال .

وفى مجال التعليم تقوم نفس البنية الهرمية بدون «الطبقات الوسطى» . فمصر تكاد تكون اكثر الدول النامية رقيا من حيث نسبة الحاصلين على تعليم عال . وفى الوقت نفسه تعتبر نسبة الامية فى مصر من اعلى المستويات . وقبل الثورة كانت مصر تنفق على التعليم العالى ضعف ما تنفقه على التعليم العام والمدارس المهنية . وقد تغير هذا الوضع قليلا ولكن دون تحول جذرى . وهكذا نشأ فى التعليم ايضا نظام يقوم فيه الرأس الكبير على جسد هزيل وسيقان ضعيفة .

وفى أحوال غير نادرة فاق دور مصر الدولى امكانياتها الحقيقية . فقد كانت طموحات الحكام اقوى من عتادهم . وكثيرا ما كانت مصر تنفق على الخارج اكثر مما تنفق على الداخل . لقد كان الرأس الكبير يحاول دفع الجسد الهزيل والسيقان الضعيفة الى التحرك وكأنما الجسد عملاق جبار .

وفى عهد عبد الناصر كانت القاهرة بمثابة عاصمة غير رسمية للعرب جميعا . وفى هذا الصدد عاد عليها وضعها الجغرافى بل وحجمها الكبير بالنفع . ولكن فى عهد السادات ظهر بصورة مجسمة الخلل بين العاصمة الضخمة وبقية البلاد التى كانت بمثابة ضاحية . ولن نبالغ اذا قلنا ان مصر هى القاهرة . والمصريون يطلقون كلمة «مصر» (باللهجة العامية : مَصْر) على القاهرة وعلى البلاد معا . فالمساحة المسكونة فى مصر جد قليلة ، ولذلك تصبح مصر كلها مثل ضاحية «للمدينة العملاقة» ، خاصة اذا وضعنا فى الاعتبار ان القاهرة والاسكندرية قد تحركت كل منهما نحو الاخرى ، اذ ظهرت

حول القاهرة عدة مدن تابعة ، بينما اقترنت منطقة قناة السويس منها بفضل شبكة الطرق الحديثة . والقرى التي كثرت فيها المنازل المتعددة الطوابق والتي لا يعمل أكثر من نصف سكانها في الزراعة تزيد هي الاخرى من الاحساس بطغيان العمران والمدن الضخمة في مصر كلها .

ان النسبة بين العاصمة وبقية البلاد هي تقريبا كالنسبة بين القصور والمعابد والاهرامات في مصر القديمة وبين البيوت الطينية لبسطاء المصريين . فالمركزية المطلقة وسيادة مدينة واحدة كانت مجرد تعبير ادارى وحضرى عن البنية الاقتصادية والاجتماعية لمصر . وكانت سماتها المميزة هي استغلال السكان جماعيا من قبل السلطة الحاكمة ، وتوزيع الدخل من اعلى الى اسفل ، والاستبداد السياسى والبيروقراطية الجبارة .

لقد تميزت مصر دائما بجهازها البيروقراطى الكبير . فمنذ ايام الفراعنة والدولة تؤدى وظيفة موزع اعمال الرى الى جانب وظائفها الاخرى ، مما ادى الى ظهور جيش من الموظفين . ولكن البنية البيروقراطية ، بالاضافة الى الغرض الوظيفى من وجودها ، كانت ذات قدرة على حماية النفس وعلى «اعادة الانتاج الموسعة» للذات . فكان الموظفون يتكاثرون جيلا اثر جيل ويعيشون لا من اجل المجتمع بل من اجل انفسهم وعلى حساب المجتمع وفوق المجتمع . وكثير من المؤرخين والباحثين الاجتماعيين يعتبرون البيروقراطية المصرية فى عهد الدولة الجديدة — الالف الثانى قبل الميلاد — اصلا لجميع البيروقراطيات الحديثة . والظاهر ان سيكولوجية الموظفين ذاتها بدأت تتكون فى ذلك الزمن السحيق البعيد عن زمننا بعدا لا يصدق . وفى مصر القديمة كانت كلمات : الادارى ، الموظف ، صاحب السلطة تعتبر من المترادفات ، وهى كذلك الى

حد ما فى عصرنا الراهن . ولنتذكر رسالة الكاتب الموظف فى مصر القديمة الى ابنه : «ان نقاش الحجر يصادف احيانا حجارة قاسية . . . والحلاق يمارس عمله حتى فى ساعة متأخرة من الليل . . . والبستاني ينقل اشياء ثقيلة ولذلك تؤلمه يداه وعنقه . . . والفقير الذى يعمل فى الحقل لا يرتاح ابدا من عمله الشاق . . . وحظ الناسج العامل على نوله اسوأ من حظ المرأة ، وحظ الرجل الذى يعبد الطريق بالحصى اسوأ الحظوظ ، فهو دائما يطلب الصدقة . . . وذلك الذى يغسل ثيابه على شاطئ النيل يقف قريبا من التماسيح . فانظر ، ان مهنة الكاتب وحدها هى التى تخلصك من العمل الشاق» .

أليس الموظف البيروقراطى المصرى المعاصر مستعدا لتكرار نفس هذه الكلمات ؟

لقد كانت العاصمة ، وهى المركز العسكرى السياسى والحرفى والتجارى لمصر دائما ، مركزا ايضا للجهاز الادارى البيروقراطى . وكانت القاهرة مدينة للموظفين ، والموظف فى مصر تمتع دائما بالهبة أكثر مما فى الغرب ، وكان اجره دائما افضل من غيره . وقد تنهار اسعار القطن ويفلس الفلاحون ، ولكن القاهرة تعيش حياة مزدهرة بفضل اجور الموظفين الثابتة ، بل وتكسب من انخفاض اسعار السلع الزراعية . وفى عهد الملك فاروق كان نصف النفقات الحكومية يخصص لصرف رواتب الموظفين . وكان للحكومة وسلطة الدولة فى مصر دائما هبة كبيرة وكانت تثير الرهبة أكثر مما تثيره الحكومات فى البلدان ذات النظم البرلمانية . وكان بريق السلطة العليا ينعكس كذلك على الموظف الذى يمثل التجسيد الحى للجهاز الحكومى ، وكان الشبان من خريجي الجامعات يتسابقون على الالتحاق بفتحة الموظفين طمعا فى الامتيازات التى تتمتع بها ،

فكانت نسبة الموظفين ذوى المستوى التعليمى العالى نسبيا فى الجهاز الحكومى المصرى اعلى مما فى الدول الغربية المتقدمة ، الامر الذى ضاعف من وزن وهيبة البيروقراطية فى مجتمع تنتشر فيه الامية . وظهر فى مصر تعارض بين «الميرى» — أى كل ما يتعلق بالدولة — وبين «الطين» ، اى كل ما يتعلق بالارض والهموم المرتبطة بحياة الكد .

وفى الثلاثين — الاربعين سنة الاخيرة حدث فى مصر ، وبالتالى فى القاهرة — تضخم سريع للغاية للجهاز البيروقراطى . وقد حدث ذلك من جهة لانه كان لا بد من ايجاد عمل لخريجي الجامعات والمدارس حتى لا يتحولوا الى شريحة متمردة تهدد بالخطر ، ومن جهة اخرى لان نمو القطاع العام فى الاقتصاد ادى الى ظهور الدمل المعهود : البيروقراطية الواسعة العاملة فى الشئون الاقتصادية والمالية . ويبلغ عدد اصحاب الاجور فى الدولة ، بما فى ذلك العمال والمعلمين ، حاليا حوالى ٢,٥ مليون شخص ، منهم حوالى مليون يتمركزون فى القاهرة الكبرى . والجزء الاكبر من هذا المليون هم الموظفون بالمعنى المعهود لهذه الكلمة . ويقول الباحث المصرى الدكتور جمال حمدان بمرارة فى دراسة له عن الجهاز البيروقراطى فى القاهرة : «كلما ازداد عدد الموظفين انخفضت كفاءتهم» ويقترح بحسم «وضع حد لتكاثر البيروقراطيين ، فذلك هو الحل الوحيد !» . ويبقى اقتراحه صرخة من قلب مصرى معذب . اما جميع القرارات ، بما فيها القرارات الثانوية التى تخص الاقاليم ، فما زالت الى الان تصدر فى القاهرة . ولحل ابسط مشكلة ينبغى السفر من الاقاليم الى القاهرة . ومن الممكن اغراق اى مسألة فى بحر الاوراق او نقلها من مكتب الى مكتب ومن طاولة الى طاولة . هذا اذا لم يكن لديك مرشد كفوء فى متاهات البيروقراطية وكيس نقود محشو

باوراق البنكنوت الجديدة والتي تفتح لك جميع الابواب وتضع كافة التأشيرات المطلوبة على كل الاوراق فى غمضة عين ، وذلك لان الجهاز البيروقراطى مرتش بقدر ما هو عديم الكفاءة . واذا كان الموظفون فى حلقاته الدنيا يأخذون جنيها او خمسة جنيها مقابل وضع التأشيرة فى الجواز او استخراج اى شهادة تافهة فالرشاوى فى مستوياته العليا قد تبلغ عشرات الملايين .

ويوم العمل لدى الموظف المصرى يبدأ بتناول فنجان القهوة التركية او الشاى مع كوب ماء وقراءة الصحف . ويقوم الساعى باعداد القهوة والشاى تحت الدرج او فى احدى الغرف الخلفية ليزيد بذلك دخله المزرى بتقديم المشروبات «للافندى» الجالس على مكتبه . ويتلخص عمل الموظف فى قضاء ساعات العمل المحددة والتنصل من حل المشاكل لا محاولة البت فيها . فاذا ما راح احدهم يعمل بهمة تنهال عليه السخريات ويعتبر من معكرى الصفو العام . اما الحديث عن واجبات الوظيفة والمصالح العليا فيستخدم للتستر على الدسائس والمكائد والعلاقات الاشبه بعلاقات المافيا وعلى الصراع من اجل المناصب المريحة . وتعتبر صلات القرابة والولاء الشخصى القوة المحركة الرئيسية للموظف فى صعوده على سلم الوظيفة .

وها هو المؤذن يؤذن لصلاة الظهر ، فينزح الموظفون احديتهم ، ويصطفون مستقبلين الكعبة فى الممرات وغرف المكاتب ، مظهرين بذلك حرصهم وغيرتهم على الدين . واولئك الذين يحملون فى جباههم «زيبية» داكنة اللون من كثرة السجود يعتزون بها اعتزازهم بوسام حربى .

وتنتهى الصلاة فيعود الموظفون الى تناول الشاى والقهوة ، ثم تحل فترة الغداء التى تمتد ساعة او ساعتين ، اما بعد الظهر فمن المستحيل ان تجد احدا من المسؤولين فى معظم المكاتب .

وتنصب العجرفة البيروقراطية والتعالى على رؤوس الالهالى المساكين اصحاب الشكاوى . فهنا يستعرض الموظف ماذا يكون «الميرى» وماذا يكون «الطين» . ويالها من لهجة متعالية ، وياللاهمية التى يتظاهر بها ، وكم هو مشغول بشئون الدولة ! اما اسلوب عمله فهو : التهرب من حل المشكلة ، ودفع الشاكى الى الحضور مرة ثانية وثالثة ، والاجابة بـ«لا» قبل النظر فى الموضوع . ولن تستطيع استرداد رحمة «موظف الحكومة» الا بورقة مالية ذات قيمة مناسبة . ان غياب المسؤولية الفردية وتوزيعها بين عدد كبير من الاشخاص والحرص على ان يكون الجميع مسئولين عن الامر الواحد وبالتالي فليس هناك مسئول . . . ذلك هو الاساس الذى يعمل عليه — او بالاحرى لا يعمل — الجهاز البيروقراطى . ويقترن سحق روح المبادرة بالايمان بالتعليمات كترياق يشفى من كل العلل . فاذا ظهرت مشاكل وتعقيدات فلا بد اذن من تعليمات جديدة ، يصدرونها بكل «الحماس الادارى» . ولو اتبعت هذه التعليمات حرفيا لتحول الكبار الى اطفال صغار ، ولكنهم لحسن الحظ ينسونها بنفس السرعة التى اصدروها بها .

ويبقى الجهاز الحكومى المصرى محصنا ضد الرقابة الشعبية . وتضطر السلطات العليا الى مراعاة المصالح الخاصة لهذا الجهاز . وقد غرق الكثير من اصلاحات عبدالناصر فى روتين البيروقراطية وأحبطها التخريب السافر من جانب جهاز الدولة ، اما طفيلية الطبقة الحاكمة فى عهد السادات فقد ضاعفت منها طبيعة البيروقراطية المصرية ذاتها .

ومهما يكن من أمر البيروقراطية المصرية فلندعها الان وشأنها ولنعد الى القاهرة .

لو كان لديك ما يكفى من القوة والطاقة فتجولت فى انحاء

هذه المدينة الضخمة وارجائها ، لروت لك احجارها وتمثيلها
وآثارها الكثير عن التاريخ العاصف الخصب بلا حدود لهذه المدينة
العريقة . فاذا مضيت من ناطحات السحاب الصغيرة عبر الحدائق
المنقولة عن حدائق شوارع باريس في النصف الثاني من القرن
الماضى ، متجها الى متاهات حوارى وأزقة الغورية فى قاهرة العصور
الوسطى ومصر القديمة ، وأينما وليت وجهك فستجد هنا وهناك
جواهر متفرقة او مجموعات منها فى صورة أروع آيات العمارة .
ولكن درب الفضول والمعرفة أو المتعة الجمالية قد جذب اليه عددا
لا يحصى من الرحالة والعلماء ، فتركوا لنا من المذكرات ما يجعل
المرء غير راغب فى تكرار ما قطعوه من شوط .

سأقول فحسب انه مثلما أصبح برج ايفل عن غير وجه حق
رمزا لباريس ، كذلك أصبحت قلعة محمد على ، المشيدة
فى عهده ، بطاقة سياحية للقاهرة ، وايضا عن غير وجه حق .
فالقلعة ومسجدها هى نسخة طبق الاصل عن مساجد اسطنبول
بمآذنها الاشبه بالحراب وصحون قبائها المقلوبة . اما النموذج الذى
اخذت عنه المساجد التركية فهو مسجد ايا صوفيا فى اسطنبول .
وكان المصريون منذ العصر الفاطمى وخاصة منذ العصر المملوكى قد
توصلوا الى اسلوبهم الخاص فى عمارة المساجد ، وهو الاسلوب
الذى يجمع بين المآذن ذات الزخارف المعقدة المحفورة فى الحجر
وبين قاعات الصلاة المستطيلة . والمساجد المصرية حتى يومنا
هذا تكرر نماذج ذلك العصر .

بيد انه باستثناء مساجد العصور الوسطى ، والمدارس الدينية
القديمة والخانات و«السبل» (جمع سبيل) ، يصعب ان نجد اسلوبا
معماريا «مصريا» او «قاهريا» . فالنزعة العصرية تطبع كل شىء
بطابع الكسموبوليتية والوظيفية المجردة . ففنادق «الميريديان»

«هيلتون» و«شيرتون» يصعب ان تميزها عن اشقائها فى العواصم الاخرى . وانعكاس رسم الجزء الاوسط العصرى من مدينة القاهرة على خلفية سماء الغروب القرمزية لم يعد هو المآذن والقباب بل مستطيلات المباني العالية التى توشك ان تصبح ناطحات سحاب . وقد تراحت هذه المباني على شاطئ النيل فى منطقة الجزيرة والى الجنوب منها . ولا نستطيع ان ننكر رشاققتها وانسجامها الموفق مع امواج النيل العظيم ومع ادغال النخيل التى تبدو اشبه بالزهور المنزلية عند اقدامها . وقد اندمجت فى المنظر العام لمدينة القاهرة ، ولكن طرازها المعمارى طراز عالمى . اما الاحياء الجديدة المشيدة من الكتل الخرسانية الرمادية فى ضواحي المدينة فلا تحتاج لمزيد من الكلام .

ومع ذلك فسأكرر القول المعتاد : القاهرة مدينة المتناقضات . وأضيف من عندى : ان تناقضاتها حادة حدة التناقض بين صفرة رمال الصحراء وخضرة وادى النيل ، بين الاضواء والظلال ، بين الحياة والموت ، بين الماء واليابسة ، بين القصر الغارق فى الزهور فى الجزيرة والكوخ المصنوع من الخرق البالية فى مصر القديمة ، بين الممتطى ظهر حمار والمتربع فى سيارة «مرسيدس» .

والقاهرة تنمو وتتشعب كالصبار . ليس هذا فحسب ، ولكنها تنتفخ وتغص بالسكان بصورة تفوق كل المعدلات المعقولة . وزحامها البشرى ضاغط ، تحس به احساسا جسديا والشوارع غاصة بالبشر من الصباح الى المساء وكأنها تشهد مظاهرات مستمرة . وعبر الكتل الكثيفة تشق طريقك بصعوبة .

وساعة الذروة فى شوارع القاهرة تمتد من الصباح الى وقت متأخر فى المساء . وتقتنع غير مرة بأن السير على القدمين فى نزهة غير سارة ولمسافة غير قصيرة تحت شمس افريقيا من الجزيرة الى

وسط المدينة هو اسرع من ركوب السيارة التى سيكون عليك ، علاوة على ذلك ، ان تقضى نصف ساعة بحثا عن موقف لها . وبدأت تظهر فى الشوارع طوابق ثانية . . . كبارى علوية احيانا من طابقين . وقد خففت مؤقتا من ضغط الحركة فى الطرق الرئيسية ، ولكن احيانا تقابل فوق الكبارى نفسها «ذيولا» من السيارات تمتد لعدة كيلومترات ، بينما تسمم غازات العادم سكان الطوابق الاولى فى المنازل الواقعة على جانبى الكبارى التى تبدو وكأنها تسبح فى ضباب أزرق . ان نسبة الغازات السامة فى وسط القاهرة تبلغ درجة عالية من التركيز حتى انك لتشعر اذا تجولت فيها طويلا ، بالغثيان الذى يصيب الانسان فى حالة التسمم ، وقد رأيت بعينى بعض الاجانب مرتدين اقنعة واقية .

وباصات القاهرة مزدحمة الى درجة تفوق الوصف ، ولا يسعك الا ان تدهش من انها تستطيع ان تتحرك . ويتعلق الركاب بدرجات الباص ويجلسون فى النوافذ . والمحصل يشق طريقه بينهم ، تارة داخل الباص وتارة خارجه ، ويأتى بحركات بهلوانية بارعة ، متمكنا من تحصيل الاجرة وقطع التذاكر . وما أن تصل هذه الكتلة المائلة الهابطة الى مكان خال من الشارع حتى تنطلق بسرعة كبيرة ثم تعود بعد لحظات الى الوقوف عند تقاطع الطرق حيث يتساوى فى زحمة المرور سيارة الليموزين الفارهة وباص الركاب بل وحتى الحمار الذى يجر عربة .

ولا يزال الحمار يمثل وسيلة نقل منتشرة فى هذه المدينة الضخمة . وعندما كنت طالبا فى القاهرة كنت ارى قوافل الجمال التى يسوقها السودانيون على الشاطئ الغربى للنيل الى سوق الجمال الشهير ، وحيانا ارى جمالا محملة بالخضروات والفواكه . اما الان فقد اختفت الجمال تقريبا من شوارع القاهرة ولكن الحмир بقيت

ويستخدمها جامعو القمامة الذين يجمعون وينقلون مخلفات المدينة العملاقة ويقومون بتصنيفها لاستخدامها مرة ثانية وثالثة في الاحياء التي يقطنها المعدمون . وقد تأتي اسرة فلاحية بكامل افرادها الى القاهرة للتسوق على ظهر عربة ملونة يجرها حمار ، وفي الليل وقرب الفجر يحمل الفلاحون على ظهر العربات التي يعلق فيها مصباح خضرواتهم الى سوق الخضار في القاهرة : البقدونس والكسبرة والكرات والشبت والخس والجرجير . وبفضل ما تتمتع به الحمير من هدوء وصبر وفطنة فانها تمضى غير عابثة بحركة المرور وزحام السيارات . والحمار هو اقدم حيوان نقل في الشرقين الاوسط والادنى ، وسبق استخدامه ظهور الخيول والجمال . ويرى رجال الاقتصاد ان الحمير تستهلك الكثير من العشب ومن الافضل للفلاح ان يقتنى حيوانا آخر أكثر توفيراً وانتاجية ، اما اهل المدن فعليهم ان يستخدموا الدراجات النارية . ولكن كيف يفترق الفلاح عن هذا المساعد المريح البسيط ، ومن أين للناس بالنقود لشراء الدراجة النارية ؟ أليس من الاسهل شراء دراجة عادية ؟

ورأبو الدراجات في القاهرة نوعان : فريق ادرك منذ زمن طويل انه من الاسهل والاسرع الوصول الى العمل باستخدام عضلات الساقين مما لو استخدم طاقة البنزين المحترق . وهذا الفريق من الناس يتميز بنوع من الهدوء والانضباط . اما الفريق الاخر فهم السعاة والموزعون وصبيان المطاعم والمقاهى الذين يستطيعون حمل صينية مملوءة بأطباق الكباب الساخن او فناجين القهوة واكواب المياه او كعك السميط ويناورون بحملهم في براعة بين طوابير السيارات التي بحت زماراتها من كثرة الزعيق وكأنهم يسرون بدراجاتهم في شوارع خالية . وساعى البريد يضع على مؤخرة الدراجة حقيبته الثقيلة ، وبائع الخضروات ينقل طلبيات الزبائن من الخضروات

والفواكه ، وصبى المكوجى يحمل الى الزبون بدلته المكوية
النظيفة .

وانا لم ار حركة مرور اكثر اضطرابا وفوضى مما فى القاهرة .
ان اسطنبول وطهران المهملتين تبدوان بالمقارنة معها رمزا للانضباط
والنظام . وقد حاولت ذات مرة اثناء ساعة الذروة ان اسير بسيارتى
فى شارع من شوارع القاهرة ذى اتجاه واحد ، واذا به غاص
بالسيارات القادمة من الاتجاه المضاد . ووقف كل مخالفى قواعد
المرور بحسم ضدى انا الذى حاولت التقييد بها . وتراجعت اذ ادركت
انه ينبغى ان يتبع المرء فى كل بلد عاداته وقواعده وان يخضع
ايضا لعدم وجودها .

ان الانعطاف بالسيارة مع وجود اشارة تمنع ذلك امر عادى
تماما . فاذا اوقفك شرطى المرور مد اليك يده بكل بساطة فتلقى
انت فى راحته بقطعة نقود . ورجال الشرطة فى مصر ليسوا مثل
جنود الامن المركزى المخصصين لقمع الشغب . ورواتبهم منخفضة
الى درجة ان قطعة النقود من فئة الخمسة قروش تعتبر اضافة ملموسة
الى دخلهم .

وحوادث الطرق كثيرة ، ولكنها فى الغالب لا تسجل فى
الاحصائيات ، فأهل القاهرة لا يحبون تسجيل الحوادث فى محاضر
الشرطة . والانقاذ من فوضى المرور هذه يتمثل فى عدم وجود
سائقين سكارى على الاطلاق وفى سرعة ردود الفعل لدى السائقين .
ومع ذلك تشعر بالتوتر دائما اثناء قيادة السيارة فى القاهرة ، فأنت
تظل تفكر بأنه ستخرج لك من هذا الشارع الجانبى سيارة مندفعة
او عربة يجرها حمار . وعدم انضباط السائقين يقام من زحمة
المرور .

اما ترامات القاهرة فهى بلا جدران وبلا نوافذ ومحملة بالناس

فيما يشبه العناقيد ! اما قطارات الضواحي ، مثل قطار حلوان — باب اللوق ، فتبدو مثل قطاراتنا في بداية العشرينات الغاصة بالبشر داخلها وخارجها وفوق اسطحها !

ان القاهرة بحاجة ماسة الى مترو أنفاق . وقد تأجل بناؤه عشرات السنين بسبب قلة الموارد . ولكن البناء بدأ اخيرا في الثمانينات . ومن المفروض ان يصل اول خط للمترو بين محطتى القطارات في باب الحديد وباب اللوق . وقد بدأ تشغيل المترو فى اكتوبر عام ١٩٨٧ .

لاحظت فى زيارتى الاخيرة للقاهرة ان حركة المرور اصبحت اكثر انضباطا الى حدما . ولم تعد الخمسة قروش تجدى نفعا فى حالة المخالفة الخطيرة ، بل فرضت غرامات رهيبه تصل الى خمسين ومائة جنيه ! وظهرت تاكسيات الخطوط التى لم يكن لها وجود من قبل ، وازداد عدد الباصات . ولكن الوضع فى واقع الامر لم يتغير الا قليلا .

ان عذاب المواصلات ليس الا جانبا من الصورة . فقد شيدت جميع مرافق القاهرة انطلاقا من ان الحد الاقصى لسكان المدينة سيبلغ ثلاثة ملايين نسمة .

فمياه الشرب لا تكفى . ولا توفر مضخات الضغط وانابيب خطوط المياه ما يكفى لحاجة المدينة الضخمة رغم ان النيل على مرمى ذراع . وفى احيان كثيرة تتدفق من الانابيب مياه قدرة لان منشآت التنقية قديمة متهالكة او لا تعمل بالطاقة الكافية .

ومياه النيل رائحة اذا ما تمت تنقيتها . ولهذا يكثر الان فى منازل الاثرياء اقامة اجهزة تنقية فردية . لقد كانت «القلة» بالنسبة لنا فى ايام التلمذة بمثابة «الثلاجة» و«المرشح» . وترشح المياه على

جدران القلة ثم تبخر فتبرد الماء داخلها وتحافظ على برودته المنعشة باستمرار وخاصة في ايام القيظ . وتنتشر القلل في جميع انحاء مصر . وتوضع في القاهرة ازيار في كثير من مداخل البيوت ليرتوى منها المارة ويغرفون الماء بعلبة من الصفيح موضوعة بجوارها بدلا من الكوز .

ان انتشار العمران والتصنيع يؤدي الى تلوث النيل . وبالمقارنة مع الراين او الميسيسيبي يبدو النيل نهرا بكرا شديد النقاء ، رغم ان بقع الزيوت الصناعية تسبح في مياهه . وليس في القاهرة بعد اماكن ملوثة مثل بحيرة مربوط الوردية الساطعة التي لوثنها المصانع الكيماوية في الاسكندرية . بيد ان انايب المجارى في القاهرة لا تجرى فيها مياه الابار ابدا .

ومصر مهددة بتلوث بيئتها . ويحمل هذا التهديد طابع الخطورة خاصة وان التوازن هنا هش للغاية بين الارض الزراعية التي فلحها الانسان وبين الصحراء . وبفضل السد العالي لا يزال النيل يعطى بانتظام حتى الان من المياه ما يكفي لسد حاجة المدينة العملاقة والزراعة . ولكن هل سيكون في قدرته سد حاجة مصر بعد عشر او عشرين سنة ؟

والقاهرة تنمو بسرعة وتنقض باحيائها الجديدة على الصحراء ، وعلى الحقول ايضا للأسف . ومع ذلك فالمساكن لا تكفى ، ولن تكفى خلال الخمسين عاما القادمة على الاقل . وهناك شقق تطل على النيل في عمارات بها حمامات سباحة فوق السطح ، وثمان الشقة نصف مليون جنيه وتبقى سنوات في انتظار من يشتريها من الاغنياء الجدد المحليين او من الامراء السعوديين . ومع ذلك فكل يوم — وانا لا ابالغ — تنهار البيوت البالية المكتظة على رؤوس ساكنيها في بولاق او العجوزة او السيدة زينب . ففي القاهرة ثلاثمائة الف

مسكن فى حاجة الى التصليح العاجل ، ولكن معظمها لن يتم
تصليحه ابدا . والناس لا يغادرون المنازل الايلة للسقوط ذلك لانه
لا توجد مساكن اخرى ، واذا وجدت فبأسعار لا يقدرّون عليها .
وثمة قوانين تحد من الايجار ، وهناك ضرائب عالية على دخل
اصحاب العقارات السكنية ، ولكن هناك ايضا «خلو الرجل» .
فأنت مضطر الى دفع مبلغ معين لصاحب الشقة (اذا شئتنا الصدق
فهى رشوة) من أجل ان يسمح لك باستئجارها . وهذا المبلغ لا
يسجل بأية وصولات وكثيرا ما تزيد قيمته عن قيمة ايجار الشقة
لمدة ثلاثين شهرا .

وقلاحو الامس يسكنون اينما كان وكيفما كان . ولا تستطيع مثلا
ان تقول ان «القاهرة محاطة بالعشش» ، لان العشش موجودة فى
قلب القاهرة وفى اطرافها . وهى تزحف على الاحياء الراقية . ولما
كان المطر لا يسقط فى مصر تقريبا فقد احتلت عائلات باسرها
من المشردين اسطح المنازل الفاخرة ، وهم يؤدون للبواب شتى
الخدمات مقابل السماح لهم بسكنى السطح . وحتى لا تقع عليهم
اعين السكان يصعدون عبر سلالم الخدم وقيمون وسط الصناديق
القديمة وقطع الصفيح الصدئة . وكثيرا ما يربون هنا عنزا او دجاجا ،
بل وقد يزرعون حديقة خضروات فى صناديق مملوءة بالتربة .
ولا داعى للدهشة اذا ما سمعت فى هدأة الفجر فى الزمالك او
ميدان الاوبرا صباح ديك او ثغاء عنز .

ان «مدينة الموتى» المصرية ، مئوى الخلود والطمانينة الابدية
وأرض الدعوات والاحزان ، قد لفتت انتباه الكاتب الروسى الكبير
ايفان بونين فى حينه . ولكن «مدينة الموتى» الواقعة على يسار
الطريق القادم من مطار القاهرة الدولى اصبحت الان احد احياء
القاهرة المكتظة بالسكان . ففى تلك المقابر غرف صالحة للسكنى ،

ومن ثم راح الاحياء يزاحمون الموتى . فى البداية اندفع الى هنا المهجرون من منطقة قناة السويس التى تحولت بعد العدوان الاسرائيلى عام ١٩٦٧ الى جبهة قتال فيما عرف بـ«حرب الاستنزاف» . وبحلول السلام بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ عاد جزء منهم الى بورسعيد والاسماعيلية والسويس بينما بقى الآخرون ، واحتل سكان جدد اماكن الراحلين . ويبلغ سكان «مدينة الموتى» حاليا ثلاثمائة وخمسين الف نسمة ، وبها خطوط باصات ، وكهرباء ، وخط انابيب مياه ومدارس .

لقد تبدد سكان المقابر فى صراخ ابواق السيارات المزعج وصياح باعة الخضروات او الحلوى وزعيق الصبية وصخب الجمهور . وتوجد فى «مدينة الموتى» ورش صغيرة جدا ودكاكين ، وبعض اقرباء الموتى من الاثرياء يدفعون اجورا للعناية بمقابر ذويهم فيكفلون بذلك دخلا ضئيلا لبعض سكان المقابر . غير انه لا توجد هنا مدخنة واحدة يتصاعد منها الدخان ، ولا ورشة ذات قيمة يمكن ان نسميها «مشروعا» . فكيف يعيش معظم سكان المقابر وغيرهم من سكان العشش ؟ ان الاجابة على هذا السؤال توجد بالنسبة لى عند حدود الغيبات الغامضة . فمن الأسهل ان تشرح كيف يعيش شحاذو القاهرة من ان توضح ما هى الوسيلة التى يكسب بها قوت يومهم هؤلاء الذين يطلق عليهم «البروليتاريا الهامشية» : من المعدمين واشباه البروليتاريا واشباه العاطلين عن العمل والاشخاص الذين ليس لهم مصدر دخل ثابت .

ان ثلثى القادرين على العمل من سكان القاهرة ليس لهم مهنة محددة . وخمسمهم يعمل فى قطاع الخدمات ، والعشر فقط يعمل فى المؤسسات الصناعية والورش .

وانتشار العمران فى مصر ، كما فى عشرات البلدان الاسيوية

والافريقية ، يسبق انتشار التصنيع ، وهو وضع معاكس للوضع الذى مرت به اوربا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداية القرن العشرين . فالفلاحون المعدمون يقذف بهم الى المدن ، وهناك لا يجدون لانفسهم عملا مستقرا فيضمون الى صفوف «البروليتاريا الهامشية» . وحتى تتجنب السلطات انفجارا اجتماعيا فقد تراجعت جميع الحكومات ورضخت لضغوط هذه الكتلة .

والمؤسسات والمصالح الحكومية والشركات مكتظة بالعمال والكناسين والقهوجية والبوابين والحراس الذين لا حاجة اليهم . وزيادة الانفاق على الرواتب تؤدى الى خفض ربحية الانتاج ، وتقضى على امكانية حفز العمال وتشجيعهم ماديا . ولكن فى مقابل ذلك يضعف التوتر الاجتماعى ويحصل المههدون دائما بالبطالة على كسرة خبز . اما الموظفون الزائدون عن الحاجة فى المؤسسات البيروقراطية فحدّث عنهم ولا حرج !

ان دعم اسعار بعض السلع مثل الخبز والزيت والنباتية والسكر يتيح امكانية الافلات من الموت جوعا حتى لاكثر المعدمين فقرا . ولذلك تجدهم يفضلون قضاء الوقت فى المدينة دون عمل على الكد الشاق فى القرية مقابل اجر زهيد . ان عددا كبيرا من «الهامشيين» الحضر مضطرون الى التطفل ، ومكمن الخطورة هنا انهم يألفون نمط حياتهم هذا .

وفى زحام القاهرة تلقى الشحاذين الملحفين الذين يلحون فى طلب الحسنة (البقشيش) . ونادرا ما تجد وصفا لمصر بقلم احد الاجانب الا وفيه تعبير عن الضيق منهم . ورغم انى ادرك من الناحية الانسانية هذه المشاعر واشاطر اصحابها اياها الى حد ما ، فبؤدى ان اوضح ظاهرة الشحاذة الشاذة التى لا ترجع الى اسباب اجتماعية فحسب . فكثير من المسلمين على يقين من ان الشحاذة ليست

رذيلة وليست عارا . افليس عمل الخير ركنا من اركان الاسلام ؟
ولذلك فطلب الصدقة هو نوع من المساعدة للاغنياء على اداء
واجبهم الدينى . ولا ينبغي ان تشكر مقدم الصدقة على ما قدمه بل
تشكر الله . ان البطالة الاضطرارية التى تستمر اعواما تولد
سيكولوجية الطفيلية الاجتماعية والصعلكة فى قاع المجتمع ،
وتجد لها تبريرا سهلا فى الطفيلية السافرة لجزء كبير من «أهل
القمة» .

ومن الاساليب الشائعة للحصول على البقشيش التظاهر بأداء خدمة
من الخدمات ، كأن يصبح الواحد من هؤلاء «مرشدا» لك فى
جولتك او فى التسوق ، او يمسح لك زجاج السيارة ، او يقف
نصف ساعة «حارسا» عليها . وفى الاماكن التى يصعب فيها العثور
على مكان خال لانتظار السيارات تجد الشوارع مقسمة عمليا الى
مناطق نفوذ بين هؤلاء «الحراس» ، وهم يراقبون بدقة اصحاب
السيارات «المحروسة» بحيث لا يغادر احدهم مكان الانتظار الا
بعد ان يضع القروش الخمسة فى راحة احدهم .
وكثيرا ما يصبح الاجانب بصفة خاصة هدفا للحاف الشحاذين ،
فهم يعرفون ان القادم من وراء البحر الى القاهرة ليس فقيرا ، ومن
ثم يصبح الحصول على البقشيش الواجب من الديك الرومى الاجنبى
السمين مسألة كرامة . وقد تستطيع ان تتخلص من الحافهم اذا
قلت بلهجة حاسمة ولكن غير مهينة : «الله يسهل لك» او «ربنا
كريم» ، ولكن ذلك لا يفلح فى جميع الاحوال .

وعندما كنت طالبا شهدت فى عهد عبدالناصر حملة شنتها
الصحافة والاجهزة الادارية ضد الشحاذة . اما فى عهد السادات
فقد خمدت الحملة ولم تستأنف بعد . ان المجتمع يحتفظ فى
قاعه بالعديد من السكان ويدفع اليه بالمزيد من البشر ، وفى

الوقت نفسه يقيم المجتمع ويدعم مخففات الصدمات فى شكل الاعمال الخيرية والصدقات .

منذ الايام الاولى لعملى فى القاهرة اثار اهتمامى حى بولاق . ويقع هذا الحى بين شارع رمسيس المكون من طابقين والمفضى من وسط المدينة الى محطة السكك الحديدية وبين النيل ، ويحده من الجنوب طريق رئيسى هو شارع ٢٦ يوليو ، ويتحول فى الشمال الى عرش ضواحي القاهرة . ويمثل بولاق كتلة من المنازل المتداعية ووكرا للجريمة وغرز الحشيش والافيون ودكاكين بائسة وشوارع متربة غير مرصوفة واكوام قاذورات وذباب . واذا كانت القاهرة عموما متاهة فان بولاق جزء من اكثر اجزائها تشابكا وتناقضا وخطورة . والصبية الحفاة الاقدام ذوو البيجومات يلعبون هنا من الصباح الى المساء بكرة شراب من الخرق ، بينما تمتد حبال الغسيل عبر الشارع وتنادى النسوة بعضهن بعضا على عتبات المنازل . ويجلس الرجال بالساعات فى المقاهى امام اجهزة التلفزيون ولا يحولون عنها انظارهم احيانا الا على صياح بائع يدفع عربته امامه ويمتدح بضاعته .

لقد ضيقت القاهرة الحديثة مساحة بولاق . فراء ابنىة مؤسسة «الاهرام» و«الاخبار» الواقعة غير بعيد عن شارع رمسيس تم اخلاء مساحة واسعة بعد هدم المنازل القديمة وحولت الى موقف للسيارات ، اما بحذاء النيل فترتفع ناطحات سحاب صغيرة انيقة ، مكملة حلقة شقيقاتها التى شيدت على النيل الى الجنوب قليلا . غير ان بولاق نفسه ظل بؤرة للفقر والجهل والغضب المكتوم واليأس .

لقد جمعت مادة خاصة عن سكان بولاق . وقام زميلي ب . ف . بيرمينوف بنفس العمل ونشر نتائجه فى كتابه «ابتسامة ابي الهول» ، ولذلك سأعتمد على كتابه احيانا فى حديثى عن بولاق .
عندما تبدأ فى اكتشاف الطبقات التى يتكون منها سكان بولاق

يخيل اليك ان السكان ، لكثرتهم ، قد ضغطوا ضغطا . ولم يحسب احد كم الفا من السكان هنا فى الكيلومتر المربع — مائة ؟ مائتان ؟ مائتان وخمسون ؟ وقد حدثتني الباحثة الامريكية اندريا رو عن اهالى بولاق بعينين متسعيتين من الرعب ، ولكنها كتبت بحثها بموضوعية ودقة . وحسب بياناتها تعيش ٨٠ ٪ من اسر بولاق فى غرفة واحدة ، و ١٥ ٪ منها فى غرفتين و ٢ ٪ فى ثلاث غرف واكثر . ولا توجد كهرباء فى معظم البيوت . ودورة المياه كالعادة دورة واحدة فى الطابق او فى الفناء . وربع المنازل فى بولاق غير مزود بالمياه النقية ولا بالكهرباء ، وفى ٥٥ ٪ من المنازل توجد كهرباء ولا توجد مياه شرب ، والعكس فى ٦٣ ٪ من المنازل . وعلى الرغم من ان سكان بولاق لا يعرفون بالاسم سوى جيرانهم المقربين فان روح التكاتف العشائرى المأخوذة من الريف نامية لديهم . وقد قالت احدى نساء بولاق للباحثة اندريا رو : «نحن نعيش فى بولاق مثلما كنا نعيش فى قرينتنا . اننا نعرف جيراننا ونساعد بعضنا بعضا» . وبالنسبة للكثيرين من سكان بولاق العجائز يعتبر الحصول على المياه مشكلة من اصعب المشاكل ، اما المحظوظون الذين لديهم صناير فى بيوتهم فيبيعون الماء للجيران . ويعانى بولاق من نقص المساكن . فالغرف التى تخلو تسكن على الفور ، لان ايجار الغرف غير المفروشة منخفض . ولكن ظاهرة «خلو الرجل» معروفة هنا ايضا .

فى عام ١٩٧٦ اجرت مجلة «الطليلة» التى اغلقت بعد اضطرابات يناير ١٩٧٧ دراسة اجتماعية ميدانية حول ظروف معيشة الفئات القليلة الاجر من سكان القاهرة . وخلال سنة نشرت المجلة فى كل عدد حوارا مع ممثلى فقراء المدينة . واجرت «الطليلة» اول حوار مع العامل عبد التواب ، ٣٤ سنة ، الذى قال للمراسلين ان

اسوأ يوم فى حياته يوم قبض الاجر ، فهو غارق فى الديون الى درجة انه يضطر الى توزيع اجره كله تقريبا فى نفس يوم صرفه . ويروى عبد التواب همومه قائلا «عندما يسألونى فى البيت هل قبضت الراتب اقول لا ، ليس بعد ، لاننى وزعته كله» ثم يمضى قائلا : احيانا يطلب منى ابنى ان اشترى له برتقالا او جوافة . ولا يسعنى الا ان اقول له : حاضر ، ولكنه مؤخرا طلب منى الا اقول له هذه الكلمة ابدا .

وكانت رواية الممرضة نبوية محمد البحر ، ٣٧ سنة ، ام ثمانية اطفال ، اكثر مرارة . كان زوجها يعمل مكوجيا ويحصل على حوالى ١٠ جنيهات شهريا . وتحصل هى فى معهد القلب الذى تعمل فيه على اربعة جنيهات و٧٥ قرشا فى الشهر .

— كم تدفعين اجر المسكن ؟

— مائة وخمسة وسبعون قرشا لغرفة واحدة نعيش فيها جميعا .

ننام انا وزوجى والعيال الكبار على السرير ، وبقية العيال ينامون تحت السرير .

— هل لديك غرفة مستقلة ام هى غرفة فى شقة مشتركة ؟

— غرفة فى شقة مشتركة . فى احدى الغرف تسكن امرأة

مع اطفالها وفى الغرفة الثانية امرأة عجوز . والشقة من ثلاث غرف .

— كيف تنفقين راتبك ؟

— كل يوم اشترى وانا عائدة للمنزل خبزا . بخمسة عشر

قرشا ، وبعض الاشياء من السوق .

— هل يدخل اللحم قائمة طعامكم ؟

— احيانا اشترى بعض الفشة والعتت .

— كم مرة فى الشهر ؟

— مرة واحدة .

— وماذا تأكلون في الافطار مثلا ؟

— اسوى فول واصنع سندوتشات فول واعطيها للعيال الكبار
ليأكلوها في المدرسة . واعطيهم ايضا تعريفه لكل واحد . ثم
اطبخ للصغار ملوخية او بطاطس عندما لا تكون اسعارها عالية .
— وكم تنفقين على الفواكه ؟
— نحن لا نأكل فواكه .

وعلى هذا النحو تقريبا جاءت اجوبة المصريين الاخرين من
سكان قاع المدينة على اسئلة مراسلى «الطليعة» .
ويشير ف . بيرمينوف فى كتابه المذكور الى ان الصحفيين
الذين أجروا المقابلات قد انتبهوا الى ان هؤلاء الاشخاص الذين
سحقتهم الفاقة المطبقة لا يخطر على بالهم ان يغيروا وضعهم .
وهم يقبلون الاوضاع المحيطة بهم بايمان شرقى تقليدى باعتبارها
قضاء وقدرًا فرضته المشيئة السماوية . وربما لهذا السبب ترجع
«عقدة المعلشية» (من كلمة «معلش» العامية المصرية) على
حد تعبير الباحثين .

لا اظن ان اوضاع سكان بولاق قد تحسنت جذريا خلال
السنوات القليلة الماضية . ولكن علينا ان نغير جميع الارقام
اخذا في الحسبان ان نسبة التضخم فى مصر تبلغ الان ٢٥ —
٣٠ ٪ سنويا .

ان فلاحى الامس المهاجرين الى المدينة لا يتخلون بسرعة
عن مفاهيمهم السابقة ومعتقداتهم ومجموعة قيمهم . وبينما
يتغير نمط حياتهم يبقون هم خارج اطار الانتاج المعاصر فى
العادة . فليس لديهم المؤهلات المطلوبة للانضمام الى الجهاز
البيروقراطى . ويظلون اناسا ذوى دخل موسمى او عاطلين عن
العمل . ولا يفقدون علاقاتهم الاجتماعية التقليدية والاشكال

الاجتماعية السابقة ، ويتجمعون حول المساجد ومشايخ الطرق الصوفية والروابط الاقليمية . ومستوى معيشتهم يبلغ حد الكفاف ، وايدولوجيتهم هي الاسلام الشعبى ، وسلوكهم الاجتماعى هو الاذعان للسلطة مع الاستعداد لانتفاضات التمرد الخاطفة ، ومثلهم الاعلى فى الحياة ان تكون لديهم ورشة خاصة أو دكان . والقاهرة بالنسبة للكثيرين منهم مجرد محطة صغيرة فى رحلة طويلة . ان المصرى المرتبط بالولاء لدلتا النيل وواديه والذى لم يكن يحب السفر وترك الوطن ، اصبح الان مدمن سفر . فالى فترة قريبة ، فى الستينات وبداية السبعينات ، لم يتوجه الى الخارج بحثا عن العمل سوى بضعة آلاف من الاطباء والعلماء والمهندسين المصريين . وقد قصدوا الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا ، ولم يتوجه الا عدد قليل منهم الى السعودية وامارات الخليج . اما اليوم فتجد المصرى عاملا فى ميناء بيريه باليونان وبوابة فى فندق بباريس ، وغاسل اطباق فى امستردام .

لكن المغناطيس الجاذب الاكبر هو الدول المصدرة للنفط . وفى الخارج يوجد الان اكثر من ثلاثة ملايين مصرى ، معظمهم فى العراق والسعودية وليبيا . فالراتب فى الدول التى شهدت فورة النفط اعلى من الراتب فى مصر اضعافا مضاعفة . وعندما يتساءلون : هل الهجرة خير ام شر بالنسبة لمصر ؟ فان الاجابة عن هذا السؤال ليست سهلة . بالطبع لا يستطيع الاقتصاد المصرى ان يستوعب كل الايدى العاملة ، ومن ثم فالهجرة تخفض نسبة البطالة . وبالطبع اصبحت تحويلات المصريين العاملين فى الخارج (حوالى ٤ مليارات دولار) تشكل البند الاول فى الدخل القومى وفى حصيلة العملات الاجنبية ، وتسبق فى ذلك عوائد النفط المصدر وحصيلة رسوم قناة السويس والسياحة

وتصدير القطن . بيد ان هناك وجها آخر للعملة . فقد دلت استطلاعات الرأى العام على ان ٨٥ ٪ من الطلبة يرغبون فى السفر للعمل فى الخارج . ولا يفكر خريجو الجامعات والمعاهد العليا فى خدمة الوطن بل يطرقون ابواب مكاتب تشغيل العمال فى الكويت وأبى ظبى . فما هو الاكثر اهمية للاقتصاد : رأس المال ، أم القوة المنتجة الرئيسية اى الانسان ؟ ان مصر تحرم من افضل وامهر عمالها ومهندسيها وفنييها واطباؤها ومعلميها وصحفييها . ويهرب الخبراء المصريون الذين تم اعدادهم وتدريبهم بمشقة من المواقع الاقتصادية الرئيسية كمجمع الحديد والصلب فى حلوان الى الخارج . وثمة مشكلة أخرى : كيف وأين تستغل الاموال التى تم تحصيلها فى الخارج ؟ ومن جديد لا تبعث البيانات الاحصائية على الاطمئنان الى صحتها ، ولكن معظم الباحثين متفقون فى الرأى بان جزءا كبيرا من هذه الاموال يضيع على اعالة اسرة المهاجر .

والمهاجر العائد الى مصر يستقر عادة فى القاهرة . وفى احسن الاحوال يتمكن من بناء بيت او يشارك فى جمعية لبناء بيت ، ويؤجر شقة او شقتين منه ، ويشترى تاكسى ، ويفتح دكانا . والمهاجر القادم من القرية والذى اغتنى قليلا يستطيع ان يشتري قطعة ارض ويؤجرها لزملائه الاقل حظا . ولا يستثمر بفعالية الا جزء قليل من الاموال التى جمعها المهاجر بعمله الشاق فى الخارج . ان وضع العمال المستقرين فى اعمالهم هو افضل بكثير من وضع معظم سكان بولاق وغيره من الاحياء الفقيرة . وفى ظروف مصر ، مثلما فى معظم بلدان الشرقين الادنى والاوسط ، كثيرا ما ينظر هؤلاء نظرة متعالية الى اخوانهم «الهامشين» وانصاف البروليتاريا .

وكان مستوى البطالة العالى سابقا والقيمة المنخفضة لقوة العمل يقللان من أجر العامل المؤهل . بيد ان وجه الغرابة فى الامر ان وضع هؤلاء العمال الافضل من غيرهم ، وغياب صاحب العمل المحدد (لان صاحب العمل الرئيسى هو الدولة) بالاضافة الى انخفاض المستوى الثقافى والتعليمى . . كل ذلك يعرقل نمو الوعى الطبقي . فالاضرابات تحدث فى مصر ولكنها تحدث فى الغالب لاسباب جزئية ولا تتناسب مع التناقضات الاجتماعية الصارخة والاضطهاد فى المجتمع المصرى .

لقد اوجدت الهجرة والتضخم ظاهرة جديدة تماما فى الحياة المصرية الا وهو الغلاء الحاد فى اجور الايدى العاملة سواء فى الريف ام فى المدينة . فخلال عدة سنوات فقط كفت مصر عن كونها بلد العمل الرخيص شبه المجانى . فالسبّاك—وهى مهنة من اندر المهن فى القاهرة—يحصل على دخل يعادل دخل الاستاذ الجامعى ، اما سمكرى السيارات فيحصل على ثلاثة اضعاف ذلك . وارتفعت اجور العمال المؤهلين واشباه المؤهلين فى المؤسسات وخاصة فى القطاع الخاص ، فتلك هى الوسيلة التى يمكن بها صرف العمال عن الهجرة . واتسعت الهوة لا بين الاغنياء الجدد وجماهير الشعب فحسب ، بل ايضا بين العمال المؤهلين واشباه البروليتاريا .

وبدلا من الهيئة السابقة للتعليم ولكرسى الوظيفة اصبحت الهيئة الان للجنه ، للنقود الحاضرة . لقد حدث امر اشبه ما يكون بانتقام تاريخى للمجتمع من البيروقراطية الجبارة . واصبح اجر الموظف متخلفا بشدة لا عن نسبة ازدياد التضخم فحسب بل وعن اجور الفئات الاخرى من السكان العاملين . والموظفون الصغار الكثيرو العدد لا يستطيعون بالرشوة والسرقا ان يحسنوا

وضعهم تحسينا ملموسا . وانعكس انهيار الحياة العامة على فئات من العاملين ذوى الدخل المحدود تحتاج اليهم الدولة احتياجا ماسا مثل المعلمين واطباء المستشفيات الحكومية . وليس من الغريب ان تجد فى القاهرة ميكانيكى سيارات او عامل تركيب ارضية يحمل شهادة جامعية .

ولكن مقابل هذه الاجور العالية يدفع الميكانيكيون والعمال المؤهلون جهدا اكثر تكثيفا واطول وقتا ، وتسوء اوضاعهم الصحية فى ظروف المدينة الضخمة بهوائها الخائض وبعباب مواصلاتها وعدم توفر المسكن وغلاء ايجاره . فمن الذى يكسب فى هذا الوضع ؟ من الذى يأكل القشدة ؟ لدى الاجابة على هذا السؤال تتجه الانظار لا اراديا الى التاجر والسمسار ، ولكن لا الى صاحب الكشك او «البوتيك» الصغير .

واذا اردنا ان نرسم صورة لاسواق القاهرة فلنتصور سوقا تمتد الى عدة شوارع . هنا تجد باعة البطاطا المشوية والذرة المشوية ، وباعة البالونات واللبن والسودانى ، وعصير القصب وعصير الفواكه المثليج والشربات التى تصب من اباريق زجاجية كبيرة ، وباعة الحلى الرخيصة والادوات المنزلية . وأمام محلات الجزارين تعلق الذبائح من الغنم والبقر ، بينما تفرش الخضروات والفواكه على الارض . وهنا تروح وتجيء عربات يد محملة بقدر نحاسية يغلى فيها الفول المدمس او عليها مقال كبيرة تطشطش فى زيتها اقراص الطعمية الخضراء . كل ذلك تصاحبه نداءات غنائية من الباعة الذين يمتدحون بضاعتهم .

ومع ذلك فليس من السهل نقل صورة اسواق القاهرة . اذ كيف يمكن نقل الاحساس بهذا الخليط من الروائح والغبار وغازات العادم وعبق الاعشاب الزكية وروائح الطبخ ؟ كيف يمكن

نقل الاحساس المتولد عن رؤية جحافل الذباب التي ، وبالعجب ، لا تفتس من غازات العادم ؟ وذلك البائع الذي فرش على الارض صواميل وجلد الحنفيات وراح يغط في نوم عميق تحت اقدام المارة متوسدا جهاز راديو يابانيا يزار باعلى صوت ؟ كيف يمكن نقل الانطباع المتولد عن رؤية الحشود الرائحة الغادية ، الفقيرة ، الجائعة ، التي تستر اجسادها بملابس كيفما كان ، ولكنها لا تياس بل يتعالى صخبها وصياحها المرح ؟ او منظر القهوة ، حيث يجلس الرواد وهم يمصون النارجيلة وينثنون سحب الدخان ، متطلعين بهدوء فلسفى الى الهرج والمرج فى العالم الزائل من حولهم ، او يقفزون من مقاعدهم فى حماس وهم يتابعون مباراة كرة قدم فى التلفزيون . وكثيرا ما يتاجرون ويأكلون وينامون على الرصيف مباشرة . وهنا ايضا يصلحون الاحذية او السجاجيد ، ويرفون الملابس ، ويستذكرون الدروس او يصلون مولين وجوههم شطر الكعبة .

فى هذه الجلبة تميز بعض ملامح الصورة التى رسمها لاين منذ مائة وخمسين عاما للقاهرة : «باعة الشوارع يبيعون الخبز والخضروات وغيرها من المأكولات . وهم يعلنون عن بضاعتهم بطريقة طريفة . فبائع الترمس مثلا يصيح : «مدد يا امبابى مدد !» . ويمكن فهم هذا النداء على محملين : فمن ناحية هو طلب العون من ولى الله المعروف الشيخ الامبابى المدفون فى قرية امبابة على الشاطئ الغربى للنيل مقابل القاهرة (امبابة الان حى من احياء القاهرة المزدهمة — أ . فاسيليف) . وفى ضواحي امبابة تزرع اجود انواع الترمس . ومن ناحية اخرى يعنى هذا النداء ان ترمس قرية امبابة انما هو بهذه الجودة بفضل عون الشيخ الامبابى وبركته . ويمدح هؤلاء الباعة بضاعتهم

منشدين : «يا ترمس امبابة يا أحلى من اللوز» . اما باعة الليمون الحامض الصغير الحجم فيصيحون : «يارب سهّل له ! يالمون !» (اي سهّل بيع الليمون) . ويصيح باعة الحلوى صياحا مضحكا : «الحلاوة بمسمارا» . فبائع الحلوى مشهور بانه شبه محتال ، اذ ان الاطفال والخدم يسرقون من منازلهم الادوات الحديدية لكي يبادلوها بالحلوى . اما باعة الورد فيرددون عبارة نادرة : «الورد كان شوك ، شمّ عرق النبی فتح» في اشارة الى معجزة من معجزات الرسول محمد . اما القماش القطنى الذى جرى نسجه بنول يديره ثور فيدعو البائع الى شرائه مناديا : «شغل تور يا بنات» . مر على ذلك مائة عام ، وها نحن نرى فى صورة حى الموسيقى التى رسمتها ريشة الكاتب المصرى توفيق الحكيم فى عشرينات — ثلاثينات قرننا نفس الملامح القديمة لاسواق القاهرة :

«مرت نصف ساعة و«سوارس» تخرج وتدخل فى شوارع وحارات عتيقة ، مخترقة الاحياء القديمة لمدينة القاهرة ، حتى وصلت اخيرا الى الموسيقى ، فنزل من الركاب من نزل ، واشربت رقاب الباقيين فى العربة الى الخارج ، ينظرون على جانبى الطريق الى المتاجر والدكاكين التى لا عدد لها ، وقد عرضت بضائعها التى تبهر الانظار من اقمشة الحرير والقטיפه ، مزركشة بالقصب اللامع و«الترتر» البراق ، ومن مصوغات ذهبية حقيقية وقشر سمكة ، ومن احذية وشباشب «بكعب» و«زحافى» على آخر طراز ، ومن خردوات ودتلات وبياضات لزوم البيت ، واوان نحاسية واخرى من الصينى ، وملاعق ومغارف خشبية ومعدنية ، وباختصار كل شىء موجود فى هذه السوق الشهيرة .

وكان الزحام شديدا كالمعتاد و«سوارس» تلقى صعوبة فى شق طريقها بين امواج الناس المجتمعين كالنمل فى شارع «الموسكى»

الضيق ، يعلو صياحهم ، وتشتد حركتهم وضجيجهم ، كلهم تجار وباعة ومشترون ومتفرجون ؛ فالتجار والباعة يصيحون منادين على بضاعتهم متنازعين الزبائن ، بخالب اقوالهم ورخص اثمانهم ، وحلفهم وقسمهم بالشرف والايمان على جودة الصنف ، وعلى انها فرصة حقيقية و«اوказيون» على ذمة «الخواجة» ! . . .

والمشتررون — نساء ورجالا — يشاهدون ويجادلون ويمارسون ، متناولين الاقمشة بين ايديهم يفركونها ويفحصون متانتها فى عنف ، ثم يساومون ويناقشون ، فتعلو الاصوات ، ويكثر القسم ، ويشتد الشد والجذب ، ويسيل العرق على الجباه والوجوه ، ويضاف على هذا الهرج والمرج صوت صناعات بائع العرقسوس ، يزاحم الناس بقدرته الحمراء على بطنه ، وابريقه النحاسى فى يده ، ولوح الثلج المركب فوق القدرة لا يبرد شيئا ولا يصل الى الشراب وانما وظيفته مجرد الاعلان : «حاسب على اسنانك ! . . انا يباع الشربات . . . ما ليش دعوة بسنانك ! . . .» ثم يدق دقة بصناجته او يملأ كوبا لزبون ، ثم يصيح فى لهجة اخرى : «الصبر جميل ! . . فقر بلا دين هو الغنى الكامل ! . . سنانك حاسب ! . . .»

لقد قارنت المنظر الخارجى للدكاكين القاهرة الحديثة بتلك الصورة التى رسمها لاين . كانت الدكاكين آنذاك عبارة عن غرف مفتوحة على الشارع طولها متران وعرضها متر ونصف وبها تجويف من الداخل يستخدم كمخزن وابواب من الشيش تغلق ليلا . وامام الدكان المرتفع قليلا عن مستوى الرصيف توجد عادة مصطبة مبنية من الحجر او الطين . اما فى ايامنا هذه فلم اصادف شيئا بهذا الشكل سوى فى اليمن . وللأسف فالمنظر الخارجى للدكاكين فى القاهرة الحديثة لا يختلف كثيرا عن الحوانيت

الاوربية فى بلدان حوض البحر المتوسط ، وان كان يخلو من نظافتها وواجهاتها الجذابة وغيرها من الجوانب الشكلية فضلا عن تشكيلة السلع المعروضة . غير انه قد ظهرت اخيرا فى الاحياء الراقية متاجر من طراز متاجر الشانزليزيه فى باريس او الشارع الخامس فى نيويورك .

وتختلف مبادئ التجارة فى مصر ، كما فى الشرقين الادنى والاوسط عموما ، عما هى عليه فى الغرب .

ففى القاهرة توجد متاجر تبيع بأسعار محددة . فلا يخطر على بال أحد ان يساوم فى متجر السلع الغذائية والسوبر ماركت . واسعار السلع الاساسية معروفة تقريبا . اما فى الدكاكين الصغيرة العديدة التى تبيع الملابس والاحذية ومختلف السلع المستوردة فالشراء حسب اول سعر يعرضه البائع يعنى فقدان احترام البائع لك بالاضافة الى خسرتك مبلغا كبيرا . وأريد مرة اخرى ان استشهد بلاين واقول انه اذا كانت الوسائد والمصاطب قد اختفت من امام الدكاكين ، فقد ظلت اجراءات البيع والشراء الى حد كبير كما كانت عليه آنذاك . يقول لاين :

«قد تبدو عملية البيع والشراء لدى المصريين لغير المطلع على التقاليد الشرقية عملية مرهقة للغاية . اذ تبدأ بان يطلب البائع ثمتنا لسلعته اعلى بكثير مما يعتقد انه سيحصل عليه . ويغضب المشتري ويطرح سعره هو ، الذى يقل بمقدار الثلث او النصف . عندئذ يخفض البائع سعره قليلا ويرفع المشتري المبلغ الذى عرضه بعض الشئ . وتستمر المساومة بهذه الطريقة الى ان يتفق الطرفان على سعر وسط بين المبلغ الذى طلبه البائع والمبلغ الذى عرضه المشتري فى البداية . وعندئذ تعقد الصفقة فى آخر الامر . ان الرحالة الاوربيين يعربون دائما عن سخطهم

على الباعة المصريين ، وفي رأيسى انهم غير محققين في هذا ابدا . . . فعلى الرغم من المساومات المرهقة لا يحصل البائع فى النهاية على نسبة ربح اعلى من واحد فى المائة . وحينما يعجب المشتري بسلعة من السلع فانه يستعد لمباحثات طويلة . عندئذ يتسلق المصطبة ويضطجع هناك على البساط ، ويحشو الترجيلة على مهل ويدخن . ثم تبدأ مباراة كلامية تستمر نصف ساعة او أكثر . ان بسطاء الناس يعتقدون انه صفقة بنوع من الحماسة ، ويثرون ويصرخون ويشيحون بأيديهم حتى ان الاجنبى الذى لا يعرف اللغة العربية قد يظن ما يراه خلافا او شجارا . والفلاحون ، اذا سألتهم عن سعر السلعة ، يفضلون ان يردوا : «من غير فلوس» . والجميع يعرفون انها مجاملة فصيحة ولا يخطر ببال احد ان يستغل هذا الجواب حرفيا . ويعاد طرح السؤال ، وعندئذ تسمع السعر المبالغ فيه الى حد كبير» .

والتجار المصريون جحفل جرار . وقد فشلت كل محاولاتي فى التوصل الى ارقام موثوق بها ولو قليلا تشير الى عددهم . وقد يبدو لى احيانا ان التجار فى مصر أكثر من المشتريين ، رغم ان هذا انطباع خادع . ولكنهم ، على اى حال ، أكثر بكثير مما يحتاج اليه المجتمع . ولكن التجارة مهنة لها مكانة ، فقد عمل الرسول محمد بالتجارة وتزوج من تاجرة غنية . والتجارة مربحة . ولست ادرى من اين جاء لاين — المشهور عادة بدقته — بهذا المعدل لارباح التجار المصريين فى ذلك الوقت والذى قدره بواحد فى المائة . واعتقد ان هذا الرقم قليل حتى بالنسبة للنصف الاول من القرن الماضى . وفى زمننا الحاضر لم تعد تشير الدهشة نسبة الربح التى تبلغ خمسين او مائة او حتى ثلاثمائة فى المائة من بيع السلع الاجنبية خاصة . وفى خاتمة المطاف

تضفي هذه الارياح نوعا من الطفيلية على فئة التجار بكاملها ، ولكنها تفسر لنا لماذا ينتظر التاجر زبونه بصبر وكيف يتمكن من تجنب الخسارة في ظل عدد المشترين القليل .

ولم تستطع الشركات التجارية وشركات التأمين ان تستقر في التربة المصرية الا بصعوبة . فالتاجر المصرى لا يحب الشريك ، ويفضل الاستقلالية الكاملة . وظل رأس المال الفردى يحدد نمو التجارة لسنوات طويلة . وكانت روح المنافسة والتسابق تعود احيانا بالفائدة على المشتري وحيانا بالخسارة .

وانعكست تقاليد البيع والشراء والقدرات والكفاءة التجارية والعلاقة بين البائع والمشتري في العادات الشعبية والتركيبة النفسية القومية والحكم والامثال .

اذ تنصح الحكم والامثال بشراء السلع المتينة وتحذر من شراء الاشياء السيئة الصنع لان السلع الغالية افضل (الغالى ثمنه فيه) ، وتدعو الى اقتناء العقارات لا الحلى الذهبية .

وتنصح الحكم والامثال بالتدقيق والتمحيص فى السلع قبل شرائها .

ومن خصائص التجارة الايمان بالحظ ومحاسن الصدف . وذات مرة دخلت متجرا جديدا وشرعت انتقى حذاء . وطلب منى البائع سعرا عاليا ، ولكنه عموما سعر معقول . ولكنى عرضت بصورة آلية تقريبا نصف هذا السعر ، ولدهشتى وافق صاحب الدكان فورا . واضطرت لشراء الحذاء . وتناول صاحب الدكان النقود منى والقى بها على الارض بفرحة ثم رفعها وهتف : «اول استفتاحنا ذهب» . لقد كنت اول زبون يدخل متجره ، ولذلك حرص على ان اشترى منه حتى لا يضيع الحظ . وربما كنت ممن يجلبون الحظ ، او ربما لان المكان هنا مزدحم ،

فقد ازدهرت احوال ذلك المتجر .
ان اصول التجارة تقتضى ان يكون التاجر سريع الحركة
والاستجابة لتقلبات السوق ، مستعدا للكسب والخسارة . وعليه
ان يقتنص الفرص والا يهدر الامكانيات المتاحة . ويجب الا
يكون الربح مبالغاً فيه .

وعندما نستعرض الامثال الشعبية المصرية التى تتحدث عن
التجارة نكتشف بسهولة ان بعضها ذو طابع عام ، بينما نجد
البعض الاخر متعلقاً بالتجارة الصغيرة التقليدية فى القرية والمدينة .
ولكن التغيير يطرأ على المجتمع ، وعلى الاخلاق ، وعلى اصول
التجارة والنظرة اليها . غير ان السليقة الشعبية الحية لا تتقبل
الجشعين النهايين النهمين . والادخار امر مطلوب ومشرف ولكن
الرأى العام يعارض كثر النقود . اذ لا ينبغي ان تستعبد النقود
البشر . والمصريون ، مع احترامهم للنقود والثروة ، يرفضون سلطانها ،
ويرفضون بصفة خاصة الاثراء غير المشروع .

لقد اعلن السادات بعد مجيئه الى الحكم بفترة قصيرة سياسة
«الانفتاح» القائمة على اطلاق حرية التجارة والنشاط الاقتصادى
للرأسمال المحلى والاجنبى والبنوك الخاصة .

واذ نزعنا سياسة الانفتاح كافة القيود عن اصحاب رؤوس
الاموال الخاصة فقد ادت الى نمو هائل فى المضاربة . واصبح
شارع الشواربى فى وسط القاهرة رمزا للاغنياء الجدد السماسرة ،
فقد فتحت فيه عشرات المتاجر الصغيرة المسماة «بوتيكات»
على الطريقة الفرنسية ، والتى تتاجر بالسلع المستوردة . وفى الحارات
القذرة تلالآت فى الطوابق الارضية فى المنازل ذات الواجهات
التي لم ترمم منذ زمن طويل وعلى اسطحها ، واجهات مضئبة
بالنيون تحمل داخلها قطعاً من الحياة الاجنبية . «الجميلة» ولكن

تلك السلع لم تكن في متناول حتى ذوى الدخل المتوسط من المصريين .

وانتشر سرطان شارع الشواربى الى احياء القاهرة الاخرى ، واصبحت التجارة بالسلع المستوردة او المهربة شبه علنية وجرت على نطاق واسع .

وتحولت «المنطقة الحرة» التى اقيمت فى بورسعيد الى قاعدة وسيطة ضخمة للسلع الاجنبية التى كانت تدخل البلاد بعيدا عن رقابة السلطات الجمركية فتفقد الدولة بذلك دخلا وتتقوض ركائز الصناعة الوطنية . وعبر ايدى التجار السماسرة تسربت من مصر الى الخارج الاموال التى جمعها الفلاحون والمهاجرون وعمال ومهندسو النفط بعرق جبينهم .

ولم يتجه رأس المال المصرى الخاص الى الصناعة او الى الزراعة بل الى المجالات التى كان معدل الربح فيها عاليا ، اى الى المجالات التقليدية بالنسبة له مثل بناء المنازل ، والسمسرة فى العقارات الثابتة ، والتجارة . اما رأس المال الاجنبى فقد اتجه ايضا الى التجارة ، والى الفنادق والسياحة والبنوك . وتكونت ثروات كبيرة من عمليات الاستيراد والتصدير . وظهر فى مصر اصحاب ملايين . . . وفى البداية كانوا عشرات ، ثم اصبحوا مئات ، فألآفا . واطلق عليهم اسم «قطط الانفتاح السمان» . ولم يكن بإمكانهم ان يسمنوا وتلمع اجسادهم بالدهن لولا علاقاتهم العضوية الوثيقة ، بل واندماجهم الفعلى ، بقمة الجهاز الادارى البيروقراطى بما فيه جهاز الشرطة .

لقد اصبح كبار الموظفين ستارا يحمى السماسرة والمهرين وكبار التجار وذلك عندما دخلوا فى شراكة معهم وصاروا اعضاء فى مجالس ادارة شركات حقيقية او وهمية . واحيانا كانت

تفجر فضائح كبيرة عن رشاوى بالملايين مقدمة من شركتى «لوكهيد» و«وستنجهوس» الأمريكيتين وبعض شركات الصناعات الحربية الكبرى او شركات اصغر حجما . وتبدأ محاكمات قضائية تغرق فى بحر من اوراق التحقيقات ، وتصدر احكام ضد صغار المتهمين ، بينما يواصل «القطط السمان» حياة الرفاهية . وعلى قمة هرم السماسرة والبيروقراطيين كان يقف اساطين المال المرتبطون ارتباطا مباشرا واهيانا بعلاقات القرابة بأسرة السادات ، والذين اصبحوا يعرفون باسم «عشيرة السادات» . وحتى بعد الرصاصات الدامية التى دوت اثناء الاستعراض العسكرى فى اكتوبر ١٩٨١ وأودت بحياة السادات نفسه ، لم يستطع الرئيس الجديد ان يقوض النفوذ الاقتصادى لـ«عشيرة السادات» .

وبالطبع حتى فى اوج ازدهار السمسرة حدثت حالات نادر فيها رأى العام ضد «القطط السمان» فاضطر هؤلاء الى طي ذبولهم . ففي السبعينات وقعت محاولة درامية لبيع هضبة الاهرام التى تمثل جزءا من الثروة القومية المصرية .

فقد استطاع رجل الاعمال الكندى بيتر مونك ، الذى أسس فى هونج كونج شركة «ساوث باسيفيك بروبريتز» ان يستأجر مقابل مبلغ زهيد ولمدة ٩٩ سنة بضع عشرات الهكتارات عند سفح الهرم مباشرة ، وذلك بغية انشاء مدينة سياحية . فما الذى تعنيه بالنسبة للموظفين قطعة الصحراء هذه برمالتها وحصاها واحجارها؟ لقد تصمت التاريخ المصرى ولكن الكلمة كانت للدولارات التى اخرجها الكندى من محفظته . وانتظر بيتر مونك قليلا ، ثم اخذ يبيع الارض التى استأجرها بعد ان قسمها قطعا صغيرة . وكان تقديره ان اثرياء العرب وغيرهم لن يبخلوا بالمال مقابل بناء فيلا تطل على الاهرام ، فى هذا المكان الراقى ذى الهواء

الرائع . وكان مصيبا في هذا التقدير .
ودون ان تشق الشركة قناة واحدة ، ودون ان تضع اساسا
واحدا ، انهالت عليها الملايين . وتصدت الدكتوراة نعمت فؤاد
استاذة التاريخ بجامعة القاهرة لفضح خبايا هذه القضية القدره .
واتضح ان مونك مرتبط بالحكومة المصرية وبالاسرة المالكة
في السعودية . واخذت الصحف تكتب عن هذه الصفقة وشرع
البرلمان في مناقشتها . واوقف بيع الهضبة ولكن العقاب لم
ينزل بأحد .

ويبدو ان الحياة كررت موضوع القصة الخيالية التي كتبها
الاديب المصرى الشاب جمال الغيطانى ، الذى ادرك سيكولوجية
الانفتاح وامزجة «القطط السمان» ويجنون المزداد وقرصنة التجار .
ففى روايته اللامعقولة «ذكريات عن الماضى» يجرى بيع مصر
للأجانب فى مزاد علنى . يبع بيوتها وآثارها ورمالها وأرضها
الخصبة ، والنيل والهواء والكورنيش والثروات الباطنية . وبدأ الناس
يدفعون رسوما على سيرهم فى الشوارع وعلى سير الحمير فى الطرق
الزراعية . وعبئت مياه النيل فى زجاجات من البلاستيك وصدّرت .
واقامت اماكن للاستشفاء ومزارع من اعلى المزارع انتاجية فى
العالم . وسار كل شىء على خير ما يرام ، ولم يعكر الصفو الا
شىء تافه . هو هؤلاء المصريون : الفلاحون والشعراء والعلماء والعمال ،
الذين اصبحوا زائدين عن الحاجة . عندئذ طلبت الشركة المشرفة
على ادارة مصر من منظمة دولية ما طرد هؤلاء الناس الذين يحتلون
بصورة غير مشروعة ارض الشركة ، اذ لم يعد المصريون يملكون
شبرا واحدا من الارض . ولكن الدعوى رفضت فقد اتضح ان
مصر لم تبع كلها . ففى مكان ما فى الصعيد بقى فدان واحد
لم يبع ، وهو آخر فدان . ولم يعرف بالضبط من هو صاحبه ،

اهو شيخ عجوز عمره مائة وخمسون سنة ام هو حفيده . ولكن
الجميع علموا ان القدان الاخير يملكه مصرى ، وقد سمى هذا
القدان «ارض مصر» . وارسلوا اليه مشترين وعرضوا عليه جبلا
من الذهب ، ولكنه رفض . وسلطوا عليه طائرات ترش مواد
سامة ، ولكن رياح مصر حملت الغازات السامة بعيدا عن «ارض
مصر» . وقطعوا عن القدان المياه ، ولكن افضل علماء مصر
اخترعوا وسيلة رى غير معروفة قبلا فازدهر القدان وأثمر . وبعثوا
بقاتل ولكن الرجال والنساء هبوا للدفاع عن آخر مصرى يملك
«ارض مصر» . وارسلوا جحافل من الجرافات ليزيلوا هذا القدان
الاخير من على ظهر الارض ، ولكن الرجال والنساء والاطفال
صنعوا من اجسادهم سدا فى وجه هذه الآلات الصماء . . .
ان هذه القصة اللامعقولة عن بيع مصر قد عكست الحقيقة
المريرة للسبعينات . ولكن الحقيقة ايضا انعكست فى هبة المصريين
للدفاع عن «ارض مصر» ، رغم ان المؤلف تجنب فى ذكاء
ان ينهى القصة بانتصار هذا الطرف او ذلك .

لقد تساءل المثقفون الوطنيون : الى اين يقود الانفتاح الاقتصادى
مصر ؟ وماذا يعنى بالنسبة لمصر استمرارها فى النهج الذى اختطه
السادات ؟ لقد تبقى من عهد عبدالناصر السد العالى والمصانع
والمشروعات التى شيدت بالتعاون مع الاتحاد السوفيتى . فما
الذى تبقى بعد حكم السادات الذى استمر عشر سنوات ؟
لقد حصلت مصر على قروض من الغرب كتمن لتبديل الخط
السياسى و«أكلت» هذه القروض . واخذت البلاد تستورد المزيد
والمزيد من المواد الغذائية وفى نفس الوقت المزيد من السيارات
والسلع الكمالية . وفى اواسط الثمانينات زادت مديونية مصر
الخارجية عن ٣٠ مليار دولار . والقى اعتماد مصر على واردات

الاغذية الامريكية بثقله على النهج السياسى الخارجى للقاهرة ،
ولكن ذلك حديث آخر يخرج عن اطار هذا الكتاب .
ومن خلال «الانفتاح» حدث تكامل لم يسبق له مثيل لمصر
مع الاقتصاد الرأسمالى العالمى . فالبلد الذى كان بلدا زراعيا
فى الماضى لم يعد يعيش من كد الفلاحين بل يستمد دخله
ويعيش ببساطة على حساب تصدير النفط وتحويلات المصريين
العاملين فى الخارج ورسوم قناة السويس التى تعبرها فى الغالب
ناقلات نفط او سفن تحمل السلع الى الدول المصدرة للنفط .
واى تقلبات طفيفة فى سوق النفط العالمية تؤثر على مصر .
غير انه بعد عشر سنوات لن يصبح النفط فى مصر كافيا للتصدير
وستضطر ازمة الطاقة مصر الى استهلاك نفطها كله محليا . وماذا
عن المحطات النووية ؟ حتى الان لم يعرض احد من «اصدقاء»
مصر الغربيين عليها ان يقوم بنائها . وعلى مصر المستقبل التى
سيزحف عليها العمران ، ان تبدأ هى نفسها بتصدير السلع الصناعية
بعد الشروع فى التصنيع السريع اذا ارادت ان تبقى على قيد
الحياة . ولكن ذلك لا يحدث .

ان النمو السريع نسبيا للمنتوج القومى الاجمالى بنسبة ٧-٨
فى المائة سنويا عند تخوم هذا العقد يرجع اساسا الى ارتفاع
اسعار النفط . وقد ادى هبوطها الحاد الى اغراق مصر فى بحر
الازمة . وفى منتصف الثمانينات انخفضت تحويلات المصريين
من الخارج وعائدات تصدير النفط وحصيلة رسوم قناة السويس
والسياحة . واصبح تسديد اقساط القروض ونسبة ارباحها عبئا
لا يحتمل . واذا قارنا بين ديون مصر ومستوى اقتصادها لوجدناها
فى وضع اسوأ من الدول صاحبة الارقام القياسية فى المديونية
مثل البرازيل والمكسيك والارجنتين .

والحل الجزئى لبعض مشاكل مصر. يصاحبه تراكم لمشاكل
اخرى ذات ابعاد هائلة وقوة تفجيرية لا مثل لها . فالرأسمالية
التي عادت الى مصر عودة المنتصر في السبعينات والثمانينات
يصحبها التهليل والطلب والزمير ، قد اتسمت بطابع اكثر تشوها
وقبحا من الرأسمالية في عهد الخديوى اسماعيل في ستينات
وسبعينات القرن الماضى الذى شهد وقوع مصر فى قبضة الدائنين
الاجانب ، بل واسوأ من الرأسمالية الكومبرادورية المتعفنة التي
حكمت قبيل ثورة يوليو ١٩٥٢ .

ان التجارة فى مصر تنمو . وثمة تحسن فى بعض المرافق
كالطرق والكبارى العلوية والمواصلات الهاتفية . وتشييد العمارات
السكنية . ولكن اين اهم شىء ، اين الانتاج ؟ لا نستطيع
ان نقول انه لا يوجد انتاج بالمرة ، ولكن هل يتفق نموه ومستواه
ومستقبله مع متطلبات البلاد المحرومة تقريبا من القاعدة الزراعية
العريضة ، والتي سيبلغ سكانها فى مطلع القرن القادم حسب
التقديرات حوالى ٦٠ - ٦٥ مليون نسمة ؟ ان «قطط الانفتاح
السمان» الذين يكسبون مئات الملايين من الدولارات فى عمليات
الاستيراد والتصدير ، والمضاربات فى الاراضى ، وبناء المنازل ،
وفى عمليات التدليس المالى ونهب الدولة السافر ، يتفوقون على
اسلافهم فى اساليب النهب الجشعة . ان معبودهم هو الدولار
وقبلتهم هى المصرف الاجنبى الذى يحولون اليه ارباحهم ولا
يستثمرونها داخل اوطانهم . و ثروتهم الوقحة المستفزة تفوح منها
رائحة الفضيحة من الناحية الاجتماعية ، وجوهرهم اشد عداء
للقومى مما كان عليه التجار الايطاليون واليونانيون فى عصر الخديوى
اسماعيل او البيوت التجارية اليهودية فى عهد الملك فاروق .
وقد يكونون مصريين من قمة رأسهم الى اخمص اقدامهم ،

وقد تبدو ملامجهم وكأنها نسخة منقولة عن الرسوم الجدارية في المعابد الفرعونية . وهم بذلك اشد خطرا على المجتمع واكثر استفادة من التشابه القومى للملامح ، ولكنهم يبقون فى واقع الامر اجانب بوجه وجوازات سفر مصرية .

الباب الرابع

سته آلاف سنة من الصبر

«الصبر خير»

أكثر الامثال الشعبية المصرية انتشارا .

عندما خلق الله الدنيا اعطى لكل شىء فيها زوجا . قال العقل : «سأذهب الى سوريا» . فقالت الفتنة «سأذهب معك» . قال الفקר : «سأذهب الى الصحراء» . فقالت الصحة : «سأمضى معك» . قال الرخاء : «سأذهب الى مصر» . فقالت الطاعة : «سوف اصحبك» .

تقى الدين احمد المقرئى . المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار . القرن ١٥ م .

ان الاستبداد والعنف من ناحية والخضوع والتسليم من ناحية اخرى هى ملامح من اعتمق واسوأ ملامح الحياة المصرية على مر القرون . وعلينا الا نهرب من هذه الحقيقة او نخجل منها ، بل علينا ان نتناولها بالتحليل العلمى والشرح الموضوعى لكى نعرف الى اى مدى هى ملامح مؤقتة عابرة والى اى مدى هى جزء لا يتجزأ من حضارتنا .

الدكتور جمال حمدان . شخصية مصر . ١٩٦٧

يتحلى المصريون . . . بالفطنة والذكاء والذاكرة الممتازة وغيرها من الصفات الذهنية .

يعرف حتى البدوى ، الذى يعتبر تجسيدا للفردية ، ان امنه الشخصى ورخاءه المادى رهن بأبناء قبيلته وعشيرته . ومن ثم فعليه ان يخضع لعادات القبيلة ولقواعد السلوك فيها والاخلاق . وفى كل مجتمع ترتبط الشخصية بالجماعة بعلاقة تبعية . وهذه الحقيقة المعروفة تكتسب طابعا مطلقا بالنسبة لمصر . فتحويل وادى النيل من مستنقعات الى واحة غناء ، واقامة نظام رى واحد لجميع البلاد والعناية به قد تطلب ويتطلب توحيد جهود الشعب بأسره . وفى ظل هذه الظروف التى كانت حياة الانسان فيها متعلقة بكبد الكثيرين وتعاونهم اصبحت روح الجماعة السمة المميزة للمجتمع المصرى .

ان النزعة الفردية مناقضة لطبيعة الفلاح ، ولكنها لا تنفق ايضا وطبيعة فقراء المدينة والحرفيين والتجار . فحياتهم ونشاطهم الحرفى فى الماضى — وفى الحاضر الى حد كبير — محكومة بصرامة بمقومات التركيب الورشى او شبه الورشى او بقاياها ، ومكبلة باحكام الشريعة وقوة الرأى العام . ان البيروقراطية وبيئة الموظفين تستبعد النزعة الفردية فى اى مجتمع .

ومهما بدا ذلك غريبا للوهلة الاولى فقد كانت النزعة الفردية بعيدة ايضا عن طبيعة الفئات العليا للمجتمع ، عن الدوائر الحاكمة ، وذلك على الاقل لان مصر على مدى التاريخ وحتى نهاية القرن الماضى فقط لم تعرف الارستقراطية الاقطاعية الزراعية على الطراز الاوروبى .

وفى القرون الوسطى تحول حرس السلطان المماليك الى فئة حاكمة فى مصر دون ان يحصلوا على حق وراثه الاراضى الزراعية .

ولم يتغير الوضع جذريا حتى بعد الفتح التركي العثماني لمصر .
فقد قام الاقطاع المملوكى ، ومن بعده العثماني — المملوكى ،
على تبعية الفئة الحاكمة للدولة وللسلطة العليا ، وعلى الاستغلال
الجماعى للسكان وتوزيع الدخل من اعلى الى اسفل : من السلطة
العليا الى مستوياتها الادنى .

ان عبارة مثل : «تقاعد عن العمل ورحل الى ضيعته» لهى
عبارة عادية ومفهومة للاقطاعيين الاوربيين الذين كانوا يخدمون
فى وظائف الدولة ، ولكنها ليست بذى معنى فى جو الحياة
الاجتماعية فى مصر العصور الوسطى . فلم يكن احد «يتقاعد»
من الوظيفة الحكومية فى مصر الا بسبب الشيخوخة او فقدان
القدرة على العمل ، وفى هذه الحالة يفقد تقريبا كل المزايا
والدخل . وكتب الاقتصادى المصرى الدكتور فؤاد مرسى يقول :
«فى جميع المجتمعات البشرية تعتبر الثروة مصدرا للسلطة ، اما
فى مصر فالسلطة هى مصدر الثروة» . فمركز الشخص فى سلم
الهرم المدنى والعسكرى هو الذى حدد حتى نهاية القرن التاسع
عشر وما زال يحدد بقدر كبير فى ايامنا هذه رفاهية «القسم العليا»
ووضعها الاجتماعى .

وفى العصر المملوكى والعثماني — المملوكى ، عندما لم
تكن الفئة العسكرية ترتبط تقريبا بروابط القرابة والدم ، سادت
فى اوساطها روح التكافل . اما فى الظروف الراهنة فتقترن هذه
الروح لدى «القسم العليا» المصرية بروابط القرابة والدم والعلاقات
والالتزامات الشللية .

وبالنسبة للمصرى فمن الطبيعى ان يخضع مصالحه الخاصة
لمصالح الجماعة ، ويراعى آراء الاخرين ، ويتبع الانضباط
العام . وقد يبدو ان هذا القول مناقض للواقع . فالاجنبى يصطدم

في مصر منذ ان يخطو اولى خطواته بالنزعة الفردية القوارة ،
وبفوضى المطار او الميناء البحرى ، وبالاضطراب الذى لا يتصور
فى حركة المرور ، حيث يتجاهل كل من فيها الاخر ، والجميع
يتجاهلون جميع القواعد . وعدم التزام المصرى وعدم انضباطه
فى الوظيفة والعمل ظاهرة منتشرة . وكما لو كان المصريون يسترشدون
فى سلوكهم بعواظهم ومصالحهم الخاصة وحدها .

بيد اننا نتعامل فى المدينة بالذات مع مجالات للنشاط
البشرى غير تقليدية وجديدة على المصريين . فالفلاح المصرى
محافظ على الانضباط فيما يتعلق بمواعيد الاعمال الزراعية
وتبدل الفصول وفيضانات النيل ، ويخضع دون مناقشة لنظام
الحياة والعمل فى الريف ، ذلك النظام الذى استقر منذ آلاف
السنين . ونزعة الجماعية لدى الفلاح توجد فى اطار الجماعة ،
والقرية ، والعلاقات الاجتماعية التقليدية . ولكنه عندما يصل
الى المدينة وينفصل عن النظام المألوف لديه ، ويصطدم بحضارة
المدينة وحياتها الحديثة الغربية عليه ، والتي هى فوق ذلك غير
مستقرة بعد ، لا يستطيع ان يجد لنفسه الموقع المناسب .
وفى المدينة قد يصبح الفلاح ، اذا ما فقد الصلة بالرابطة
الاقليمية او الجماعة الدينية ، فى غاية الفردية وخاصة فى الحياة
اليومية . ان المجتمع المصرى لم يمر بعد بمرحلة الانضباط
والتنظيم العصرى للحياة وللانتاج الحديث . وعملية تغيير نفسية
الشعب وطباعه عملية طويلة ، معقدة وحساسة .

وازدحام السكان ايضا يساعد على خلق روح الانتماء للجماعة ،
اذ يتطلب من الفرد التكيف مع الجموع والعشيرة والطائفة ويوجد
العادات والمهارات المناسبة والمعايير الاخلاقية .
وكانت مصر مزدحمة وما زالت ، وستصبح اكثر ازدحاما .

فكثافة السكان فى وادى النيل اكبر مرتين مما فى هولندا . ولا
مهرب من البشر الا الى الصحراء ، ولكن الصحراء موحشة وعدائية
ولا تطعم . وليس فى مصر جبال او غابات او سهوب او جزر
او اراض غير مستوعبة يمكن اللجوء اليها او الاختفاء فيها .

ان البدوى الذى استقر فى المدينة يعود الى الصحراء ليسترخى
ويرتاح . اما المصرى — ابن المدينة او القرية — فيرتاح فى
الجموع

وهو يعيش دائما ، جيلا اثر جيل ، فى الكتل البشرية .
وهو جزء من هذه الكتلة ، وحتى وقت قريب لم يكن يتصور
لنفسه حياة اخرى . والهجرة تغير طباع البشر ، ولكن هذه الظاهرة
لم تنتشر الا فى السنوات الاخيرة .

على المرء ان يتعايش مع الجيران ، اذ لا يمكن التخلص
منهم . وهم دائما على مقربة ، فى السراء والضراء ، فى المودة
والعداوة ، فى العوز والكفاية .

وهناك الكثير من الامثال والحكم الشعبية عن الجار والجيران .
فالحكمة القائلة : «الجار ثم الدار» (أى اسأل عن الجار قبل
ان تشتري الدار) معروفة فى العالم العربى ، ولكنها فى مصر
تكتسب معنى الحكمة الراسخة والنصيحة التى لا تقبل الجدل .

وتنصح الامثال الشعبية المصرية بالتكيف مع الجيران والتفاهم
معهم والصبر عليهم . «النبي وصّى على سابع جار» و«ان كان
جارك مرتاح تبقى انت مرتاح» و«اطلب الخير للجار تلقى الخير
عندك فى الدار» . فمصالح الناس متشابكة ، وفى القرية تتوقف
حياة الجيران بعضهم على بعض ..

وفى مصر يعرفون الحديث النبوى القائل : «وظل جبريل
يوصينى بالجار حتى ظننت انه مورثه» .

والتعايش يتطلب القدرة على التنازل وتجنب التطرف ، والمصريون هم كذلك فعلا ، فهم اساتذة التنازلات والمساومات والحلول الوسط . انهم يبحثون دائما — وكثيرا ما يعثرون — على الوسط الذهبى . وهم يسعون الى قبول الجديد دون التفريط فى القديم ، والى اتباع الاساليب العصرية مع الابقاء على التقاليد ، بل ويريدون حتى القيام بالثورة دون عنف و . . . بدون تغير يذكر . وعلى الرغم من تفجرات التعصب فالمصريون الان وفى الماضى البعيد اظهروا دائما انهم يتحلون بقدر كبير من التسامح الدينى . وينطبق هذا فى المقام الاول على القرية . فالعمران يغير ويهدم نمط الحياة السابق . افلا تعطى المدينة الكبيرة قدرا من الاستقلالية للفرد ؟ وأهل المدينة ، أليسوا ينفصلون عن العشيرة والعائلة الكبيرة ؟ نعم ولا . فبعد الانتقال الى المدينة يبقى الناس على صلاتهم بعشائرتهم وجماعاتهم وروابطهم ، ولا يتخلون بسرعة عن معتقداتهم السابقة . وتمارس هذه الصلات تأثيرها على سلوكهم ونمط حياتهم . وتستمر العادات والطباع التى اكتسبوها فى القرية قائمة فى المدينة لمدة طويلة حتى ولو فقدت مغزاها الاجتماعى الوظيفى السابق .

ان المجتمع المصرى — وليس فى الريف وحده — تتخلله من اعلاه الى اسفله منظومة من العلاقات الجماعية . وهى تقوم على رابطة القرابة والدم ، اقوى الروابط ، رغم ان العصبية والروابط القبلية بالمفهوم الشائع فى الجزيرة العربية فضلا عن المفهوم الافريقى لا وجود لها هنا تقريبا . كذلك تقوم تلك العلاقات على رابطة الدين والانتماء الى الطرق الصوفية ، وعلى الانتماء الى الروابط الاقليمية والتجمعات الطوائفية . وتصبح العلاقة الشخصية اهم من الكفاءة المهنية ، بالرغم من ان الانتاج والتنظيم الحديث

يفرضان احيانا متطلبات حديثة لدى اختيار الاشخاص . والفرد قوى طالما كانت الجماعة التي ينتمى اليها قوية . وأحيانا يفاجأ الاجنبى بعدم رغبة المصرى فى القيام بخطوة مربحة ، ولكن السر هنا ليس فى «الاعقلانيته» ، بل فى حرصه على مراعاة مصالح الجماعة ايضا لا مصالحه وحده .

والمصرى يخشى الوحدة والعزلة سواء بالغريزة ام بالوعى والادراك ، فهو ، منفردا ، ليس له وزن فى المجتمع او هبة ، اما فى الجماعة فيكتسب الثقة فى نفسه والاحساس بالامن والطمأنينة . وحتى كبار الفنانين والكتاب والمطربين والممثلين فلا بد ان يكون لديهم دائرة من الاصدقاء والاتباع والحماة . وسلطة الجماعة تعتمد على قوة رأى العام المطلقة فى الريف والنسبية فى المدينة . فالرأى العام اذ يدين او يمتدح شخصا ما ، انما يفرض عليه بذلك قواعده الاخلاقية ولا يترك له الا هامشا ضيقا لحرية اختيار السلوك . وفى الريف لا يوجد جهاز لصياغة رأى العام وفرضه ، ولكن لو حاول الشخص ان يتصل من قواعد السلوك المتبعة فانهم يذكرونه بها ولو بواسطة العقاب الجسدى اذا لم تفلح الادانة الجماعية .

والمصرى — سواء عن وعى أم عن غير وعى — يوازن بين اقواله وتصرفاته وبين ردود فعل الاخرين عليها . وهو مشغول دائما بالتساؤل : «وماذا سيقول الناس ؟» . ولهذا فهو يحرص على كرامته . ويقول الباحث الاجتماعى المصرى عزت حجازى «ان هذا الحرص يعنى حساسية مفرطة تصل الى حد ردالفعل المرضى على كل ما يمس شرفه ، والخوف من آراء الجيران ، وهى ظاهرة يتميز بها المصريون أكثر من بقية الشعوب» . واعتقد انه من الممكن ان تتفق معه دون ان نخص مصر وحدها بذلك .

ففى اليابان والصين وفيتنام يلعب الحرص على الكرامة دورا اكبر مما فى مصر . ويستطرد عزت حجازى قائلا : «ان الحرص على عدم الوقوع فى الخطأ وعدم الظهور بمظهر مضحك او غير لائق كثيرا ما يدفع المصرى الى القيام بتصرفات غير معقولة والى الانتحار فى بعض الاحوال الاستثنائية ، الامر الذى يفوق التصور بالنسبة للمسلم» . وهو يعتبر مثلا ان لجوء الطلبة الى الغش اثناء اداء الامتحانات لا يرجع فقط الى حرصهم على النجاح فى الامتحان بل والى الخوف من ان يظهروا بمظهر مهين فى اعين زملائهم ومدرسيهم .

واذا ما قام المصرى بعمل ما لا تتوقف عليه رفايته بصورة مباشرة فكثيرا ما يصبح من المهم له ليس اداء العمل بل رأى الاخرين بان العمل قد انجز . وهذه السمة المنتشرة من سمات طباع المصريين تصبح سمة عامة فى الجهاز الادارى ، واذا كانت البيروقراطية عموما تتسم بمظهرية الاداء والخداع والتضليل وذر الرماد فى العيون ، فان البيروقراطية المصرية ليست استثناء من القاعدة .

ان الخوف من اهانة الكرامة وكذلك الايمان بان كل شىء مقدر ومكتوب يجعلان المصرى لا يسلم بخطئه علنا . فالنقد الذاتى مستحيل ، او بالاحرى هو استثناء من القاعدة . فاما ان المصرى محق ، واما ان المخطيء شخص آخر او شىء آخر : القدر او القوى الغيبية ، او هى مشيئة الله . وفى ظل وضعية «الحرص على الكرامة» تصبح معايير الصدق والكذب امرا ثانويا . ان الصدق افضل ، وهو المثل الاعلى . والشخص الصادق يثير مشاعر الاحترام . ولكن الصدق وفقدان الكرامة امران لا يجتمعان . ولهذا فالكذب مسموح به لانقاذ الكرامة . حتى علماء الدين يمكن ان يجدوا

حجة للنكوص عن الصدق في بعض الظروف المعينة .
وعندما يصبح الكذب لانقاذ الكرامة مستحيلا ، مثلا عندما
ينبغي ابلاغ الرئاسة العليا خبرا سيئا ، فكثيرا ما يسعى البيروقراطي
غريزيا الى تأجيل اداء هذه المهمة الخطرة والمزعجة . وكتب
محمد حسنين هيكل في «الاهرام» بتاريخ ٢٨ يونيو ١٩٦٨ ان
الاسرائيليين وضعوا في اعتبارهم هذه الخصيصة من خصائص
طباع المضربين عندما شنوا حرب ١٩٦٧ . فهم لم يستطيعوا
ضرب القواعد الجوية المصرية كلها في وقت واحد ، فهاجموها
على موجات مع فاصل زمني بينها لبضع دقائق ، مقدرين تقديرا
سليما ان قادة القواعد لن يبلغوا القيادات الاعلى فورا بالانباء
السيئة ، ولن تعلن حالة التأهب الشامل على الفور . وبالفعل
كانت الضربة مباغته حتى عند قصف المطارات البعيدة . وكتب
هيكل : «ان هذا العيب اعطى للدعوى عشر دقائق كان في حاجة
اليها لشن الهجوم المباغت على احدى عشرة قاعدة جوية .
ووجهت الضربة الاولى الى المطارات الامامية في سيناء ، لكن
عيب السلوك لعب دوره في عدم انذار المطارات الاخرى بسرعة ،
واهدرت الدقائق الثمينة» . ان مطالب الحياة الحديثة تملى طريقة
السلوك ، وليس بوسع الشخصية القومية ، ان تبقى ثابتة بل
هي تتغير ، ولكن هذه العملية تستغرق زمنا طويلا .
ومع ذلك يعتبرون في مصر قول الحقيقة في وجه الحاكم
اسمى مظاهر الكرامة الانسانية .

وبالطبع فليس الحرص على الكرامة في مصر امرا مطلقا
بل هو امر نسبي . وهو يتعلق في المقام الاول بشرف الاسرة
وشرف المرأة . وعندما كنت طالبا في القاهرة وفيما بعد كذلك
شهدت حالات استخدام الضرب من الكبار ضد الصغار ومن

صاحب الدار للخادم ، وذات مرة شاهدت ضابطا يضرب جنديا .
وليس ثمة مجال للكلام عن الكرامة فى هذه الحالات . فالكادحون
المصريون يعرفون جيدا كيف يصبرون على الظلم الواقع من اعلى
وعلى انتهاك الكرامة الانسانية ، ولذلك لا يثير الضرب فيهم تفجر
العنف المضاد . اما اذا تناول اصحاب السلطة على شرف العائلة
او الام او الزوجة فسواجهون الرد .

ان الحياة فى الجماعة وارتباط الفرد بالمجموع قد اوجدا
قواعد للتعامل البشرى بين المصريين لا يمكن الا ان تثير فينا
الاعجاب بهم وبغيرهم من العرب . فالكرم والادب خصال
تسرى فى دماء المصريين ، ناهيك عن العناية والاهتمام بالاصدقاء .
فاذا كنت تسير فى الشارع واومات برأسك مبتسما لاحد «الغلابة»
ممن يتكسبون من عارض الاعمال ، وكان فى تلك اللحظة
يعد لنفسه شايا ثقيلًا — هو فرحته الوحيدة — على وابور جاز ،
فسيكون رد فعله الفورى قوله : اتفضل ، عارضا عليك بذلك
ان تشاركه وليمته المتواضعة .

ولم اصادف وصفا لمثل هذه العادات فى مصر القديمة .
والاقرب الى الصواب ان العرب هم الذين جاءوا بها الى مصر
وادخلوها فى طباع الشعب العربى المصرى . ان الكرم يعتبر
واجبا وشرفا يمليه الوضع الاجتماعى . فمن العار بالنسبة للمصرى
ان يشتهر بانه بخيل او لم يكرم وفادة الضيف . ومع ذلك فالفلاح
حتى فى ايامنا هذه لا يستطيع ان يتفوق على البدوى فى الكرم .
والكرم يسير مع الادب جنبًا الى جنب . ونادرا ما تصادف
الوقاحة المتعمدة ، الا اذا خلطت بينها وبين الاستهتار . وقد
يظهر ذلك فى باص غاص بالركاب او فى ادارة حكومية نسيت
ان تدفع فيها البقشيش . اما فى مجال الخدمات ، حيث تدفع

مقابل الخدمة ، فمن المستحيل تقريبا ان تصطدم بالوقاحة .
ولكن خشونة الاعلى درجة تجاه الادنى امر ليس نادرا فى الاوساط
البيروقراطية خاصة .

ان الادب لا يعنى التبسط . والمصرى يقدر بدقة الوضع
الاجتماعى للشخص الذى يتعامل معه والدرجة التى يشغلها هذا
الشخص فى السلم الاجتماعى . فالتبسط فى معاملة الاشخاص
الادنى درجة مخوف بخطر ان تفقد الاحترام فى اعينهم وتسمح
لهم بالتسلط عليك .

والمصرى يعطى للجماعة ويأخذ منها ، يخضع للجماعة
وينعم بثمرات هذا الخضوع . ولكن الوضع يختلف فى معاملته
للدولة وللسلطة وللالة البيروقراطية . فلقد اشار كارل ماركس فى
حينه الى الوظائف الخاصة للدولة فى الشرق باعتبارها موزع الاشغال
العامة ومنظم شبكة الرى على المستوى القومى . ولكن وظائف كبير
مهندسى الرى التى كان يتولاها ، فى الغالب ، حاكم
مصر فى عصر ما قبل الاسر ، قد تراجعت منذ آلاف السنين
الى المركز الثانى مفسحة الطريق لوظائف الاستبداد الطبقيّة البحتة .
اما بالنسبة للبيروقراطية الحكومية فقد اصبحت مهام انشاء وصيانة
القناطر والسدود والترع وتوزيع المياه مهام ثانوية بالنسبة للمسألة
الرئيسية الا وهى اعتصار السكان ونهب الفلاحين واستخلاص
فائض المنتج منهم «بصورة مشروعة» والى اقصى حد وكذلك
جزء من المنتج الضرورى ، واستخدام كافة وسائل التأثير العسكرى —
البوليسى والقضائى — البيروقراطى والعقائدى — الدينى ، وذلك من
اجل تحويل الفلاحين والشعب الى ماشية عمل مطبوعة سلسلة
القياد . وكان الشعب يعرف او كان يشعر غريزيا انه بدون الرى
المنظم على مستوى الدولة تستحيل الزراعة والحياة معا . وبهذا

المعنى فقط كان الشعب . «يأخذ» من الدولة .
وفي أيامنا هذه «يأخذ» الشعب من الدولة امكانية التعلم
في المدرسة والحصول على قدر ما من المعونة الطبية ولا شيء
أكثر من ذلك . والشعب قد «اعطى ويعطى» أكثر من هذا بكثير
وذلك بكونه الاساس الذى قام عليه هرم الطبقات والفئات الطفيلية
التي تنهيه وبعيشه على الكفاف لكي تغرق «القمة العليا» فى الترف
وتستمتع بالنعيم . ورغم تبدل الحكام والانظمة واللغات والاديان
فقد ظلت العلاقة بين «القمم» و«الحضيض» على ما هى عليه .
وكان نظام الرئيس عبدالناصر المحاولة الوحيدة فى التاريخ لتغيير
هذا الوضع .

لقد قامت العلاقة بين السلطة والشعب ومازالت تقوم على
عدم الثقة والعداوة . وغالبية المصريين على يقين بأن السلطة
شر . وليس عجيبا ان السلطة ، منذ ايام الفراعنة ، اعتمدت
على القوات الاجنبية . وانتهى الامر بان اصبحت الشريحة الحاكمة
هى ايضا اجنبية (رغم انها متمصرة) وظلت كذلك حتى نهاية
القرن التاسع عشر . ولم يبدأ المصريون فى دخول الجيش للخدمة
العسكرية كجنود فقط الا فى عهد محمد على الذى اصبح
بالفعل حاكما مستقلا لمصر فى النصف الاول من القرن الماضى .
وحتى الان ما زالوا يقولون عن الجيش «جيش السلطة» .

وقد تغير وضع الجيش لفترة قصيرة فى عهد عبدالناصر وفى
فترة حرب أكتوبر ١٩٧٣ . وقد غنى المغنى الضرير الشيخ امام
معشوق الشباب ذى الميول الثورية من كلمات الشاعر احمد
فؤاد نجم عن الجنود الذين حاربوا فى سيناء : «همّ مين ،
همّ مين ؟ همّ ولاد الفلاحين» ولكن بعد عبدالناصر اصبح الجيش
المصرى مرة ثانية «جيش السلطة» . وحتى فى زمن السلم يودّع

المجنّد للخدمة العسكرية بالبكاء والعويل . والفقير الذى لا يستطيع رشوة الطبيب او الذى لا يدفع بدل الخدمة هو الذى يجنّد للخدمة العسكرية .

ان لعبة الديمقراطية لم تغير كثيرا فى موقف الشعب من السلطة . وقد رسم توفيق الحكيم فى كتابه «يوميات نائب فى الارياف» صورة مفعمة بالسخرية «للانتخابات» فى الريف المصرى والتلاعب بأصوات الناخبين ، عندما ذكر مأمور البوليس انه يترك للفلاحين «مطلق الحرية» فى انتخاب من يريدون ، ثم يغير صناديق الانتخابات بعد التصويت بصناديق اخرى معدة سلفا .

وهاقد مر نصف قرن منذ ذلك العهد ، ولكن جريدة «الاهالى» الناطقة باسم حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى تكتب عن انتخابات مجلس الشعب فى مايو ١٩٨٤ انها مزورة ، وان الحكومة حصلت على الاغلبية بالقوة والتزوير والابتزاز . وذكرت الجريدة فى افتتاحيتها ان الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم «قد وأد الامل فى الديمقراطية والحرية فى مصر . . ولم يقف الامر عند حد التدخل السافر للوزراء والجهاز الادارى فى الحملة الانتخابية واستغلال اموال الشعب والصحافة القومية والاذاعة والتليفزيون لمصلحة الحزب الحاكم ، بل تعداه الى التزييف المباشر والتزوير للحفاظ على سلطانه» . واستطردت الجريدة قائلة : «ان عشرات آلاف الناخبين منعوا من الادلاء بأصواتهم» وفى تلك الدوائر التى كانت للمعارضة فيها فرص كبيرة للنجاح ومواقع قوية وورش فيها اقطاب النظام انفسهم «لجأ الحزب الحاكم الى العنف المباشر والتخويف والتهديد» . وهناك كان ممثلو المعارضة اما يطردون بالقوة من اللجان الانتخابية واما يمنعون اصلا من الدخول

الى اللجان . واختطف بعض مرشحي احزاب المعارضة واحتفظ بهم كرهائن ، وجرت محاولات اعتداء على حياة عدد منهم . وهاجم الاشقياء المأجورون اعضاء اللجان الانتخابية الذين حاولوا التمسك بالقانون . وجرى ذلك كله امام اعين الشرطة التي وقفت بعدم تدخلها هذا «في صف الارهاب» عمليا . ومضت جريدة الاهالى تقول انه في غياب ممثلى المعارضة القى اعضاء الحزب الحاكم فى صناديق الانتخابات بطاقات مزورة . واعلنت الاهالى ان «الامل بتغيير ديمقراطى هو وهم ، واللغة الوحيدة التى يجيد حكامنا التحدث بها هى لغة القوة» .

ويفضّل الفلاح حل مشاكله بدون اللجوء الى السلطات اذ يدرك انه لن يجد فى الادارات الحكومية سوى المماثلة والابتزاز . ولهذا تتحدث الامثال الشعبية عن ضرورة الابتعاد عن السلطات ، وان من يعيش بعيدا عن السلطان يعيش فى امن وسلام . بيد انه من الصعب الافلات من سلطة الحاكم ، ومن يفلت من الحاكم لا يفلت من الموت .

والعلاقة بين الشعب والسلطة مفعمة بالخوف والريبة . فالمصريون ايضا يعرفون المثل القائل «الحيطان لها ودان» (للجدران آذان) ويقال ايضا «سيف السلطان طويل» . ونجد الموقف نفسه تجاه الشرطة : «حاميه حراميه» . والجيش ايضا كان تقليديا قوة قمع فانعكس ذلك فى الامثال الشعبية التى تستبعد امكانية اللجوء الى الجندى طلبا للحماية .

وتتحدث الامثال كذلك عن ضرورة الخوف من الحكام ، واذا سببتهم فليكن ذلك همسا . غير انه ينبغى ان تتعاون مع السلطة . واذا احتجت الى خدمة وكان عليك ان تدفع رشوة فافعل . ويتحدث كثير من الامثال عن الطاعة والاذعان والاستسلام ،

وتنصح بعدم مجادلة الحكام وتفضيل الصبر الطويل والتسليم
بمشيئة القدر .

ان كثيرا من الامثال التي نبتت من الاحساس باليأس وغياب
آفاق الحل قد ساعدت بعد ذلك هي نفسها على ايجاد جو
اجتماعي — سيكولوجي مكن الحاكم من سوء استغلال السلطة
دون ان يلقي مقاومة ، اى جعله «يتفرعن» . . . والمعروف ان
كلمة «فرعون» في اللغة الشعبية الدارجة تعتبر رمزا للاستبداد والظلم .
والمصري لا يحب تحمل المسؤولية الشخصية لانه يرى فيها
مصاعب ومخاطر تهدده هو واسرته . وهو لا يريد ان يكون له
رأيه الخاص . المستقل . والامثال الشعبية تتحدث عن ضرورة
اخفاء الرأس بين بقية الرؤوس حتى لا يطاح بها وتنصح بان يكون
المرء اول من يذعن وآخر من يثور ، اى نموذجا للشخص الذى
لا يرى ولا يتكلم ولا يسمع .

ولكن وضع القرييين من السلطة ومن الجهاز الادارى والذين
يعيشون عيشة طفيلية وضع مختلف عما دار عنه الحديث آفا .
فهم يأكلون على حساب الفلاحين ولكنهم خدم السلطة ، والشعب
لا يحترمهم ، لان الذى يقيم رفايته على رفاية الحكام والامراء
لا يمكن ان يعيش عيشة محترمة ويتحول الى انتهازي ومتطفل .
وثمة عدد من الامثال الشعبية التي ترسم صورة مثالية للحاكم .
ومتطلبات الشعب تجاه الحاكم بسيطة ، ولكن كما يقال :
«هو فى واد والشعب فى واد آخر» ويفصله عن الشعب بطانته
وخدمه . والمثل يقول : «اذا اردت ان تطاع فمر بما استطاع» .
والمثل القائل : «اذا تهاون الحاكم تفرقت الرعية» يعنى ان
الحاكم اذا كان ضعيفا فسوف يدب الاضطراب بين رعيته . ومن
ثم يعطى مثل آخر نصيحة قاسية : «اضرب المربوط يخاف السايب» .

وعلاقة الحاكم بالرعية تتميز بغياب الاحترام المتبادل وبالشكوك والكراهية . فالحاكم لا يشعر ابدا انه بأمن تام ، بل يحس بأن حكمه موقوت وان الموت او النفي يترصان به . والانسان البسيط لا يؤمن بقوة القانون وعدل الهيئات الحكومية . والعلاقات بين العشائر والعائلات تحكمها عادة الثأر التي دخلت مصر ، فيما يبدو ، مع عرب الجزيرة اكثر مما تحكمها الشريعة والقوانين المدنية .

يبد ان موقف السكان من السلطة معقد ومتناقض ، فهم لا يتقون بالحكام ويكرهونهم وفي الوقت نفسه يحسدونهم ويتملقونهم ولو ظاهريا . ويشير لاين الى ان «العناد الفائق والتمرد يتعايشان لدى المصريين مع التزلف في الحركات والكلام» . فحياة الفرد ومعيشته ونشاطه الاقتصادي ونجاحه وتوفيقه لا تتوقف على قدراته وجهوده بقدر ما تتوقف على حسن علاقاته باصحاب المراكز . والنفاق والتزلف عيب منتشر ، رغم انه يصيب البيروقراطية قبل غيرها . فالتدرج الهرمي للمجتمع يتطلب الطاعة والاذعان ، والاستسلام يعزز الاستبداد . فحتى الموظف المصرى الصغير يشعر بالفرحة عندما يحصل ولو على قدر ضئيل من السلطة الفعلية . وهو يقرن حصوله على مركز فى سلم البيروقراطية بالتشريف والتكريم وبامكانية الاثراء الشخصى . وحتى وقت قريب كان اعظم تكريم لخريج الجامعة ان يحصل على وظيفة حكومية .

وإذا كانت السلطة لا تفترض المسؤولية فانها تصبح حلوة المذاق بدءا بدرجاتها الدنيا . بهذا وحده يمكننى ان افسر سلوك احد رواد المقهى البادى الفقر والذي يطلب فنجان قهوة بكل عظمة ، او يمد ساقيه لكي يلمع له منظف الاحذية حذائه . وبنفس الاستمتاع ينادى احد النظارة فى قاعة السينما باع الكوكاكولا

او اللبان ، رغم ان هذه البضاعة متوفرة بسعر ارخص فى الكشك امام دار السينما . ولكن من الممتع ان تحس بنفسك باشا ولو للحظة .

والمصرى لا يتصور المجتمع بدون تسلسل هرمى ، بدون سلطة . ويقول المثل الشعبى : «اللى ما لوش كبير يدور له على كبير» . ويسود يقين بضرورة الحكم والسلطة المدنية او الدينية . والشعب يسخر فى امثاله ونكاته من الحكم والحكام ، ولكن المصريين يشعرون فى احدى زوايا النفس بالحنين الى حاكم قوى ولكنه عادل وحكيم .

وتتمثل خصيصة البنية الانتاجية والاجتماعية لمصر فى ان الكفاح ضد السلطة المركزية امر فى غاية الصعوبة . فهذا الكفاح ينبغى ان يكون شاملا والا فهو محكوم بالفشل ، او يكون مؤامرة فى القمة ، ولكنه فى هذه الحالة لن يكون كفاحا ضد السلطة بل صراعا من اجل السلطة . لقد ظل المركز دائما اقوى من اى اقليم . كما يرجع ذلك ايضا الى استحالة تدمير شبكة الرى التى تمد الجسم بالحياة كالعروق بالدم . وقد شهدت البلاد اقصى درجات التدهور فى فترات ظهور النزعة الانفصالية الاقطاعية بالذات ، كما حدث فى القرن السادس عشر الميلادى مثلا قبيل الغزو العثمانى ، او فى نهاية القرن الثامن عشر قبيل حملة نابليون ، علما بان وحدة الجهاز الاقتصادى المركزى آنذاك لم تمس بل فقط لم يحافظ عليه المحافظة الكافية . ولم يلجأ الشعب وهو فى غاية اليأس الى التمرد ضد السلطة الا فى الحالات القصوى ، ولكن حتى فى هذه الاحوال النادرة كان المتمردون من الفئات الفقيرة فى المدينة وليسوا من الفلاحين . فالفلاح يفضل الصبر طالما لا يهدده الموت .

ولم يكن بوسع الفلاح ان يهرب الى مكان آخر ، لا لانه كان مربوطا بالارض بقيود قانونية وانما لانه لم تكن فى البلاد اراض اخرى ومصادر اخرى للمعيشة ، فالصحراء تمتد محيطة بكل شىء .

لقد انحصرت افكار الفلاح وتطلعاته فى البقاء على قيد الحياة . بيد ان الفلاح المصرى كان اول من لجأ الى المقاومة السلبية والى العصيان المدنى فى التاريخ . فالفلاح المصرى يجيد اجادة تامة اساليب عدم تنفيذ الاوامر ، والتهرب من الضرائب ، والتنصل من تنفيذ التعليمات التى ليست فى صالحه والتظاهر بالموافقة ثم القيام بعكس المطلوب . . . الخ .

لقد كان معظم المصريين غرباء فى مجتمع يعيش على حسابهم . ولم يكن بوسعهم ان يؤثروا على سير الاحداث . وكانت قوة غريبة معادية تصدر القرارات وتلزم الفلاحين بتنفيذها دون مراعاة لمصالحهم او لآرائهم . وكان ذلك لا يقضى على القدرة على الحركة من اجل تغيير الامر الواقع فحسب بل وعلى الايمان بحقهم فى التغيير وفى امكانية تحقيقه .

ويكن الفلاحون الاحترام للماضى فى ظل غياب الامل فى المستقبل . ويؤكد المثل الشعبى ان «اللى مالوش قديم مالوش جديد» .

ويتميز موقف المصريين من الجديد بالحذر والريبة . وعندما سألت الفلاح الذى كان يتابع عمل الجرار : الا يريد ان يصبح مالكا لمثل هذه الالة ، اجابنى بحذر : «الجرار كويس ، وهو احسن من الجاموسة فى الحرث ، ولا يحتاج لعلف . ولكن الجرار لا يعطى لبنا ولا يلد فحولا كالجاموسة ، ولا يمكن ذبحه وبيع لحمه وجلده» .

الفلاح يعيش يومه فقط . والتفكير فى المستقبل والتخطيط له همّ ثقيل عليه . فالتخطيط الزراعى ، اى السنة الزراعية ، هى تكرار للماضى ، وهى دورة معهودة منذ الازل للاعمال الزراعية حسب فصول السنة .

وعندما يخطط المصرى لعمل شىء او يعد بعمله فانه يردد حتما العبارة الشائعة التى يعرفها كل من زار البلدان العربية : «ان شاء الله» . سوف يجيئون اليك بعد ساعة ، ان شاء الله . ويعدونك باصلاح الثلاجة او الحذاء ، او احضار المشتريات ، او حجز بطاقة ، او تحديد موعد لقاء ، وفى كل مرة لا بد من عبارة «ان شاء الله» .

واذ يرى المصرى ان السلطة تحرمه دوما من حق اتخاذ القرارات ، بينما تكبله العادات بقيودها الصارمة ، فانه كثيرا ما يفقد روح المبادرة والشطارة . لقد استوعب من خبرة الاسلاف ان العقاب دائما ما ينزل باصحاب المبادرة ، وفى احسن الاحوال فهى بلا فائدة ، وما اقل ما يتوقف على شطارته . وافضل وسيلة للحفاظ على راحة البال هى الخضوع او التظاهر بالخضوع والقاء عبء المبادرة على الاخرين . وعندما لا يوجد من يستعد لتحمل مسؤولية القرار فان المصرى يفضل الخمول .

فاذا كانت السلطة او الدولة — سواء كانت قوة مجردة ام قوة محددة تماما ومتجسدة فى صغار الموظفين — لا همّ لها الا محاولة القاء المسؤولية على الفرد والعامل ، فان رد فعله الطبيعى على ذلك هو التهرب من المسؤولية والتنصل منها . افليس الله هو المسئول عن كل شىء ؟ اولىس القدر هو الذى يحدد ترتيب الاحداث وتربطها وتفاعلها ؟ اليس الخبرة الذاتية تعلم ان المسؤولية كانت تعنى دائما وابدا الخسارة لا الربح ؟

ان التصدى لاتخاذ القرار يعنى تحمل المسؤولية ، وهذا بالضبط ما ينبغي تجنبه .

ويكتب عزت حجازى : «ان احدى سمات الفلاح المصرى هى التهرب من حل المشكلة وتشتيت الجهود فى ظل تفاقم الازمة عندما يتطلب الامر حشد العزيمة او القوى للنضال وللمواجهة» .
وينعكس ذلك فى الفلكلور المصرى والاغانى المصرية . فالفلاح يمضى بشكواه الى ضريح الشيخ المحلى او الى احد المشعوذين . . .
ولكن ذلك يحدث بعد ان ييأس الفلاح من العثور على نفس حية يبيثها شكواه .

لا يمكن التنبؤ بفيضان النيل وبارادة السلطة ، وليس للفلاح عليهما تأثير ، ولذلك فأفضل شىء ان يعتمد على القدر وعلى الله . فلن تغير الجهود البشرية شيئا مهما كانت قوية . ولذلك فالأفضل ان يصبر ويدعن .

«الصبر خير» ، «الصبر طيب» ، «الصبر جميل» تلك هى الحكم الشعبية الواسعة الانتشار فى مصر . تسمعها تتردد باستمرار ، وتراها مكتوبة بالزخارف على جوانب الشاحنات وعلى واجهات الدكاكين وفى الدواوين الحكومية . واصبح الصبر ، وليس المبادرة او الكفاح ، هو السبيل لبلوغ المأمول ، والوصية الاولى لدى الشعب ، الوصية التى تكاد تسبق الايمان ، والفضيلة التى لا تترزع . وتضفى الامثال الشعبية على هذه السمة من سمات الطباع مسحة الهية (الله يحب الصابرين) . لقد صبرت ايام القراعة ، وايام الرومان ، وايام البيزنطيين ، وايام الخلفاء ، وايام السلاطين وفى عهد الملك ، صبرت دائما وفى كل العصور . فلتصبر الان ايضا ، فى ظل الرأسماليين والاقطاعيين ، اصبر على البرد والحر ، على الجوع والعطش ، على الظلم والذل ، اصبر واعتمد

على الحظ . لذا يقول المثل «قيراط حظ ولا فـدـان شطارة» .

فاذا فاتك الحظ فى هذه الدنيا فستنال ما تريد فى العالم الاخر . ومن ثم فالسلوى الوحيدة للفلاح هى الامل بالعدالة والغنى فى الاخرة . والسلوى الثانية هى الاطفال . فلتصبر ايها المصرى وعندئذ تبقى على قيد الحياة . وفى الصبر يسهل الحفاظ على الكرامة .

والصبر تؤمن به الفئات الدنيا ، غير ان القمم العليا تعظ به . وقد سمى الباحث المصرى حسن حنفى العظة بالصبر المقترنة بالانكال على القوى الغيبية «افيون الشعوب» . فهى تسهل وتبرر الاضطهاد ، وتحول الفقر الى فضيلة ، وتدعو الى القناعة بالقليل وعدم المطالبة بتغيير القسمة ، وتقضى على فكرة العصيان والمقاومة ، وتبرر الانانية والطفيلية والبدخ الذى يعيش فيه عليه القوم . فكل ما يجرى هو خير فى هذا العالم الخيـسـر . ولا داعى لتغيير شىء ، ونصيب العامل ان يعمل ويعتمد على الله ويصبر .

ان القدرة على التحمل والصبر والنزعة القدريـة تجعل من المصرى جنديا جيدا . وقال لى الضباط السوفييت الذين عملوا مستشارين فى الجيش المصرى : «من الفلاحين المصريين يمكن اعداد مقاتلين ممتازين . فالجندى المصرى ليس اسوأ من الاسرائيلى اذا واجهه فردا لفرد بل هو ، على الأرجح ، افضل منه» . وقد كرروا بذلك الوصف الذى اعطاه لايـن للمصريين منذ مائة وخمسين عاما حين كتب : «الفلاحون الخاضعون للسلطة يبدون بسالة وشجاعة فى الصدمات التى تشب بينهم . ومنهم يتكون جنود ممتازون» . ولكن الحرب الحديثة تتطلب سرعة

اتخاذ القرارات وابداء المبادرة والالتزام بالتنفيذ والدقة في التقيد بالمواعيد وتنسيق التحركات مع توفر عناصر الثقافة العامة والتعليم التقنى . ولهذا فكثيرا ما يكون الفصيل الاسرائيلى عموما اقوى من المصرى . وتتغير موازين القوى تغيرا حادا على مستوى الوحدات والتشكيلات حيث يمكن ان تؤدي المقارنات الحسائية البسيطة الى الوقوع فى الخطأ .

والصبر يقتضى الرصانة فى السلوك وفى الكلام . ان المسلك المحترم الوقور هو سمة لا غنى عنها للكهول او كبار السن .

يبد ان الصبر والحرص على رصانة المسلك والتعبير عن العواطف لا يعنى ابدا الخلو من الاحاسيس والبلادة . فالعاطفية لدى المصريين تمضى جنبا الى جنب مع صبرهم . وهم سريعو الانفعال والغضب الذى لا يعرف حدودا . ومن السهل ان يثيرهم اى تحرش . وقد اشار لالين الى ذلك : «من السهل ان تنشب المنازعات بين المصريين ، وخاصة بين بسطاء الشعب ، وعندئذ تنصب اللعنات على الاباء والامهات واللحى وغيرها ، وكلمات السباب مثل «ابن الكلب» و«المعرّص» و«الخنزير» . . . وعندما يسب احد المتخاصمين ابا الاخر فان هذا بدوره يرد عليه سابا اياه و أمه واحيانا جميع اسرته . وقد تنهال التهديدات كالمطر ولكنها نادرا ما تتحول الى لكلمات . وللحقيقة فقد رأيت عدة مرات اشخاصا من الفئات الدنيا وهم يعضون بعضهم بعضا فى سعار ويمسكون بتلابيب بعضهم البعض . كذلك شاهدت نماذج لرباطة الجأش والصبر بين اناس من الفئات المتوسطة والعليا عندما وجهت اليهم اهانات فظة . وسمعت غير مرة قول المصرى الذى تلقى ضربة من شخص مثله : «ربنا يسامحك ، ربنا يجازيك خير ! إضربنى كمان !» .

وقد تابعت غير مرة مشاحنات فى الشارع ، عندما كانت
الاهواء تتأجج والسباب ينهمر دون حساب ، والصراخ يتعالى ،
ولكن الامور نادرا ما تصل الى حد الاشتباك بالايدي . ان التركى
مثلا سوف يضرب ردا على نصف هذه الكمية من السباب الذى
كيل . لكن المصريين يعرفون الحدود وهم يهدأون بسرعة . والنزاع
اذ ينشب سرعان ما يهدأ .

ويكتب الباحث الاجتماعى المصرى الدكتور سيد عويس :
«نحن المصريين نحب النكتة ، ونحن خبراء كبار فى النكات .
اننا نحب الاغانى والفرفشة ، ومع ذلك فنحن شعب كثير الحزن .
اننا نبكى عندما نحزن ، ونبكى ايضا عندما نفرح .

اننا نضحك عاليا ولكننا قليلا ما نبسم . واذ بكينا نبكى
بعالى الصوت . ونحزن كثيرا ما نحزن ، ونادرا ما نغضب ،
ولكن اذا غضبنا فان الغضب يملكنا ويملاً صدورنا ويشل قدرتنا
على التفكير الموضوعى . واذا غضبنا فسرعان ما نهدأ ، ويزول
غضبنا فى سرعة البرق» .

ومن السهل اثاره الجماهير المصرية . وهذا ما يعزفه الساسة
ورجال الدين . ويجرى التأثير العاطفى والتفاعل بين الخطيب
والمستمعين بواسطة البلاغة ، ويستطيع الخطيب الجيد ان يتوصل
الى ذلك بسهولة . والخطيب المتمرس يخاطب المشاعر قبل
العقل . وليست هذه الظاهرة فريدة ، ولكنها مميزة للمصريين .
لقد كان جمال عبد الناصر معبودا حقيقيا للجماهير ، غير ان
السادات ايضا لم يكن خطيبا عاديا . ومواعظ الجمعة فى المساجد
يمكن ان تستولى على لب المصلين وتبهتهم . والمصريون يحبون
التواجد فى الجمع وفى الجماهير ، والمشاركة فى المؤتمرات
الحاشدة والمظاهرات ، التى يعتبرها الكثيرون منهم عملا ترفيهيا

نادرا ما تجود به الحياة . وفي عهد السادات كانوا يدفعون للفلاحين او لفقراء المدينة بقشيشا حوالى جنيه او جنيهين مقابل المشاركة فى المظاهرات ، حيث كان عليهم ان يصيحوا ويهللوا بل وان يرقصوا احيانا ، اى «ان يعملوا» مقابل ما حصلوا عليه ، دون ان يفكروا فى المغزى السياسى للتجمع الذى اشتركوا فيه . اما الوسيلة المصطنعة الاخرى لاثارة الحماسة فهى استخدام «المشجعين» المتناثرين وسط الجمهور ، والذين يقومون عادة باطلاق الهتافات ذات الايقاع والداعية الى تأييد الزعيم والمتفقة فى المعنى مع ما يقوله الخطيب ، وان كانت فى احوال كثيرة لا تتناسب معه . ويردد الجمهور وراءهم هذه الهتافات بكل استعداد ، خاصة اذا كانت الحماسة صادقة او مدفوعة الاجر ، وتنشأ وحدة — او وحدة مظهرية — بين المتحدث والسامعين ، بين الزعيم والشعب . واخيرا فهناك مخبرون للشرطة او عملاء خصوصيون للحزب الحاكم يراقبون الوضع بحيث لا تتردد هتافات مضادة . وليس غريبا ان الاستقبالات الجماهيرية المصرية تثير الاعجاب لدى الزعماء السياسيين الغربيين ، حتى المحنكين منهم ، والذين لم يألفوا رؤية هذه العواطف المتأججة .

لقد شهدت مصر فى ربع القرن الماضى ثلاثة انفجارات لعواطف الجماهير عكست ميولها السياسية . وقد وقع اول هذه الانفجارات اثر خطاب جمال عبد الناصر الذى اعلن فيه تنحيه عن رئاسة الجمهورية فى اعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧ . ولم يستطع المذيع الذى قدّم الرئيس آنذاك ان يتحدث بعد خطابه فقد غصّ بالبكاء . وحلت بضع لحظات من السكون فى جميع ارجاء البلاد ، ثم انفجرت صيحة واحدة من افواه الملايين العديدة : « لا ! » . وتدفقت الجماهير المعولة فملأت شوارع

المدن المصرية من اسوان الى الاسكندرية وظلت تهدر في الشوارع طول الليل ، معركة عن ولائها للرئيس . واكتسحت الساسة والجنرالات الذين كانوا يبحثون ترشيح خليفة عبد الناصر كما يكتسح الفيضان الشطايا الصغيرة ، وبقي عبد الناصر في السلطة .

وخرجت الجماهير الى الشوارع للمرة الثانية بعد ذلك بما يزيد قليلا عن ثلاث سنوات لتشيح جثمان الرئيس الراحل جمال عبد الناصر . واحتشد في القاهرة خمسة ملايين شخص وقد استولى عليهم حزن حقيقي .

وعرف عهد السادات ايضا انطلاقة العواطف الشعبية ، السلبية في هذه المرة .

فثمة حدود لصبر المصريين ، وبعدها يتفجر العصيان . والمثال الباطع على ذلك ، وان كان نادر الحدوث ، هو خروج الملايين الغاضبة الى شوارع المدن المصرية في يناير ١٩٧٧ ردا على قرار الحكومة بزيادة الاسعار .

ففي ١٨ يناير اعلن رفع اسعار الخبز والسكر والارز والبنزين والغاز . لقد جرى تخفيض الدعم الحكومي لسلع الاستهلاك الشعبي ومن ثم ارتفعت الاسعار . وكان الكثيرون آنذاك ، ان لم تكن الاغلبية ، يعيشون على عشرة قروش في اليوم ، الامر الذي يعنى تناول وجبتين فقط في اليوم من الخبز والبقول وقليل من الخضرة . ورفع الاسعار الذي يؤدي الى زيادة النفقات ولو قرشا واحدا يضعهم على حافة الجوع . لقد كانت عناصر التوتر تحوم في الجو عشية المظاهرات . فالذين يعيشون على القول والخبز كانوا يرون امام اعينهم اثرياء الانفتاح الجشعين الذين يعرضون ثرواتهم بكل وقاحة . ويجوار الركاب المعلقين على سلاسل الباصات المكتظة كانت تمر العربات الفارهة التي تكاد تماثل

الباص طولا ويجلس فيها راكب واحد . والاشخاص الذين يحصلون على خمسة عشر جنيها في الشهر لعائلة كاملة كانوا يقرأون عن سرقات بآلاف بل وملايين الجنيهات . وترقبا لارتفاع الاسعار اخفى التجار السلع في المخازن وبدأ الازر والسكر يخفيان من المتاجر . وبدأت الاضطرابات عفويا فور اذاعة نبأ رفع الاسعار ، وانطلقت من حلوان ، ضاحية القاهرة الصناعية . وشملت الاضرابات عدة مصانع بما فيها المصانع الحربية . وخرج العمال الى الشوارع حيث اقاموا المتاريس . وانطلق جزء منهم الى وسط القاهرة ، الى ميدان التحرير ، حيث انضم اليهم طلبة جامعة عين شمس . ثم توجهوا الى مبنى مجلس الشعب بعريضة احتجاج ، لكن الشرطة فرقت المتظاهرين باستخدام قنابل الغاز المسيل للدموع .

وملاّ مئات الآلاف شوارع القاهرة . واقام المتظاهرون متاريس من اطارات السيارات القديمة واشعلوا فيها النار . وبدأت الشرطة باطلاق النار فقتل وجرح مئات الاشخاص . وتسلم المتظاهرون بالهراوات والحجارة . وفي الاحياء العمالية اضرمت النار في اقسام الشرطة . وحاول المتظاهرون اقتحام مديرية الامن العام لمدينة القاهرة ، ولكن قوات الشرطة منعتهم من ذلك . وفي الجيزة خرج الى الشوارع طلبة جامعة القاهرة .

وراح المتظاهرون ينزعون ويدمرون اعلانات السلع الاجنبية ويحطمون واجهات المتاجر التي تبيع سلع الاستهلاك الترفيهي ويهاجمون الفنادق الفاخرة مثل «الشيراتون» ، ويحطمون زجاج السيارات الخفيفة ويشعلون النار في سيارات الشرطة والمطافئ . واتخذت المظاهرات في الاسكندرية طابعا اكثر عنفا واستمرت من الصباح الى ساعة متأخرة من المساء . واستخدمت قوات الامن القنابل المسيلة للدموع وفتحت النار على المتظاهرين ،

واضرمت النار فى اقسام الشرطة وفى بعض المتاجر وفى مبنى الاتحاد الاشتراكى العربى بالمحافظة .

وفى اوج المظاهرات كنت فى شارع القصر العينى المؤدى الى ميدان التحرير ، وكان المتظاهرون يهتفون «اولادنا جعائين» و«يسقط السماسرة وللصوص» و«الخبز ، الخبز !» . وكانوا يحملون صور الرئيس الراحل جمال عبدالناصر .

وسار المتظاهرون من الشاطيء الايمن للنيل الى الشاطيء الايسر . وكانت السيارات المتجهة نحوهم تسرع بالعودة الى الوراى بالسرعة الخلفية كما فى شريط سينمائى يعرض بالعكس .

وفى اليوم الاول للمظاهرات ظل الوضع فى المدينة غير واضح حتى المساء . وكان عليّ ان اجهز مادة اخبارية للصحيفة فغامرت بالخروج الى المدينة فى السيارة مع زوجتى ، والتقطنا من الطريق بعض الركاب العابرين . كانت زوجتى تقود السيارة بينما اخذت انا اسألهم عما يحدث واين . وكانت القاهرة شبه المعتمة ساكنة ولكنها مخيفة ومتوترة . وفى مكان بعيد تردد صوت طلقات قليلة . وفى شارع الاهرام لاحت فجوات سوداء مكان نوافذ النوادى الليلية المدمرة والمنهوبة . وكانت جميع اعلانات السلع الاجنبية التى لا يستطيع السكان العاديون شراءها مدمرة . وكان كوبرى الجامعة خاليا . واختبأ سكان الاحياء الراقية وراء شيش النوافذ المغلق . ثم اخذ عدد الناس يتزايد كلما اقتربنا من الاحياء القديمة . ويبدو ان ميدان العتبة كان مسرحا لمعركة حقيقية ، اذ كانت ارض الميدان كلها مغطاة بالحجارة والزجاج المكسور . وسدّ متراس مشتعل مدخل احد الشوارع بينما سدت فصيلة من الشرطة المزودة بالخوذات والدروع الواقية من الحجارة

مدخل شارع آخر . وامتلاً الشارع المؤدى الى الازهر بالبشر فانعطفنا بالسيارة نحوه دون تفكير فى العواقب . وامتألت سيارتنا بالصبيان المراهقين بينما جلس عدد من الاشخاص على مقدمة السيارة وعلى مؤخرتها . وأدركت من اقوالهم انهم يعتبروننا اغرابا معادين لهم . وكانت المسألة مرهونة بعدة ثوان ، اذ كانوا على وشك ان يفتكوا بنا . وتمكنت من ان اصيح باللهجة المصرية : «حرام عليكم ! خافوا من ربنا ! ايه ده اللي عاوزين تعملوه فينا ، دا احنا ناس طبيين !» وانتهزنا فرصة ذهولهم لبضع لحظات ، فاستدرنا بالسيارة واندفعنا نحو الشرطة ، وقفز الصبيان من ظهر السيارة ومقدمتها ومؤخرتها ، وانفلت منهم من كان بداخلها قبل ان نصل الى فصيلة الشرطة . ثم انعطفنا الى الشارع الخالى الوحيد ، حيث لم تكن ثمة متاريس او شرطة . وانطفأت المصابيح ، وفى بعض الاماكن اشتعلت النيران . ووجدنا كوبرى ابو العلا المؤدى الى الزمالك ، حيث كنا نسكن ، مغلقا بمتراس من اطارات مشتعلة ، فتوجهنا الى البيت عبر طرق ملتوية ومررنا مرة اخرى بكوبرى الجامعة . وفى اليوم التالى ابلغت المادة التى جمعتها الى الجريدة فنشرت . وفى يوم ٢٠ يناير بعثت برسالة اخرى نشرت مختصرة للغاية . وقد بقى اصل الرسالة المكتوبة على عجل فى ارشيف الجريدة ، ويخيل الى انه على الرغم من بعض العيوب الاسلوبية فانها تعطى صورة للمزاج السائد فى تلك الايام . وسوف اوردها هنا كوثيقة ، مع بعض الاختصار :

«القاهرة فى ٢٠ يناير (من مراسل «البرافدا» الخاص) . منذ يومين والعاصفة الرملية تعربد فى سماء القاهرة وتقتلع الاشجار من جذورها وتؤجج لهيب الحرائق . وبالامس اندلعت المظاهرات

المعادية للحكومة فى القاهرة ، وفى كل انحاء البلاد واتخذت ابعادا اكبر مما كانت عليه فى اليوم الاول . واشتعلت النيران فى المتاريس وفى بعض المباني فى حى باب الخلق وميدان رمسيس والتحرير والموسكى وعرابى . وقد امتدت النار الى محطات البتزين والمتاريس المقامة من الاطارات القديمة على خط السكك الحديدية «القاهرة — الاسكندرية» و«الجيزة — الصعيد» والى بعض اقسام الشرطة .

وقد وقعت اشتباكات بين المتظاهرين وقوات الامن ، وقذف المتظاهرون رجال الشرطة بالحجارة واشتبكوا معهم بالعصى ، وخيمت سحابة من الغازات المسيلة للدموع ، وسمعت اصوات طلقات الرصاص . وفى حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر صدر قرار وزير الداخلية الذى يسمح للشرطة باطلاق النار على المتظاهرين ، ويلقى مسئولية الاحداث من جديد على «الشيوخين المحرضين» دون ان يقدم ادنى دليل على ذلك . وبدأ اطلاق النار فى كل انحاء المدينة . ولم تستطع الشرطة ان تسيطر على الوضع فاستدعت قوات الجيش من المشاة الميكانيكية والصاعقة ونزلت الى المدينة ، واحاطت بالدوائر الحكومية الرئيسية ومبنى البريد والبرق والبنوك والمؤسسات الصحفية والجسور ومحطات السكك الحديدية . واذيع رسميا ان عدد القتلى فى القاهرة بلغ ٢٩ شخصا ، بينما بلغ عدد الجرحى فى ميادين القاهرة الرئيسية وحدها دون حساب الجيزة وضواحيها ٢٦٧ شخصا . وبالامس لم يعمل النقل العام كله فى القاهرة ووقفت الدراسة فى جميع المدارس والجامعات . واغلق القسم الاكبر من الدكاكين والمقاهى والمطاعم ودور السينما ابوابها ، والغيت المباريات الرياضية ، وسيطر الشلل على الحياة فى العاصمة المصرية . وفرض حظر التجول فى القاهرة وضواحيها

وفي الاسكندرية والسويس وعدد من المدن الاخرى من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى السادسة صباحا . وظهر نقص في الخبز في بعض احياء القاهرة ، ولذلك استثنى عمال المخازن من الخضوع لنظام حظر التجول .

وعزل حى مصر الجديدة تماما عن بقية المدينة ، وانخفضت حركة الطيران فى مطار القاهرة الدولى . واصبح ميدان رمسيس احد المراكز الرئيسية لمواجهة الشرطة ، حيث التفت سحب الدخان على تمثال الفرعون الضخم . ودمرت فلنكات السكك الحديدية واكشاك الحراسة فى عدد كبير من خطوط السكك الحديدية . وفى منطقة محطة السكة الحديد فى امبابه بالجيزة استخدمت المصفحات ضد المتظاهرين .

ولا شك ان بعض العناصر الاجرامية او غير المسئولة قد اندست بين المتظاهرين . بيد ان اتجاه الغضب الشعبى يشهد على طابعه الاجتماعى والسياسى ، وان كان يعبر عن ذلك عفويا . وكتب شيخ الادب المصرى توفيق الحكيم فى جريدة الاهرام : «ان الانفجار الشعبى فى بلادنا يحول الجالسين على اكياس الذهب فورا الى جالسين على نار مشتعلة» . وبالامس احرق فى شارع الهرم وميدان الاوبرا الكازينوهات والكباريهات والنوادى الليلية وبيوت الدعارة السرية ، حيث كان الاغنياء المصريون الجدد والاثرياء السعوديون ينفقون فى ليلة واحدة ما يعادل اجر العامل الماهر طوال عشر سنوات . وهوجمت اقسام الشرطة فى كل مكان ، وحاول المتظاهرون اقتحام مبنى وزارة الداخلية لكنهم ردوا على اعقابهم . ودمرت بعض مقرات حزب مصر الحاكم ، ووزع الاتحاد العام لنقابات العمال المصرية بيانا ادان فيه قرار الحكومة برفع الاسعار .

وفي الاسكندرية نزلت قوات الجيش الى الشوارع ليلة امس واحتلت مواقعها وحاولت بالتعاون مع الشرطة منع المظاهرات . واندلعت المعارك بين السكان وبين قوات الجيش والشرطة ، واقامت المتاريس . وتحول استاد الاسكندرية الرئيسى الى معسكر حربى تمركزت فيه وحدات الصاعقة . وتشير البيانات المنشورة فى الصحف والمأخوذة من ثلاثة مستشفيات الى ان عدد القتلى والجرحى فى الاسكندرية بلغ ٢٥٠ شخصا ربعهم من الجنود ورجال الشرطة . وتوجه الصحف والاذاعة والتلفزيون بيانات الى السكان تطالبهم فيها بالتزام الهدوء ، ولكنها لا تجرؤ على تكرار التلفيق الخاص بدور «العناصر الشيوعية المخربة» ، وذلك لان التحرك الشعبى بلغ ابعادا ضخمة بحيث يصبح الحديث عن دور الشيوعيين اقرارا بان لهم نفوذا فى اوساط شعبية عريضة . وقد تحدث شيخ الجامع الازهر عبر الاذاعة والتلفزيون داعيا الشعب الى السكينة . . . (تلقت الرسالة بترنكو . الساعة ١٤,٤٥ . انقطع الاتصال) .

«ومن الواضح ان الدوائر الحاكمة ارتبكت تماما ازاء قوة الانفجار الشعبى . واعلنت الحكومة عن وقف قرارها برفع الاسعار ، وقدم نائب رئيس الوزراء الدكتور عبد المنعم القيسونى استقالته ، وهو واضع السياسة الاقتصادية التقشفية للحكومة والمعروف بارتباطاته بالبنوك الاجنبية وبكبار اساطين البترول العرب . ولكن رئيس الوزراء ممدوح سالم رفض قبولها . واجتمع رئيس الوزراء ممدوح سالم ورئيس مجلس الشعب سيد مرعى عدة مرات للتشاور . . . (تلقت الرسالة بودتياجكينا . الساعة ١٧,٤٥ . انقطع الاتصال ثانية) .»

وعدت اتصل بالتليفون من القاهرة فى ٢٠ يناير ١٩٧٧ ،

وارسلت الفقرة الاخيرة من الرسالة الصحفية :
«استمرت الاضرابات اليوم فى مصانع الصناعات الثقيلة
بحلوان ، بيد ان العاصمة المصرية بدأت تعود الى حالتها
الطبيعية . وفى الليل نظفت الشوارع وازيلت آثار مصادمات الامس .
وعاد جزء كبير من وسائل النقل العام الى العمل ، وخفضت
مدة حظر التجول . ولكن الشاحنات والمصفحات المحملة بالجنود
ورجال الشرطة الذين ظلوا فى المدينة تشير الى ان الوضع لم
يرجع بعد الى حالته الطبيعية تماما» .

وبعد وصف احداث الاسكندرية السابق اضيف هاتفيا هذه
الفقرة : «ولكن هذه الارقام لا تشمل عدد المصابين باصابات
خفيفة او الذين عولجوا فى مستشفيات اخرى . وظلت النيران
مشتعلة طول اليوم فى مبنى الاتحاد الاشتراكى العربى وغيره
من الهيئات . ووقعت مصادمات عنيفة بين المتظاهرين ورجال
الشرطة بجوار محطة السنترال وسقط قتلى وجرحى من الجانبين .
وتقول جريدة «الاهرام» ان بعض مستشفيات الاسكندرية رفضت
قبول حالات جديدة بسبب امتلائها بالجرحى .

وشملت الاضرابات والمظاهرات مدينة المنصورة ، ومحافظة
البحيرة ومدينة دمنهور ، واسوان ، وقنا ، واسيوط ، والزقازيق .
وفى كل مكان وقعت مصادمات بين المتظاهرين ورجال الشرطة
وقوات الجيش ، واضرمت النيران فى اقسام الشرطة ومقر المحافظين .
وفى السويس استولى المتظاهرون على مخزن للأسلحة والذخائر
وناضوا معركة ضد فصيلة من قوات الامن . وبلغ عدد القتلى
والجرحى فى السويس وحدها بضع عشرات» (تلقت الرسالة بترنكو،
الساعة ٢٠،٣٠) .

واجبر المصريون الحكومة على الغاء قرار رفع الاسعار فهدأت

تأثرتهم . ولكن جهاز القمع استمر يعمل بقسوة متزايدة . فاعتقل بضعة آلاف شخص بتهمة «تدبير مؤامرة شيوعية» . وصبر الشعب ولزم الصمت ، ولكن الى حين .

المصريون يثورون بسرعة ويهدأون بسرعة . وهذا ينطبق سواء على الفرد ام على الجماعة . فبعد احداث يناير العاصفة عاد الناس الى شئونهم وهمومهم اليومية . ولكن لم يعودوا كلهم . ففي داخل الجيش كان يعجرى نسج خيوط مؤامرة ضد الرئيس . وعندما اغتيل السادات شيعت جنازته في العاصمة . ولكن

كان من الواضح ان المشيعين قليلون والحزن ايضا كان قليلا . وسار خلف نعش السادات ما لا يزيد عن ستمائة شخص .

ذات مر عتب الكاتب المصرى ابراهيم عبد القادر المازنى على ابناء وطنه انهم يستسلمون لحياة الرفاهية والكسل ويتخلون عن النضال . اما عين الكاتب الاخر نجيب محفوظ الحادة واللمّاحة فقد لاحظت ان هذا اللوم لا يمكن ان يوجه الى الشعب المؤلف فى اغلبيته من الكادحين ، الذين يعيشون ، حسب تعبير الكاتب ، وفق شعار : «من كلّ حسب قدرته ، ولكل حسبما يمكن ان يقدم اليه من عون فى حياته» .

لقد عكس هذا الجدل الذى نشب بين هذين الادييين المصريين فى نهاية الستينات وبداية السبعينات الخلافات القديمة حول تقييم دأب المصريين على العمل . ان اى مراقب منصف لا بد وان يرفض اتهام الشعب المصرى بالكسل باعتبار ذلك نظرة عنصرية . وقد سبق ان تحدثنا عن دأب الفلاح المصرى . وقد اشار لايين من قبل الى ان «الكسل سمة تميز جميع فئات السكان ما عدا الذين يضطرون الى كسب عيشهم بالعمل البدنى الشاق . . . ان الحمال ، والسائس الذى يركض امام حصان

سيده ، والمراكبى الذى كثيرا ما يضطر فى الجو الحار الساكن الى شد المركب من الشاطئ ضد التيار . . . هؤلاء الناس يكدحون حتى يتصبب العرق من وجوههم» .

لقد وصف لاين طباع المصريين من ابناء المدينة فى الاساس . ولم يشر هنا الى الفلاحين لان جدهم ودأبهم واضحان للعيان . الدأب سمة مميزة لغالبية السكان . وقد سبق وقلنا ان الفلاح يكدح فى الحر والصقيع ، فى الوحل او فى الحقل الجاف وكثيرا ما يكون شبه جائع . انه يكسب قوته وقوت أسرته بالكد . والتفكير السليم والخبرة والغريزة الموروثة عن الاسلاف تتطلب منه الدأب . فدورة الاعمال الزراعية وانواعها محددة منذ عصور سحيقة . والاشكال التقليدية للتنظيم الاجتماعى وللإيديولوجيا تحثه على العمل سواء بالاكراه ام بالاقناع ام بالحوافز المعنوية .

غير ان الفلاح لا يحتفظ دائما بدأبه عندما يستوطن المدينة وينفصل عن ظروف العمل والظروف الاجتماعية المألوفة لديه . اذ ان اشكال العمل والانتاج العصرية والجديدة عليه تتطلب منه انضباطا مختلفا ونظرة مغايرة الى العمل وتحطيما للعادات والنفسية المستقرة . وكل ذلك لا يحدث فى يوم واحد ولا فى عام واحد . ان المصرى تضغط عليه وترهقه المواصفات العصرية التى تتطلب انجاز العمل فى مواعيد محددة ، او مواعيد اللقاء الدقيقة . والاستهتار بالمواعيد سمة منتشرة بين المصريين ولكنها ليست ابدا وليدة هذا العصر . فقد سبق ان كتب لاين : «من النادر جدا ان ينفذ المصرى الامر بدقة ، فهو على الأرجح سيفضل اداء العمل على طريقته ومن غير المحتمل ان ينهيه فى الاجل الموعود» . ان جزءا صغيرا من فلاحي الامس ، الذين اصبحوا من سكان المدينة يعملون الان فى الانتاج الحديث ، اى فى مجال

النشاط المعاصر . ويمتد امد البطالة وشبه البطالة فتصبح حالة مستمرة تؤثر على الناس تأثيرا مدمرا وتقضى على عادة العمل وتخلق ميولا طفيلية .

ويعتبر النظام الاجتماعى — السياسى وتركة الماضى العقبة الرئيسية (اذا استثنينا المرض والتغذية السيئة) فى وجه زيادة المجهود العملى وكذلك المبادرة والشطارة . فالذى كان يعمل ويكد افضل واكثر كانوا يأخذون منه ضرائب اكثر . وكانت زيادة الجهد بأكثر من المعتاد لا تقابلها فى العادة زيادة مناسبة فى الخيرات المعيشية . ولم يكن ثمة حافز لزيادة انتاجية العمل .

ان اخلاقيات العمل لدى المصريين بل ولدى جميع شعوب الشرقين الاذنى والاوسط تقريبا لا تراعى حب العمل من حيث هو عمل ، بل السعى الى ثمار هذا العمل . وامكانية تقليل المجهود المبذول تقدّر تقديرا اعلى من ثمار الجهد الكبيرة . وقد سبق للالين ان كتب : «وحتى العمال ، المتعطشون بصفة خاصة الى المال ، ينفقون يومين على العمل الذى يمكن انجازه فى يوم ، وبوسعهم ان يؤجلوا اداء اكثر الطلبات نفعا من اجل ان يتمددوا ومن اجل ان يتلذذوا ويدخنوا الجوزة» .

ان التعبير المعروف «الوقت من ذهب» والذى اصبح شعارا للزرعة العملية الرأسمالية لا يجد له صدق فى قلوب غالبية المصريين . فلم العجلة اذا كان الهدوء افضل من الاقتناء واذا كان المزاج رائعا ؟ الا يقول المثل : «العجلة من الشيطان» ؟ ويوافق المصريون على ان العمل من الامور المحببة الى الله ، ولكنهم لن يعتبروا ابدا ان الفراغ وتضييع الوقت سدى ذنب من الذنوب . فهم لا يعتبرون العمل غاية للوجود الانسانى رسمتها مشيئة الله .

وسأرجع هنا الى ملاحظاتي الخاصة . ان بواب عمارتنا رجل يؤدي وظائف البواب والحاجب ، ويجلس معظم الوقت على كرسيه فى عظمة امام المدخل الرئيسى . ولم يكن يغسل سلم المدخل بانتظام ، ولكنه يغسله بالصابون ، اما سلم الخدم فلم يكن يمسح . والقاذورات والفضلات التى يلقون بها كان يجمعها الزبالون الكبار والمراهقون ، الذين يأتون بعربات يجرها الحمير . وهذا مثل آخر : فى أكثر من مرة كان عامل غسل السيارات يستأجر بعض العاطلين او الصبيان لينظفوا سيارات السكان ، لكى يمضى هو ساعة او ساعتين فى الحديث مع البواب وتناول القهوة .

والعمال المصريون المهاجرون يحظون بالاقبال فى الدول العربية المنتجة للبتروىل . وبالطبع تعتبر مهاراتهم المهنية اعلى بما لا يقاس من مهارات بدو الامس . ومرتب العامل المهاجر ، حسب المعايير المصرية ، مرتفع جدا ، ولكن الرقابة على العمل شديدة . واحيانا ما يعمل المصريون فى الخارج بصورة مجهدة ، ولكن الاغلبية يحلمون بالعودة الى البيت لكى يستريحوا من عناء العمل .

لقد كان العمل دائما امرا جيريا شاقا ، وكان العامل عضوا مضطهدا فى المجتمع ، او بمعنى ادق كان شخصا خارج المجتمع . وليس من الغريب ان تكون ثمار العمل — وقت الفراغ والراحة — بالنسبة للفلاح والعامل والحرفى أهم من العمل نفسه . والمجتمع فى مصر ، كما فى البلدان الاسلامية الاخرى ، لا يعرف النظرة الى العمل كفريضة دينية او كواجب اجتماعى ولا يعرف ادانة الفراغ لدى شخص ثرى ، على الرغم من وجود امثال شعبية تمجد الدأب والمثابرة وامثلة على ذلك من حياة

النبي محمد . والمثل الاعلى للمصرى العادى هو التمتع بنعيم الجنة ، هذا النعيم الذى يتضمن كل ما يخطر على البال من ملذات ، مع الفراغ التام .

والنظرة الى العمل من منطلق نتيجته تتجاوب مع النظرة الى الكسب . فكل مصرى ، ما عدا بالطبع الدراويش الحقيقيين او الثوريين العقائديين ، يود ان يحوز من الخيرات المادية اكثر مما لديه . وتجد بين المصريين احيانا رجال اعمال مهرة ومستغلين لا يرحمون وتجارا لا يعبدون الا العجل الذهبى . ومع ذلك فحتى المصرى الجشع لا يخلو ، على ما اعتقد ، من نوبات سخاء . وهو مطالب بذلك من قبل الرأى العام ، والدين ، والتفكير السليم .

وهذه الصفات لدى المصريين ليست وليدة العصر الحديث . وسأرجع فى ذلك الى لايين الذى كتب : «ان المصريين كرماء وبخلاء فى آن واحد . ومن المدهش ان تجتمع مثل هذه الخصائص المتناقضة فى شخصية واحدة ، ولكن تلك هى تركيبة هذا الشعب» . وهذه الملاحظة منصفة الى حد كبير حتى فى ايامنا هذه .

ولا نجد انعكاسا لصورة حياة الزهد والتقشف المميزة لعصر التراكم الرأسمالى الاول او قمة البخل التى يمثلها العجوز جرانديه فى رواية بلزاك . . . لا نجد لهما مقابلا فى المجتمع المصرى . فالمصرى لا يخطر فى باله ان يعتبر الربح العالى والدخل الجيد للعمل الذى يمارسه امرا اخلاقيا ساميا محببا الى الله . وعبارة مفكرى التزمت الاوربى «عليكم ان تعملوا وتثروا لا من اجل ملذات الجسد والتمتع الحرام وانما فى سبيل الله» قد لا تثير فى مصر سوى ابتسامة الدهشة وهز الاكتاف .

والحياة الشاقة والاضطهاد والفقر وقلة المأكل لا تمنع المصري من الاقبال على الحياة . ان حبه للمزاح والكلمة اللاذعة والفكاهة والسخرية الحادة ، اى كل ما تعنيه كلمة «النكتة» المصرية لامر يثير الذهول . ولم اجد لدى اى شعب آخر من الشعوب الشرقية مثل روح الفكاهة هذه التى تجدها لدى المصريين . فالترك تقرب فكاهتهم من الفكاهة الروسية ، ولكنها ليست منتشرة كما فى مصر .

والنكتة تستخدم احيانا للدفاع ، وحيانا اخرى للهجوم . وهى تعين المصرى على الاقبال على الحياة حينما تدفعه الظروف الى القنوط واعتلال المزاج ، وتساعدته فى التغلب على الاسى والفجعة ، وشفاء غليله من السخرية بالمستغلين او الموظفين ، واستعادة كرامته الانسانية المهانة ولو للحظة . ومن خلال النكتة ينفس الشخص المهان عن غضبه ويستعيد توازنه النفسى ، وذلك دون ان يبذل اى جهد .

وبعض المصريين لا يلجأون الى الدفاع الشامل ازاء الواقع الشاق فحسب بل يهربون منه . فالاحساس باليأس والذل واستحالة تغيير الحياة يدفع قسما كبيرا منهم الى البحث عن النسيان بالاغراق فى المخدرات . والاسلام يحرم تعاطى المخدرات بصورة لا تقل صرامة عن تحريمه تناول الخمر . وتجارة الخمر والسكر لا يعاقب عليهما ، ولكن الاتجار بالمخدرات جريمة خطيرة . ومع ذلك فتعاطى المخدرات اكثر انتشارا من تناول النبيذ والويسكى والفودكا .

ولا يمكن رد ذلك الى رخص المخدرات وسهولة الحصول عليها فحسب . فتناول المشروبات الكحولية بكميات كبيرة يؤدى الى التبلد وغياب العقل ، اما تناولها بكميات قليلة فيؤدى الى

ازدياد النشاط مؤقتا والى تصاعد العدوانية . غير ان المصرى يبحث عن السكينة وراحة البال والطمأنينة واحلام اليقظة والخيال . وهذا ما تقدمه له المخدرات . فبدون ان يتحرك من مكانه يصبح حرا ، قويا ، غنيا ، سعيدا . ومدمن المخدرات ليس مجرد شخص ضعيف عاجز عن الكفاح ، ولكنه شخص عانى من انهيار المعنويات والخور ، ومن مرحلة خيبة امل طويلة ، واغتراب عن المجتمع ، وفقدان الثقة فى السلطة والعدالة . والمدمن يتهيأ له للحظة قصيرة ان جميع قضايا الوجود والفلسفة والدين قد حلت ، وان الانسجام حل محل جميع التناقضات ، وان آلام النفس تفارقه . وتجد القدرة فى المخدرات اسمى تعبير عنها . غير ان ادمان المخدرات يعنى تسارعا متزايدا للانحلال البدنى والخلقى وانحطاطا للشخصية الانسانية .

وتكاد تجارة الحشيش والافيون فى مصر ان تكون علنية . ففى كثير من المقاهى يضعون مع التبغ الذى تحشى به النارجيلة قطعة من الحشيش او الافيون .

وهذان النوعان من المخدرات معروفان فى الشرق منذ عهد سحيق . وكان الصوفية يستخدمون الحشيش لبلوغ حالة الوجد والنشوة . ومدخن الحشيش يسمونه فى مصر «الحشاش» . وفى عصر الحملات الصليبية كان المقاتلون الاشراس من الطائفة الاسماعيلية والذين كان شيوخهم يرسلونهم للفتك بقيادة الفرسان الصليبيين ، كانوا يخدرون بالحشيش . ومن كلمة «الحشاشين» العامية المصرية ظهرت كلمة «أساسين» فى اللغات الاوربية والتي اشتق منها فعل «قتل ، اغتال» فى الانجليزية والفرنسية والاطالية . ولحسن الحظ لا يتعاطى المخدرات فى مصر الا عدد قليل ، وان كان عددهم فى ازدياد . ولكن المصريين يشربون الشاى

ثقيلا جدا وحلوا جدا . وقد اخذ المصريون عادة شرب الشاي عن الجنود البريطانيين في الحرب العالمية الاولى . واولعت به الفئات الفقيرة من السكان الى درجة ان الزيادات المتكررة في اسعاره لم تخفض استهلاكه .

ان العالم مدين للعرب بمعرفة القهوة وتناولها . ويبدو ان تأثيرها قد تم اكتشافه فيما بين القرن الثالث عشر والرابع عشر . ويتنازع اليمينيون والاثيوبيون قصب السبق في اكتشاف البن . ومرة اخرى كان الصوفيون هم الذين استغلوا خصائص القهوة المنشطة في رقصات الوجد والنشوة وسهر الليالي . ولم تكن القهوة معروفة في عهد النبي ، ولذلك تصدى لها بعض علماء الدين المسلمين بعنف في مصر وغيرها من البلدان العربية باعتبارها ليست محللة . وظل المشروب الجديد بين التحليل والتحريم حتى شق طريقه واكتسب مشروعيته . ووصلت القهوة الى اوربا عن طريق الاتراك . وفي وقتنا الراهن لا يخلو لقاء عمل او جلسة اصدقاء في مصر من فنجان قهوة او كوب صغير من الشاي . ويقدم هذان المشروبان في افخر مقاهي العاصمة مثل مقهى «جروبي» وفي احقر مقهى في قرية نائية . ويحب المصريون تدخين النارجيلة على مهل مع تناول فنجان قهوة مع ماء بارد في المقاهي المزدهمة ويتطلعون الى الرائحين والغادين في الشارع . ولكننا ابتعدنا عن الموضوع . . .

ان الاحساس الواعي والغريزي بالتناقض بين مصالح الفرد والجماعة والدولة والسلطة قد دفع المصري الى التمسك بأقصى الحرص والحذر ، الامر الذي اصبح جزءا من طباع الكثيرين . وتعلم الناس كيف يخفون افكارهم ومشاعرهم ونواياهم ، ويقولون جهارا ما يراد منهم ان يقولوه ولكن ليس ما يؤمنون به ، وان

يفكروا فى شىء ويقولوا شيئا آخر ، ويسدلوا ستارا كثيفا بين عالمهم الداخلى والعين الخارجية الرقبة ويخفوا عنها دائرة اهتماماتهم الحقيقية ، ولا يثقون الا فى اقاربهم او المقربين اليهم . والغريب عموما يثير الريبة ، والحكام دائما غرباء . ولقد شكل المصريون تقليديا الكثير من الجمعيات والمنظمات السرية .

«لسانك عدوك» . . . هذا المثل نجده فى مصر فى عدة صيغ . وتؤكد الحكمة الشعبية على اهمية اللسان فى المثل الشعبى : «لسانك حصانك ، ان صنته صانك ، وان هنته هانك» . ويكتب الدكتور حسن حنفى : «اننا نقول ما لا نؤمن به ، ونؤمن بما لا نقوله . نحن نرى ولا نتكلم . . . ونسمع ولا نتكلم . . . «ولا من شاف ولا من درى» . . . وفضل الا نسمع : «ودن من طين وودن من عجين» .

وقد تأكدت مرات عديدة من مدى صعوبة الحديث الصريح المباشر مع المصريين فى المواضيع الحساسة او المعقدة ولكن هذا الحديث صعب ايضا بين المصريين انفسهم . فكثيرا ما يخفى محدثك افكاره ومعتقداته ويسعى قبل كل شىء الى معرفة افكارك ومعتقداتك انت ثم يؤكد لك انه متفق معك فيها . والمصرى يريد ان يعرف الى اى مدى يستطيع ان يثق بمحدثه ، ويصغى اليه ويزن كلماته ويحاول ان يكشف المعنى المختبىء بين السطور ويبحث عما اذا كان فيها ما يحتمل التأويل ، ومتى تحمل «نعم» معنى «لا» او «جائز» ، ومتى تحمل «لا» معنى «نعم» او ايضا «جائز» . لقد اصبح الحديث فنا ووسيلة لبلوغ هدف ما ، خاصة اذا كان المصرى يتحدث الى اجنبى او مع الحكام او يظن ان محدثه من اصحاب السلطان . وليست محاولة معرفة النوايا الحقيقية للطرف الاخر بالمهمة السهلة .

ويتشتر في مصر ، سواء في الاوساط الشعبية ام في الادب والشعر والصحافة ، تحميل الكلمات أكثر من معنى ، واخفاء المعنى الحقيقي وراء العبارات العادية بحيث لا يدركه الا المطلع . ويرجع احد اسباب ذلك الى تأثير الصوفية والتراث الصوفى . فقد كان الصوفيون يميلون الى التفاهم بالرموز والايماءات التي تبقى سرا مستغلقا على غير العارفين وبصفة خاصة على الحكام او رجال الدين الحنابلة .

وفي هذا الصدد لا تمثل مصر ظاهرة فريدة . فقد لمست في ايران اسلوبا مماثلا لتمويه الافكار والنوايا الخفية ، وهو اسلوب أكثر انتشارا وتفننا ، حيث لعبت تقاليد الشيعة هنا دورها باعتبارها دين المضطهدين ، بالاضافة الى رمزية الشعر الفارسي ومعانيه المزدوجة ، كما يتجلى هنا ايضا تأثير اضطهاد الشيعة تاريخيا على ايدي الحكام السنيين .

وكثيرا ما يلجأ المصريون الى اللف والدوران في الحديث . وحتى اذا لم يطمئن المصري الى ان الحديث تكلم بنتيجة ايجابية وانه بلغ الهدف ، وحتى اذا لم يفهم المستمع ما قيل له تلميحا او لم يشأ ان يفهم ، فان المصري يشعر بالرضى لانه لم يتلق جوابا سلبيا ولم يفسد العلاقات ، و«لم يفقد كرامته» . ان «جس النبض» هو مقدمة ضرورية لاي حديث هام . ويصعب احيانا ان تجد معنى للعبارات العادية في حديث جدى حاد . فالهدف الرئيسى للكلمات هو تهيئة السامع لتقبل ما تقوله ، اما الهدف الاخر فهو استمالته اليك والتقرب اليه . ولذلك نادرا ما يدع المصريون للمنازعات السياسية او العلمية ان تفسد العلاقات الشخصية . فاختلاف الرأى لا يفسد للود قضية . والعلاقات الشخصية لا تتفق دوما مع الانتماء الحزبى فضلا

عن المعتقدات السياسية او الفكرية . والكتاب الصحفيون الذين يتبادلون العبارات والصفات اللاذعة والمهينة . احيانا قد تجدهم في المساء جالسين في ناد واحد يلعبون الدومينو او الكروكيت . ان القدرة على قول ما يريد الاخرون سماعه هي فن يجيده المصريون اجادة تامة ، وكثيرا ما يُربك ذلك العديد من الاجانب . وقد يهتف دبلوماسى سوفيتى شاب وصل الى القاهرة مؤخرا بعد حديث مع احد المصريين : «أوه ، انه ماركسى وصديق حقيقى لنا !» . وسيقول رجل اعمال امريكى بثقة بعد ان يتحدث مع نفس الشخص : «هذا هو المدافع الحقيقى عن القيم الغربية وصديق الولايات المتحدة !» . وفى كلتا الحالتين كان المصرى مخلصا وصادقا . . . مع نفسه . فقد اراد بكل بساطة ان يدخل السرور على قلب محدثه ويستميله اليه ويكسب صداقته عسى ان يستفيد منها . اما الكلمات فهى ليست أكثر من كلمات ولن تكلفه شيئا .

وفى مصر تتم الاتصالات والعلاقات الودية الزائفة بسهولة مذهشة حتى فى فترة العداء الرسمى بين الدول . ومما يسهل ذلك . . . الادب المصرى التقليدى والكرم . لكن الثقة الحقيقية والصداقة والصراحة مسألة صعبة . فاذا استطاع الاجنبى ان يوحى بالثقة ويكسب اصدقاء حقيقيين فبوسعهم ان يعتبر نفسه سلطانا .

وثمة مظهر آخر من مظاهر التأثير الصوفى مرتبط اوثق الارتباط بما تحدثنا عنه توا ، اى انفصال الباطنى عن الظاهرى ، الداخلى عن الخارجى ، الجوهر عن القشور الخارجية ، عن الشكل . فالداخلى دائما هو الاكثر اهمية . والصوفيون ينظرون باحتقار الى الشخص الذى يفضل المظاهر الخارجية . والامثال الشعبية المصرية

تدين اولئك الذين يحاولون ذر الرماد فى العيون والذين لا يتفق محتواهم الداخلى مع سلوكهم الخارجى على الاطلاق : «ولا كل من ركب الحصان خيالا» ، «عامل زى الطاووس ، فرحان بريشه» . . .

«القلب المفتوح على مصراعيه» . . . تثير هذه الصفة من صفات الطبع عندنا ظلا من السخرية رغم انها تعتبر فى الاساس صفة ايجابية . اما فى مصر «فالقلب المفتوح على مصراعيه» ، وخاصة مع الغريب صفة لا تعقل من صفات الطبع .

ففى محيط الاسرة يتحدث المصريون عن شىء ، وفى وسط الاصدقاء يتحدثون عن شىء آخر ، اما ما يقال للاطلاع العام وامام الغرباء فشىء ثالث . ولهذا فغالبية الناس لا يصدقون وسائل الاعلام ويبحثون عن المعانى الحقيقية المكونة خارج اطار الدعاية الحكومية . وفى مثل هذه الظروف تكتسب الشائعة احيانا مصداقية الحقيقة .

ويؤكد الصوفيون ان التضاد ابدى بين الظاهر والباطن . بيد ان الغريزة الشعبية والتطلع الى المثال الاعلى يضعان الوحدة بين الظاهر والباطن مع ذلك فوق كل شىء ويدنان الفصل بينهما باعتبارهما امرا غير طبيعى .

غير ان المثال الاعلى بالنسبة للمصريين يبقى مثلا اعلى عزيز المنال او مستحيل البلوغ فى غالب الامر . وفى الحياة لا نجد الانقسام بين المعتقدات والاقوال فحسب ولكن بين الاقوال والافعال بصفة خاصة . ويكتب الدكتور حسن حنفى : «ان ازدواجية الطبيعة المصرية تتجلى كذلك فى الاختلاف الحاد بين الاقوال والافعال . فكثيرا ما يصرحون بما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يصرحون به . واصبحت الكلمات مجالا خاصا للنشاط

الزائف تقوم عليه مبان زائفة وتوجد فيه وقائع زائفة . ويكفى ان يتحدث المتحدث ببلاغة عن مشكلة ما باعتبارها مشكلة قائمة . ويكفى ان يشير الى حل المشكلة حتى يتصور البعض انها قد حلت بالفعل» .

ولن نأخذ كلمات الباحث الاجتماعي المصري الساخرة على محمل الحقيقة المطلقة . فالحديث عن الخبز لا يشبع الجوعان . ولكن الدكتور حسن حنفي يطرح المشكلة الحقيقية بحددة ، وهي مشكلة قائمة في مصر وفي العالم العربي بأسره . فالمثل يقول : «اسمع جعجعة ولا ارى طحنا» . ولكن الحديث والكلمات يصبح لها احيانا في الحياة وجود مستقل غير مرتبط بالاعمال . فالنصريح البراق الذي يقدم بالصورة المناسبة يصبح حدثا ولو لفترة قصيرة ، حتى ولو لم تثبت الحياة ما جاء فيه . ان احد اسباب ذلك هو عدم وجود مجال حقيقي للنشاط امام اغلبية السكان . فتهول الكلمات الى وسيلة للحركة الوهمية ، وتعطى الامل بالهروب من الواقع الذي يستحيل تغييره او مواجهته . ولذلك اصبحت الكلمات الجوفاء ، الكلمات من اجل الكلمات ، الكلمات التي لا تعنى التحرك ، سمة مميزة للمجتمع في مصر وفي كثير من البلدان العربية .

ان دق الماء في المصحن والانفصام بين القول والعمل سمة مميزة للممارسات الدينية النظرية الجامدة ، والتي تؤثر تأثيرا كبيرا على تشكيل نفسية وطريقة تفكير المؤمنين . «تفسيرا» نص من النصوص الدينية لا يعنى في العادة سوى ترديد نفس المعنى بعبارات مغايرة ، ولكن المفسر «يكسب» حتى في هذه الحالة ، لانه لا يتحمل اية مسئولية عن «تفسيره» الذي لا يحمل ذرة جديد .

والطاقة الاجتماعية الابداعية الكامنة تتبدد على الكلمات اذا ما كان الهدف لا يمكن بلوغه ويستحيل تحقيقه . وينشغل الناس بوصف النوايا وتحديدها لانهم لا يعرفون سبل تحقيق هذه النوايا . هل هذا تراث القرون الوسطى ؟ نعم ، ولكن اى قرون ؟ ففي القرون الوسطى لصدر الاسلام ، اى عصر الابداع والاسلام التوليفى ، لم يكن هذا موجودا . ولكن الجمود والركود والانحطاط قد ادت الى التكرار الدوجماتى للكلمات ، الى الكلام من اجل الكلام .

وكثيرا ما تخب الكلمات الباب المصرين والعرب عامة . ويشعر كل من السامع والخطيب بالنشوة من الكلمات التى تلقى . والعرب يحبون لغتهم ويفخرون بها عن حق . فدون ان تمر الكلمات عبر مرشحات المنطق او التفكير ، تتجه مباشرة الى العواطف وتستثيرها . ان اللغة العربية العذبة النغم الغنية بالمفردات والمرادفات كانت احدى الصيغ الرئيسية لتجلى العبقرية الابداعية العربية بعد ان سد الاسلام الطريق امامها نحو التصوير والنحت . ثم ان الكلام اكثر امانا من الفعل ، وكما يقول المثل : «الكلب الذى ينيح لا يعض» .

والمجتمع المصرى مجتمع رجالى . والعلاقة مع المرأة محكومة حكما صارما بالتقاليد والشريعة . ويوجد نوع خاص من الشرطة يسمى شرطة الاداب . وفى المدن وكذلك فى العائلات الغنية فى القرى يطلب من المرأة ان تغطى جسدها وشعرها ولا تسفر الا عن وجهها وكفيها وقدميها . بيد انه كلما ازداد المنع ازداد الاغراء . وكلما كثرت الملابس ازدادت الرغبة فى التعرى . . . ولو بالقول فى معظم الاحيان . والمتزمتون يدينون «فساد الاخلاق» فى الغرب ولكنهم ينظرون بشهوة الى النساء الاوريبات المتجردات ،

وكثيرا ما يتحدثون في قضايا الجنس . والحديث عن الجوانب الحميمة للعلاقات الانسانية يبدأ منذ الصغر ، وما أكثر ما يدور حولها من احاديث بين الشباب وخاصة عند الزواج المتأخر ! كيف ينظر المصريون الى انفسهم ؟ تعتبر مصر بالنسبة للكثيرين منهم «ام الدنيا» ومهد الحضارة العالمية ، والمصريون افضل اهل الارض ، وبالطبع افضل العرب ، ويتحلون بكل الفضائل البشرية المعروفة . واجهزة الاعلام والادب وكلمات الخطباء تفيض بمثل هذه الاحكام الذاتية .

وكتب الاديب القاهري المعروف الدكتور حسين فوزى في كتابه «سندباد مصرى» يقول ان السمة القومية الاولى والمهمة التاريخية للمصريين هي بناء الحضارة . ولقد كان المصري ذهابا من عيار خالص النقاء ، وكان مكانه في ملكوت السماء . والطبع القومي المصري لم يستطع التاريخ ان يغيره ، والمصريون يمضون غزاتهم دائما .

من الصعب ان نجادل في صحة هذه الاحكام مثلما هو صعب ان نوافق عليها . فمثل هذه الخلاصات ليست ثمرة التحليل العلمى بل وليدة العواطف والتجربة الحياتية الشخصية للكاتب او ادعاءاته ، وحصيلة ارائه وافكاره الخاصة او تحيزاته ، ونتاج خياله الابداعى .

وبالنسبة لقسم كبير من المثقفين المصريين كانت قضية تقييم الذات وتحديد دور مصر ومكانتها فى العالم واحدة من القضايا الاساسية فى نظام قيمهم الفكرية . فالولاء للوطن ، والفخر بحضارته العظيمة وماضيه التليد ، تقترن بمركب النقص الظاهر او المستتر تجاه الغرب . وبعد الهزيمة فى الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٦٧ انكب المثقفون المصريون على نقد انفسهم ،

اما الكاتب المصرى عبد العزيز الرفاعى فقد حاول فى كتابه «الجوانب الايجابية والسلبية للشخصية المصرية» ان يقارن بين ملامح الشخصية القومية لدى المصريين والشعوب اللاتينية . وتوصل الى استنتاج مؤداه ان البساطة والقناعة لدى المصريين تعتبر مطلقة ، اما لدى اللاتينيين فهى نسبية ، ولذا تتميز الشعوب الرومانية بالتشاؤم اما المصريون فيتميزون بالتفاؤل . والمصرى لم يكن متشائما ابدا كما يعتقد الباحث واذا كان المصرى يبدى ميلا الى مخاطبة الاحاسيس والعقل فالفرنسى مثلا يخاطب العقل والمنطق .

ويستطرد الباحث قائلا : «ان المصريين يتميزون بالاعتدال والبساطة وسكينة النفس والرسوخ . ومن هنا ينبع الصبر والجلد والطيبة . وهذا كله يمنح المرء القوة على تخطى المصاعب» . ولكن نظرا للهزائم المستمرة التى يمنى بها المصرى فى كل مرة يحاول فيها تنفيذ طموحاته الاساسية ، وكذلك نتيجة لتعسف السلطات تخبو لديه المبادرة والرغبة فى بلوغ شىء ما وهذا ما يدفع المصرى الى «الاحساس دائما بعجزه عن تحقيق اى شىء» . ومن هنا ينبع اليقين بان الخضوع هو الذى يكفل الامن والتوفيق وفى ظل سيادة العنف والاتوقراطية وفقدان الفردية وهبوط الروح الاستقلالية يبدأ الفرد فى الاحساس بان ارادته وشئونه تتحكم فيهما قوى غريبة عليه وغير مرتبطة به . ومن هنا ، فى رأى الكاتب ، تتولد الجبرية والتخلى عن الشخصية ، الامر الذى يعد نوعا من الهروب من العنف والمسئولية لقد نشأ الخمول نتيجة الهروب من الواقع والعجز عن مواجهة الواقع . ومن هنا ظهرت ازدواجية الشخصية ، والاغراق المفرط فى الايمان والاتكال على الاخرين ، والجبرية . «وازدواجية الشخصية تعنى

وهي ظاهرة استثنائية بالنسبة لمصر ، وراحوا يبحثون عن الطرق والوسائل الكفيلة لا بتحديث المجتمع والبنية الاجتماعية السياسية فحسب بل والشخصية القومية ايضا . وسلطت الاضواء الكاشفة على ملامحها السلبية بصورة حادة ومبالغ فيها احيانا ، وتعرضت للنقد المدمر او السخرية المرة . وبعد مديح النفس وهدهدة الذات التي استمرت فترة قصيرة بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ حلت فترة تفكير ثقيل الوطأة ومناقشات حول مصير الشعب والبلاد . وكتب الباحث الاجتماعى المصرى عزت حجازى فى دراسته «الشخصية القومية المصرية بين الايجابيات والسلبيات» قائلا : ان التناول الرومانسى لمحاولة فهم الشخصية القومية المصرية لن يساعد على تقدير الوضع الحقيقى للامور . فالتحديات الخطيرة التى يواجهها المصريون داخل البلاد وخارجها تتطلب تناولا واقعيا لشخصيتنا القومية . وينبغى اعطاء تقييم موضوعى سواء لصفاتها الايجابية ام السلبية وذلك من اجل وضع ملامح سياسة سليمة لتغيير المجتمع . ويرى الباحث ان الملامح الاساسية للشخصية القومية المصرية هى نتيجة للظروف الاجتماعية التى عاش فيها الفلاح اجيالا عديدة ، وخاصة العلاقة المتبادلة بين السلطة ومختلف القوى الاجتماعية فى مصر . ويعتقد الباحث ان «المفتاح الرئيسى لفهم الشخصية القومية هو وحدة البلاد الطبيعية والسياسية والاستقرار النسبى على مدى التاريخ . وليس غريبا ان التحجر النسبى هو احد الملامح الاساسية للشخصية القومية المصرية . وفى الوقت ذاته يدور صراع مستمر داخل الشخصية القومية المصرية . واللامح المختلفة قد تتجلى بصور مختلفة وفقا للظروف الاجتماعية . ويوسع المصرى ان يتغلب على ملامحه السلبية» .

ان يشعر المرء بشيء ويتصرف على نحو آخر» .
اما الباحث الاجتماعي حامد عمر فيؤكد ان المصريين
يتميزون بالمرونة والقدرة على التكيف وعلى اخفاء مشاعرهم الحقيقية
وراء ستار المعاملة الطيبة ، وينظرون نظرة مبالغ فيها الى تأكيد
الذات ، وفي الوقت نفسه يسعون الى التقليل من المسؤولية
الاجتماعية . وهم يتميزون بالميل الى التصرفات الفردية ويرفضون
الجماعية .

وهذه التأكيدات ، ككثير غيرها مما سبق ذكره ، ليست
من الامور التي يمكن التسليم بها ، بالرغم من ان الباحث يتحفظ
قائلا ان كل هذه الصفات تعتبر نتيجة مباشرة للظروف الاجتماعية
والاقتصادية والسياسية لمختلف اشكال تنظيم المجتمع وشتى
انظمة الحكم ، وانها ، اى تلك الصفات ، لا تعتبر «طبيعية»
عند المصريين بل تكونت في ظروف معينة ، وهي ليست ابدية
ويمكن ان تتغير . ولكن تلك الشخصية المصرية التي صممها
الباحث تخفى وراءها تناولا شخصانيا يرجع الى ما يشعر به الباحث
من الم ازاء وضع الشعب وحالة المجتمع . بيد ان مقولاته الحادة ،
وتصنيفه المبسط للمصريين ، والصفات السلبية التي الصقها
بالشخصية القومية ، قد استخدمت غير مرة في الدعاية المعادية للعرب .
ان دراسة الشخصية القومية المصرية في الغرب واسرائيل ،
مثلها مثل دراسة الشخصية القومية للشعوب الاخرى ليست مجرد
اهتمام من جمهور القراء واولئك الذين يخالطون المصريين بفعل
بعض الظروف . لقد اصبحت مراعاة الشخصية القومية للشعوب
عنصرا ضروريا لدى رسم السياسة الخارجية وتنظيم الانتاج ولدى
التدريب العسكرى والدعاية والتجارة والتخطيط واقامة الروابط
الثقافية والعملية .

لقد بدأت دراسة الشخصية القومية للعرب وللمصريين بوجه خاص دراسة مركزية في الستينات والسبعينات . ولا يجوز ان نقول ان المستشرقين او الساسة المشتغلين بشئون الشرق الاوسط قد اغفلوا دراسة هذا الموضوع قبل ذلك . ويكفى ان نشير الى المنشور الذى وزعه نابليون فى مصر والذى حاول فيه اللعب على مشاعر العداة لدى العرب نحو الاتراك . اما فى الوقت الراهن فقد درسوا فى اسرائيل الشخصية المصرية وهم يحضرون للحرب والاحتلال . ودرسوها فى الغرب وهم يستعدون ايضا للحرب ولكن على الاكثر من اجل اهداف سياسية واقتصادية وتجارية وغيرها . وكان ذلك احد وجهى العملة ، اما الوجه الاخر فقد نقشت عليه بوضوح مهمة استخدام اجهزة الاعلام فى اعداد صورة سلبية «للعربى ، وللمصرى» لاستهلاك المواطن الغربى العادى فى مقابل النموذج الايجابى «للشخصية الاسرائيلية» . اما الابحاث الممتازة التى وضعها عدد من العلماء الغربيين وكتبوها بروح التعاطف مع العرب فلم تجد سبيلها الى النشر او الى الاذاعة والتليفزيون . ومما زاد من سهولة رسم صورة سلبية للعربى انها جاءت مكملة للصورة الخرافية الهرائية للعرب كلهم — من المغرب الى العراق — التى رسمتها هوليدو والادب الجماهيرى والصحف الغربية فى فترة ما بين الحربين العالميتين ، الصورة التى تظهر العرب على انهم اناس غير جديرين بالثقة ، متحفزون للقتل وتجار مخدرات واسرار واسلحة ونساء . وهم يرتدون ملابس طريفة ، ويركبون الجمال ، ويستسلمون للشهوات مع الحريم ، ويدبرون المؤامرات فى مدنهم الاشبه بالحصون .

ان فكرة تفوق الاوربيين والامريكيين على جميع «الملونين» ، وتفوق الحضارة الاوربية على جميع الحضارات الاخرى وتفوق

الثقافة الغربية على الشرقية هي اساس العنصرية الاوربية-الامريكية
سواء في بداية قرننا ام في ربهه الاخير .

وعلى ضوء هذه القناعات بدا مضحكا واحمق سعي المتخلفين
من المصريين ، والعرب عامة ، الى التحرر السياسى والاستقلال
الاقتصادى والتقدم الاجتماعى . اذ كيف يمكن بحث هذه
القضايا الجدية التى يثيرها اشخاص يتميزون «بالتخلف وعدم
الاستعداد للتقدم ، وبالكسل ، والافتقار الى ضبط النفس
والانضباط ، وبالكذب ؟» . كيف كان من الممكن الوقوف
الى جانبهم فى صدامهم مع الاسرائيليين ، «هذا الشعب الديناميكى ،
المحب للعمل والطليعى والمنظم والديمقراطى والمخلص والمستعد
للتضحية بالنفس فى سبيل المثل العليا» ؟

لقد كانت طريقة رسم الصور القالبية مرتبة جيدا . اذ تؤخذ
صفة او صفتان من الصفات الموجودة بالفعل فى شخصية المصريين
العرب ، وتحول الى صفات مطلقة ، وتنزع من السياق ومن
علاقة العلة بالمعلول ، ويعلن انها «موروثة» و«ثابتة» ، وترفض
التغيرات وكذلك امكانية حدوثها ، وذلك مع السكوت عن كل
ما هو ايجابى فى الشخصية القومية للمصريين وللعرب الاخرين .
ويستخدم علماء الانثروبولوجيا وعلماء النفس الاجتماعيون
فى الغرب وفى اسرائيل بكل نشاط الآراء الانتقادية للباحثين
العرب حول الشخصية القومية .

وقد اجرى الباحث الاجتماعى المعروف السيد ياسين مدير
مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة «الاهرام» دراسة
خاصة لاعمال علماء الانثروبولوجيا الاسرائيليين المخصصة للشخصية
القومية العربية وتوصل الى الاستنتاج التالى : «انهم يتجاهلون
تماما آراء المصريين فيما يتعلق بالجوانب الايجابية للشخصية

القومية المصرية حتى يرسموا صورة سلبية تماما . ومن تحت اقلامهم تخرج صورة للمصرى باعتباره تجسيدا للتحجر والثبات طوال قرون ، وعدم القدرة على التقدم والتنظيم والتغيير فى عصرنا . وهم يحاولون اثبات سيادة الملامح السلبية فى الشخصية القومية للمصريين ويؤكدون ان هذه الملامح مورثة . وهم لا يريدون ان يلاحظوا التغيرات العميقة والسريعة فى الشخصية القومية . ويستطرد الباحث قائلا «انه يمكن القول بان الجزء الاكبر من التحليل الغربى للشخصية القومية العربية لم يكن يسعى الا الى هدف اساسى واحد ، الا وهو تشويه الصورة الحقيقية» .

ولكن هل يعنى الاهتمام المعادى بكل كلمة نقد ذاتى يقولها المصريون واستخدام هذه الاقوال فى الدعاية المضادة ان يخفى العلماء المصريون والكتاب آراءهم واحكامهم ويغرقوا فى مدح النفس والهرب من الواقعية الى عالم الخرافة ؟ لقد كان التنقيب فى اعماق النفس والجدال والنقد الذاتى ضمان الرقى والحركة الى الامام . وهذا أهم بكثير من الحجج الدعائية التى يمكن ان يستخلصها العدو من مثل هذا النقد الذاتى .

ان المصريين الذين حاولوا بالنقد الذاتى احداث صدمة للوعى العربى ظلوا قلة قليلة بين الغالبية العظمى من الذين يعيشون فى عالم القيم والمثل العليا التقليدية . وهنا تكمن مأساة هؤلاء واولئك . فقد اراد البعض عصرنة المجتمع والتفكير والشخصية القومية لمصلحة الاخرين ، اى لمصلحة الجماهير ، ولكن الجماهير نفسها لم ترد العصرنة لانها لم ترفى العصرنة البرجوازية سوى تدهور احوالها ولم يكن لديها تصور واقعى عن امكانيات التحولات الاشتراكية . وظلت مناقشات المثقفين الطليعيين وتخبطهم بعيدة وغريبة عن الاغلبية . وضيقت المشاكل الدنيوية للحصول

على رغيف الخبز والمسكن والمياه النقية والصحة او المرض ،
ضيقت هذه المشاكل آفاقهم فاصبحت محصورة في هموم اليوم
الحاضر ، بينما بدا الغد ملبدا كالسمااء التي اعتمت برياح
الخماسين . ولكنهم يعرفون ردا جربه الجدود ورضعوه هم مع
لبن الام وذؤوب فى مياه النيل ، ردا على جميع تقلبات الدهر ،
الا وهو الصبر . ففي الصبر اسمى مثال وفيه الكرامة والامل .
وفي الصبر الخلاص من المتاعب . وباختصار فالصبر خير !

الباب الخامس

ألدی المرأة روح ؟

تتغير التقاليد في مصر ابطاً من تغير ظروف الحياة . وتحكم التقاليد الاسرة المصرية وليس القانون . ويعد سلطان الاسرة اقوى من القانون ، اذ تملی الاسرة معايير السلوك .

ابراهيم احمد شعلان . الشعب المصرى فى الاقوال والامثال . ١٩٧٢

ينجم عن التبعية الدائمة التى تعيشها المرأة شعور بغياب الامان والضمان ، اذ تخشى المرأة باستمرار من ان يتخلص منها الزوج او يطلقها لتحرم بالتالى من السند الوحيد فى الحياة . ولذلك فالطريقة المضمونة لتوطيد العلاقات الاسرية وتجنب خطر الطلاق او الزواج الثانى للزوج هى انجاب العديد من الاطفال لاقاء مسئوليات وواجبات كبيرة على عاتق الزوج .

كاميليا عبد الفتاح . ملامح المرأة المصرية . ١٩٦٩

ابقت تبعية المرأة لزوجها عليها فى فرع دائم وسعى مستمر لارضاء سيدها — الزوج . ونتيجة لانغلاقها وايضا جهلها وعدم تهيئها للعمل الاجتماعى لم تستطع المرأة الحصول على وسيلة العيش بنفسها ولذلك لم يكن بوسع اى من النداءات الموجهة للتعامل بانسانية مع المرأة المسلمة ان تؤدى الى تغيير الاوضاع القائمة .

لا يعتبر السؤال المطروح فى العنوان اعلاه للائمة المسلمين من باب البلاغة ، اذ يسمونه ويطرحونه بانفسهم مستمدين من الرد بالايجاب عليه ايمانهم بالمرتبة العالية التى وضع فيها الاسلام المرأة ، فى رأيهم . ألم يحتج المسيحيون لعدة قرون للتوصل الى هذا الاستنتاج ؟ ألم يكن سؤالنا المطروح اعلاه هو الموضوع الاساسى لنقاشات اباء الكنيسة فى القرن السادس الميلادى ؟ وألم يوافقوا باغلبية لا تذكر على التسليم بان لدى المرأة روحا ؟ غير ان العلماء المسلمين يعتبرون جهنم مسكونة اساسا بالنساء ، الامر الذى يشهد على ضلالهن وضعف ايمانهن ، وان كانت الجنة مضمونة للنساء الفاضلات . أليس فى ذلك برهان على المساواة بين الجنسين فى الاسلام ؟ اما فيما يخص اللامساواة الاجتماعية فان ذلك يبرر بالخصائص الفسيولوجية المختلفة لدى الجنسين وبالمجهود متفاوت للغاية الذى يبذله الرجال والنساء والوظائف المختلفة التى يؤدونها . فقد كتب الشيخ محمود شلتوت شيخ جامعة الازهر والشخصية المرموقة فى عهد عبد الناصر ، والذى كان يتبنى مواقف عصرية «ان الاسلام قد اعلى من مرتبة المرأة باعطائها الحرية والحق فى امتلاك العقارات . وان الجميع لدينا (فى مصر) متساوون طالما تساوت الظروف المناسبة . كما ان التشريعات لدينا ترمى الى حماية الخصائص المميزة لجنس النساء كما ترمى الى حماية وظائفهن التى حددها الله للام والزوجة . فحينما كانوا يتناقشون فى اوربا عما اذا كان لدى المرأة روح مثلما لدى الرجل كان القرآن قد حدد حقوقها وواجباتها» .

وكان يمكن الا نورد مثل هذه الاقوال لولا ان الاغلبية الساحقة

من سكان مصر تتبنى هذه الآراء وان لم تدخل في تفاصيلها الدينية او التاريخية . وليس لكاتب هذه السطور ان يجادلهم والا لكان ذلك منه امرا غريبا على اقل تقدير . ولذلك فمن الافضل ان نتناول العلاقات المتبادلة بين المصريين والمصريات ، والاسرة المصرية ومكانتها في حياة الانسان الفرد وفي حياة المجتمع .

فاذا كانت الظروف الاقتصادية غير محتملة والاضطهاد الاجتماعي والسياسي مستمرين ، والتمرد شبه مستحيل ولا مجال للهروب ، فما هو السند المتبقى للمصرى ؟ انه في الحياة الروحية : الدين وفي التنظيم الاجتماعي : في الاسرة . ففي الاسرة بالذات ، وفيها فقط تعود للمصرى الكرامة والثقة في النفس . انه يوجه نحوها مشاعره الانسانية ويوجد فيها السند والعزاء ، فهي محور همومه وتفكيره واحاديثه . فقبل ثورة ١٩٥٢ كانت مفاهيم «الوطن» و«الوطنية» و«الدولة» و«الحرية» خارج دائرة اهتمامات اغلبية المصريين . لقد كانت المشاعر المعادية للانجليز تسيطر على جميع السكان تقريبا ولكن لم ينخرط في النضال النشط سوى جزء من شباب المدن ، اما الباقون فقد تركزت لديهم في الاسرة بداية البدايات ونهاية النهايات .

كتب ابراهيم احمد شعلان ان «المصرى المسالم يبدو للبعض على قدر من الجبن ولكن اذا ما مس شرف اسرته او جرت محاولة للتدخل في شئونها فانه على استعداد للتمرد ، بل وللتضحية بالنفس . فالزوجة شرف المصرى» . وفي ظروف مصر فان «حق الليلة الاولى» او مغامرات العشق التي قام بها ابناء الاقطاعيين في الريف الاوربي مستحيلة او نادرة الحدوث .
واشار عباس محمود العقاد الاديب والفيلسوف المصرى

المتناقض ، ولكن ذو النظرة الثاقبة الى اننا لا نستطيع ان نفهم مدى محافظة المصري او استعداده للتمرد ما لم نفهم حبه لاسرته واخلاصه للتقاليد والعادات الاسرية . فالمصري محافظ بمعنى الحرص على التراث الاسرى ، وفي سبيل هذا الحرص وهذه المحافظة فهو على استعداد للمقاومة المستميتة من اجل الدفاع عن تقاليده . ان المصري يستطيع نسيان كل شيء الا نسيان مشاعر التسامح والرحمة ومعايير السلوك فى الاسرة .

يقدمس الرأى العام المصرى الاسرة ويعتبر الزواج اهم واجبات الحياة . ولمثل هذه النظرة الى الاسرة بذور تاريخية عميقة حملتها الى مصر شتى تقلبات الدهر . ويسعى المصريون بطبعهم الى الاستقرار ويفضلونه على التغيير ، ويضعون العيش الاسرى الراسخ فوق اى نعمة اخرى . والاكثر من ذلك فان رجال الدين المسلمين يعتبرون العزوية عملا لا اخلاقيا وجريمة فى حق الدين والمجتمع .

الا انه من العجيب ان حالات الطلاق آخذة فى الازدياد فى مصر . فعن اى «استقرار» او «اخلاص للاسرة» يمكن الحديث اذن ؟ الا يعنى ذلك ان الجذور الاسرية اصبحت ضعيفة وان الطلاق اصبح سهلا ؟

لن نتعجل بالاستنتاجات . فالاسرة المصرية لا تتكون عادة من الزوج والزوجة فحسب ، بل تمثل جماعة اسرية كبيرة تربطها علاقات القرابة من ناحية الزوج . ويرأس الاسرة الاب الكبير السن وزوجته ، وتشمل هذه الجماعة الابناء المتزوجين واطفالهم كما يمكن ان تشمل الاحفاد المتزوجين واطفالهم . وليس نادرا ان يعيش الجميع سويا ويشتركون فى الملكية ويعملون معا ويدبرون امورهم معا . لكن ما يجمعهم

ليس المصالح الاقتصادية المشتركة او قرابة الدم فحسب بل
ايضا ما يسمى بـ«العصبية» — اى «ميثاق الشرف» وكذلك العلاقات
الاجتماعية والتزامات الاسرة الكبيرة . ولدى السكان المستقرين
تشمل «العصبية» جماعة اسرية كبيرة . اما لدى البدو فهى القبيلة
او اتحاد القبائل .

ويعتز المصرى كثيرا بانتمائه الى الاسرة والعشيرة ، مدركا
ان خيره ورفاهيته وحتى حياته نفسها فى بعض الاحيان تتوقف
على الاسرة والعشيرة وعلى علاقات القرابة ، كما يدرك المصرى
ان «العصبية» هى واحدة من اهم الوسائل لاقامة وتنظيم العلاقات
الاجتماعية . فيقول المثل الشعبى «الاقربون اولى بالمعروف» .
ان الشعور بالارتباط بالاقارب هو الهيكل الذى تقوم عليه الاسرة .
وعلى هذا الهيكل تلتقى المصالح والواجبات المشتركة ، وهذا
ما يحدد مسبقا قوة الاسرة الكبيرة وضعف الفرد الوحيد المحروم
من الدعم الاسرى .

ومن الطبيعى الا تتفق دائما مصالح كل افراد الاسرة ، اذ
تتناقض احيانا . الا ان الرأى العام يعتبر انه لا ينبغى ان يكون
هناك مكان للعداء الحقيقى داخل العشيرة .
وبالطبع فانه يجرى الصراع داخل الاسرة الكبيرة ولكنه صراع
داخلى ، عداء داخلى بين اعضاء الاسرة اما عند مواجهة العدو
المخارجى فان كل الاقارب لا بد ان يتحدوا .

ومنذ القدم تدعم تلاحم الاسر الكبيرة بضرورة الثأر الدموى
الذى يعد من بديهيات «العصبية» . فعلى الرجال اعضاء الاسرة
الكبيرة ينطبق خطر الثأر الدموى من اسرة اخرى وعليهم ايضا
ان يثأروا لاقاربهم . وعادة ما يجرى داخل الاسرة الكبيرة جمع
الموارد اللازمة كهدية للثأر . هذا اذا ما استطاع الشيوخ تسوية النزاع

بشكل ودى . لكن الآلاف من الناس تموت كل عام من رصاص
وخناجر المنتقمين من اجل قريبتهم القريب او البعيد . ومع ذلك
فان وجود الثأر الدموى وخاصة فى ظروف التدخل الهامشى للاجهزة
القضائية فى وسط الشعب يقلل من الجريمة . اذ ان القاتل
المحتمل يفكر الف مرة قبل ان يرفع يده على شخص ما ،
اذ يعرف جيدا ما الخطر الذى يتهدده ، ليس هو فقط ، بل
وأقرباه فى حالة ارتكابه الجريمة . وينتشر الثأر الدموى بشكل
اساسى ليس فقط فى القرية المصرية بل وايضا فى المدن الكبرى ،
ويظل الثأر واقعا رغم انه اصبح الان ذا اهمية اجتماعية اضعف
مما كان عليه .

وكتب العقاد يقول «ان عدااء الاسر وتنافسها بين بعضها البعض
هو الدافع لجريمة القتل او لحرق المحصول او لتسميم الماشية .
وهنا لا يلعب الثأر الفردى دورا كبيرا . واذا ما جرى ثأر فى القرية
فان ذلك يعنى ان ابن فلان ما ثأر من ابن فلان . ونادرا ما
يثأر شخص من آخر بمبادرة منه ، غير واضح فى اعتباره علاقات
القرابة او التنافس بين الاسر» .

وفى الاسرة المصرية الكبيرة تعتبر من الاهمية بمكان علاقة القرابة
من جانب الرجل فقط . فالاقارب المباشرون للزوجة وحتى اطفالها
لا يعتبرون غرباء ولكن ينتمون لاسرة اخرى . الا ان اطفال الابن
يعتبرون اعضاء فى الاسرة والعشيرة .

تقوم الاسرة المصرية التقليدية الكبيرة على سلطة الزوج الذى
يعتبر كبير الاسرة . ويسمونه «سيد الاسرة» . وكثيرا ما لا يسمون
الشاب الفتى باسمه بل يقولون ابن فلان . وحتى وقت قريب
كان المصريون يقيمون الشاب على اساس سمعة ووضع ابيه ...
وكانت العلاقات الاجتماعية للشاب تتشكل على اساس العلاقات

الاجتماعية لايه . ولم يعترف المجتمع المصرى حتى وقت قريب باستقلالية الاطفال اقتصاديا او سلوكيا وطالبهم بالخضوع للوالد . تعد العلاقات المتبادلة بين الاخوة الكبار والصغار كالعلاقات بين الاب وابنائهم . فالعون المتبادل بين الاخوة امر الزامى . والمجتمع يشك فى امكانية التعاون مع الانسان الذى لا يعاون اخوته . ويقول المثل : «انا واخوأي على ابن عمى وانا وابن عمى على الغريب» .

ان الطاعة والاعتراف بهيئة الكبار تعد واحدة من اهم الصفات الحسنة للشباب . ويعتبر الابن حكيما اذا ما اتبع نصائح الكبار . ويطلب الرأى العام «بضرورة احترام الوالد حتى اذا كان مجرما» . والابن بدوره على ثقة تامة بانه سينال نفس الشرف حينما يكبر . وعموما فنادرا ما نجد العنف كظاهرة فى الاسرة المصرية ، واذا ما كان الاطفال محبين للوالد فانهم يجدون لديه كل الدفء والرقه .

وتوافق كل هذه الملاحظات مع ما رآه و اشار اليه لاي منذ مائة وخمسين عاما مضت : «مهما قدمت للاطفال المصريين من مشاعر العطف والرقه والتدليل فانهم يكونون باستمرار مشاعر الاحترام العميق لوالديهم . فعدم طاعة الوالدين لدى المسلمين اكبر اثم يعادل تماما عبادة الاصنام او جريمة القتل او اتهام امرأة شريفة بالزنا او التفريط فى اموال اليتيم او الربا او التقاعس عن محاربة الكفار» .

وتعتبر تربية الاطفال من المهمات الدائمة للوالدين . وتعد البنية الاسرية فى مصر من البنى المحافظة ولكن ليست الجامدة . وتتأقلم الاسر الكبيرة فى القرية مع الحياة اكثر مما هو ممكن فى المدينة . وتحدد حياة المدينة الانفصال

المبكر للاولاد عن الاسرة ، كما تحدد الاستقلالية الاكبر للاسر الشابة . وتبقى العلاقات العشائرية موجودة مع بعض التغيير في مظهرها اما علاقات القرابة فهي تبقى اوطد وضمن العلاقات .

وحيثما يحين وقت زواج الشاب يفكر هو ووالداه في هذه الخطوة من كل الجوانب . فعليه ان يتحمل على عاتقه كل عبء ومسئوليات حياة الزوجة سواء ان كان في اسرة كبيرة ام استقل بأسرته . اما العرس نفسه فيتطلب الكثير من النفقات ويسخر المثل مؤكدا : «بفلوسك تتجوز بنت السلطان» . ويقوم كثير من الشباب لسنوات طويلة بجمع اموال للمهر .

ويعتبر الزواج بدون مهر امرا غير معقول . الا ان الاغلبية العظمى من المصريين والمصريات لن يوافقوا الرأى القاطع للعالمية السوفيتية شايدولينا التي تساوى بين الزواج وعملية بيع وشراء العروس . فتقول شايدولينا «ان عملية الزواج منصوص عليها تفصيلا في القرآن . فيفسر الزواج بعمل يتطلب اهتمام المشتري الذى يشتري السلعة المعينة ، كما تقول ان القرآن نص على ان يدفع الزوج المهر» . وبالطبع فان دفع المهر يعنى عدم المساواة بين الجنسين ويعنى ايضا تمييزا لحقوق الزوج عن المرأة . ولكن لا يصح اعتبار دفع المهر عملية بيع وشراء للعروس ، اذ يظل المهر اما لدى والديها او لديها نفسها ، وفي هذه الحالة يعد المهر اساسا ماديا لمعيشتها في حالة الطلاق ويذهب جزء من المهر لدفع تكاليف الزواج او لشراء الاغراض المنزلية الضرورية للعروسين .

وتحذر الحكمة الشعبية من الزواج اللامتكافئ او غير الممعن التفكير فيه : «من يأخذ زوجة ليس من أهله فيموت في غير أسرته» ، ومثل آخر يقول «لا تتزوج بنت الارملة ، فالزواج يجب ان يكون متكافئا» .

ويتنشر في مصر الزواج بين ابناء وبنات العم والخال . يقول
المثل «حب بنت العم ولو مضطر تسيل الدم» . ويعتبر الزواج من
بنات العم والخال من وجهة النظر المصرية ذا افضليات جمّة .
فأثناء الصبا كالعادة يعرف بعضهم البعض مما يسهل من معرفة
الطبائع في الاسرة ، اضافة الى ان الزوج والزوجة ذوا وضع اجتماعي
متساو ، ويعتبر المهر في هذه الحالة اقل ، اذ تعرف الاسرة
بعضها البعض . وحينما يكون العروسان من اقارب الاب فان هذا
الزواج يكون في اطار اسرة او عشيرة واحدة .

ويعتبر اختيار العروس او العريس في مصر من مهمات الوالدين .
الا ان الاوضاع تغيرت الان فقد اصبح المصريون يأخذون برأى
المعنيين بالامر .

فيما يخص جمال العروس فللناس ذوق سليم في ذلك ، اذ
تعطى الاولوية للبنات ذوات البشرة البيضاء والممشوقات وذوات
الوسط النحيف والصدر الممتلئ وملامح الوجه السمحة . ورغم
ان جمال الجسم ضرورى فانه يشغل المكان الثانى بعد اخلاق
العروس واصلها وتصرفاتها ووضع والديها .

ولنبتعد قليلا عن عادات العرس وحقوق الزواج ولنتحدث عن
الجمال الجسماني للشعب . عادة ما يكون المصريون والمصريات
جيدى التكوين وذوى اجسام جميلة ، هذا اذا كانوا اصحاء
ويتغذون بشكل طبيعى . والمصريات جذابات وتكوينهن متناسب
وذوات ملامح وجه ناعمة ، وشعر أسود كثيف وعيون سوداء
جميلة ذات رموش كثيفة تلهم الشعراء بحق . وتعرف المصريات
سحر العيون ولذا فانهن يخططن الجفن والرموش بالكحل كما
كان يفعل قدماء المصريين . وفي الماضى كانت النساء من
الطبقات العليا والوسطى يزين كفووهن وارجلهن بالحناء الا ان

الفلاحات هن فقط اللائي حافظن على هذه العادة . فقد انتقلت النساء الثريات الى استخدام مستحضرات التجميل المستوردة . علما بان مصر هي التي تصدر المواد الخام اللازمة لصناعة مستحضرات التجميل من زيت الياسمين الى النباتات التي تصنع منها الروائح . وعموما فالنساء المصريات يحافظن على رشاقتهن وجمالهن حتى الاربعين وبعد ذلك يذبلن .

ويعتبر الزواج من غير مسلمة (مثل المسيحية واليهودية ومن ذوات الديانات الاخرى— اى من اهل الكتاب) مسموحا للرجل المسلم . ولا تلتزم المرأة غير المسلمة والتي تستعد للزواج من مسلم بالتخلي عن دينها . الا ان ابناءها يصبحون مسلمين . وفي القرون الوسطى تم بهذا الشكل اسراع عملية ادخال الاسلام فى البلدان التي غزاها المسلمون . وكانت هذه الطريقة فعالة فى الاسراع بعملية نشر الاسلام فى افريقيا . الا ان الزواج المختلط اصبح الان نادرا رغم انه موجود .

وفى الماضى حظر على المسلمة ان تتزوج من غير مسلم وهددها ذلك بعقوبة الاعدام . وقد اورد العالم لاين قصة مأساوية لمثل هذا الزواج . فقد حكم على المرأة التي انتقلت من الاسلام للمسيحية والتي رفضت الندم على ما فعلت بالاعدام . طافوا بها اولاً على حمار بالمدينة ثم قادوها فى قارب الى وسط النيل وجلدوها ثم اغرقوها .

ومنذ ذلك الحين تغيرت القوانين والعادات . فالمرأة المصرية التي تتزوج من رجل لا يدين بدينها وقبلت بدينه لا يهددها الموت الان . الا ان ذلك يتطلب منها شجاعة فائقة او حبا اعمى . ولدى القيام بمثل هذه الخطوة فان هذه المرأة تقطع بكل علاقات القرابة والعلاقات الاجتماعية القديمة . ولن تستطيع

البقاء ايضا فى نفس الحى الذى كانت تعيش فيه ، هذا ناهيك
عن الحديث عن القرية التى كانت تعيش فيها . واذا ما تزوجت
المرأة المصرية من اجنبى فانها مضطرة فى معظم الاحوال
لان تغادر البلاد .

ويسمح رسميا بزواج المسلمة من غير المسلم فى كل من
مصر وتونس والمغرب . الا ان هناك قوانين حكومية وهناك شريعة .
وقد أكد علماء الازهر فى فتوى خاصة توضح منع الشريعة لزواج
المسلمة من غير المسلم وايضا زواج المسلم من كافرة او وثنية ،
كما ان علماء الازهر يعلنون عدم صحة زواج المسلمة من شيعى .
وقد ترك لنا لايين وصف عادات الزواج فى مصر . وقد كانت
هذه العادات دقيقة لمصر بداية القرن التاسع عشر وصحيحة
حتى وقتنا المعاصر . كما كانت هذه التقاليد صحيحة ايضا
لعشرات القرون السابقة . يحرم القرآن والسنة ان يتزوج الرجل من
قريباته سواء القربيات منهن او البعيدات محددًا بذلك درجة
القربة فى هذه الاحوال . الا ان هذا التحريم لا ينطبق على
بنات العم والخال . «ان زواج الرجل بالبت البالغة يعتبر شرعيا
بعد ان يقوم الطرفان باعلان رغبتهما بالزواج وذلك على ان تقوم
البت باعلان ذلك امام اثنين من الشهود وبمساعدة الشخص
الذى تثق فيه وتتم هذه العملية بعد ان يتم دفع المهر بالكامل
او نصفه . ولا يتطلب الامر موافقة البنت غير البالغة سن الرشد ،
اذ يعطى ابوها هذه الموافقة . واذا كان قد توفى فان اقرب
اقاربها من الرجال البالغين او اى شخص يتولى امرها طبقا لوصية
والديها او بقرار المحكمة او اى شخص آخر توكله يقوم باعطاء
هذه الموافقة» .

ويمكن تفصيل ملاحظات المستشرق الانجليزى الا انه

عمليا يخيل للمرء ان هذه الملاحظات قد سجلت بالامس .
صحيح ان القانون حدد عمر زواج البنت بستة عشر عاما والرجل
بثمانية عشر عاما ، لكن من سيراجع شهادات الميلاد بدفاتر
تسجيل المواليد في الريف ؟ ويعد ارغام البنت التي لم تبلغ
من العمر الستة عشر عاما على الزواج جريمة جنائية . الا انها
قضية استثنائية فالوالدين ليسا قساة وزوج المستقبل عادة ما يكون
انسانا عاديا ، لكن اذا ما تسنى لهما التخلص من فم زائد
في الاسرة ، فمن ذا الذي سيعطى اهتماما للقانون ؟

شأن بين عرس وعرس فقد اتيح لى ان احضر عرس
ابن احد الفلاحين الاجراء كما حضرت عرس ابن احد جنرالات
الجيش السابقين بفندق «الميريديان» وهو في نفس الوقت مالك
كبير للاراضى . ففي العرس الاول كان الرجال والنساء يجلسون
كل على حدة ، وتجمع الضيوف في فناء المنزل المبنى من
الطين من اجل ان يلتهموا لحم الخروف المسلوق بالارز . وقد
احيا الليلة موسيقى اعمى عزف على الربابة ذات الوتر الواحد بمصاحبة
الدف . ولم تكن العروس—وهي ايضا بنت فلاح اجير—بين
الحاضرين . فقد عرضت جهاز العرس ، وكان عبارة عن لحاف
منجد وبعض الوسائد ، اما هدايا زوجها فكانت عبارة عن غويشة
من الفضة عرضتها على اصدقائها ومعارف ام زوجها (حماتها) .
وكانت بانتظار العريس في صحبة امها .

اما في العرس الثانى فقد تجمعت نخبة من وجهاء المجتمع
المصرى تحت اضواء الثريات المبهرة وضجيج الفرقة الموسيقية ،
وتجمع الرجال والنساء معا في صالة الافراح بفندق «الميريديان» .
وفي اللحظة المناسبة جاء الجرسونات بعربة صغيرة تحمل كعكة من
عدة طوابق وأخذ كل من الضيوف قطعة جاتوة مع كوب من الشربات

الخلو . ولم يكن هناك خمر او اكالات دسمة للعشاء . وكان العريس يرتدى بدلة سوداء من ثلاث قطع وارتدت العروس فستانا ابيض جميلا ذا طرف طويل من الخلف ، كما زين الماس اذنيها ورقبتها ويديها وجلست هي والعريس على مكان مرتفع يتسمان للضيوف وقد بدا عليهما التعب . وقد انتعش العريسان فقط حينما ظهرت الراقصة التي قدمت رقصة البطن ، وهي واحدة من افضل الراقصات حينئذ في مصر . وقد رقصت الراقصة بولع انعش والهيب الحاضرين . وكانت الراقصة ترتدى بدلة رقص مفتوحة بينت نصف صدرها ، ومطرزة بالترتر اللامع ، اما الجزء الاسفل من البدلة فكان عبارة عن جولة مفتوحة من اعلى فخذيها حتى اسفل قدميها . وتحركت الراقصة هنا وهناك وتلوت واهتزت على انغام الموسيقى ضاربة باصابعها الصاجات بوتائر منتظمة ومرتعشة على انغام الدف والطبلة . وقد صاحبها في رقصها وحركتها شعرها الاسود الطويل العجيب ويداها اللولبيتان المعبرتان وكذلك بطنها وفخذاها . وبدت كلها وكأنها الهة الاغراء في شكل امرأة . وخلال نصف ساعة من الرقص حصلت الراقصة على اجر يعادل مرتب عشرة شهور لعامل مؤهل .

وقد تعرف العريس والعروس على بعضهما البعض قبل الزواج . اذ يمكن في مثل هذا الوسط ان يتقابل الشاب والفتاة ويتحدثا ويشاركا في الحفلات المسائية لكن تحت رقابة الكبار . وكان هذا الزواج بعد حب ، وبين شخصين من مستوى اجتماعي واحد . وقد دفع العريس مهرا وأخذ على عاتقه تجهيز الشقة . اما العروس فهي التي وفرت الشقة وكانت على كورنيش النيل ، اذ اهداها لها والدها الذي يعتبر مالك عقارات كبيرا . وقد نفذ العريس كل العادات المتبعة قبل الزواج . فقد كان يرسل للعروس

زهورا وحلويات وقبل العرس اهدى لها عقدا ثمينا . وقد حدثني العريس عن ادراكه لقدم هذه العادات لكن بتنفيذه لها حصل على بعض الرضا فما بالك بالعروس . وبعد حفلة الزواج ذهب العريسان الى شقتهما وفي اليوم التالي توجه العروسان لقضاء شهر العسل باوربا .

وفي القرية توجه الفلاح الشاب لزوجته بعد انتهاء المائدة ، وفي الصباح قامت ام العروس بعرض ملاية بيضاء عليها بقعة دم حمراء—كدليل على عذرية العروس . ولا يسامح المجتمع التقليدى المحافظ الفتاة اذا ما ارتكبت «اثما» . اما اذا ارتكبت الابن خطأ غير شريف فالامر يمكن اصلاحه . ولا يعد ذلك فاضحا للأسرة . اما اذا لحق الضرر بسمعة الابنة فهذا عار مشين للأسرة ويصبح وجودها فى القرية مستحيلا . واذا ما اكتشف العريس الشاب ان عروسه ليست عذراء فانه يطردها توا . وفى الماضى كان بإمكان والد البنت الآثمة واخوتها يجزونها الى الصحراء ويذبحونها . وتعتبر العلاقات الجنسية التى تقوم بها المرأة المتزوجة مع غير زوجها كاللعب بالنار . اذ يحدث ان ترجم الزوجة الخائنة بالحجارة حتى الموت او تغرق فى الماء مثلها مثل عشيقها . وينظر الرأى العام بتسامح ، فى المدينة وليس فى القرية ، للعلاقات الجنسية التى يقوم بها الرجال مع النساء غير المتزوجات .

وفى اليوم التالى للزواج حدثنى صديقى الفلاح انه كان يجب عليه ان يذهب للعمل فى الحقل رغم ان العادات تعطى له الحق فى اجازة ثلاثة ايام . ثم قابلته مرة اخرى بعد ستة اشهر ، فكان كالعادة نحيفا ورث الثياب . ولكنه كان فرحان وكانت زوجته حاملا ، وحالفه الحظ فى زواجه . وسألته : — «هل كنت تطلق زوجتك اذا لم تعجبك حينئذ ؟» فاجاب —

ان «ربنا امر بالصبر وليس لدى اموال لمؤخر الصداق او لمهر جديد» .

ويتزوج الناس ليس من اجل الطلاق . والشريعة فقط هي التي تعطي الحق فى الزواج المؤقت (زواج المتعة) واحيانا لعدة ساعات . الا ان سهولة او صعوبة الطلاق يحسب حسابها عند الزواج . وبخلاف الكاثوليكية لا يمانع الاسلام فى الطلاق . وقد ترتبط كثرة حالات الطلاق فى مصر بعدم امكانية تعارف الزوجين قبل الزواج . اما لدى الاقباط فالطلاق تقريبا مستحيل . وقد نص القرآن بالتفصيل على قواعد الطلاق وهى ثلاثة انواع . فالطلاق النهائى هو الذى يحدث بعد ان يعلن الزوج زوجته طالقا ٣ مرات بحضور شهود او فى المحكمة . وحسب الشريعة توجد ١٧ صيغة للطلاق النهائى ، وعبارة «انت طالق» هى اكثرها استخداما .

واذا ما نطق الزوج بهذه العبارة ثلاث مرات وطلق زوجته ، فانه لا يستطيع اعادتها لبيت الزوجية مرة اخرى الا بعد ان تتزوج من غيره وتطلق ثم تعود اليه . وصادف ان تعرفت على قصة محزنة ومضحكة فى نفس الوقت : ففى عفوان الغيرة طلق سانس الاحصنة الكهل فى احد النوادى الرياضية زوجته الشابة نهائيا امام شهود ، ندم على ما فعل فى اليوم التالى ، وبدأ البحث عن زوج مؤقت (محلل) لها حتى يتمكن من الزواج مرة اخرى بها بعد ان تتزوج هى وتطلق من هذا المحلل . وبعد انتهاء فترة العدة التى طالت ٣ اشهر وجد لها محللا ووعدته بدفع مبلغ له مقابل الضرر المعنوى الذى سيلحق به . وتطالب الشريعة بضرورة الالتزام بفترة العدة للتأكد من عدم حمل الزوجة المطلقة . فاذا ما كانت حاملا فانها تظل فى منزل

زوجها حتى تتم الولادة ، اذ ان الطفل سيكون للاب . الا ان الحظ خان السائس . فبعد ان اخذ المحلل مبلغ التعويض مقابل الضرر المعنوى رفض الطلاق . اما الزوجة السابقة فعبرت عن رضاها بالزواج الجديد .

ويوجد لدى المسلمين طلاق مؤقت (ما يسمى بالغضب) . بمعنى انه اذا ما ارتكب الزوج خطأ ما فانه يبعد عن اداء واجباته الزوجية لفترة محددة حتى التكفير عن ذنبه وذلك اما بالصوم الطويل ، او بالتصدق على الفقراء او التبرع لمسجد محتاج .

ويستطيع الزوج ان يفسخ الزواج في اى وقت ولاى سبب وعليه ان يتحمل بعض الاعباء المالية المحددة لزوجته السابقة (ما يسمى بالنفقة) . ويمكن للزوجة ان تطلب الطلاق فى المحكمة من زوجها فى حالتين ودون ان تتحمل هى التزامات امام الزوج : اذا مالم يدفع المهر المتفق عليه اثناء عقد الزواج او فى حالة عدم تقديمه لامكانيات اعالته . وهناك طريقة اخرى لامكانية تحقيق الطلاق بمبادرة من الزوجة وهى رفض «بيت الطاعة» ، مجبرة زوجها على فسخ الزواج وديا .

وفى كل الحالات فان على المرأة المطلقة ان تترك له الاطفال . فالمرأة تعد ، كالعادة ، من اسرة او عشيرة اخرى ، والاطفال ملك للاب وهم ورثته . ولو خرج الاطفال مع امهم المطلقة لوجب تقسيم العقارات .

وحسب الشريعة فعلى المرأة المطلقة ان تهتم باطفالها ، اما اعالتهم ماديا فانها من التزامات الزوج . وتستمر رعاية الام لابنها حتى يستطيع ان يهتم هو بنفسه . وعادة ما يعتبر الفتى مستقلا فى السابعة من عمره ، وبعد ذلك تدخل تربيته فى اطار التزامات

الاب او اقرب الاقارب . وتظل الابنة تحت رعاية الام حتى تبلغ وبعد ذلك تنتقل للمعيشه مع الاب او اقرب الاقارب .

وحيثما تنتقل العروس الشابه للحياة فى منزل الزوج بعد الزواج تشعر بغربتها فى الفترة الاولى ، وقد لا يخلو شهر العسل احيانا من المشاكسات . وتفضل العروس الحفاظ على العلاقات مع اسرتها حتى يكون لها ملجأ تلجأ اليه فى حالة الطلاق او الخصام الجاد مع الزوج .

وتتشكل العلاقات بين الزوجة واقارب الزوج من عناصر متناقضة : الاحتكاك ، البحث عن التفاهم المتبادل ، التحدى والمنافسة . ويجب ان تخضع الزوجة للحماة ، وهى تتحول فى الشهور الاولى من الزواج من الابنة المحبوبة لوالديها الى كائن مضطهد . وتقوم الام بادارة شئون بيوت ابنائها المتزوجين حيث تخضع لها كل زوجات الابناء . ولا يمكن ان تجد الزوجة التى لا تحترم حماتها اى تفهم لدى الزوج . ومثل هذه العلاقات تضع الصعوبات امام الاسرة الشابه وللزوج نفسه اذ يصبح بين نارين : فهو لا يريد ان يظلم امه ولا يتشاجر مع زوجته . وكثيرا ما تفوز احدهن . لكن لا يحدث ذلك كثيرا . فاذا ما كان والدا الزوج كبار السن فانهما فى حاجة للمساعدة التى تقدمها الزوجة الشابه فى البيت . واذا كانت شخصيتها قوية فانها تخضع الزوج لامرتها .

واهم ما تعتمد عليه المرأة لتقوية مركزها فى الاسرة الكبيرة هو اطفالها ، او بمعنى ادق اولادها الصبيان . فكلما كان عددهم اكبر كلما زاد تأثيرها واحترام الاخرين لها . ويعتبر انجاب الاطفال هو معنى الحياة ومعنى الزواج . فالاب ينتظر خلفه ، اذ «لا

يموت من له «ورث» ، والاسرة الكبيرة في حاجة للمعاونين .
فالصية والشباب سيخرجون للحقل مع الوالدين وهم ايضا الذين
سيساعدونهم عند العجز . وحب واحترام الابناء لامهم سيعوضها
عن المعاناة والعذاب والاهانات التي عايشتها في شبابها . وستصبح
هي بنفسها حماة وستدير الاسرة .

والاطفال هم اساس الاسرة ومصدر السعادة الاسرية . ولذلك
فان المستقبل المظلم ينتظر المرأة التي ليس لها اطفال . ويطاردها
الفرع ويحرمها من الراحة حتى تفقد عقلها . ولا امل للمرأة
المطلقة بسبب عقمها في ان تجد زوجا جديدا اذا ما اصبح
سبب الطلاق معروفا . وتلجأ في هذه الحالة لمختلف الحيل
والطرق حتى لا تواجه هذه الكارثة . وتعد زيارة مقابر المشايخ
(خاصة مسجد السيد البدوي في طنطا) من الطرق العادية «لعلاج»
النساء المحرومات من الاطفال . فتصلي النساء على هذه المقابر
ويتركن احيانا المناديل او جزءا من الملابس — ما يسمى بالاثر ،
وينذرون النذور وينظفون المقابر ويكنسونها . كما تعزى احيانا
صفات سحرية للآثار المعمارية القديمة . فتطوف النساء المحرومات
من الاطفال سبع مرات حول احد الاهرامات على امل ان يساعدها
ذلك على الحمل . وحيانا يسرقن قطعاً حجرية صغيرة برسومات
من المقابر القديمة لان هذه المواد لها فعل الاحجية . ويعتقد
الكثيرون ان «البركة» منتشرة في كل ما هو قديم .

وترتبط كثير من العادات والخرافات بالحمل والانجاب فالمرأة
الحامل كثيرا ما تعلق صور الشخصيات المرموقة او الرجال الوسمين
على حائط غرفتها . فالكثيرات من المصريات يعتقدن انه اذا
ما نظرن تكرارا الى هذه الصور وتذكرن اياها فسيولد الاطفال
بنفس المستوى من الجمال . وعموما فهذه العادة توجد ليس

في مصر فقط . فغالبا ما تنظر المرأة الحامل باهتمام الى البنات الجميلات او للرجال الوسيمين . وحينما كنت طالبا في القاهرة كان لي صديق فارع وذو عينين زرقاوين وشعر اصفر ناعم كثيف . وكانت ترعجه النظرات الطويلة التي كانت النساء ترسلنها له ، هذا رغم ان العيون الزرقاء في اعتقاد المصريين — عيون حسودة . ويفضل المصريون انجاب الاولاد اكثر من البنات ، الا ان انجاب البنات لا يعتبر مأساة . اذ يحيطونهن بالرعاية والبرقة وتبادلهم الابنة مشاعر الحب . ولا تكفى مستوصفات الولادة في مصر ، خاصة في الريف . ولذلك فكثيرا ما يلجأ للدايات لدى الولادة . ولا يعرف معظمهن اى شيء عن قواعد الصحة الحديثة . لكن ولدت بهذا الشكل امهات البنات وجداتهن وجدات جداتهن .

وفي اليوم السابع بعد الولادة يأتون لغرفة الام بسلال من المواد الغذائية المختلفة . وفي هذا الوقت تقريبا تكحل الداية عيني المولود الصغير . وقد يكون لهذه العملية هدف صحى . ثم يهدى اصحاب البيت للداية سلة من الذرة والخبز والبلح والمكسرات واحيانا يضيفون اليها بعض النقود .

وغالبا ما يعطى الاب اسما للابن اما الام فهي التي تعطى الاسم للبنت . ويستخدم المصريون — المسلمون اسماء عربية بحتة او اسماء معربة من الانجيل او الكتاب المقدس . ولم تؤد موجة القومية العربية او التطرف الاسلامى الى تغيير ما فى هذا المجال .

وحينما بدأت عملية الأتركة فى تركيا بدأت تظهر هناك اسماء «تركية بحتة» مثل ايرتوغول ، عطيلة ، دوجان بدلا من الاسماء العربية . ومع ازدهار الجامعة الايرانية بدأوا يسمون الاطفال

هناك بـ كوروش وداريوش وغيرهما من الاسماء الايرانية . اما العرب فلم يحتاجوا لاي تغيير اذ كان لديهم اسماء عربية . صحيح انه يمكن مقابلة اسماء مثل فيليب وفرعون وانطوان لدى الاقباط في مصر لكن نادرا ما يستخدم المسلمون مثل هذه الاسماء . ولذلك فانه يمكن التأكيد بالكامل على الملاحظات العادلة ليومنا هذا والتي ابدتها المستشرق الانجليزي لاين بخصوص الاسماء : «كثيرا ما يسمون الاطفال على شرف الرسول (محمد ، احمد ، مصطفى) أو على شرف احد من اسرته (علي ، حسن ، حسين . . . الخ) او احد من انصاره (عمر ، عثمان ، عمرو . . . الخ) او على شرف احد الانبياء والصالحين القدامى (مثل ابراهيم اسحاق ، اسماعيل ، يعقوب ، موسى ، داود ، سليمان . . . الخ) . وحيانا يعطونهم اسماء مثل «عبدالله» ، «عبدالرحمن» ، «عبد القادر» . . . الخ . اما البنات فيسمونهن بأسماء زوجات او بنات الرسول المحبوبات ، او بأسماء احد افراد اسرته (مثل خديجة ، عائشة ، أمينة ، فاطمة ، زينب) او يسمونهن بأسماء محبوبة ، مبروكة ، نفيسة ، وحيانا ما يعطون البنات اسماء زهور او اى مادة طيبة اخرى .

ولا تتناقل اسماء الاشخاص من الاباء للابناء ، ولذلك فان الاسم الثانى باستمرار يعكس صفة القرابة مثل ابنى على ، ابن احمد . . . الخ .

وحيانا ما يكون الاسم الثانى لقبا : نور الدين ، الطويل . . . الخ او عادة ما يرتبط الاسم بالبلد التي يعيش فيها الشخص او بمكان اصل العائلة او بالمهنة مثل الرشيدى (نسبة الى مدينة رشيد) ، الصباغ (نسبة لمهنة الصباغ) ، التاجر (نسبة لمهنة التجارة) ومثل هذه الاسماء تتناقلها العائلة وتظل موجودة فى الاسرة باستمرار .

وليكن المرأ فى منأى عن الخداع والدهشة اذا ما رأى الاطفال القدرين ذوى الثياب الرثة بجانب امهم الناعمة المعتنية بنفسها . فالاطفال يحفظون من الحسد . وبما ان عين السوء هى عين الحاسد فلا بد من ابعاد الطفل عنها او خداعها . وهناك طريقة اخرى ضد الحسد وهى ان يلبس الاطفال من الذكور ملابس البنات . الا ان المصرين لا يكثرثون باخفاء الاطفال القدرين ذوى العيون المعصبة فى الاحياء الشعبية من الحسد ، فمنظرهم الخارجى يحدد فقرهم المدقع .

وينمو الاولاد حتى عمر ٦ — ٧ سنوات بين النساء . وتعتبر عملية ختان الاولاد فى هذه السن بمثابة اول خطوة للانتقال لمجتمع الرجولة . وبعد الختان يبدأ تعويد الولد على العمل ، فيساعد اباه فى الحقل ، كما يمكن ان يصطحبوه معهم لصلاة الجمعة . واذا كان قوى البنية يسمحون له بالصوم .

ولم يكن للاسلام فضل فى ادخال الختان ، اذ عرفه المصريون الفراعنة (فقد كانت رسومه على الجدران) كما عرفه اليهود القدامى ايضا . وقد تكون هناك وظيفة صحية لهذه العملية ثم تحولت لتأخذ شكل طقوس . ويستخدم الاقباط ايضا الختان ، الا ان هذا يحدث لديهم لدى تعميدهم الاطفال .

ويقوم الطبيب باجراء عملية الختان لاطفال العائلات الميسورة فى المدينة ، اما فى القرية فيقوم بها الحلاق . فيأتى قبل الختان بيوم او يومين ليحلق للطفل بطريقة معينة . وقبل هذا يقومون بغسل الطفل ويصبغون كفيه ورجليه بالحناء ثم يأتى الضيوف ويلصقون للطفل عملات معدنية صغيرة على وجهه يجمعها الحلاق لنفسه (وفى الاسر الميسورة الحال كانوا سابقا يضعون عملات من الذهب والفضة) .

وقبل الحفلة مباشرة يرتدى الطفل ملابس جديدة واحيانا ملابس نسائية واسعة من اجل خداع العيون الحسود ، ويجلسونه على حصان او حمار ويدورون به فى القرية فى صحبة ضجيج الموسيقى والاصدقاء . واذا ما جرى ختان طفلين معا ، وهو الامر المفضل ، لتخفيض النفقات ، فانهم يجلسون الطفلين معا على الحمار او الحصان . وفى المساء يقيم الوالدان وليمة للاصدقاء الذين يقدمون هدايا للطفل . واحيانا يقضى الطفل جزءا من يومه بالمسجد مع اترابه قبل ان تجرى له عملية الختان .

وعادة ما تحرم المرأة من تحقيق ذاتها اجتماعيا ، لكنها تحظى بمكانة محترمة فى الاسرة . وهى تعرف جيدا ان الرجل هو الكبير والمسئول فى البيت عن الاسرة . وهى تعرف ايضا انه يعولها . وحتى فى المدينة فان هناك عددا قليلا من النساء اللواتى يحصلن على راتب . والزوج الذى لا يستطيع ان ينفق على الاسرة يمكن ان يصبح هدفا للسخرية والاستفزاز . رغم ان هذا لا يحدث دائما . وتعيش كثيرات من النساء فى الضيق طوال حياتهن ، اعتمادا على الصدقة السعيدة او املا فى عالم الغيب . وعادة ما تخضع المرأة وتحمل عبأها حتى بعد ثورتها وكيلها العتاب لزوجها .

وكانت المرأة المصرية تبدو دائما ، فى نظر الاوربى ، اكثر اضطهادا من وضعها الحقيقى . وحينما يتجمع الرجال فى المنزل فلا تستطيع المرأة الظهور عليهم . الا ان ام الاسرة هى فقط التى تستطيع ، فى حالات خاصة ، ان تحيى الضيوف . وكلما كان مستوى معيشة العائلة ارفع كلما تقيدت وقلت حركة ام الاسرة بالمنزل . ومن المفروض عليها ان تصطحب لى

خروجها الى الشارع اما زوجها او سيدة اخرى مسنة . ويبدو هذا الوضع للاوربيين شكلا من اشكال الذل والاضطهاد الا ان كثيرات من المصريات يعتبرن ان مثل هذه الرقابة اللحوحة شكلا من اشكال الحب والاحترام لهن .

ويتغير الزمن وتتغير الاخلاق . اذ يجتمع الرجال والنساء معا ، وخاصة من الانثليجيسيا المتعلمة فى اوربا . ويمكن رؤية امرأة خلف عجلة قيادة السيارة ، او فى العمل فى اى هيئة حكومية . الا انه على المستوى الجماهيرى العام فان العادات متأصلة . فمعظم النساء يرين مكانهن فقط فى الاسرة .

فاذا ما كان لدى الرجل بيت فهى تصبح ربه ، ولا تطبق تدخل الرجل فى شئونها . وفى الممارسة تقوم الزوجة بتأثير كبير على زوجها . والوفاق فى الاسرة هو رغبة كل مصرى ومصرية . ويقول المثل بالتقريب من لديه زوجة جيدة فانه يذهب للبيت قبل العشاء . والمثل الاخر يرد : «من يحبها زوجها تشرق لها الشمس» . ونادرا ما يتعامل المصريون بجفاء مع زوجاتهم ، رغم ان الأزواج المستبدين يحاولون ايجاد تبريرات لهم فى توصيات القرآن حول كيفية التعامل مع الزوجات غير المطيعات . الا ان رأى العام ضد الزوج المستبد . فالحقوق الكبيرة تفرض مسؤوليات كبيرة . فالزوجة تطالب الزوج بايلاء اهتمام بها ، وفى الاسر الميسورة بالهدايا والملابس . واذا ما غضبت فانها تذهب الى منزل ابيها او اخيها . ويتحدث المثل باحترام عن النساء اللواتى فى مقدورهن الحفاظ على كرامتهن امام الرجال . واذا رفض الزوج الطلاق فان عليه ايجاد طريقة اخرى لارضاء زوجته .

وتسمح الشريعة الاسلامية للمسلم بالزواج من اربع زوجات .
الا ان زواج المرة الواحدة هو الغالب فى مصر . ونادرا ما نجد
من لديه زوجتين او اكثر . وتعد الزوجة الثانية تهديدا
لسعادة ولكرامة الزوجة الاولى . وتكثر بينهما الاقاول والتنافس
والكراهية . ويمكن ان تتشكل علاقات محتملة الى حد ما
بين الزوجة التى ليس لديها اطفال والزوجة الجديدة التى
اصبحت تلد الاطفال . ويتزوج المقطرون من زوجتين . ويفضل
هؤلاء ان يكون لهم بيتان ويعيشون فى كل منهما بالدور .

وكان لدى احد المعارف من المصريين وهو مهندس ميسور
الحال لكنه طائش اذ تزوج للمرة الثانية دون ان يبلغ الزوجة
الاولى بما نوى عليه وايضا لم يبلغ زوجته الجديدة بانه متزوج ،
واصبح بين نارين . فقرر الطلاق من زوجته الثانية بعد ان دفع
مؤخر الصداق وبعد ذلك تركته زوجته الاولى . وانهارت بذلك
حياته المادية والاسرية .

ولا تعد علاقة الرجل بالمرأة بالامر السهل اطلاقا ،
اذ ينتاب هذه العلاقات الشك وعدم الثقة والحذر من
الطرفين .

ويعد الزوج المصرى غيرا جدا ، وهو واثق من ضرورة مراقبة
الزوجة والا فانها على استعداد للخيانة الزوجية . «لا تؤمن للمرأة
حتى اذا كانت مصلية ولا للشمس وقت المغربة» . الا يبرهن
هذا المثال على صحة ملاحظات لاين منذ ١٥٠ عاما ؟ فقد
كتب يقول ان «النساء المصريات اكثر انحلالا من نساء اى
دولة متحضرة . ويعترف بهذا الرجال المصريون ويتشدقون به
حتى فى احاديثهم مع الاجانب . ومن الطبيعى ان هناك استثناء
من هذه القاعدة العامة . . . فتعتبر المصريات ماكرات وفى

استطاعتهن الاحتيال على اكثر الرجال حذرا ودهاء . وبالرغم من الدرجة العالية من المغامرة فان دسائسهن نادرا ما تفشل . لقد تسنى لنا اكثر من مرة ان نتأكد من عدالة وانية قيمة ملاحظات لاين . لكن ملاحظته هذه لا يمكن قبولها دون مناقشة حتى فى عصره . فاذا ما كان الحديث يدور عن النساء فى الحريم فان سلوكهن مفهوم ، ومن وجهة نظر الاوربى سواء فى القرن التاسع عشر او نهاية القرن العشرين فان هذا السلوك يعد مبررا . فالمشاعر النسائية لا يمكن ان يرضيها دور الزوجة الثانية او الثالثة او الرابعة . وقد تحول الحريم لدى الرجال الميسورين الى تجمعات ليس فقط لنساء ماكرات او ذوات رغبات حسية بل ايضا الى تجمع للنساء المحرومات العصبيات ، الثرثرات سليات اللسان . وكانت هذه مأساتهن .

ولكننا نقابل فى عصرنا الحالى مشاكل مشابهة . وكلما زادت القيود والممنوعات زادت الرغبة الدفينة لخرقها .

ويؤدى التنظيم الصارم للسلوك والمعيشة والحياة الاسرية الى ظهور مشاعر الاحتجاج لدى المرأة . فالمرأة التى تزوجت دون ارادتها وتكره زوجها رغم اعراضها عن الطلاق لاسباب معنوية واجتماعية ليست معيارا لكل النساء من نفس النوع ، اذ يمكن ان تسعى مثلتها لخيانة الحياة الزوجية .

وكتب لاين «ان كل المصريين يتميزون بعدم الكلفة فى الحديث بصرف النظر عن الجنس والوضع الاجتماعى . وينطبق هذا حتى على النساء المحترمات ، ومن ذوات الوضع الاجتماعى المرموق باستثناء قلة قليلة جدا يعد كلامها غليظا ولكن محتملا» . وبعد مائة عام ويعد ان قضت الباحثة الاجتماعية الانجليزية واينفرد بلكمان عدة اعوام فى صعيد مصر وصلت الى نفس

الاستنتاج : « اذا ما وضعنا في اعتبارنا جهل الفلاحين فانه من غير المدهش ادراك ضيق افق احاديثهم . . . فعادة ما تتناول احاديثهم مواضيع متعلقة بقضايا جنسية ويؤدى هذا الى تأثير انحطاطى عليهم وعلى اطفالهم ، اذ انهم لا يتورعون عن ذكر كل التفاصيل امام الاطفال ، الذين يكررون ، طبيعيا ، احاديث الكبار . وتعتبر النساء في هذه الاحاديث بشكل افصح من الرجال . اما البنات الموجودات مع امهاتهن فيسمعن الاحاديث حول دقائق الامور الجنسية» .

وتؤيد ملاحظات بلكمان ملاحظاتي الخاصة والاحاديث التي سمعتها وايضا شهادات كثير من الكتاب والباحثين الاجتماعيين المعاصرين . لكن هل من العدالة ذلك الشجب المحافظ القاطع لهذه الاخلاق سواء في القرن الماضى او الحاضر ؟ الا توجد في ذلك الشجب عناصر النفاق ؟ قد يكون الحديث امام الاطفال عن المسائل الجنسية هو شكل فطرى شعبى من اشكال التربية الجنسية ، والا يعترف الان معظم علماء النفس والاجتماع بضرورة المناقشة المفتوحة والصريحة للقضايا الجنسية ؟ ولذلك فلنحترم اذن عادات واخلاق الشعوب الاخرى بصرف النظر عن القبول بها او رفضها .

ويستعى انتباهك في القاهرة ان نظرة البنت او المرأة تتحدث بصراحة عن مشاعرها تجاه الرجل ، خاصة حينما يختلط الحابل بالنابل في ازحام المدينة . فالبنت الروسية او الاوربية تنظر الى الرجل بشكل غير ملحوظ . فهل يعنى ذلك ان المصريات يتمتعن بحرية اكبر من الاوربيات ؟ — بالعكس تماما . فيفسر الكاتب الانجليزى جيمس اولدريج نظرات المصريات ، تفسيرا اعتبره مقنعا بالتالى : « فقد نظرت النساء المصريات طوال قرون وقرون

عبر فتحة البرقع (الحجاب) للرجال. او من شيش الشبايك
فى البيت ولم تكن هناك حاجة لهن لاختفاء مشاعرهن ، اذ
لم ير احد وجوههن . اما الان فعمليا اختفى البرقع (الحجاب)
وانتهى عصر امتلاك الحريم ، لكن نظرات المصريات اللواتى
يعشن فى المدينة لا تخلو من تعبيرات الحريم المعتزلات فى
السابق .

وتوحى الينا كلمة الحجاب بالقرون الوسطى الاسلامية والحاضرة ،
التي استمرت حتى ايامنا هذه . ولم يكن الحجاب اختراعا
اسلاميا . ويختلف حتى علماء الاسلام حول تفسير كلمة «حجاب» :
فهل هو— غطاء ، ستارة ، حاجز ؟

واعتبر علماء الدين المسلمون ان الحجاب صفة من صفات
الاسلام نظرا لان الزوجة هى ملكية خاصة للزوج ولا يجب ان
ينظر احد لملكية الغير . ويمكن لوجه المرأة ان يهيج مشاعر
الرجل . وقد تقبل النبلاء العرب اول حجاب ثم بدأ التجار والمهنيون
فى تقليده . ثم ثبت الحجاب فى النمط المعيشى لسكان
المدن .

ولم يصل الحجاب للعرب مباشرة ولم ينتشر بسرعة . فقد
توارثوه عن الفرس الزرادشتيين بعد غزو ايران فى منتصف القرن
السابع الميلادى . وفى ديانة ايران ما قبل الاسلامية — المجوسية —
تلعب النار الدور الاساسى . واعتبرت المرأة لديهم —
حامية الهدوء المنزلى — كائنا شريرا ، ومن اجل الا تؤذى «النار
المقدسة» بانفاسها ، كان يجب عليها ان تغطى انفها وفمها
برباط .

ويعتبر علماء التاريخ ان حمل المرأة للحجاب هو احد
المظاهر المعيشية لحياة الفرس مرحلة المجوسية . ويمكن ان

يكون الايرانيون قد توارثوا عادة حمل الحجاب من الاشوريين
القدماء .

واذا كان العرب قد توارثوا الحجاب من الشرق فان
اعتزال النساء جاء اليهم من جيرانهم الشماليين — الغربيين —
البيزنطيين ، الذين توارثوه هم من اليونانيين القدماء .
فلم يسمح في الاسر البيزنطية المرموقة للبنات ان يختلطن
مع الاولاد في مراحل الطفولة . ولم يعلموهن في المدارس بل
في البيوت وعلى الاعمال اليدوية واعداد الطعام والاهتمام بزوج
المستقبل . وهكذا فقد فضلت العادات البيزنطية الابقاء على
النساء بين اربعة جدران في البداية في منزل الاب ثم في منزل
الزوج .

وقد اعطى المسلمون طابعا صارما للحجاب والاعتزال بعد
ان عملوا به في منتصف القرن السابع . فتقول شايدولينا : «فقد
ادى حمل الحجاب واعتزال المرأة الى ايجاد صعوبات في تعامل
المرأة مع الاخرين . كما ادى الاعتزال على مدى قرون طويلة
بالمرأة لان تصبح كائنا مقيدا محروما من اى اهتمام بما حولها
من حياة ، وبما كان يجرى وراء جدران بيتها . . . وكان الاعتزال
واستخدام الحجاب دليلا على التخلف الثقافى للمرأة المسلمة
مما جعلها حامية للخرافات والوساوس المختلفة . وعلى مدى قرون
طويلة فقد ربوا فيها الخضوع لمصيرها ، كما اصبحت قيمتها
الاجتماعية الناقصة مطلبا» .

ولم يعرف البدو ، بما فى ذلك المصريون ، البرقع ابدا
ولم يلبسوه . فقد تطلب نمط المعيشة المترحل حرية النقل
والتنقل . فلدى ظهور العواصف الترابية كان الرجال والنساء يلقون
وجوههم . ولم يكن اعتزال المرأة ببساطة ممكنا فى ظروف الرعى

والتنقل . ورغم انه لم تكن هناك مساواة بين الجنسين الا ان البدويات كن يتصرفن بحرية أكثر من الفلاحات او من النساء سكان الحضر . ولم تلبس النساء فى القرية المصرية البرقع كجزء اساسى من الادوات النسائية . فقد تطلب العمل وتطلبت المعيشة ملابس فضفاضة .

ونادرا ما تقابل فى الوقت الحالى حجابا فى مصر . فالملابس الاوروبية انتشرت بازدياد فى القاهرة والاسكندرية ومدن منطقة قناة السويس . ورغم متابعة المصريات ، كأخواتهن فى اوروبا ، للموضة الا ان المصريات دائما كن يتذكرن التقاليد . فالجونلة القصيرة التى كانت موضة نهاية الستينات — بداية السبعينات لم تحز على انتشار واسع . وفى بداية الخمسينات ناقش البرلمان المصرى قضية السماح للمصريات من عدمه بالظهور على البلاجات بالمايوهات . وفى الثمانينات لا ترى تقريبا المصريات على البلاجات . وفى المسابح المغطاة فقط بعيدا عن اعين الغيورين على العقيدة يمكن ان ترى المصريات يسبحن معا مع الرجال . وتملى الموضة الاسلامية الان على المرأة ملابس تقليدية محددة . فالمسلّمات الخيرات يجب ان يظهرن على الناس فقط بوجه وكفين مكشوفة والباقي لا بد ان يكون مستورا .

وقد اصدرت لجنة الفتاوى المكونة من علماء الاسلام قرارا : «تؤكد اللجنة ان الكشف عن الوجه والكفين المزينة بمساحيق التجميل هو احدى الطرق لعرض الجمال للجميع ، الامر الذى تحرمه الشريعة وتعاقب عليه بصرامة . ففتح الوجه والكفين يسمح فى شكلها الطبيعى كما خلقها الله دون اية السوان . . . وبفضل هذه الاخلاق يمكن الحفاظ على الاساس الخلقى للاسرة» . ولا ينفذ الجميع هذه المطالب لكن النساء

اللواتي يرتدين الملابس التقليدية يزداد عددهن باطراد فى المدينة .

وتبدو القاهرة المطوقة بالجسور والمصعوقة بضجيج الموتورات وغازات السيارات العادمة ، والمستكينة لاجهزة التليفزيون فى المساء—تبدو وكأنها بعيدة تماما ليس فقط عن القرون الوسطى وحتى عن القرن الماضى . الا ان السيكولوجية والعقيدة والوساوس الاتية من الماضى ما زالت قوية الان تجاه المرأة والاسرة اكثر مما فى اى شىء آخر .

ومازالت الشريعة التى تشكلت فى القرون الاسلامية الاولى هى منظم الحياة الاسرية للمصريين المسلمين ، ومازالت هى ايضا واحدة من اكثر القوانين الاسلامية اعدادا . وسواء كان حجابا ام ملابس تقليدية فكلها من صفات اوضاع المرأة فى الاسرة والمجتمع . ويفهم تقليديا من كلمة المجتمع سواء كان فى مصر او الدول الاسلامية الاخرى مجتمع الرجال ، الذين يعتبر معظمهم ان مكان المرأة فى الاسرة وفى المنزل . الم يخلق الله آدم ثم حواء منه ؟ ولم توجد المرأة لزينه الحياة الدنيا للرجال لحين دخول الجنة والتمتع بالحوريات ؟

وقد جاء بالقرآن ان المرأة فى كل الظروف المتساوية والملائمة تحصل على نصف حظ الرجل من الارث «وللذكر مثل حظ الانثيين» رغم ان العديد من الايات اكدت على عدم صحة حرمان المرأة من حقوقها وعن حربتها فى التصرف فى ممتلكاتها . وعادة ما تحاكم النساء بسبب قضايا اسرية ، علما بان شهادة الرجل تساوى شهادة امرأتين . ويقول القرآن : «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم» .

ولتذكر انه قبل ظهور الاسلام ، حينما كانت المرأة فى الجزيرة العربية تشارك بشكل ما فى الحياة السياسية-الاجتماعية ، وكانت هناك نساء كاهنات - متنبآت وآلهة من النساء . فحينما عاد الرسول عام ٦٣٠ الى مكة حصل على البيعة فى اجتماع عام اولاً من الرجال ثم من النساء . لكن مثلما ذكر الاكاديمى بارتولد فان «قسما من نساء مكة ظل تقريبا هو المثل الوحيد فى تاريخ الاسلام الدال على المشاركة الجماعية للمرأة فى الحياة الاجتماعية» . وقد قيد الاسلام حوالى ١٣٠٠ عام من مشاركة المرأة فى الحياة الاجتماعية .

ولا يقصد بذلك الحياة السياسية والاقتصادية فقط بل وايضا اللهو الاجتماعى . فحينما ننتقل بلفظ «رقص» فاننا نربطه بشكل محدد باللهو الذى يشارك فيه ممثلو الجنسين . وطبعى انه توجد رقصات للرجال واخرى منفصلة للنساء .

وهناك رقصات للنساء ورقصات للرجال فى الافراح الشعبية . الا ان محتواها يجمع بين الرقصات الاوروبية - من الكورال الروسى حتى الترنيتيلا الايطالية ، ناهيك عن الحديث عن الرقصات ذات الايقاعات الحديثة ، التى تفترض اداء جماعيسا . ويختلف الامر فى مصر عما هو عليه فى البلدان العربية الاخرى .

وقد حاول مصطفى كمال اتاتورك مؤسس تركيا الحديثة بنزعه الطربوش من على رؤوس الاتراك وادخاله النظم الاوروبية ان يعوّد الالذواق على حفلات الرقص . فقد نظم هذه الحفلات فى الذكرى السنوية الاولى للجمهورية . وكان معظم الحاضرين من الرجال هم من ضباط الجيش . وقد لاحظ الرئيس انهم لم يحسموا امرهم فى دعوة النساء . وقد رفضت النساء الرقص خجلا .

فأوقف الرئيس الرقص وصاح «اصدقائي اننى لا اتخيل ان اى امرأة فى العالم تستطيع رفض الرقص مع ضابط تركى — للامام ، ادعوا النساء !» وقام بنفسه بضرب المثل للاخرين .

ومثل هذه الحالة غير ممكنة فى مصر الان . ففى رأى معظم المصريين (بما فى ذلك احصاءات رأى العام التى قام بها الطلاب والطالبات) فان الرقص الحديث هو فجر وانحلال . والرقص فى مفهوم المصريين مرتبط بما تؤديه الراقصة ببطنها .

ومن المثير ان «رقص البطن» يفهم باشكال مختلفة من قبل الاوربيين . وقد قيمه السوفيت المعاصرون بتقييمات متناقضة . فالبعض يعتبرونه «حركات جسم فاحشة» «خاليا من الفن» «ابتدالا» الغرض منه «ارضاء شهوات الاغنياء» . ويتوافق هذا رأى مع رأى روسى اخر ، فىرى أ . نوروف الذى كتب منذ ١٥٠ عام : «لا يمكن النظر دون اسف لطبقة الضحايا التعيسة — من الفجر المعروفين بالغوازي او الراقصات . . . فهن غارقات فى الخيال الملتهب ومتعلمات اغراء المشاعر منذ الطفولة ؛ ويدعون الى جميع حفلات الاغنياء ، ويقومون بتقديم رقصات مغرية امام المضجعين الشارين وعلى انغام الموسيقى مما يؤدى كثيرا الى النشوة الروحية للمتفرجين ويجعلهم ينعمون بالهدايا الثمينة» .

واعتبر البعض الاخر ان «رقص البطن» هو «فن رفيع» و«كل حركة فيه مرتبة ومعدة بدقة متناهية» . وكتبوا ايضا «ان هذا الرقص الشعبى جاء الينا عبر آلاف السنين وسيظل مادة للتحسين فى المستقبل» .

ولا بد من الاشارة الى ان «رقص البطن» منتشر فى بلدان اخرى رغم ان المصريات يؤدينه افضل من اية راقصات اخريات .

واضح صوتى لمن يمتدحون هذا الرقص . فهو فن حقيقى ،
وفى نهاية المطاف فهذا شأن الشعب الذى اسس هذا الرقص
وحافظ عليه ان يحدد مدى قدر النزوات الشهوانية الموجودة
فيه . ايستطيع ان ينكر احد ان عنصر النزوات بقدر ليس قليلا
موجود فى اى نوع من انواع الرقص الايقاعى الحديث . واود
ايضا التذكير برأى كثير من المختصين فى مجال الفن بان
الرقصة الاسبانية الساخنة فلامينكو قد اتت من «رقص البطن»
بالذات .

الا ان حديثنا سيدور الآن عن امر آخر : عن الدور الاجتماعى
للرقص والذى تنعكس فيه الاختلافات العميقة فى اوضاع النساء
الاوربيات والنساء العربيات . ولنعد الى بداية القرن الماضى حينما
اصطدمت الحضارتان الاوربية والعربية-العثمانية .
كان الامام والمرشد الدينى للمجموعة الاولى من المصريين
الذين ارسلهم محمد علي للدراسة فى فرنسا هو رفاة الطهطاوى .
ولم ينغلق رفاة الطهطاوى فى هدوء الجهل وفى عقيدة المسلم
وتفوقه على بقية «غير المؤمنين» . فقد درس اللغة الفرنسية واصبح
من اعظم المثقفين المصريين فى القرن التاسع عشر وذلك بفضل
عقله المرن المتحرر من الجمود وبفضل سعة اطلاعه ايضا .
ويعد احد كتبه «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» دعوة للتحديث .
وهو اول من اولى الاهتمام بضرورة تغيير الدور الاجتماعى للمرأة .
وواضح ان الرقص الاوربى قد بهره . فقد رأى كيف ان اكثر
من فارس يدعون امرأة واحدة للرقص معهم ، وتعجب لعدم
غيرة الأزواج عليهن وتعجب ايضا لان الامهات لا يمنعن
بناتهن من الرقص رغم ان الراقص يحتضن وسط بنتها باحدى
يديه ويسند يدها بيده الاخرى . وقد فسر الطهطاوى سلوك الفرنسيات

بالرغبة الجامحة لانحناء الرجل لها ، غير مدرك انه فى البلد الكاثوليكي يفسد المرافق الدائم فى الرقص سمعة المرأة المتزوجة ، او يعنى ذلك بشكل علنى اهتمامه بالفتاة وتلميحه بانه ينوى الزواج منها .

ولم يكتف المصرى الذكى بملاحظاته بل استخلص نتيجة مفادها ان لدى الفرنسيين شعورا بالغيرة لكن هناك ايضا ثقة بين الزوج والزوجة ، اما فى مصر فانهم يشكون دائما فى اخلاص المرأة . وحينما تذكر الطهطاوى العادات المصرية المتعلقة بوقوف المرأة وقت جلوس الرجل ذكر ان فى فرنسا يتنازلون عن المكان للمرأة .

وقد رافق الفرنسيين اثناء حملة نابليون على مصر كثير من الفرنسيات . وقد تحير المصريون لدور هؤلاء النساء فى مجتمع الرجال . وقد تعامل الجنرال مينو ، الذى اسلم وتزوج من مصرية ، معها كما يتعامل الفرنسيون مع نساءهم مادا يده لها اثناء الدخول لغرفة الطعام ، ومحركا لها الكرسى تهيئة للجلوس ومقدما لها الطعام . واذا ما سقط منديلها ، هرع لالتقاطه لها . وحينما رأت المصريات الاخريات ذلك توجهن ، كما يقال ، لنابليون لاجبار ازواجهن للاهتمام بهن كذلك . فهل حدث فعلا «تمرد الحریم» هذا ام انها نكتة تاريخية ؟ من الصعب الان البت فى ذلك .

ولكنه حدث عرضى يمكن حدوثه . فبعد الاحتكاك بالفرنسيين واجه المصريون مسألة معضلة للآن : ما الذى يمكن تقليده من الغرب ؟ فقد اعترض على تحرير المرأة نهائيا واحد من اواخر عظماء المؤرخين المصريين عبد الرحمن الجبرتي وهو الذى شهد الحملة الفرنسية والذى اعترف بكثير من ايجابيات الحضارة

الفرنسية . ومن المثير ان معظم المصريات كن ضد هذا التحرر .
فقد طالبت المتعلمات منهن فقط ببعض صفات وعلامات
الاهتمام الرجالي بهن لا اكثر . اما فكرة التحرر فقد قبلتها بشكل
سطحي بحت . وبسعيهن لتقبل اشكال السلوك الخارجية عبرن
عن عدم رغبتهن في تحمل المسؤوليات التي تتحملها النساء
الاوربيات . وكان هذا في الوقت الذي قد بدأوا فقط يتحدثون
فيه عن المساواة الحقيقية بين الجنسين في اوربا .

وقد تطلب الامر عشرات السنين لمصر حتى يتغير وضع المرأة
المصرية على الاقل لتلك الفئة منهن التي تعلمت في الغرب :
فقد خطا المجتمع خطوة للامام ثم خطوتين للخلف ثم خطوة
اخرى للامام .

وطالب الطهطاوى بحسم بتعليم المرأة وبمشاركتها في العمل
خارج الاسرة . وفي كتابه الذي صدر عام ١٨٧٨ تحت عنوان
«المرشد الامين للبنات والبنين» طالب الطهطاوى بادخال التعليم
المختلط للاولاد والبنات . فقد اعتبر ان تعليم البنات القراءة
والكتابة والحساب والقواعد يساعدهن على رفع مستوهن الثقافي
والذهني .

وقد تلقف الكاتب المتحمس قاسم امين راية رفاة الطهطاوى .
ويعتبر قاسم امين اشهر مدافع في العالم العربى عن حقوق
وتحرير المرأة . وقد عاش وابدع في بداية قرنا الحالى ، وما
زالت كتبه تصدر للان وتستخدم كمراجع وكماادة للمناقشة والحوار .
وقد تحول اسمه الى لعنة للمحافظين والتقليديين سواء في
بداية القرن او الان . وقد انحصرت مطالبه في منع تعدد الزوجات
وتقييد حقوق الزوج في الطلاق ، وتقديم التعليم للمرأة وضمآن
حقها في العمل والقضاء على البرقع .

وفي رأى قاسم امين ان اعتزال المرأة وحملها لغطاء الوجه هو «رمز الحماقة والضعف وعلامة للاهانة» . لكن كان من الصعب على الرجل ان يعترف بحق المرأة فى المساواة وهى التى كانت شيئاً يملكه بالامس . ولقد كان الايمان بان الله اعطى الرجل العقل وفعل الخير واعطى المرأة الضعف فى العقل والشهوة الطبيعية بمثابة تبرير لانانية الرجل . وافترض قاسم امين ان «حرية النساء ستقوى من الصفات الخلقية لهن وستطور فيهن الاحترام لانفسهن وستدفع الرجال لاحترامهن» .

وفي دفاعه عن نفسه امام المحافظين حاول قاسم امين اسناد مقولاته وحججه للتقاليد الدينية والجمود العقائدى . فقد حدد موقفه من مسألة المرأة ليس بكونه متناقضا مع الدين بل بالعكس كموقف مستند للدين . اذ أكد ان الاسلام غير مذنب فى الوضع المتدننى للمرأة . وقد اصبحت هذه الفكرة هى الغالبة فى الفكر العربى كله وللتقليديين وللعصرين على السواء .

وقد وجد المفكرون العرب حجة مريحة لتبرير مواقفهم من مسألة تحرير المرأة دون ان يتخلوا عن الاسلام . فقد اصبحوا يؤكدون ويتحدثون عن ذلك اليوم كما لو ان الحريم والبرقع هى امور لم يخترعها العرب ولا الاسلام بل الاتراك . وبمعارضتهم لذلك يعود العرب ببساطة لجذورهم الاصلية وينقون التقاليد من التزويرات المنقولة لها .

ولم ينظر الى الغرب فى مصر المفكرون الليبراليون فقط بل وايضا المصلحون الدينيون . فاذا كان الاولون مساندين للتناول الواسع للنمط الاوروبى وتحرير المرأة ، فعلاقة المصلحين الدينيين بقضية مساواة المرأة بالرجل كانت متحفظة . ويرى مؤسس

الإصلاحية الإسلامية جمال الدين الأفغاني ان «المرأة والرجل خلقا غير متساويين وقت انشاء الخليقة ومن يسعى لتحقيق المساواة بينهما يعمل ضد ارادة الله» .

وقد ايد خليفته المصرى المفكر الدينى الشيخ محمد عبده فكرة تحرير المرأة بحذر ، وطالب بتوفير الفرصة للمرأة لان تتعلم كما استنكر تعدد الزوجات . وكتب ان «كل زوجة تستولى على حقوق اطفال الزوجات الاخريات ، اذ يقل حب الزوجات للزوج وتنتهر الاسرة ، ان الميل للزوج من عدة نساء يؤدى لارضاء نزوات دنيوية وللحصول على متعة مؤقتة ، الامر الذى يؤدى بدوره الى الرذيلة ويتناقض مع الحقوق الاسلامية» . ان تعدد الزوجات يؤدى الى «الافلاس والى انهيار الاسرة وبالتالي انهيار الامة» .

وقد دفع التطور الاقتصادى-الاجتماعى العام للبلاد قضية المرأة فى مصر للامام ، رغم انه لم يحلها وذلك خلافا لاحاديث الصالونات او احاديث المجالات ذات التوزيع التافه . ودفعت الحرب العالمية الاولى ونقص الرجال الذين جندوا للخدمة فى الجيش الانجليزى الى قبول عشرات الآلاف من النساء فى العمل ، وخاصة فى مصانع الغزل والنسيج . وظهرت اولى الطالبات فى الجامعات . وحقق تعليم المرأة النجاح خطوة بعد خطوة .

وقد تضمن الدستور اثناء حكم عبدالناصر مواد تنص على المساواة فى الحقوق بين كل مواطنى مصر . واعطيت المرأة حق التصويت .

واكد ميثاق العمل الوطنى الصادر عن المؤتمر القومى لقوى الشعب العاملة عام ١٩٦٢ مرة اخرى المساواة القانونية والعملية

للرأة مع الرجل فى جمىع مآلال الءاة الساسة والاقتصادىة-
الاجتماعىة . فقد آاء بالمىءاق : «ان المرأة لابلء ان آساوى
بالرجل ولابلء ان آسقط بقايا الاآلال الءى آعوق آركآها الآرة
آآى آسآطىع ان آشارك بعمق واىآابىة فى صنع الءاة» .
اما المسافة بىن هذا الاعلان وآآقىقه عملىا فآقـدر
بالسنىن . فى عام ١٩٥٦ كان هناك آوالى آلاثة آالف امرأة
بىن الناآبىن ، وفى عام ١٩٦٤ آوالى ١٧ ألف امرأة من سبعة
ملاىىن ناآب . وآآى الان فى الثمانىنات بىلآ عءء النساء
من بىن الناآبىن آلة آلىة رآم ان هناك عءءا من النساء بآآآعن
بعضوىة البرلمان . ومآزال الرجل بىسآطىع شطب اسم المرأة من
آائمة الانتخابات .

وما زالت آضىة المرأة فى وآآنا آآآرك طبقا لمبءأ آطوة
للامام وآطوتىن للآلف ثم اآرى للامام . فباعلان الساءات
الشرىعة مصءرا للقانون آضى على آطور الآقوق الاسرىة آآاه
آآرىر المرأة . ولا آساوم الاصولىة الاسلامىة فى مسألة المرأة .
فمكانة المرأة كما برون بآءءها القرآن والسنة وآلاف ذلك
فمكر وءهآء من الغرب الفاسء او من الملحءىن . وبعء هذا
ابضا رأى معظم الرجال آقربىا ، كما آساظر هذا رأى الآآىرات
من النساء .

وقء عوءء آبعىة السنواآ الطوىلة المرأة على الاعآآاء بانها
لا آسآطىع فعلا العىش بشكل آآر ، ولءا فهن بفضلن آآمىل
الرجال كل الاعباء والمشاكل الآقىقىة ، آاركات لانفسهن صوآا
فى الشئون الاسرىة فقط . وكتب شىآ الازهر السابق عبء الآلىم
مآموء فى آآابه «اوربا والاسلام» والذى صدر عام ١٩٧٢ :
«اننا نآشى من ان اصآءام المرأة الشرىقىة بالآاة الآءىة سىؤءى

لفرعها من رؤية النساء الغريبات الساعيات للحياة فـسى تنافس مع الرجال ، ويتحملن العديد من الكـوارث والمعاناة» .

ويرفض مؤيدو تحرير المرأة هذه المقولات بحسم . ويؤدى الطلب على النساء كأيد عاملة الى تغيير وجهات النظر على مكانة ودور المرأة فى المجتمع . وتزيد الاستقلالية المادية من وضع المرأة فى الاسرة . وتتناسق هببة العلم مع امكانية استقلالية الحصول على الاجر ، الامر الذى يعترف به حتى المحافظون .

وحيثما تعمل النساء بيدأن فى التفكير فى تخطيط الاسرة ، الا ان هذه الاسر قليلة العدد . ففي الاسرة التقليدية المتخذة اتجاها نحو انجاب الاطفال لا تجد النداءات بتحديد النسل فيها اذانا صاغية . ويصيب هذا الصم الاغلبية الساحقة فى مصر .

ويزداد عدد السكان فى مصر سنويا بحوالى مليون نسمة فى الوقت الذى تثن فيه دلنا ووادى النيل من كثافة السكان . وتقوم وتاثر نمو السكان العالية بضغط هائل على قطاع الخدمات الاجتماعية : المدارس ، نظام رعاية الصحة ، مصادر المواد الغذائية كما تضع العقبات على طريق التقدم الاجتماعى والاقتصادى وتجعل الفقراء اكثر فقرا خاصة فى ظروف طريق التطور الذى سلكته مصر فى السبعينات والثمانينات . وكتبت الباحثة السوفيتية شايدولينا : «يلاحظ فى جميع انحاء البلاد العربية انتشار الاخلاق التقليدية القديمة التى لا تعترف بالعزوية وبصغر عدد افراد الاسرة او الاجهاض واستخدام وسائل منع الحمل . كما لا يعترف بحق المرأة فى ان تقرر بنفسها عدد افراد الاسرة . اذ عليها ان تنجب بمجرد بلوغها جنسيا وحتى ينتهى عمر الخصوبة . وللرجل فقط الحق فى تنظيم الحياة الاسرية» . وتضيف شايدولينا

ان «النظام الابوى للاسرة يجعلها قوية ومثمرة أكثر . وتمتع هذه الاسرة بقطرة الحفاظ على الذات والتي تدفعها لان تستخدم اقصى ما يوجد لدى اعضائها من امكانيات جسمانية . وهى توفر لنفسها الضمان ضد خطر الفناء ، حيث ترى الحكمة الشعبية ان تعدد الاطفال فى الاسرة هو ثروة من عند الله — فهل يمكن ان تكون الثروة عبثا ؟ وألم يعط الله لكل مخلوق نصيبه فى هذه الحياة ؟»

لكن ضرورة ادخال تخطيط الاسرة وتخفيض النمو السكانى واضحة من اجل التقدم الاقتصادى-الاجتماعى لدرجة ان المعاصرين من علماء الاسلام يبدأون فى البحث عن تفسيرات قرآنية لتبريرها . وها هى بعض الامثلة لما يقولون : «الاطفال هم هبة الهية قيمة ، لكن فقط اذا ما انجبوا برغبتنا وبالعدد الذى يناسب امكانياتنا . . . فالمضاعفة اللامحدودة للناس تؤدى فقط للفقر وللقتضاء على الجنس البشرى . . .» ثم : «يسمح الاسلام بتنظيم الانجاب فى الاسرة وليس فى ذلك اثم» .

ولم تصبح آراء المفكرين التقدميين المعاصرين والممثلين المستترين لرجال الدين الاسلامى آراء عامة . ففي نظر الاغلبية ان خصوبة المرأة هى الصفة الاولى والاساسية لها . ومازال النمو السريع والحاد لسكان مصر والدول العربية الاخرى مستمرا .

وفى قضية الاسرة ، مثلها مثل القضايا الاخرى الكثيرة ، تشابكت فى عقدة كبيرة عدة عناصر : الاخلاص للتقاليد وتحرير المرأة ، القواعد الدينية والمطالب الاجتماعية والاقتصادية الحادة لعصرنا ، الخرافات والعقل . ولم تعن كثيرا تلك التوصيات والنماذج والقوالب الجاهزة التى جلبت من الخارج لارض تراكمت

عليها التقاليد عبر آلاف السنين وحيث اصبح الاستقرار والتكرار
مظهرا من مظاهر الطابع القومى . ولن يستطيع احد سوى المصريين
بانفسهم ايجاد الحل المصرى لهذه العقدة . وهى واحدة من
العديد التى تمثل شبكة تلف خيوطها الشعب المصرى . الا ان الحل
المصرى المعاصر غير ممكن فى عالمنا المترابط دون اعتبار لما
يحدث بالقرب من الحدود القريبة والبعيدة لوادى ودلتا النيل ،
فى الصحراء العربية وفى كل آسيا وافريقيا عموما .

الباب السادس

أركان الايمان

ان التقوى هي أكثر ما يقيمه المصريون في الناس .
ان رغبة الكثيرين في ان يكونوا اتقياء تؤدى بهم الى
النفاق والرياء الواضحين . واذا لم يكن المسلم
مشغولا بعمل او بحديث ما فانه كثيرا ما ينطق بعبارات
دينية . واذا ما انتابته فكرة سيئة او ما تذكر تصرفا رذيلا
فانه يتنهد قائلا : «اللهم اعف عنا يا عظيم !» .

لاين . اخلاق وعادات المصريين المعاصرين . ١٨٣٦

لدى مراجعتى للذكريات المصرية اطرح على نفسى سؤالا :
ما هو الصوت المميز الذى ظل فى ذاكرتى من خلال السنوات
التي قضيتها فى مصر ؟ اى الاصوات كان يتكرر باصرار وتكرار
فى كل مكان ؟ أهو ضجيج السيارات ؟— كان فى المدن
والشوارع فقط . أهو صرير الساقية ؟— كان فى القرية فقط .
أهو نشيد «بلادى بلادى بلادى» الذى كان يذاع بالراديو او
التليفزيون ؟— لا شىء من هذا القبيل .

اذا فان الاذان هو الصوت الاكثر تميزا وتذكرا اثناء الاقامة
فى مصر والدول الاسلامية الاخرى والذى يتكرر خمس مرات
فى اليوم ، بصوت عال وبأشد قوة للاجبال الصوتية ، يؤديه
المؤذن المنادى للصلاة بايقاع قائلا . «الله اكبر» يكررها اربع
مرات وكل مرة يغير فيها موسيقى الكلمات ثم يكرر مرتين عبارة
«اشهد ان لا اله الا الله» . ومرتين يكرر «اشهد ان محمدا رسول

الله» كما لو كان هابطا بايقاع العبارات . ثم يرفع من صوته
مكررا مرتين عبارات «حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، الله
اكبر» وناطقا العبارة الاخيرة فى ايقاع جديد «لا اله الا الله» .
ويتكرر الاذان خمس مرات فى اليوم عبر ميكروفونات قوية
او باصوات عادية من فوق مآذن عالية او من البيوت الصغيرة
المخصصة كمساجد على اماكن مرتفعة فى القرى او من بلكنوات
المنازل او سلالها العالية . فقد ايقظنى الاذان فى اول يوم
وصولى الى القاهرة وذلك فى ممر المدينة الجامعية ، حيث ادى
الاذان احد الطلاب بصوت عال رنان . وسمعتة آخر مرة بعد
٢٥ عاما فى المطار عبر هدير موتورات الطائرات فى مطار القاهرة .
«الله اكبر !» . . . منذ ذلك الحين الذى اعلن الرسول محمد ان
اله القبيلة الوحيد هو الله ، اصبحت هذه الكلمات تتكرر كل
يوم مليارات المرات فيما يسمى بالعالم الاسلامى .

ولدى البدء فى عمل شىء ما ، مهما كان تافها ، فان المصرى
يقول تلقائيا : «بسم الله الرحمن الرحيم» ، وبانهاثة هذا العمل
يقول : «الحمد لله !» .

وتنطق كلمة «الله» فى الاحاديث والحوارات والمنولوجات
وفى مناجاة الناس سواء بسبب او بغير سبب وفى اللقاءات الرسمية
وغير الرسمية . فالله مع الناس دائما فى الاسرة وفى المعيشة ، فى
العمل ، فى الدراسة وفى الحب والكراهية وفى المنام وعلى مائدة
الطعام . الا ان ذكر الله هو فى اغلب الحالات — عادة مثل
كلمات التعجب والنداء فى الروسية .

وفى رأى المؤمن فان الله موجود فى كل مكان وقادر على
كل شىء ومدبر لكل الامور . ولذلك فان الانسان هو مخلوق
مسكين ، وعبد لله ، وشىء لا يعتد به امام القوة الالهية ،

ولذلك فعليه ان يخاف الله ويخضع له ويحبه ويمجده في كل الاحوال ويهاب جبروته . ويقول المثل المصرى : «ربنا موجود في كل وجود» ويصاحبه مثل آخر «كل شىء بيد الله» ويوحى كل يوم وكل ساعة الجو الاجتماعى النفسى والتبشير الرسمى بهذه الافكار . فالموت او الحياة ، النور والظلمة ، والصحة او المرض ، الثروة او الفقر—كل هذا من عند الله . ولا يتبقى للانسان الضعيف امام الخالق الا الخضوع لارادته ، والاعتماد فى كل شىء عليه . والايمان بالقضاء والقدر للمؤمن الحقيقى—وهؤلاء هم الاغلبية الساحقة فى البلاد—يحدد موقف المصرى من الحياة . فهو يفضل الابتعاد عن حل القضايا الحياتية الجديدة ، معتمدا على حكمة الله : «انت تريد وانا اريد والله يفعل ما يريد» «العبد فى التفكير والرب فى التدبير» .

ولا يجب ان يشوب الخضوع لارادة الله مثقال ذرة من الشك . ويجب ان يدرك المؤمن انه لا يستطيع التصرف فى مصيره . وليس هناك حدود لقدرة الله—ولا تفكر فى مجرد حتى معارضته . «يا من تهرب من قضاء الله ! لك الاله القادر على كل شىء هو الذى سيحاسبك» . والله فقط هو الذى يجعل عبده سعيدا او تعيسا ، يطعمه او يحرمه ، يصيبه بالمرض او يشفيه منه . فاذا كنت صبورا وحصلت على بعض الاجر فان هذا حكم الله ، لكن اذا لم تكن صبورا ، اذن فانك المذنب وسيعاقبك الله» .

ويؤكد الوعى الدينى الشعبى «ان الله يجس النبض ويعطى العلاج» ، ويضيف «ان الله هو الذى يبعث البرد ويعطى الغطاء» . والانتحار هو تحد لارادة الله . ولذلك فان نسبة الانتحار فى مصر اقل بعشرات المرات مما هى عليه فى البلدان الغربية

او حتى فى بلدان امريكا اللاتينية ذات نفس المستوى تقريبا من التطور . وقد كتب لاين : «بفضل الايمان بالقدر يبدى المسلمون فى لحظات العذاب المجهول او الكوارث ثباتا عجيبا وقوة عزيمة وتسليما قريبا من اللامبالاة . وفى هذه الحالات فانهم يلفظون بعبارة «الله كريم» . هكذا يتصرف الرجال . اما النساء — فبالعكس ، فيتجاوبن مع المصائب بعنف فينتجن ويصرخن على مسمع من الجميع» .

والخضوع لارادة الله هو خضوع للقدر وموافقة على وضعك الاجتماعى الذى تفرضه بنية المجتمع المتحجرة التى قدر فيها الله للاغنياء ان يكونوا اغنياء والفقراء ان يكونوا فقراء ، ان يكون البعض اسايادا والبعض الاخر — خدما . ومن الافضل الا تفكر فى المستقبل : فاولا هو بيد الله ، وثانيا أليس المستقبل تكرارا للماضى ؟ ايستطيع الكادح الذى عاش قرون الظلم والاستبداد والفقير ان يأمل فى المستقبل فى شىء غير الظلم والاستبداد والفقير؟ لكن القضاء والقدر المطلق الذى يفترض السكون والخمول المطلق يصطدم بواقع الحياة . فصحة تفكير الشعب لا تسمح للعقيدة العمياء ان تشل ارادته . فهو يعرف انه يعيش بفضل كدح يديه وعقله ، ويقول المثل : «كل من لا يستطيع بنفسه يعزى كل شىء للقدر» قاصدا بذلك ضرورة ان يكون الانسان نشطا . ويرشد المثل الاخر : «ان الله يحب المجتهدين» .

ونقابل امثالا شعبية تسخر بشدة من المهملين والكسالى والمستهترين ومن الذين يتسترون وراء ارادة الله . ان اعزاء السلوك المخزى لله هو امر غير شريف . ورغم ان الله موجود فى كل وجود ، فليس كل وجود عادل كما تقول فطرة وبصيرة عقل الشعب .

فالحق والعدالة والخير لا بد وان ينتصروا . ويرتبط ازدهارهم في الوعي الاسلامي للسكان «بالعصر الذهبي» للاسلام اثناء ولاية الرسول والخلفاء الراشدين الاربعة .

وتعتبر حدة التصوف الديني لدى المسلمين المصريين السنين اضعف مما هي عليه لدى المسلمين الشيعة ، لكن يداخلهم ايمان عميق ، احيانا خفي ، بنزول المهدي — المنتظر الذي سيقم العدالة التي يريد الله على الارض .

ويعتبر الله بالنسبة للمصريين تجسيدا للقوانين المكتوبة وغير المكتوبة ، وهو الضمير الاجتماعي وقمة العدالة . ويعتبر تدنيس المقدسات افظح وابشع من الخيانة والردة عن الدين . ويعد الايمان متكاملًا ، وقويا ومتداخلا في كل شيء بالدرجة التي يعتبر الاعلان في مصر علنا عن الآراء الالحادية امرا غير ممكن حتى اليوم . صحيح ان الملحد لا يهدده قطع الرقبة مثلما كان الامر في الماضي ، لكنه يصبح طريدا في المجتمع ، وخطيرا من وجهة نظر المؤمنين وشخصا دنيئا يمكن ان يقترف الجريمة . ويقول المثل : «خافوا من لا يخاف الله» ، ويضطر الجميع للعمل بذلك .

وعبارة «لا اله الا الله ، محمد رسول الله» هي تعريف العقيدة لدى المسلمين ، العقيدة الاساسية هي وحدانية الله وفي نفس الوقت التأكيد على المهمة النبوية لمحمد الذي اصبح ، في رأى المسلمين ، «خاتم الانبياء» . ومنذ خلق الكون كان هناك كثير من الانبياء ، لكن الاساسيين منهم ستة هم : آدم ، نوح ، ابراهيم ، موسى ، وعيسى ومحمد . وكما جاء بالاسلام فقد كشف لكل منهم عن السر الالهي وعن قوانينه . وكانت كلها صادقة حينما جاء بها الانبياء ، الا ان الناس نسوا وزوروا تعاليم الانبياء ، ولذلك فان

كل نبى تال اعاد اصل تعاليم سابقه ، واعاد القيمة التى ضيعها
الآثمون لكلمة الاله . بهذا الشكل تفسّر كل الاختلافات
التى دخلت العقيدة الاسلامية بينها وبين المقولات المسيحية
واليهودية فى الانجيل والكتاب المقدس .

واضافة الى التعرف على العقيدة فان من الواجبات الاساسية
للمسلم هى الصلاة والزكاة والصوم والحج . والمسلم الشريف
هو الذى يؤدى الصلاة مباشرة من نفسه او بسماع المؤذن بعد
غروب الشمس وبحلول الليل اى بعد حلول الظلام وفى الفجر
وفى منتصف النهار وفى العصر قبل غروب الشمس . ولا بد من
الوضوء وخلع الحذاء قبل الصلاة ، ثم الوقوف على المصليّة
والتوجه نحو الكعبة فى مكة . وتتكون الصلاة من ركعات .

وتعطى صلاة الجماعة وحدة التفكير والعقيدة والتكوين الروحى ،
كما تتكون مشاعر وحدة الجماعة «والمساواة» امام القوة الالهية .
وفى المساجد الصغيرة يؤم المؤمنين اثناء الصلاة امام وهو الذى
يلقى خطبة الجمعة . وفى المساجد الكبيرة يؤم المصلين امام—
خطيب وهو الذى يلقي خطبة الجمعة .

وقد سمعت هذه الخطب عدة مرات فى القاهرة والارياض
المصرية . ويتميز صوت الخطيب بالايقاعية والفن تطبيقا لتقاليد
القرون الطويلة . وتعد كل حججه التى يسوقها فى الخطبة مضبوطة
ومستندة للخبرة الدينية والاجتماعية للاجيال ، وعقيدة معدة على
اسس سيكولوجية واستيعاب المستمع . واذا ما لمس الخطيب
فى خطبته قضايا معيشية ، حياتية او سياسية او معاناة المصلين
الروحية الحادة فان شكل الالقاء التقليدى الذى اعتاده المصلون
يزيد من قناعة الخطبة .

وقد كتب لايين «أن هناك الكثير من المساجد فى القاهرة

لدرجة انها لا تمتلىء بالمصلين كاملا ايام الجمعة» . لكن في الوقت الحالى لا تكفى مساجد القاهرة فى المناطق ذات الكثافة السكانية لكل الراغبين ايام الجمعة ، وتمتلىء الشوارع المحيطة بالمساجد بصفوف المؤننين الذين يفتشون الحصى او المصليات السجادية على الاسفلت . ويصل اليهم صوت الخطيب عبر ميكروفونات قوية يطغى صوتها على صوت محركات السيارات . واثناء حكم السادات كان عشرات الالاف من المواطنين يتجمعون حول المسجد الذى كان يخطب فيه الشيخ كشك المعارض الذى كان يفضح الرشوة والفساد .

ولا يتساوى رجال الدين الاسلامى برجال الدين المسيحى ولا يتمتعون بنفس حقوقهم وامتيازتهم . وشكليا لا يمثل رجال الدين الاسلامى شريحة خاصة الا انه عمليا فان العلماء المسلمين الذين ينفذ بعضهم وظيفة الامام والامام الخطيب مرتبطون ببعضهم البعض بعناصر التلاحم الطائفى .

وعادة لا يؤدى المصريون المشغولون بقضايا دينوية الصلاة خمس مرات فى اليوم ، لكنهم يفضلون الا تفوتهم صلاة الجمعة . وقد خلق آدم يوم الجمعة ، ويوم الجمعة ايضا هو يوم الحساب العظيم ، يوم البعث من الموت . وتؤدى النساء الصلاة بشكل منفصل عن الرجال فى أماكن مخصصة لهن او فى المنزل . وبعد الصلاة يقوم المسلمون ميسورو الحال بتوزيع الصدقات على كثير من الفقراء ، منفذين بذلك واحدا من أهم الواجبات الاسلامية . وتعتبر الزكاة واحدا من اهم المكتسبات الاسلامية . وفى المسيحية ايضا فان الرحمة ومشاركة الضعيف فى معاناته والتصدق على المحتاجين — كلها اعمال يحبها الله . الا ان الاسلام وضع الزكاة موضع المسلمات الدينية الاساسية المحظور مخالفتها . فقد اصبحت

اهم المهدئات الاجتماعية في البلدان الاسلامية . ولكونها تصريح
مضمون للجنة لمن يقدمها فهي في نفس الوقت تسلب آخذها
من سلاحه وتضعف من التمرد الاجتماعي وتعطى وهم التقريب
بين الاوضاع الاجتماعية غير العادلة .

واصبحت عملية تقديم الصدقة للمحتاج باسم الله شهادة
ضرورية على عقيدة الايمان والنية الخيرة . لكنها تعد ايضا منبعاً
لتطفل جزء من السكان .

ولا يستطيع المصري الفقير الا ان يشم رائحة اللحم الذي
ليس في متناوله بسبب السعر . اما وجبته الاساسية فهي الفول
والخبز . ولكن حينما اتوا لجارى جنرال الجيش بخروف او عجل
صغير من عزبته في العيد وذبحوه في فناء البيت فانهم اهدوا
البواب والكناس وعامل تنظيف السيارة نصيبهم من اللحم ،
وطبيعى فهو ليس من احسن الانواع بل من الاجزاء الثانوية .
ويعتبر التصدق في مصر عملاً طوعياً الا انه يخضع لرقابة
المجتمع . ونادراً ما يقوم افقر فلاح بتقديم صدقة لفقير آخر مثله .
وتبنى المساجد وتعمر على تبرعات المؤمنين مثلها مثل بيوت
العجزة او المستشفيات وبيوت المجانين . وقبل وفاة المسلم او
بناء على وصيته يسجل جزء من العقارات المملوكة له لحساب
الاقواف حيث لا تصادر ولا يمكن بيعها ولا بد ان يستخدم
العائد منها فقط لغرض البر والاحسان .

ويعد الوضع القانونى للاوقاف قضية معقدة وتمثل جانباً
كاملاً من القوانين الاسلامية . وسنذكر فقط ان جزءاً ذا وزن
في الاقتصاد المصرى يعد من ملكيات الاوقاف . على الاقل
عشر الاراضى الخصبة المصرية تدخل في ملكية الاوقاف .
وهناك وزير في الحكومة المصرية يخصص لشئون الاوقاف .

ومن المثير ان المصريين عميقى الدين يرون ان فى الاثراء الفاحش ما يشبه خرق القانون او شيئا مأخوذا من المجتمع خاصة من فقرائه . الا انهم لا يرون فى ذلك تناقضا طبقيا بل مجرد ضرورة ان جزءا من ثروة البعض يجب ان تعاد للمجتمع فى شكل صدقات .

ويصوم المسلمون فى شهر رمضان ، حيث يجب ان يصوموا عن الطعام والشراب والتدخين واستنشاق العطور او الخضوع للمشاعر الحسية وذلك من الشروق حتى الغروب . وتهدد الامثال الشعبية بالعقاب كل من لا يصوم . ويبدأ الصوم منذ «تبين الخيط الابيض من الخيط الاسود» . لكن لا يجب فهم هذا التعبير حرفيا ، فالمقصود هو حينما يمكن تفريق الخط الابيض فى الافق عن الاسود اى قبل شروق الشمس ببعض الوقت . ويعفى من الصوم النساء الحوامل والمرضعات والمرضى والمسافرون والمقاتلون فى الحرب ضد الاعداء .

ويحتفل بالاعياد الدينية طبقا للتقويم القمري ولذلك فان تواريخ هذه الاعياد تختلف من عام لعام .

وأصعب ما فى الامر هو حلول شهر الصوم فى حر الصيف . وفى الشتاء ايضا تهبط كثيرا انتاجية العمل اذ ينتهى يوم العمل عادة بعد الظهر فى المؤسسات وتتوقف عن السير شاحنات المسافات الطويلة . وينسحب هذا الوضع على معظم الدول الاسلامية . وحاول الرئيس التونسى الحبيب بورقيبة الغاء الصوم فى رمضان ، لكن بلا نجاح . وراحت تركيا ايام كمال اتاتورك ابعد من الجميع فى القطيعة مع العادات الدينية فى الحياة الاجتماعية . حتى يوم العطلة الاسبوعية لدى الاتراك ليس الجمعة بل الاحد . لكننا نلاحظ فى ايامنا هذه فى السبعينات والثمانينات الى جانب

الاتجاه نحو اعادة التقاليد الدينية نجد ونلاحظ عودة جماعية للصوم خاصة وسط المثقفين . ترى ما السبب ؟ — وطرحنا هذا السؤال حينما عشت في تركيا . وأجابونى «اننا نفى بذلك عزمنا» . لكن لدى المناقشة الجادة للموضوع اتضح ان هؤلاء واقعون تحت تأثير الرأى العام والجو الدينى — النفسى المحيط بهم .

والتقاليد الدينية فى مصر اعمق واقوى . لكن لا داعى للمغالاة فى تقوى المصريين . فالبعض لا يصوم ولكن بشكل سرى . اما الخرق العلنى لقواعد الصوم بدون اسباب مقبولة فهو حالة نادرة الحدوث .

وكان لدى احد المعارف فى سنوات الدراسة يستعرض عقيدته اليسارية ، مدخنا علنا فى شهر رمضان رغم انه لم يكن مدخنا بالاصل . اما قوة عزمته فقد برهن عليها لرفاقه بامتناعه عن الاكل والشرب . لكن لم يساعده ذلك فى الحفاظ على سمعته . فقد اشاروا اليه باصابعهم واتهموه بـ«انك احمر» و«ملحد» . وقابلته بعد عشرين عاما فوجدته ما زال محافظا على عقيدته لكن لنفسه وفى نفسه . لكنه اعترف بانه مضطر للصوم للحفاظ على وضعه الوظيفى واحتراما لاراء زملائه ورؤسائه فى العمل .

ولا يسمح بالصوم لمثلى بعض المهن الصعبة التى تحتاج مجهودا عضليا او عصبيا كبيرا وخاصة الطيارين . فى ايام حكم عبدالناصر فى السنوات الاولى لم تستطع المقاتلات الحربية المصرية القيام بالطلعات الجوية فى شهر رمضان . وتناقضت العقيدة تماما مع الواقع . ولذلك فقد سمح علماء الازهر للطيارين بعدم الصوم مصدرين بذلك فتوى خاصة جاء فيها : ان مصر فى حالة حرب مع اسرائيل — والطيارون هم محاربون . وبما

انهم فى الحرب فبامكانهم الامتناع عن الصوم . ولم استطع تفسير ظاهرة منع الصوم فى القوات الجوية المصرية الان وعلى اى اساس يجرى هذا بعد توقيع مصر لاتفاقيات السلام مع اسرائيل . لكننى اعرف عن يقين ان الطيارين المصريين فى ايامنا هذه لا يصومون .

وكنت احب التجول فى شوارع القاهرة اثناء شهر رمضان فى اللحظات الاخيرة قبل غروب الشمس . فقد كانت الكبارى المزدهمة بالسيارات تخلو فى هذه اللحظات ويختفى الناس من الشوارع . فالجميع يجلسون الى موائد الطعام . وحتى الفقراء كانوا يجلسون القرفصاء على الارصفة وفى ايديهم اطباق الفول الساخنة التى كانوا قد اشتروها من الباعة الجائلين . وباطلاق مدفع الافطار يهجم المسلمون على الاكل . وبعضهم يفعل ذلك بتحفظ وكرامة ويقوم البعض الاخر بالتهام اول ملعقة او قطعة اكل فى الثوانى الاولى بعد انتهاء وقت الصوم . ويخالف الاقباط جو الصيام الاسلامى . الا انهم يحاولون الامتناع عن الاكل والشرب امام الناس حتى لا يضايقوا مواطنيهم .

وبعد الافطار فى رمضان يبدأ المرح بين الجميع . وتزدحم المساجد والاسواق والمحلات التجارية . وفى أماكن النزهة العامة يقوم الفنانون المتجولون بنصب الخيام وتقديم العروض الفنية . اما ميسورو الحال فيذهبون ويملاؤن الكازينوهات . ويهدر صوت الموسيقى من الراديوهات . وعلى عربات اليد تباع فى الشوارع الحلويات والمكسرات المختلفة والذرة والبطاطا المشوية . ويصبح الاطفال صيحات السعادة . ويستمر هذا المرح حتى بعد منتصف الليل .

وتزداد نفقات الغذاء بحدّة اثناء الصيام ، لان الناس تأكل
اكثر من المعتاد حتى تصمد امام جوع النهار .
وبالطبع لا يستطيع الناس الاستمتاع كاملا بالنوم بعد السحور
الذى يليه الصيام . فأى عمل يمكن القيام به بعد ذلك ؟
اما قمة المرح فتأتى بعد انتهاء شهر رمضان ، حينما يبدأ
عيد الفطر— العيد الصغير . اما العيد الكبير فهو عيد الاضحى .
وقد اتت تسمية عيد الاضحى للروسية من اللغات التركية وينطق
بكلمات «قربان بايرام» ، اما لدى العرب فهو عيد الاضحى او الضحية .
وفى اليوم الاول لعيد الاضحى يقوم المصريون المسلمون
فى حالة ما اذا كان لديهم موارد كافية ، بذبح خروف او جاموسة
او جمل . ويجب على الغنى ان يقسم لحم الضحية مع الفقراء ،
مؤديا بذلك فرض الزكاة .

ويعود عيد تقديم الضحية الى اسطورة سيدنا ابراهيم الذى
استعد للتضحية بابنه اسحاق فى سبيل الله ، الا انه اوقف من
قبل الله وأمره الله بان يذبح خروفا بدلا من ابنه . ويفترض
العرب ان اسماعيل هو الذى كان ضحية وليس اسحاق ولذلك
فيطلقون عليه اسم ابنى كل العرب .

ويحدد يوم الضحية بيوم انتهاء الحج فى مكة . والحج
هو فرض من فرائض الاسلام . وعلى الحجاج ان يطوفوا بالكعبة
سبع مرات اثناء الحج ، والقيام بالوقوف على جبل عرفات وبالعيد
من الطقوس والصلوات والشعائر الاخرى . والكعبة هى عبارة
عن مبنى مكعب فى احد اركانها يوجد الحجر الاسود قد يكون
اصله نيزك . وحول الكعبة ممر الحرم النبوى وهو المسجد الاساسى
للعالم الاسلامى . ومن الطبيعى ان مكة لدى ظهور الاسلام—
وهى مركز للتجارة العربية ومنبع للالهة الوثنية— لم تكن مجهزة

للقيام بدور المكان المقدس الاساسى لواحدة من الديانات السماوية العالمية . لكن الافكار الدينية كانت لا تكثر بالتصورات الجغرافية او الاقتصادية .

وفي الوقت الحالى يأتى لمكة سنويا اكثر من مليون حاج من جميع البلدان الاسلامية التى يعيش فيها حوالى ٨٠٠ مليون مسلم . وقبل اكتشاف البترول واستخراجه وظهور الاموال النفطية كان سكان الحجاز—المناطق الغربية من العربية السعودية الحالية—يعيشون على موسم الحج . وقد سهلت المواصلات الحديثة زيارة مكة ، التى ما زالت ، كما فى الماضى ، مدينة مغلقة امام غير المسلمين . لكن الحج كان حتى فى القرن التاسع عشر عملية شاقة وغالية وخطيرة حقا . فقد كانت القوافل تتوجه من القاهرة تحت حراسة مشددة . وعلى محمل خاص على الجمال كانوا ينقلون كل عام كسوة جديدة للكعبة غالية ومطرزة بحروف وعبارات دينية مأثورة انيقة . ولا تسمح الان الحكومة المصرية بالحج لكل الراغبين من مواطنيها نظرا لاحتياجها للعملة الصعبة ، فتقوم بتنظيم القرعة لاختيار الحجاج . ومما يزيد من صعوبة الامر ان كثيرا من المصريين القادمين للعربية السعودية للحج يحاولون البقاء هناك كمهاجرين لاشرعيين .

ونظرا لسهولة السفر للعربية السعودية فقد انخفضت قيمة لقب الحاج فى مصر الى حد ما ، الا انه ما زال يوحى للآن بالاحترام . وترك زيارة مكة اثرا عميقا فى نفوس كثير من الحجاج . واحيانا يقوم الحجاج بالاستعداد للحج طول حياتهم وذلك اقرارا لارادة الله وما كتبه لهم معتقدين ان اداء الحج يغفر الكثير من الذنوب التى ارتكبوها . وبعد الوصول لمكة وارتداء ملابس الاحرام

على الاكتاف والوسط— وهي عبارة عن قطعتين من القماش الأبيض غير المخاط— عادة ما يشعر المؤمن بنشوة روحية دينية بعد ان يجد نفسه في صفوف مليون من الحجاج المجتمعين حول الكعبة .

ويرى بعض علماء الاسلام ان الجهاد— الحرب المقدسة ضد الكفار— هو ركن ضرورى ايضا من اركان الايمان . وفي ايام الفتوحات الاسلامية كان يمكن اعتبار هذا الركن من الاركان الثابتة للدين ، الا ان الواقع السياسى—العسكرى حتى فى العصر الذى كان الاسلام فيه يوسع من حدوده يبين ان هناك حدودا لنشر الاسلام بالنجاح العسكرى . وهذا ما يساعد على فهم موقف الحذر من الجهاد فى فترة ايقاف الفتوحات ، وفهم الاوضاع المهادنة مع العالم غير الاسلامى والحروب المستمرة للدول الاسلامية بين بعضها البعض . وكثيرا ما اصبح الجهاد فى فترة التقسيم الاستعمارى ثم فى فترة المقاومة للتوسع الاستعمارى الجديد شعارا دفاعيا معاديا للغرب ومعاديا للامبريالية ومع ذلك فيمكنه التحول لشعار هجومى . لكن الاسلام ليس فقط عقيدة دينية وطقوسا واخلاقا ووجهة نظر . فتوجد الشريعة كجزء من مكوناته ، وهي التى تنظم كافة اوجه حياة النشاط الانسانى كما تشمل على الحقوق المدنية والاسرية والجنائية والتجارية والعامه والخاصة .

ومن الطبيعى ان نظام العقائد الدينية قد انعكس فى القرآن ، وهي العقائد التى كانت تتسق مع المجتمع البدائى العربى فى ذلك الوقت . ولم يستطع هذا النظام تلبية احتياجات مجتمع اكثر تطورا فى البلدان التى فتحها العرب وأدخلوا فيها الاسلام والعروبة بسرعة . وفى هذه البلاد بالتحديد ، بما فى ذلك مصر ،

اصبح الاسلام اسلاما بمعنى انه اصبح واحدا من الانظمة
الايديولوجية والاجتماعية العامة التي صاغتھا الانسانية . وقد قام
هذا النظام على اساس الاحاديث النبوية التي نقحت وبوت
بمعرفة المشرعين ورجال الدين .

لكن هل يمكن ان تجد معايير مجتمع الشرقيين الادنى
والاوسط فترة ما بين القرنين السابع والعاشر استخداما لها في
حياتنا المعاصرة ؟ وتعطى الممارسة الاجتماعية ردا ايجابيا على
هذا السؤال . فما زال جزء كبير من سكان البلدان الاسلامية
يعيش في اطار التقاليد المنقولة له عبر البنى الاجتماعية التي
ظلت مئات السنين . وتؤثر الحياة المعاصرة على هذه
التقاليد ، كما تؤثر عليها وسائل الاعلام لكن هـذـه
البنى التقليدية كثيرا ما تبقى ولا تندثر بل احيانا تتغير ويعاد
تشكيلها .

وقد ادخل الطريق الطويل لعملية نقل نمط الحياة الاوروبية
لمصر معايير قانونية مستمدة من الغرب من المجال التجاري
والنشاط الصناعي ومن التشريعات العمالية والقانون الحكومي .
الا ان مصر ، مثلها مثل الدول الاسلامية الاخرى ، لم تخط
تلك الخطوات التي قطعتها تركيا ايام اتاتورك ، حيث الغيت
الشريعة تماما واقيم مكانها نظام حقوقى يقوم على اساس القوانين
السويسرية والفرنسية وغيرهما من القوانين .

وظلت الشريعة في مصر كجزء من الاسلام . ويعيش معظم
سكان مصر المسلمين خاضعين لقوانين الشريعة . ويعد مصدر
القانون الاسلامى بالنسبة لهم ليس ارادة الناس او ارادة الشعب
بل ارادة الله ولذلك فان المعايير القانونية تعد جزءا من النظام
الدينى ، المنعم به عليهم من الارادة الالهية .

ولا يمكن ان يكون الدين دينا الا اذا كان له محرماته ،
وقيوده . ويتعلق احد المحرمات الاساسية بالمشروبات الكحولية .
لكن هناك كثيرا من المسلمين يمارسون سرا ، وفي مصر علنا ،
هذا الاثم . الا انه من الجدير بالذكر اننى لم اصادف خلال
الخمسة سنوات التى قضيتها فى مصر ، الا نادرا ، ان رأيت
مصريا شاربا فى جو عائلى او فى صحبة الاصدقاء ، لكن لم ار
ابدا سكيما فى الشارع . وقد ادى ازدياد الشعور الدينى فى السنوات
الاخيرة الى الاعراض المتزايد عن الكحول لدى الجزء من السكان
الذى كان يستخدمه احيانا . ولم تغلق معظم المحلات التى
تبيع الخمر أو البيرة . فالمصريون الذين يعتبرون شعب الاعتدال بين
أمرين وجدوا تفسيراً لذلك ، اذ قالوا : من الضرورى اجتذاب
السياح الاجانب الذين يريدون اللهو والمرح ؛ اضافة الى ان
هناك مستهلكين محليين للكحول وهم الاقباط الذين لا يعتبر
الخمر بالنسبة لهم اثما .

ويحرم الاسلام بلاشك المخدرات مثل الحشيش والافيون .
ويرفض بعض المسلمين المتعصبين كل انواع الدخان وحتى
القهوة ، (رغم ان القرآن لم يذكر هذا) وذلك لان هذه الاشياء
لم تستخدم فى عهد الرسول .

وكالعادة ، فان لاین دقق فى الممنوعات التى حظرها الاسلام
فى الطعام ، وسنورد هنا بعض ملاحظاته التى سجلها منذ
١٥٠ عاما ولم تفقد اهميتها حتى اليوم فقد كتب : «ممنوع
منعا باتا تناول لحم الخنزير فى الطعام . وكان يكفى لتبرير ذلك
ذكر ان هذا اللحم ضار فى الجو الحار ، الا ان اشمئزاز المسلمين
من لحم الخنزير يرتبط اساسا بان هذه الحيوانات غاية فى القذارة .
وتحرم فى الاسلام الحيوانات التى حرمت فى شريعة موسى .

ويمكن استخدام لغرض الطعام فقط لحوم تلك الحيوانات التي ذبحت بطريقة معينة : وعلى من استعد للقيام بالذبح ان يقول «باسم الله حلال . الله اكبر» . . . وفي حالة الضرورة ، اذا ما هدد المسلم خطر الموت جوعا فيسمح له بتناول اى طعام محرم فى الظروف العادية .

وحرم الاسلام الميسر والربا والقيام بتقليد او صناعة اى شىء حى . فقد اعلن النبى ان ايا من هذه الاشياء المقلدة ستقف امام صانعها يوم القيامة ، وسيؤمر بيث الروح فيها . ولكن بما انه ليس فى وسعه ذلك فانه سيعذب فى جهنم بعض الحين» .

وقد ادى الحظر الاخير الى الشلل التام تقريبا فى النحت والفن فى البلدان الاسلامية . وفى مراحل معينة فقط فى العراق وايران وتركيا وايضا فى الهند ازدهرت المنمنمات . ووجد معظم العباقرة العرب تحقيق ذاتهم فى الفن المعمارى وحسن الخط والنثر والمسرح . وحتى الآن يعتبر فن الرسم والنحت شيئا غربيا عن الغالبية العظمى من المصريين .

والاسلام صارم ملء بالمنوعات . فهل يستطيع العبد فى خضوعه لارادة الله وتنفيذه لنصائحه ان يأمل فى نصيبه من الحياة فى هذا العالم ؟ يمكن ، فقط اذا عطف عليه الله . فأيا كان مصيرك ، عليك ان تحمد الله وتنتظر الثواب . . . فى الحياة الآخرة . وكثيرا ما يقول المسلم «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم» .

ولن يهرب احد من ساعة الموت . وفى مصر يعتبر متوسط العمر اقل مما هو عليه فى اوربا بسبب الفقر والمرض . وحينما

يلفظ المصري المسلم انفاسه الاخيرة ، يصبون له في فمه قليلا من الماء . ويقومون بتغسيل الجثة بعد الموت ، والافضل من منبع ماء في المسجد او من بئر مخصصة للذكرى شخصية ما مقدسة او بمياه النيل .

ومن الافضل دفن الميت بسرعة : فاذا مات الشخص في نصف اليوم الاول يفضل دفنه قبل حلول المساء . وترتبط هذه العادة ليس فقط بحر الصيف وبالخوف من تعفن الجثة ولكن ايضا لاسباب انسانية : لماذا نطيل من عذاب ومعاناة الاقارب ؟ وحينما يموت شخص مقتولا او في حادث اليم فان الدفن يتعطل انتظارا لمندوبى السلطات .

وتبكي النساء وتولول على الاموات بصوت عال ، وتقمّن بالمرور ٧ مرات حول القرية او الحى المعنى بالمدينة . ويمكن ان تكون هذه طريقة لطرد روح الميت ، او يكون مجرد ابلاغ الناس بالكارثة التى حلت . وقد لا يخلو الامر من الاستعانة بناديات محترفات .

ويحمل المسلمون المتوفى ملفوفا في كفن . ويتبادلون نقله بين بعضهم البعض ، ويسرون به بسرعة لانه حسب الاعتقاد التقليدى ، ينبغى ان يمثل على عجل امام الملكين ناكر ونكير اللذين سيسألانه عما فعل فى حياته . واثناء المحاسبة تعود الروح للجسد مرة اخرى . ويردد الحاملون للجثة عادة : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله ! صلى الله عليه وسلم ! » .

ويقوم الشيخ صلاة الوفاة على الميت اما فى البيت او فى مسجد قريب منه . وقبل انزال الجثة الى القبر تقرأ على الميت سور من القرآن .

ويذبح على المقبرة عنز او جاموسة او جمل تبعا لحالة اسرة

الميت ، وتوزع اللحوم على الفقراء . وتقام مأدبة على روح الميت يقرأ فيها القرآن وتقام الصلوات .

وينتهى الحداد بعد سبعة ايام ، ويعود الاقارب لاعمالهم الحياتية ، الا انهم يحيون ذكرى الاربعين .
ولا تختلف كثيرا عادات الدفن لدى الاقباط عنها لدى المسلمين ، لكن ، طبعى ، يقوم الاقباط باحياء قداس الميت .

ويوحى الوعى الدينى للمصرى المضطهد الذى يعانى من الظلم والجوع والبرد بانه سيجازى بالخير على ذلك فى الحياة الآخرة . وتتحدث العقائد الدينية والامثال الشعبية دائما عن الحياة الآخرة وعن يوم القيامة . وما زال سر الموت خارج امكانيات العقل الانسانى الذى يود ان يصدق فى وجود الحياة الآخرة . ويقول القرآن : «وللآخرة خير وابقى» .

والجنة فى مفهوم المصرى شىء ملموس ومحدد . وهو لا يستطيع ان يكون هناك وحيدا . فهو فى حاجة للناس . وحتى فى الجنة للمصرى صحبة جيدة .

وطبقا للعقيدة الاسلامية فالجنة هى المكان الذى تتحقق فيه كل الاحلام والرغبات والخيالات الجامحة للانسان ، وكل مفاهيمه عن السعادة والسرور ومشاعر اللذة .

وقد يكون مفهوم الحياة الابدية الذى احتفظ به المصريون الفراعنة بجنون فى المدافن والاهرامات المظلمة ، واضعين على رسومات الحائط كل سعادة الدنيا المنقولة «للعالم الآخرة» ، قد يكون كل هذا هو ما وضع اساس تصورات المستقبل عن الجنة للشعوب والاديان الاخرى .

وعلى المسلم المؤمن ان يصدق فى خلود الروح ، وفى البعث

بعد الموت ، وفي يوم القيامة . وطبقا للعقيدة فان كل حسناته وسيئاته ستوضع في ميزان العدل الالهى وسيجازى على كل ما فعل في حياته . ويمر الطريق للجنة عبر جسر الصراط المستقيم (دقيق كالشعرة وحاد كالشفرة) المعلق فوق هوة . ويلقى بالمدنبن من عليه في نار جهنم ، ويمر المتقون عبره الى الجنة .

وبعد القرآن في كثير من السور المتقين ، رجالا ام نساء جنات النعيم . الا ان الجنة تظل مجتمعا رجاليا اكثر ، حيث لن تستمتع فيه النساء بمشاعر اللذة مثلما سيستطيع الرجال . واذا ما اعتبرنا ان الرجال سيحصلون على الحرية الجنسية في الجنة ، فان الاسلام لم يقل شيئا عن نفس الحرية للمرأة ، قاصرا بذلك الاحتفاظ بالعديد من الممنوعات على النساء في الجنة .

وسيحصل كل على النعيم واللذات بالقدر الذى قام به بعمل الخير في الحياة . وسيخدمه في الجنة جمع من الخدم . وسيكون لديه ٧٢ من الزوجات من بنات الجنة — الحوريات اضافة الى زوجات الحياة الدنيا ، هذا اذا ما رغب في ان تكن معه في الحياة الآخرة . وسيرتدى المتقون اصحاب الجنة ثيابا من الحرير الغالى وسيعيشون في قصور مزينة بالاحجار الكريمة والذهب ، وسيتمتعون بطعام وشراب . وسيتناولون الخمر دون اية قيود ولن يكون ذلك مخالفا للممنوعات لان هذا الخمر لن يسكر ولن تكون هناك رائحة كريهة لعرق الانسان . وسيتمتع اهل الجنة بالشباب الدائم وبعده الاطفال الذين يريدونهم . ومن اجل امتاعهم سيغنى لهم الملاك اسرافيل . وتجرى في الجنة انهار وينابيع وينمو مالذ وطاب من الفواكه . ولن يكون هناك مجال للمرض او الموت وسيحدث الجميع في الجنة بالعريية ،

واخيرا فان قمة السعادة والنعيم للمختارين هو الاشعاع اليومي
الدائم لوجه الله .

لكن الم يشب القدم هذه الصورة ؟ وألم تضعف قوة جذبها
للناس الذين يعيشون على ابواب القرن الحادى والعشرين ؟ من
خلال احاديثي مع المصريين فهمت ان الانجازات التكنيكية
الحديثة طورت من التصورات عن الجنة . فاذا ما تحدثت مع
اى مصرى مؤمن فان الجميع يتحدثون عن السيارات الفارهة
فى الجنة والتي لا تلوث البيئة ويتحدثون ايضا عن التليفزيونات
والجراموفونات وحتى فى الاونة الاخيرة فيديوهات الجنة مع الخلاف
فقط حول الماركات والانواع ! . اما التلاجت والمكيفات فانها
حاضرة فى تصور البعض رغم ان الاغلبية واثقة من ان طقس
الجنة سيكون معتدلا ولن تتلف بالتالى السلع . كما تختلف
آراؤهم بشأن الغسالات الكهربائية والخلاطات ومواقد الغاز والنخ .
وفى نظر المصريين فان جهنم تعتبر مفهوما محدددا لديهم .
فهى بمثابة سجن تعذيب كبير ، حيث يعد التعذيب بالنيران
هو الاساس . وفى الاحاديث بين المؤمنين يسمون جهنم عادة
«بالنار» او «نار جهنم» وهذه النيران تختلف عن النار العادية فى
انها تلسع لكنها لا تحرق المذنبين وبالتالى تستمر فى عذابهم .
ويحترق جلد المعذبين ثم يحيا من جديد للتعذيب ستة آلاف
مرة . وهم يقتطفون ثمارا مسممة من شجرة جهنم ، ويصبح
وجه المعذبين فظيحا ورائحتهم كريهة . وتسمع فى جهنم اصوات
وصراخ غير محتمل . وتبكي النساء بدموع من دم ، ويمكن
للسفن ان تبحر فى نهر دموعهن . وسألت المصريين : هل
هناك تعذيب بالتيار الكهربائى . واتفق رأى معظمهم على انه
ليست هناك حاجة لذلك .

وتذكر سور القرآن الشيطان ابليس الشرير والمتمرد ضد ارادة الله ،
والذى تجرأ على عصيان اوامره . لكن قوى الشر فى رأى المؤمنين
لا تتمثل فى الشيطان فقط : فهو بعيد جدا ومجرد . وهناك
أبالسة وشياطين صغار— ايضا يمثلون الشر . وهناك عفاريت
وغيلان ، وهى كائنات شريرة ، تملأ المقابر والانهار والصحراء
والحقول . لكن هناك ايضا اعتقاد— يبدو من قديم— بان قرين
الانسان الذى يخرج للحياة مع ميلاد الانسان يحمل الشر .
فقد اشارت العالمة السوفيتية بيلوفا : «فى تصور المصريين انه
بميلاد الانسان يوهب الروح (با) والشبيه (كا) ، والشبيه هو صورة طبق
الاصل من الانسان ويتمتع بنفس الصفات الجسمانية والروحية
التي يتمتع بها المولود . فهو يظهر وينمو مع الانسان ، وبعد
وفاة الانسان فان بقاء كا يتوقف على مدى الاحتفاظ بالجسم .
ومن هنا ظهرت عادة التحنيط (وبما ان الجسم المحنط لم
يبق كثيرا فقد كانوا يعدون تماثيل نصفية تشبه الانسان يمكن
ان تستبدل الجسم فى حالة فناء المومياء) . وفى رأى المصريين
ايضا فان الروح (با) التي تطير حيثما تشاء تحط على المقبرة وباستطاعتها
ان تمتزج بالجسم . و فقط بعد امتزاج الروح بالجسم يمكن بعث
الانسان . ويحتاج الانسان بعد البعث للاغراض الضرورية لحياته ،
اذ ان وجود الجسم فى المقبرة هو شىء مادي : يجب توفير
الطعام والشراب والملابس له . الا انه ليس ضروريا ان تترك
مع الميت اغراض حقيقية ، اذ تكفى اشياء رمزية . فقد استبدلوا
الطعام مثلا بالاوانى التي وضع وحفظ فيها» .
وفى اعتقاد المصريين المعاصرين يجب محاباة القرين
وذكره باحترام والا فانه سيضر بالانسان كثيرا . ولم اصادف لدى

اي شعب عربي آخر هذه الاعتقادات ، كما لا توجد آثارها في الاسلام الصحيح .

ومجرد الاعتقاد بوجود القرين يميز بين الاسلام الصحيح والاسلام الشعبي . الا ان هناك العديد من الطقوس والاعتقادات التي تخرج عن اطر الاسلام ، رغم وجودها الشكلى فى هذه الاطر ، لكنها تختلف عن الاعتقادات الصحيحة .

لقد ذكرت سابقا «مدينة الاموات» التي اصبحت حيا سكنيا فى القاهرة الكبرى . ففى وقت ما كان هذا الحى حيا للمقابر — عددا كبيرا من المدافن والاحواش والمساجد وغرف الصلاة ومقابر الائمة كل هذا مختلط ببعض المساجد الصغيرة والكبيرة . ولا يمكن ان تصادف مثل هذا العدد من المدافن فى اى بلد اسلامى آخر . فمقابر ايوب او سكيودار فى اسطنبول عبارة عن صفوف من الشواهد المختلطة والمتناثرة وبعض قطع المرمر الابيض .

وتوجد فى «مدينة الاموات» كثير من الآثار المعمارية للعصر الاسلامى . احد هذه الآثار مسجد الامام الشافعى وقبره منذ القرن التاسع ، وهو من مؤسسى أحد المذاهب فى الاسلام الصحيح ، رغم انه لم ينتشر انتشارا واسعا . وما يجذب محبى هذا المكان هو عبقرية الابداع والايمان بها ، وليس اناقة الهندسة المعمارية او شهرة الشافعى كعالم فى الشريعة الاسلامية . وتقرب الناس وتلمس بشفاهاها وجبينها القفص النحاسى للمقبرة ، ثم يلقى بعضهم برسائل او بالاوراق النقدية فى هذه الرسائل فى الضريح . والاغلب هو وصول الرسائل بالبريد للامام . اما الراسلون فيعتقدون بان الامام سيتسلم هذه الرسائل والشكاوى وسيجيب عليها . والامام يجب ان يكون قاضيا يشارك فى حل

النزاعات ويحق الحق ويساعد المضطهدين والذين لا سند لهم ،
ويكشف عن الجريمة . وقد قام المحامى والباحث الاجتماعى
المصرى سيد عويس بدراسة هذه الرسائل ووجد فيها آمالا لا نهاية
لها فى تلقي المساعدة من الحياة الآخرة لحل مشاكل الدنيا .
فالوظيفة الوهمية للجزاء فى الدين تقف امامنا فى هذه الحالة
فى انقى صورها .

ومسجد الامام الشافعى هو مثل واحد لسيطرة عبادة الاولياء
فى مصر . اما اشهر ولى فى البلاد ، فهو السيد احمد البدوى ،
الموجود فى طنطا بوسط الدلتا . فقد اصبح هذا المسجد مكانا
للحج الجماعى ، خاصة من قبل النساء العاقرات اللواتى تحلمن
بطفل .

وتنسب للسيد احمد البدوى اقوى صفات الثناء والتبجيل .
ولكن امام آخر يتفوق عليه فى ذلك .

ويلى السيد البدوى من حيث الاهمية الشيخ ابراهيم الدسوقى ،
الذى يقال انه قال عن نفسه : «حينما كان عمى سبعة اعوام ،
هدانى الله وبين لى مافى الاعالى ، وفى الثامنة من عمى
قرأت اللوح المحفوظ ، وفى التاسعة اكتشفت طلاسـم
السماء وحرفا فى اول سورة من القرآن الذى يخافه الانس والجن ،
وفى الرابعة عشرة كان باستطاعتى بعون الله تحريك الساكن وايقاف
المتحرك .

وقد اعطانى النبى سلطة على كل الارض ؛ على الجن
والشياطين . وعلى الصين وكل الشرق وحتى حدود بلاد الله تنتشر
ولايتى» .

ويمكن ان تكون هذه التصريحات قد وضعت استنادا
الى الاولياء بمعرفة مسجلى احاديثهم فيما بعد اذ يمكن الا يكونوا

قد امتدحوا انفسهم . ومع ذلك فالمؤمنين يكررون هذه التصريحات عن طيب خاطر .

وتدخل مقابر او أضرحة الاولياء فى زمام كثير من القرى المصرية او مراكز المدن . وتبرع النساء بالخبز او النقود القليلة للفقراء لدى زيارتهن للاضرحة . كما توزع النذر والفضحية اذا ما تحققت التمنيات . ويتم الاحتفال بالموالد فى كل انحاء البلاد . وطبيعى فان المولد النبوى هو اشهر الموالد . ولكن ايضا مولد الحسن والحسين يستقبل بابتهاجات واسواق شعبية ، وسراقات ومرح جماهيرى وذلك بخلاف ما يقوم به الشيعة . ففي المذهب الشيعى يتم التركيز على تاريخ وفاة الحسن والحسين — حفيدى الرسول فهى ايام حزن وحداد وحتى تعذيب نفسى .

وقد اتضح منذ فترة ان الاسلام لم يعرف فى بدايته تلك الاهمية التى تولى الان للاولياء . فقد ذكر عالم الاسلام المنجى المشهور جولديتسير : «فى بداية الاسلام كان هناك حاجز لا يمكن التغلب عليه يفرق بين الاله الابدى صعب المنال وبين الجنس البشرى الضعيف . وعلى الخلق الذين لا حول لهم ولا قوة ان يتوجهوا بانظارهم بخضوع نحو السماء المفتوحة بلا حدود والى المملكة الابدية والمصير الذى لا يمكن تحقيقه . ولا يوجد اى كمال بشرى قريب من كمال المملكة الابدية ، وليس هناك اى موهبة خارقة لشخص ما مختار تتوسط بين الحياة والموت ، كما انه ليس هناك اى ابداع او اختراع يمكن ان يقارن على الاقل وبنتيجته النهائية مع قدرة وعظمة الرب . ولا يوجد اى ابداع (ايا كانت الخصائص والجودة التى يتمتع بها) يساوى بريق يقارن بذلك الاحترام والتبجيل الذى يحظى

به الاله . ولا يمكن تصور اى عبادة لشيء ما غير الله . ولا يمكن التوجه بطلب المساعدة او اللجوء وقت الكارثة الا الى الله . وحتى اكمل البشر الذين اختارهم الله لتعليم كل البشرية فهم ايضا ضعفاء ولا حول لهم ولا قوة كبقية البشر ومن صفاتهم العجز والموت . فهم لا يستطيعون التأثير على قوانين الطبيعة او عمل المعجزات ولا يدركون الاسرار . والله فقط قادر على ذلك» .

ومن اجل جعل الاسلام ديننا شعيبا كان لا بد من اقامة جسر بين الانسان وربه ، وكان لا بد من ظهور وسيط يمكن للانسان ان يتوجه اليه مباشرة ، كمفسر للحكم الالهى . وقد تحول محمد الى اول كائن خارق الامكانيات واهل لصنع المعجزات . ولدى انتشار الاسلام بتوسع بدأ الاهتمام بالاولياء والقديسين والآلهة من الديانات الاخرى يعتبر امرا مقدسا . وقد تغذى الاسلام من المعتقدات الدينية والطقوس الاخرى مغيرا اياها ومكيفا اياها طبقا لما يتفق واحتياجاته ومعطيا اياها تفسيرات جديدة لها ، او مبقيا على المعتقدات القديمة مع تغيير طفيف فيها يناسب اوضاع تلك الايام .

وعادة ما لا يكثرث المؤمنون لدفن الولي الواحد اكثر من مرة فى اكثر من بلد . فقد زرت قبر الخليفة الرابع على بن ابي طالب فى مدينة النجف العراقية وزرت نفس القبر فى مدينة مزارى شريف فى افغانستان . ويوجد قبر ابنه الحسين فى كل من كربلاء بالعراق والقاهرة بمصر . لكنهم يفسرون فى مصر وجود قبرين للحسين فى كل من العراق والقاهرة بان جسم الحسين مدفون فى العراق ورأسه فى مصر .

وقد اصبحت مقابر واضرحة الاولياء مقاصد للزيارة فى مصر

وفي الدول الاسلامية الاخرى . وبالقيام بالصلاة على قبور الاولياء وبالتبرع بالهدايا لهم يأمل المؤمنون في تلقي المساعدة وقت الشدة منهم او بتوسطهم عند الله لهم ، او حصولهم على الرحمة مقابل هذا الاهتمام . ويحرك الناس ايمانهم بالمعجزات وبالقوى الخارقة ويتدخل قوى من العالم الآخر في شئون الحياة الدنيا .

وسأورد هنا مقتظفا مختصرا من كتاب «عودة الروح» الذي كتبه توفيق الحكيم في الثلاثينات . لكنه يبدو وكأنه صورة لاوضاع اليوم .

«وفي وسط تلك الحجرة يقوم ضريح «الشيخ سمحان» ، ولم يكن ضريحا بالمعنى المعروف ، وانما شيء كالفصص محجوب عن الانظار بغطاء أسود كثيف ، وعلى سطحه صف من شمعدان نحاسى قديم ، وله باب صغير كالكوّة ذوقضبان في لون الذهب ! .. عند ذلك الباب الذهبى للضريح أو الفصص كانت تجلس امرأة في متوسط العمر ، سميئة ، ولكن في وجهها بعض ملاحظة ، هذه كما يقولون امرأة الشيخ ، فهي وحدها التي تتصل به بواسطة هذا الباب الذهبى الصغير ، وهي التي تنقل كلامه الخفى الى الزوار السائلين . . . ولكن الشيخ نفسه لم يره أحد قط ، كيف ، ولماذا هو محجوس في هذا الفصص أو الضريح ؟ . . . لا أحد يعلم . . . ولعل أحدا ما تساءل عن ذلك . . . كل ما يعرفه الناس أن الشيخ «سمحان الأسيوطى» ذو قوة خفية وأسرار حقيقية ، وأنه على اتصال دائم مع «بسم الله الرحمن الرحيم» أهل تحت .

. . . جلست «زنوبة» حيث أشير لها ، وعندئذ نظرت المرأة اليها في تحديق ، ثم سألتها بصوت مترن خافت :

— شاورت نفسك ؟

. . . فأخرجت «زنوبة» منديلها من صدرها ، وفكت عقدة

في طرفه وتناولت جنيها من نقود أخرى بالمنديل ، ووضعت على
الخوان الصغير بيد مرتجفة .

وقربت زوجة الشيخ فمها من الكوة أو الباب الذهبى ونادت :
— يا شيخ سمحان ! .. اسمها زنوبة بنت رجب بن حمودة ..
وساد سكون هائل عميق دام لحظة ، ثم فجأة .. عاد ذلك
الصوت الضعيف البعيد غير الجلى ، وألصقت المرأة أذنها على الباب
الذهبي ، وجعلت تنصت بانتباه ، وأخذت زنوبة تتبعها في
اهتمام

ولم تلبث المرأة أن فرغت وتركت باب الضريح ، وأقبلت على
زنوبة تفضى إليها بالنتيجة :

— اسمعى ! .. الشيخ يقول عايز أتر من شعره ! .. بس
على شرط يكون من صحن الراس عند مفرق الشعر ! ..
فقدمت زنوبة بصوت خافت في خجل واضطراب :

— شعر مين ؟ !

ف نظرت إليها المرأة في خبث وقالت :

— شعر مين ؟ ! .. شعر اللى فى بالك !

وأضافت امرأة الشيخ مؤكدة :

— من صحن الراس عند مفرق الشعر . . . اياك تنسى . . .

ان كنت شاطرة قولى للمزين اللى بيحلق له واغمزبه يجيب لك
طلبك . اسمعى كمان يا اختى . . الشيخ بيقول يلزم لك كمان
قلب هدهد يتيم !

فسألت زنوبة مستفسرة بصوت ساذج :

— قلب هدهد ؟

فقالت المرأة مؤكدة :

— يتيم . . قلب هدهد يتيم . . أوعى تنسى

ويمكن ان يهزأ المتعلمون والمثقفون بهذه الخزعبلات والخرافات .
 الا ان الوعي الشعبى يحيط الانسان بهذه الخرافات والخزعبلات
 جاذبا اياه للارض ومكملا الى حد كبير ما ينقص الاسلام الصحيح .
 ويصدق المصريون فيما يسمى بالعين الحسود التى تعد من
 وجهة نظرهم هي العيون الزرقاء . وحينما كنت فى القرى لاحظت
 ان الفلاحات كنّ يخبئن اطفالهن خوفا من عينيّ الزرقاوين . وقد
 يكون الغزاة الذين اتى معظمهم من الشمال وهم من ذوى العيون
 الزرقاء قد ارتبطوا فى وعى الشعب بفعل الشر . ويؤمنون فى مصر
 للآن بمعجزات وقوة الاحجبة — ايا كان نوعها : مثلا عمل
 يحتوى على سورة من القرآن ، او شعر حمار مأخوذ امام مسجد
 السيد البدوى او اى شىء فرعونى . ويتكون العمل المصنوع ضد
 الحسد من خريزة زرقاء .

لكن لنعد الى موضوع تقديس الاولياء ، الذى يرتبط بشكل
 اساسى بنشاط متصوفى الاسلام — الصوفيين . ففي البداية كما
 اشرت كان الاسلام مجردا جدا . ففي عصر الفتوحات والحروب
 المقدسة كان يمكن للاسلام ان يقوم بتأثير عاطفى على المسلمين
 وبدون الحاجة لاي حيل او تلاعب . لكن ما نقص الاسلام
 فى البداية بالذات هي العاطفية . وقد ملأ الصوفيون — الدراويش
 هذا الفراغ بدعايتهم للحب الصوفى لله والامتزاج به وبالطقوس
 العاطفية الخاصة بتبجيل الاولياء المقدسين وبالغناء المشترك للانشيد
 المقدسة وحفلات الذكر المختلفة . فقد قام الامام الغزالي فى القرن
 الحادى عشر بتوحيد بعض العناصر العقلانية مع الصوفية ، وخاصة
 المرتبطة منها بالحب الصوفى لله مما أضفى على الاسلام صيغة
 قانونية ما زالت موجودة فى ملامحها العامة لليوم .
 وقد خرجت الطرق الصوفية عن اطار الاسلام الصحيح

لكن ينظر اليها في كل مكان ، ما عدا في العربية السعودية ،
 بتسامح . وفي تركيا فقط استطاع كمال اتاتورك ان يلغى ويحطم
 الطرق الصوفية ، لكن ليس بسبب صوفيتهم ، بل بسبب
 مشاركتهم في النشاط السياسى الموجه ضد الاصلاحات التى
 قام بها . وتضم الطرق الصوفية فى مصر الان حوالى ٥ ملايين
 مصرى ، مشكلة بذلك قاعدة عريضة للاسلام الشعبى . ويمثل
 الذكر قمة الدراويشية الصوفية فى الامتراج بالله .
 وتوجد امام مسجد الحسين القريب من جامعة الازهر سرادقات
 كبيرة وبعضها مفتوح للزيارة العامة . وتملاً هذه السرادقات جماعات
 من الناس بقيادة شيخهم وتحت علمهم الخاص . وهاهم يجلسون
 سوياء النساء والرجال على كراسى يهتمون بالتسيحات والصلوات
 (لا اله الا الله محمد رسول الله) . ونادرا ما ينهضون ويؤدون
 ركعات الصلاة ثم يجلسون مرة اخرى . ثم تزداد اصواتهم ارتفاعا
 وعلوا . وتصل احيانا اصواتهم الى حد الصراخ تتساوى فيها
 بوضوح ايقاعات النداء : «الله !» وهاهم يقفون بناء على امر
 من الشيخ ويبدأون فى الخطو الدائرى فى المكان . وتصبح كلمة
 الله اكثر ايقاعا وحدة وسرعة . ثم تسرع خطواتهم ايضا . وفى
 لحظات يتطلعون بأيديهم للسماء وينزلونها بحدة وسرعة لاسفل .
 وتزداد الدورات وانضمامهم لبعضهم البعض او ابتعادهم القليل
 بعضهم عن بعض . وتزداد وجوه الناس اندماجا بما يجرى .
 كما لو كان التشنج يسرى فى ابدانهم ، وتزداد سرعة كل شىء .
 ويضيع ايقاع كلمة «الله ! !» . ويظهر لدى كل منهم ايقاعه
 الخاص فهو يرقص ويرتعش ويلتوى ويخضع لايقاعه الخاص به .
 او يتحرك بدون ايقاع بالمرّة . وفى حالة تصوفية انسجامية وبصوت
 مبحوح يصيح الناس للمرة المائة والالف نفس الكلمة «الله ! ! !»

ورأيت امرأة مسنة نحيفة تسقط على الارض مسبلة عينها
تتخبط في تشنجها . ويقوم اثنان من الرجال الشباب بانهاضها
وبرفع جسمها المرتعش ويرقدانها على الكراسى المصفوفة ويغطيانها
بيطانية سميكة . ويسقط بعد ذلك الشخص الثاني والثالث وفجأة
ويدون امر مسموع او واضح ينتهي الذكر . ويلقى الناس بأنفسهم
على الكراسى بوجوه بعضها ما زال مندمجا وبعضها سعيدا ويستمرون
في هذا الوضع لفترة طويلة الى ان يستعيدوا انفسهم .
ثم سألت جارى المراقب للذكر بلا مبالاة ولكن ببعض حب
الاستطلاع : — من هذا ؟

— انه احد اعضاء الطريقة الاحمدية .

— اتباع السيد احمد البدوى ؟

— نعم هم .

ومرة اخرى حضرت مع احد معارفى وهو طيب حفلة ذكر
الطائفة الرفاعية . ومبدئيا فان ذكرهم يشبه ما رأيته قبل ذلك . لكن
لم يشارك فيه كل الحاضرين بل مجموعة من الرجال عراة الصدر
يرتدون البنطلونات وحفاة القدمين . اما الرفاعية الآخرون فقد كانوا
يدقون الطبول الصغيرة . وفي منتصف الذكر قام احد الدراويش
بغرز سكين في جسمه دون ان يترك ذلك اثرا . وبعد ان جرح
يده قام بحركة خفيفة اوقفت الدم . وهرع زميل الدكتور اليه ومسح
الدم بالمنديل . . لكن لم يكن هناك جرح تحت الدم . وقدم
لى الدراويش السكين طالبا منى ان اطعنه فى بطنه . لكننى لم
استطع فعل ذلك . وكان انطباعى شديدا للغاية . هل يمكن
للتدريب الطويل والانتقال النفسى ان يؤدي الى تغيير خصوصيات
الجسم البشرى والنظام العصبى ؟

لكن بعدما رجعنا للبيت قام زميلى اول الامر بوضع المنديل

المبلل بالدم تحت الميكروسكوب واتضح ان هذا الدم هو دم
دجاجة . . !

أين هي الحدود الفاصلة بين خفة اليد البارعة وبين ظاهرة
النفس البشرية والجسم الانساني التي لم تدرس فعلا ؟
فلقد رأى بعض الرحالة الدراويش الذين رقصوا حفاة على
جمرات النار . وقفز الذين لم يصدقوا هذا في النار خالعين احذيتهم ،
مفكرين ان هذه خرافات وكانت النتيجة انهم قضوا شهورا في
الفراش نتيجة الحروق الكبيرة التي اصيبوا بها . وكما شاهد البعض
ايضا بعيدا عن العرب ، في جنوب شرق آسيا «رقصة السيوف»
والتي لا يمكن اثناءها اختراق الجسم البشرى بسن السيف . والم
يرقد السحرة الهنود على المسامير ؟

ان خبرتي الخاصة ودقة ما لاحظته لا تكفى بالقدر الذى
يمكننى من الاجابة على السؤال التالى : هل ما يجرى اثناء الذكر
هو حيلة ام حقيقة ؟ لم ار الرفاعية مرة اخرى لكن شهود العيان
الذين رأوا طائفتهم فى سوريا ذكروا لى ان الدراويش الذين كانوا
يرقصون اخذوا مسدسات محشوة بالطلقات وعرضوا على الحاضرين
ان يطلقوا عليهم الرصاص دون ان يصيبهم ذلك باذى . أهذه
حيلة ؟ وقد ترك لنا رحالة الماضى مذكرات عن الرفاعية وغيرهم
من الدراويش الذين كانوا يغرزون المسامير أو السيوف فى ابدانهم
او يتلعون الجمرات الساخنة او الزجاج المكسور .

ويمكن ادراك مدى تأثير الطوائف المختلفة على ارواح الناس
العاطفين ضعيفى الارادة ، الخاضعين للايحاء الذاتى . ومرة
اخرى اكرر الرقم الذى ذكرته . هناك ٥ ملايين مصرى اعضاء
فى الطرق الصوفية . وكالعادة فهم بعيدون عن السياسة . لكن

يا له من أساس لاستغلال هذه الميول في أغراض سياسية او ببساطة
للابتزاز المغرض !

ولنحتكم لمرجع مثل طه حسين في كتاب «الايام» ، بعرض
مختصر لمقطع منه ، فقد كتب : « . . . وشيوخ الطريق ، وما
شيوخ الطريق ! ! كانوا كثيرين منبئين في اقطار الأرض ، لا تكاد
تخلو منهم المدينة أسبوعا . . . وكانت المنافسة حادة في الاقليم
بين اسرتين من اصحاب الطريق ، لاحدهما أعلاه ، وللأخرى
أسفله . . . وكان زعماء الأسرتين يتنقلون في الاقليم يزورون اتباعهم
وأشياعهم . . . وكان أبو الصبى من اتباع صاحب العالية ، أخذ
عنه العهد ، وأخذ عنه ابوه من قبل . وكانت أم الصبى من
أتباع صاحب العالية أيضا ، بل كان أبوها من أنصاره وحواربيه
المقربين اليه . ومات صاحب العالية وخلفه على الطريق ابنه
الحاج . . . وكان أنشط من أبيه ، وأقدر على الكيد واللؤم ، وأنهض
للخصومة .

وكان أبو الصبى قد هبط الى السافلة واستقر فيها ، فكانت
لصاحب العالية عادة أن يزوره مرة كل سنة . وكان اذا أقبل لم
يقبل وحده ولم يقبل في نفر قليل ، وانما أقبل في جيش ضخم ،
ان لم يبلغ المائة فليس ينحط عنها الا قليلا . ولم يكن يتخذ
قطر السكة الحديدية ولا سفن النيل ، وانما كان يتخذ الجياد
والبغال والحمير ، يسير ومن حوله اصحابه فيمرون بالقرى واللساكر . . .
فاذا الشارع ممتلئ بهم قد أخذوه من القناة الى أقصاه الجنوبي ،
وإذا الشاء تذبج ، وإذا السمط ممدودة في الشارع ، وإذا هم الى
طعامهم في شره لا يعدله شره ، والشيخ جالس في المنظرة ومن
حوله اصفياؤه وأولياؤه ، وبين يديه صاحب البيت واهصاؤه يأترون
أمره . فاذا فرغوا من الغداء انصرفوا عنه ، فنام حيث هو ، ثم

نهض فتوضأ . فانظر الى الناس يستبقون ويختصمون أيهم يصب عليه الماء ! فاذا فرغ فانظر اليهم يستبقون ويختصمون أيهم يصيب من وضوء الشيخ جرعة ! والشيخ عنهم فى شغل ، يصلى فيطيل الصلاة ، ويدعو فيطيل الدعاء . حتى اذا فرغ من هذا كله جلس للناس وهم يتقاطرون عليه ، منهم من يقبل يده وينصرف خاشعا ، ومنهم من يتحدث . اليه لحظة أو لحظات .

ويعود وصف طه حسين لبداية القرن العشرين ، فكيف الاوضاع اليوم ؟ هل ما زالت هذه الطباع والعادات موجودة ؟

وذات مرة راقبت وصول احد المشايخ الدراويش مع صحبته فى القرية . وتكرر نفس الوضع السابق ذكره حينما استقبلوه . فقد رفرت الاعلام الخضراء المطرزة بعبارات دينية من اسماء الله الحسنى . وايضا حملت الرياح للانوف المتفتحة لصحبة الشيخ رائحة الخروف المسلوق من منزل احد الفلاحين الاغنياء حيث سيقم الشيخ . ولم استطع البقاء حتى نهاية الحفلة . فقد كانت فى قرية فى الدلتا بعيدة عن الطريق العام حيث توجد لافتة «ممنوع الدخول للاجانب» .

ومنذ ايام وصف طه حسين تغيرت الملابس التى ترتديها الحاشية ، ولم تتغير ملابس الشيخ ، وتغيرت وسائل النقل اذ انهم قدموا فى سيارات وليس على خيول او حمير . وبدلا من ان يطعموها علفا ، قاموا بملأ خزانات السيارات بالبترين . لكن لم يتغير كثيرا ايمان الفلاحين الاميين ، رغم ان الحياة الحديثة تقتحم وعيهم عن طريق الراديوهات الترانزيستور او التلفزيونات فى مقاهى القرى او بفضل السفريات البعيدة او حكايات من كانوا فى سفر بعيد . وهكذا تتشكل المعتقدات الايدولوجية للسكان المتناقضة وحيانا غير المتسقة من خليط من الاسلام الصحيح

والصوفية والخرافات والافكار والمفاهيم المعاصرة .
ومما يعقّد الصورة الدينية-الايدولوجية للمجتمع المصرى الوجود
الكبير والمؤثر للسكان الاقباط (حوالى ٣ ملايين نسمة) . ويشغل
الاقباط فى الجيش المصرى مكانا ثانويا ، وايضا فى البوليس
والوظائف الحكومية وفى السياسة .

ويعتق عدة مئات او عدة آلاف من الاقباط الدين الاسلامى
كل عام والسبب - هو زواج البنات القبطيات من الشبان المسلمين
اضافة الى الضغط الاجتماعى-النفسى العام للمجتمع والذى يعطى
المسلمين الافضلية . الا ان الاقلية القبطية اكثر نشاطا وذات مستوى
ارفع من التعليم وبينهم نسبة كبيرة من الاغنياء ، ويعتبر هذا
عاملا اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وروحيا ذا وزن فى حياة
البلاد .

فى نهاية السبعينات جرى حوار بين المثقفين المصريين عن
من هم سكان مصر : هل هم مصريون ام عرب ، وعن دور الدين
فى الحياة الاجتماعية وفى تاريخ البلاد . كما شهدت مصر تكرارا
لمناقشات الستينات عن الطابع القومى لمصر ، وتصادم آراء العشرينات
والثلاثينات بين مؤيدى الطابع «الفرعونى» ، المختلف عن العرب ،
للشعب المصرى وعروبه . هل يمثل المصريون امة مستقلة ام هم
جزء من الامة العربية ؟ وهل الاقلية القبطية الدينية فى مصر عربية
ام لا ؟ هل نرفع من معرفة السكان للغة الادبية العربية التى
مستوى افضل ، او بالعكس نعمل على نشر اللهجة العامية المصرية ،
كلغة مستقلة ؟ هل نسير على طريق «ادخال النمط
الاوربى والغربى» فى الحياة ام بالعكس نعود للتقاليد والتراث
الحضارى الاسلامى ؟ وخلف كل هذه النقاشات كان هناك
سؤال فى غاية الالاحاح يواجه المصريين : ما هو الموقف من الوضع

الدولى المصرى الجديد ، من الاتفاقيات المنفردة مع اسرائيل ، من العزلة العربية التى واجهتها مصر فى العالم العربى ؟ كيف يمكن التنسيق بين هذه الامور وبين المعتقدات الدينية والقومية ؟ لم يكن من الممكن طرح كل هذه الاسئلة مباشرة ايام ديكتاتورية السادات ، بل طرحت بشكل غير مباشر ، لكن فى ايامنا هذه تطرح وتناقش علنا .

ولدى تكرارك لهذه الاسئلة تشعر بضرورة التوقف والسؤال : هل هذه الاسئلة تهم غير المستشرق — المستعرب او المختص فى شئون السياسة والاجتماع والايديولوجيا والدين والجغرافيا وعلم الاجناس والتاريخ ؟ هل هى تهم القارئ العادى ايضا ؟ اننى اجرو على الاجابة بنعم على هذا السؤال .

اننا نسمع ونقرأ عن مصر ما يعكس ادراك العالم الخارجى لها ، وهذا صحيح ومبرر . لكن من اجل استكمال وتأصيل الصورة من المفيد تفسير ومعرفة كيف ينظر المصريون انفسهم الى انفسهم . كيف يرون مكانهم ومستقبلهم فى العالم . وقد يساعدنا ذلك فى التحديد الصحيح لعلاقتنا تجاه مصر والمصريين ول مستقبل علاقتنا عموما .

ولنبتعد من اجل هذا الهدف عن الصور الزاهية للواقع المصرى وعن الرقصات الساخنة ولنعمق الانطباعات الشخصية بقدر اكبر مما سبق بحكمة الكتب والمجلات . وليتطرق حديثنا عن مصر والمصريين لتلك المجالات والجوانب الحياتية التى كثيرا ما تعود الكتاب — الرحالة والصحفيون على تجنبها متعجلين فى وصف الحياة اليومية المعاصرة فقط .

مصريون أم عرب ؟

مصر هي رق : القرآن كتب عليه فوق الانجيل ،
والانجيل فوق ما كتبه هيروdotوت وتخلل كل
هذه الطبقات الحروف الهيروغليفية لمصر القديمة .
ب . نيوييرى . مصر كحقل للابحاث الانتروبولوجية . ١٩٢٤

كل من ينتمى للأقطار العربية ويتحدث العربية فهو عربى ،
بصرف النظر عن اسم الدولة التى يعد
مواطنها رسميا وبصرف النظر عن الديانة التى يعتنقها ،
او الطائفة او العقيدة التى ينتمى اليها ، وبصرف النظر
عن اصله او نسبه وحسبه . . . لا يحق للمصريين ان
يولوا ظهورهم للعروبة استنادا لارتباطهم بالحضارة الفرعونية .
ساطع الحصرى . العروبة اولا . ١٩٦٠

انا لا نستطيع الحديث الآن عن امة عربية او وطن عربى .
يمكننا ان نتحدث عن ذلك فقط بعد اختفاء
الحدود السياسية فى العالم العربى ، وبعد تأسيس دولة
عربية واحدة مركزية . . . لا توجد وحدة
عربية ولا توجد قومية عربية واحدة . توجد
قوميات عربية مختلفة داخل وحدات سياسية مختلفة .
لويس عوض . الاساطير السياسية . ١٩٧٨

ان مصر لا تعتبر بداية او نهاية . . . واذا
كانت الامة العربية عظيمة بمصر فان مصر يمكن
ان تكون عظيمة فقط بوجودها مع الامة العربية .
من البيان المشترك للقاء القمة العربية فى طرابلس . ١٩٧٧

من ذكريات سنوات الدراسة : وقف سائس الحمير امام عدسات
تصوير السائحين وخلفه احد التماثيل المصرية القديمة فسى
الاقصر . فيصيح السائحون ها هو «الخلف والسلف !» ويقدمون
البقشيش التقليدى للمصرى .

ومحت آلاف السنين ملامح وجه التماثيل العملاقة الجبارة ،
لكنها مازالت موجودة بعد بالقدر الذى يسمح باستشفاف التشابه
الصورى بين المصرى القديم والمعاصر .

وبعد عودتى حينئذ من رحلة لصعيد مصر ، دخلت سينما
«ريفولى» لمشاهدة حفل فرقة «رضا» التى حاولت ان تحيى الرقصات
المصرية القديمة . وقد خيل لى ان الراقصات خرجن توا من
الرسومات الموجودة على الجدران فى المقابر وللدهشة الرهيبة كن
يشبهن قدماء المصريين ليس فقط بملابسهن بل وبملامح وجوههن .

فى نهاية العشرينات قام الدكتور والعالم المصرى حسن صبحى بنشر
صور تماثل الفرعون اخناتون وصورة احد مرضاه الذى كان يبلغ
من العمر ٢٠ عاما مرتديا نموذجا يشبه تماما تاج فرعون . واتضح
بعد ذلك انه من المستحيل التفريق بينهما . وقد حدد الخبراء
ليس فقط التشابه بين الاثنين بل التطابق الكامل بينهما .

ولنتذكر قصة اكتشاف التماثل الخشبى لاحد وجهاء المملكة
القديمة ، والمحفوظ الان فى المتحف القومى فى القاهرة .
فقد اعتبر عالم المصريات الفرنسى الشهير ماسبيرو هذا التماثل

احدى التحف الفنية النادرة للفن العالمى . وفى علم المصرىات فان هذا التمثال معروف باسم «شيخ البلد» ، ولقد دهش العمال الذين اكتشفوا التمثال من درجة التشابه بينه وبين شيخ البلد حتى انهم صاحوا «اوه ، شيخ البلد» وهكذا احتفظ التمثال بهذه التسمية .

ولقد ذكر الاكادىمى السوفيتى كارستوفتسيف ان النوع العرقى للانسان المصرى الذى تكون فى فترة المملكة القديمة منذ اربعة آلاف عام قبل الميلاد كان خليطا من عدة قبائل وقوميات سكنت دلتا ووادى النيل فى فترة ما قبل الاسر الفرعونية . وبمجرد ان تشكل اكتسب متانة وشخصية ذاتية فريدة واضحة ظلت عمليا دون تغيير على مدى ستة آلاف سنة .

ان علماء الانثروبولوجيا قاطعون فى آرائهم حول انه على مدى آلاف السنين هذه لا يمكن ايجاد تغييرات ملحوظة فى جمجمة الانسان المصرى . وكل المصرين ينتمون الى جنس واحد من البحر المتوسط . وتبرهن رسومات الجدران والتمائيل على هذه الحقيقة . ولقد كانت التغييرات كبيرة فى النوع العرقى لاي جزء من اوربا خلال الالف عام الاخيرة اكثر منها فى مصر على مدى التاريخ المعروف لوجودها . وقد كتب عن ذلك كثير من علماء الانثروبولوجيا والاثنوجرافيا .

وفعلا ، شهدت مصر حوالى ٤٠ غزوا ولم تعرف هجرة الشعوب . وفى القرن الثامن عشر فقط قبل الميلاد تعرضت مصر لغزوا الهكسوس الرحل الذين احتلوا الدلتا ٣٠٠ عام . وكم كان عددهم ٢٠٠ — ٣٠٠ الف ؟ لقد ذابوا كالمطر فى الصحراء . ما هو سبب ظهورهم ؟ هل بسبب ضعف القوة العسكرية للمملكة الوسطى للفراعنة ، او أن الهزيمة العسكرية كانت نتيجة مرض

عام في المجتمع وليس سببه ؟ او لانه في هذا الوقت بالذات
ضحلت وجفت نسيبا مياه النيل مما ادى الى انهيار اقتصاد
مصر ؟ او لهذه الاسباب كلها مجتمعة ؟ قد يكون ان النوع
العرقى للهكسوس لم يكن بعيدا عن النوع العرقى المصرى وان
الجزء الاكبر من سكان مصر ظل في صعيد مصر بالذات حيث
انطلقت من هناك حملة لطرد الغزاة واعادة تسكين الدلتا
من جديد ، لكن الهكسوس لم يتركوا آثارا واضحة
في مصر .

وكانت الغزوات الليبية والاثيوبية والاشورية والفارسية عبارة
عن غزوات عابرة . فقد جاء الغزاة ليسيظروا وينهبوا وليس لكي
يشاركوا في العمل . فاليهود الذين هاجروا الى مصر في القرن الحادى
عشر قبل الميلاد عاشوا في معسكرات منعزلة دون ان يتزوجوا
مع المصريين . وهاجروا من مصر دون ان يتركوا اثرا في الوادى
او الدلتا .

وقد كتب د . بريستد في كتابه (تاريخ مصر القديمة) :
«ان البلاد عجت بالعبيد الساميين وغيرهم من الاصل الاسيوى ،
اما التجار البيزنطيين وغيرهم من الاجانب فقد كانوا كثيرى العدد
لدرجة انه كان هناك حى خاص في ممفيس للاجانب به معبد
بعل وعشتار» . واستقرت العناصر الاجنبية بشكل اساسى في
المدن . فقد ازدهرت حياتهم ونما عددهم وماتوا مع السكان ،
الا ان الاصل — اساس الشعب المصرى بفلاحيه ظل قليل الاستجابة
للتأثير الخارجى .

ولعله كان هناك تأثير ملموس من الخليط العرقى الاخر ذى
البشرة الداكنة والشعر المجعد والانف المبطوح . وتعود علاقات مصر
بالمناطق المتاخمة للجنوب والجنوب الغربى من النيل الى فترة

المملكة القديمة حيث استمرت عملية جلب العبيد من هناك حتى القرن الماضي . لكن العنصر الافريقي ايضا ذاب سريعا في المصرى رغم ان بشرة سكان الصعيد اكثر سوادا اليوم من بشرة سكان الدلتا .

وماذا عن الاغريق ؟ لقد استمرت سيطرتهم على مصر بعد فتوحات الاسكندر الاكبر عام ٣٢٢ قبل الميلاد عبر اسرة البطالمة . وانضمام مصر الهلينية الى روما ثم انتقالها الى سلطة البيزنطيين كل هذا استمر حوالي الف سنة .

الا ان الاغريق كانوا ايضا اقلية تناثرت في مدن ناوكراتيس (في الدلتا) ، والاسكندرية وبطليموس . ومن اجل ان يحافظ الاغريق على الركيزة الاجتماعية-العرقية كان محظورا عليهم الزواج من مصريين او مصريات . وقد ذابت الاقلية الاغريقية بسرعة وسط بحر المصريين خارج هذه المدن الثلاثة المذكورة وخاصة في واحة الفيوم . وقد كان هذا نفس مصير كل ممثلى شعوب البحر الابيض المتوسط او مناطق آسيا القربية من مصر الذين عاشوا في مصر ايام الامبراطورية الرومانية . وبدراسة صور المصريين الذين عاشوا بالفيوم في القرن الاول حتى الثالث الميلادى يجد العلماء انواعا من العرق الاغريقي من ذوى الاصل من شبه جزر الابنين وايبيريا ، وحتى من الهند . وقد ذهب هذا الجمع المختلف مع رياح الصحراء .

كان هذا هو الوضع لحين ان جاء العرب في القرن السابع الميلادى . واذكرهم بان عددهم كان ٤ آلاف مقاتل تحت قيادة عمرو بن العاص . وقد اكملت الامدادات التى اتت هذا العدد الى حوالى ٢٠ الف مقاتل . وهذا مقابل ٦-٧ ملايين نسمة هم سكان مصر حينذاك ، وكما هو واضح ، كقطرة في

بحر . ولم يكن ظهور العرب غزوا ، فقد اعتبر المصريون قدوم العرب انقاذا لهم وتحريرا من الظلم البيزنطى . ومنيت الجيوش البيزنطية المنحلة بهزيمة تلو هزيمة ، اما سكان المدن فقد فتحوا للعرب بوابات القلاع .

وطبقا للعديد من الاحصاءات فقد قدم لمصر خلال عدة قرون حوالى ١٥٠ الف عربى ، رغم ان هذا الرقم يعد مادة للنقاش تجاه تخفيضه وتجاه زيادته . وقد عاش العرب فى البداية فى معسكرات حربية تحولت الى مدن على اطراف الصحراء لكنهم بمرور الزمن انتشروا فى عمق البلاد واختلطوا بالسكان الاصليين . لكنهم ايضا كانوا اقلية ، واستطاعوا فى بعض القرى وقليل من المدن ان يغيروا من الشكل العرقى للمصريين . ولا ينطبق هذا بالطبع على المصريين الفقراء الذين لم يختلط معظمهم بالقبائل العربية التى رحلت وتنقلت فى شمال افريقيا .

وقد ثبت ان اختلاط المجموعتين العرقيتين المصرية والعربية كان قد تم بسهولة نظرا لتقاربهم كما لو كانوا «ابناء عم» «او ابناء ابناء العم» . ومن الاسهل تحديد العربى القادم للسودان بين السودانين عن العربى القادم لمصر بين المصريين ، خاصة بسبب الاختلاف الكبير بين العرب وبين السكان الاصليين للسودان فى ذلك الوقت .

وقد مثلت الهجرات الاخرى بعد قدوم العرب تدفقا جديدا للمدينة فقط سواء كانت هذه هجرات الاتراك او الاكراد ، او الشراكسة او السلافيين او الموجات الجديدة من هجرة الاغريق والايطاليين لمصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين وحتى الخمسينات والستينات من هذا القرن . وكان الفتح الفاطمى الآتى من

الغرب فى القرن العاشر الميلادى استثناء من هذه القاعدة ،
اذ انه اتى بالدم ليس فقط العربى بل وايضا البربرى الى
مصر . الا ان الدم البربرى كان قليل التأثير على مدى القرون
التي اختلط خلالها بالمصريين .

ويعد السبب الاساسى فى ثبات النوع العرقى للمصريين هو
تغلبهم العددي الدائم على كل من اتى لمصر من العناصر العرقية
الاخرى . فلم تكن هناك بجوار مصر اى احتياطات كبيرة من
السهول والوديان التي كانت على استعداد لاستيعاب الشعوب المهاجرة
مثلما كانت على مدى آلاف السنين سهول قارتى آسيا واوربا
التي هاجرت منها اعداد غفيرة من السكان عبر السهول القريبة
من البحر الاسود الى اوربا ، وعبر القوقاز ووسط آسيا الى جنوب
غرب آسيا ، وعبر مضيق خيبر (بين باكستان وافغانستان) الى
جنوب آسيا ، وفى الجنوب الشرقى الى الصين .

وكانت مصر بعيدة عن مرجل شعوب آسيا المركزية العاصف
محمية بمنطقة امينة جافة تحولت تدريجيا الى صحراء سهلية
وسافانا . ونكرر ان مصر شهدت الكثير من الغزوات والفتوحات
لكنها لم تعرف عمليا التدفق الجماعى للشعوب التي كانت قد
استقرت فيها .

ويبدو ان هناك سببا آخر . فان نفس نظام رى الاراضى
الزراعية افترض تنظيميا اجتماعيا محدددا لم يكن موجودا لدى
اى من الغزاة ، فقد ظل البدوى الراحل بدويا سواء فى سهول
التاى او سهول نهر الدون . وكان يمكن للقبائل الزراعية الالمانية
ان تستقر فى غالبا او فى شمال ايطاليا
او فى بريطانيا ، لكن من من القادمين لمصر كان يمكن ان
يتسق مع بنية القرية المصرية دون ان يفقد نفسه وثقافته ولغته ؟

العرب فقط استطاعوا ذلك ، الا ان ذلك لم يتحدد بقدراتهم الاقتصادية .

فقد كانت الفتوحات العربية فى القرنين السابع والثامن من الميلاد كالفيضان الذى غمر مساحة ممتدة من المحيط الاطلنطى حتى الهند ، ومازال يحتوى للآن على الغاز متعددة لعلماء التاريخ . فالامر لا يتعلق بنجاح النشاط العسكرى ذاته الذى ادى الى هذه الفتوحات ، فهو على اى حال مفهوم ، اذ انهكت امبراطوريتا القرون الوسطى — البيزنطية والارانية الساسانية — بعضهما البعض فى المعارك اضافة الى انحلالهما الداخلى وضعفهما مما استثار الشعوب المضطهدة ضدتهما . وقد تحدث الجماهير البدوية هاتين الامبراطوريتين وحطمتها بقوتها العسكرى القبلى المنظمة التى مرت بمرحلة التمايز الطبقي المبكر . وقد جرى نفس الشئ ، لكن على نطاقات جبارة اكبر فى القرن الثالث عشر الميلادى ، حينما تأسست اكبر امبراطورية فى التاريخ البشرى وهى الامبراطورية المغولية . الا ان المغوليين لم يفرضوا نمط حياتهم على الشعوب التى اخضعوها لانفسهم ، خاصة المستقرة منها ، بل بالعكس هم الذين اختلطوا بهذه الشعوب وتحدثوا بلغاتها مثل التركية والفارسية والصينية كما استوعبوا ثقافتها .

لكن العرب عربوا شعوبا كانت تفوقهم بكثير من حيث العدد والنمو والثقافة . ويتحدثون عن غناء اللغة العربية ، الا انها باستثناء الاشعار الجاهلية والقرآن لم تتميز بنجاحات خاصة حتى عصر الفتوحات الاسلامية .

وكانت مصر هى المهيمنة فى الشرق الاوسط لمئات وآلاف السنين ، الا ان لغتها وثقافتها لم تنتشر خارج حدودها الجغرافية . طبعا ، لا يسرى هذا على المصطلحات المشتقة فى المجال

الفنى والثقافى والعلمى والدينى والفلسفى التى نجد آثارها فى العديد من اللغات والحضارات بدءا من اليونان حتى اليهود والمسيحيين وعموما فقد ظلت مصر محددة بدلنا ووادى النيل .
وقد ظلت الدول الهيلينية التى تأسست على فتوحات الاسكندر الاكبر مئات السنين . وقد اعتمدت هذه الدول على التكنيك والتنظيم العسكرى للهيلينيين وعلى بناء الدولة وعلى الانجازات العلمية والثقافية لها . الا انها لم تندمج بالشعوب التى اخضعتها لها . ولم يتغير الوضع فى عصر الامبراطورية البيزنطية . وقد ظلت اليونان الصغيرة الحالية هى الخلف الوحيد لبيزنطة واليونان القديمة فى المعنى الضيق للكلمة (اذا لم نأخذ باعتبارنا تأثير الحضارة الرومانية القديمة على كل الثقافة الاوربية والارثوذكسية) .

فاذا كانت روما كدولة عسكرية قوية قد اخضعت اليونانيين والدول الهيلينية فان اليونانيين قد استعمروا روما القديمة ثقافيا . ولتسهيل وتقسيم القضية يمكن التأكيد على ان الرومانيين اقتبسوا حضارتهم من الحضارة اليونانية وتطوروا على هذا الاساس . الا ان اللغة اللاتينية التى انتشرت فى عدد من البلاد الاوربية التى افتتحت اصبحت اساسا للغات الاسرة الرومانية . لكن اللغة اللاتينية لم تستطع ان تبث جذورها فى اى من آسيا او افريقيا .
اما اللغة العربية فقد تغلبت على اللغات المحلية على الاراضى الواقعة من الاطلنطى حتى آسيا الصغرى والمرتفعات الايرانية . فلماذا توقف انتشار اللغة العربية على هذه المنطقة ؟ لماذا لم تستطع دمج الاتراك او الايرانيين ؟ قد يكون لان سكان المناطق الاسيوية المتاخمة للعرب كانوا من الساميين اى اخوة اشقاء للعرب ، اما سكان الشمال فكانوا ينتمون بلغاتهم لاسرة اللغات

الافروآسيوية ، اى بخلاف الايرانيين والاتراك (الاربيين) كانوا اقارب بعيدين للعرب .

وقد سار العرب تحت علم دين جديد أكد دون هوادة ان كتاب الله المنطوق باللغة العربية لا بد وان يتكرر فقط باللغة العربية . لكن الا يستطيع القس ان يتحدث فى المعبد بلغة ويتحدث الشعب فى حياته اليومية بلغة اخرى ؟ وألم يقرأوا الصلوات فى الكنائس باللغة اللاتينية فى الدول الجرمانية حتى عصر الاصلاحات ، وألا يقرأ الفقهاء الاتراك لليوم الصلاة فى تركيا باللغة العربية رغم ان الشعب التركى يتحدث التركية ؟ ان انتصار الاسلام على مساحات شاسعة عنى ان الازمة العميقة شملت ليس فقط الطبقات الحاكمة بل وايضا حضارات الشعوب التى اخضعت . ولقد تم الترحيب بالاسلام الخارج من اعماق الجزيرة العربية فى الدول ومن قبل الشعوب الاكثر تحضرا ، كما استوعب لنفسه كثيرا من عناصر حضاراتها المنهارة . ومما لا شك فيه ان الاسلام قد اتى ببدايات ابداعية فى الثلاثة او الاربعة قرون الاولى بعد الهجرة ، مستفيدا من العناصر الحضارية المسيحية والرومانية—اليونانية القديمة ومن الحضارة الهندية . وخلال تلك السنوات تحول الاسلام الى نظام عقائد دينية ونظام حقوقى وحكومى ونظام للاخلاق والتهديب منظم للعلاقات المعيشية والاسرية والى نظام فلسفى ايضا . واتضح ان العدد القليل من العرب كانوا بمثابة خميرة لعجينة ، او شرارة لحطب جاف ومشعل مضىء لحضارة من نوع جديد .

لكن ، لنعد الى مصر . لقد استخدمنا تعبير «ازمة حضارية» . ومما يبرهن على عمق هذه الازمة واستمرارها ان المصريين فى الحضارة العربية—الاسلامية نسوا انفسهم وماضيهم ولغتهم وكتابتهم

وعاداتهم وديانتهم . فقد اصبحوا عربا مصريين . وفي غيوبتهم التاريخية وحتى القرن التاسع عشر فانهم فضلوا ان يبدأ التاريخ منذ محمد (صلعم) وفي الوعي الشعبى الجماهيرى يبدأون التاريخ من عهده حتى الآن . ومن وجهة النظر العرقية ظلوا كما هم مصريين قدماء ، لكن من وجهة النظر الحضارية فقد ولدوا من جديد فى نوعية جديدة ، اصبحوا عربا مصريين .

وقد يعارضنى البعض : وماذا عن الاقباط ؟ وأجيب بان الاقباط ايضا اصبحوا كذلك رغم ان اجابتي لن تكون قاطعة بنفس المقدار .

ان نفس كلمة «قبط» تعود الى اللفظ الاغريقى القديم يجيبتوس (مصر) ، لكنها تعنى فى الوقت الحالى الانتماء الى المصريين المسيحيين .

ان فكرة التوحيد ظهرت كوميض البرق وقت الرعد فى الصحراء اول الامر فى مصر فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وقد تقدم بهذه الفكرة الفرعون المصرى اخناتون الذى خرج عن التقاليد محاولا التحرر من جبروت الكهنة . وقد انتهت هذه المحاولة بهزيمة دون عواقب مرثية ، وعرفت البشرية أكثر من اخناتون نفسه اسم زوجته الجليلة نفرتيتى التى اصبحت احد معايير الجمال النسائى ، كما عرفت البشرية ايضا أكثر من اخناتون خلفه توت عنخ آمون ، الذى حافظت مقبرته على بهائها ورونقها كاملين ليومنا هذا وظلت المقبرة الوحيدة التى لم يشملها النهب من بين كل مقابر فراعنة مصر القديمة .

وقد جاءت عقيدة التوحيد الى مصر بعد ١٥٠٠ سنة مع المسيحية التى تمصرت هنا مباشرة . ويجد الباحثون علاقة بين المسيحية وديانة قدماء المصريين . ففي مصر الفرعونية كان الصليب

حرفا هيروغليفيا يعنى الحياة .
لقد تحدثنا عن مملكة الآخرة لدى المصريين القدماء .
وقد وضعوا بذلك الاساس للاسطورة المسيحية عن البعث ، وعن
العذراء ووليدها عيسى المسيح ، تلك الصورة الواضح توارثها عن
ايزيس (زوجة واخت اوزيريس ، اله الطبيعة المبعوثة والميتة) ووليدها
حور .

لقد رفض المصريون الطبيعة الثنائية — الالهية والانسانية —
لجوهر المسيح قابلين فقط الطبيعة الالهية له . وقد اصبح مغزى
مسيحيتهم التي سميت بالاحادية هدفا للمطاردات الفظيعة التي
اخذت احيانا طابعا دمويا من جانب الرومان اولا ثم البيزنطيين
فيما بعد . وقد عكس صدام الاحادية المسيحية مع الارثوذكسية
البيزنطية كما يحدث هذا عادة ، ليس فقط مناقشات عقائدية
دينية ولكن عكس ايضا تناقضات سياسية-اجتماعية واقعية ،
اذ كان الشعب المصرى يئن تحت الظلم المتنامى للعبودية الزراعية
البيزنطية . وقد اقام الاقباط اشكالا تنظيمية دينية جديدة هي
الاديرة التي انتقلت فيما بعد الى اوربا .

وباعتناق المصريين للمسيحية نسوا ماضيهم . وقد عبر الاقباط
عن كراهيتهم ونفورهم من الديانة المصرية القديمة بهدمهم للمعابد
والآثار القديمة ، فهم بالذات ، وليس المسلمون ، هم الذين
قضوا على قسم كبير من الروائع المعمارية والفنية للفراعنة القدماء .
وقد تحدث الاقباط بلغتهم وكتبوا بها ، وهى اللغة التي اختلفت
عن اللغة الشعبية قبلها . وعند قدوم العرب كان سكان دلتا ووادي
النيل شعبا من نوعية اخرى يختلف تماما عن المصريين
القدماء .

وقد قوبلت الفتوحات العربية لمصر كتحرر من سلطة

البيزنطيين ، مما ادى الى اعتناق الاقباط الجماعى للاسلام ،
 الامر الذى كان بمثابة الخطوة الاولى لتعريبهم . الا ان اللغة
 القبطية قاومت خمسمائة عام الى ان تغلبت عليها اللغة العربية
 تماما . وحتى القرن الثامن عشر كانت الخدمة الدينية ما زالت
 تؤدى باللغة القبطية لكنها اصبحت الان تؤدى باللغة العربية ،
 اضافة الى ان القليل من القساوسة يعرفون لغة اسلافهم .
 وقد احتفظت بعض الاديرة والكنائس باللغة القبطية قراءة
 وكتابة ، حيث تصدر كتب دينية بالكتابة القبطية (معظم حروف
 اللغة القبطية مقتبسة من اليونانية ، وتسع حروف اقتبست من
 اللغة الشعبية لمصر الفرعونية) . واذا كانت عملية تعريب مصر
 شاملة وكاملة فان ذلك لا ينطبق على الاسلام وانتشاره فى مصر .
 فما زالت الكنائس للان تجاور المساجد فى القرى والمدن المصرية ،
 وخاصة فى صعيد مصر . وفى احد اسواق القاهرة الرئيسية فى
 باب اللوق يبيع الاقباط لحم الخنزير وبيجوارهم محلات اللحوم
 التابعة للمسلمين تبيع لحم الخرفان والجاموس ، «الطاهر» الذى
 لا يمكن ان يباع فى مكان واحد بجوار لحم الخنزير «النجس» .
 وكان اسلام مصر «طواعية» بمعنى ان الدخول فى الاسلام
 كان يكافأ مباشرة ماديا— برفع الجزية ، كما كان يعنى فى
 المرحلة الاولى ايضا الانضمام للفئة السكانية المسيطرة . وفى
 بعض الاحيان كان اعتناق الاسلام يحدث بشكل مكثف وجماعى
 كبير لدرجة ان نواب الخليفة فى القرون الاولى للاسلام كانوا
 يلجأون الى فرملة هذه العملية ، حتى لا يقللوا من إيرادات
 الخزانة . وعلى اية حال عرفت مصر ايام الخلافة الفاطمية مطاردات
 دموية للمسيحيين وغلقا وهدما للكنائس . ومازالت الديانة القبطية
 تواجه ضغطا للان من قبل الوسط الاسلامى المسيطر . وحتى

في ايماننا هذه لا يمكن ان يكون رئيس الدولة مسيحياً . ويقل تدريجياً عدد الاقباط نسبة الى عدد السكان . فقد كانت نسبتهم عام ١٩٤٧ تبلغ ٨ ٪ والان حوالي ٦ ٪ . وعلى اية حال فالاقباط انفسهم يعتقدون ان هذه النسب منخفضة .

وقد حاول كثير من الغزاة بث الفرقة بين المسيحيين والمسلمين في مصر ، معتمدين على ان الاقباط سيتحولون الى «متعاونين» مع الغزاة . ولم يستطع الصليبيون تحقيق ذلك في القرون الوسطى ، حينما كان الاقباط حوالي نصف السكان ، كما لم يستطع الانجليز ايضاً تحقيق ذلك رغم ان جزءاً من الاقباط تعاون معهم . وتجاه العالم الخارجى كان الاقباط والمسلمون مصريين قبل كل شيء .

وهكذا ، فقد ازاحت اللغة العربية اللغة القبطية ، لكن لم يحدث ان اعتنق كل المصريين الاسلام . وفي المغرب العربى كانت العملية عكسية تماماً . فمع الانتشار الكامل للاسلام هناك الملايين من الجزائريين والمغاربة يتحدثون البربرية ، رغم ان كثيراً منهم يعرفون اللغتين العربية والبربرية .

ولا تغير المناطق الصغيرة في واحات سيوة والنوبة بالصعيد التى تنتشر فيها اللغة البربرية والنوبية من الصورة العامة التى تجسد الوحدة اللغوية فى مصر . ويعتبر النوبيون والبربر الذين يعيشون فى مصر من ذوى اللغات المزوجة ، وقد ادت عملية هجرة النوبيين للحياة فى المناطق التى تكونت بعد ظهور بحيرة ناصر الى الاسراع بادماجهم وذوبانهم مع بقية السكان المصريين .

ولدى استخدامنا لمفهوم «اللغة العربية» فاننا ننقل دون ارادتنا تصورنا الاوروبى عن اللغة فى الحالات المختلفة فى الدول العربية . فنحن الاوربيين — الروس والفرنسيين والانجليز نفكر ونقرأ ونكتب

كل بلغته بالروسية والفرنسية والانجليزية . والحال يختلف بالنسبة لمصر والبلدان العربية الاخرى .

فبعد وصولي كطالب الى مصر طلبت في الفندق كوبا من الماء وذلك باللغة العربية الفصحى التي علمنا اياها العالم والبروفيسور الكبير بارانوف الذى وضع قاموس اللغة العربية-الروسية وقلت «اثنى كوبة من الماء» ولم يفهمنى احد ، لكن الآن حينما اكون فى مصر فانتى اقول بسهولة : «جيب كوباية مية» ويحضرون لى ما اريد . وتحتوى اللغة العربية على ما يمكن تسميته بمستويين : اللغة الدارجة واللغة الفصحى . واللغة الدارجة — اللهجة — تختلف من بلد لآخر لدرجة ان العرب من بلدان مختلفة احيانا لا يفهمون بعضهم البعض . فى عام ١٩٦٣ قمت بالترجمة بين اثنين من العرب جزائرى وعراقى . فالجزائرى تحدث العربية بلهجته وبالفرنسية ، والعراقى تحدث بلهجته وباللغة العربية الفصحى . ولم يستطيعا فهم بعضهما البعض . وانا لم افهم هذه اللهجة او تلك ، لكننى ترجمت من الفرنسية الى اللغة العربية الفصحى .

وقد ثبتت الاوضاع فى الدول العربية تقريبا بالشكل الذى كان يمكن للشعوب الرومانية ان تكون عليه لو أنها استمرت فى التحدث بلغاتها الاسبانية والفرنسية والايطالية والرومانية ، بينما كل ادبياتها كانت قد ظلت باللغة اللاتينية . او كما لو تحدث السلاف الشرقيون باللغات الروسية والاوكرانية والبييلوروسية فى الوقت الذى كتبوا وقرأوا فيه باللغة السلافية القديمة . لكن لا يوجد هناك تشابه مطلق بين الوضع فى الدول العربية الآن وبين الحالات الفرضية المذكورة . وعموما فالافلام المصرية الناطقة باللهجة المصرية مفهومة بشكل او بآخر فى الدول العربية الاخرى . وما زال القرآن بالنسبة للعرب هو اساس اللغة العربية الفصحى الثابت

وغير المترجم ، اما اللهجات الدائمة التأثير به فان التباين بينها اقل حتى من اللهجات الرومانية فى القرون الوسطى او اللغات السلافية .

لكنتى لم اذكر الافلام السينمائية عبثا . فلغة المعيشة والتعامل اليومى والتفكير— هى اللهجة العامية . ولذلك فان المسرحيات والافلام والحوار المرتجل فى التليفزيون او الراديو يجب ان يكون باللهجة «العامية» العربية ، من اجل ان تجذب اهتمام المشاهدين والسامعين وتصل لقلب وروح كل منهم . ولا يمكن رواية النكات والجناس باللغة العربية الفصحى . فاذا ما اراد اى شاب ان يعبر عن عواطف حبه باللغة العربية الفصحى فانه سيبدو على الاقل غير طبيعى . فالغناء والجدال والسب يمكن ان يكون فقط باللهجة العامية .

وقد اصبحت الازدواجية اللغوية كابوسا مزعجا للكاتب المصرين وغير المصرين . فهم يكتبون باللغة العربية الفصحى التى لا يتحدثون بها ابدا ، والحوارات الحية لا بد ان تكون باللهجة العامية . لكن المفردات والمصطلحات العلمية والمفاهيم المعقدة لم تعد بعد باللهجة العامية . ولذلك فان العلماء فى الاحاديث المهنية المتخصصة— سواء العلوم الانسانية او الفنية— يخلطون بين اللغتين الفصحى والشعبية . اما الخطيب السياسى فيمكن ان يخلط بخطابه الذى يلقيه باللغة العربية الفصحى تعبيرات باللهجة العامية .

ولم تكن اللغة العربية الفصحى حتى قبل عصر الراديو والتليفزيون مفهومة لجماهير السكان . لكن شكلها المخفف بالاسلوب الصحفى والاذاعى التليفزيونى يعتبر سهل الاستيعاب لاجلبية المصرين . وكثيرا ما تدخل كلمات وتعابير فصحى الى اللغة الدارجة عن طريق الراديو والتليفزيون . لكن اعماق اللغة

العربية الفصحى كثيرا ما تظل صعبة الاستيعاب حتى للانسان المتعلم . وذات مرة شكوت لمدرس اللغة العربية الذى كان يعلمنى فى القاهرة من اننى لا افهم الشعر باللغة العربية الفصحى الا بصعوبة وكثيرا ما لا أفهمه على الاطلاق . «وهدأنى» بقوله : «أؤكد لك ان اغلبية خريجي الجامعة لا يفهمون لغة الشعراء» .

ويعتبر الشعر للاجنى حتى باللهجة العامية صعب الفهم ، لكنه مفهوم للمصرى ومحبوب «وواصل» فى احسن معنى لهذه الكلمة . وذات مرة بدأت أقرأ فى حضور عدد من الصحفيين شعرا لاذعا للشاعر احمد قواد نجم المنقوم عليه ، وقد اثارت هذه الاشعار عاصفة من الاعجاب لزهاء الصور الشعرية ودقة المقارنة فيها ، خاصة وانه لفظ بها اجنبى . لكن لن نطرح الاشعار المكتوبة باللغة العربية الفصحى فى الارشيف المغبر . فهذه الاشعار سامعوها ومحبوها ، فهم يتمتعون بجرسها فى حد ذاته وباناقة الاسلوب وبتعدد الاشكال الشعرية . ويفتن سحر الكلمات كثيرا من المصريين ، وكذلك الاصوات العظيمة للغة جميلة بحق . وقد حاول شيخ الادب المصرى الكاتب والمؤلف المسرحى توفيق الحكيم ، الذى استندت كثيرا الى مقتطفات من اعماله ، ان يتخذ طريقا آخر . فقد اختار من اللهجة العامية كلمات وتعبيرات موجودة فى اللغة الفصحى وبالعكس . وبالتالي فان نفس النص كان يمكن قراءته باللغة العامية وبالفصحى . وقد سمحت الكتابة العربية ، التى تستخدم الحروف الساكنة دون الحروف الصوتية والتي تسمح ايضا بان تقرأ نفس الحروف باكثر من طريقة ، بتنفيذ هذه التجربة الفريدة ، التى ظلت «تجربة القلم» للكاتب المبجل والقلّة القليلة التى تبعته .

وقد تقدم مؤيدو القومية المصرية المتطرفون بفكرة رفض

اللغة العربية الفصحى نهائيا والكتابة العربية والانتقال الى اللهجة العامية وحروف الابدادية اللاتينية . وقد برهن هؤلاء على صحة الفكرة بتجارب الاصلاحات اللغوية التي اجريت في بعض الجمهوريات السوفيتية وفي تركيا . وفي نهاية الامر فان اللغة المالطية التي تعتبر شكلا من اشكال اللغة العربية تكتب باللاتينية . لكن مثل هذه الآراء لم تجد من يتبناها ويدافع عنها . ولا تعتبر الابدادية العربية مريحة للغات التركية لكنها مريحة اكثر لبنية اللغة العربية . ويعنى الانتقال للهجة العامية التخلي عن كل التراث الثقافي العربى كما سيعنى العزلة الثقافية للبلدان العربية بعضها عن بعض . وأخيرا ، وهذه هى العصى الغليظة فى ايدى المعارضين لمثل هذا التغيير ، ماذا سيحدث للآيات الالهية التى جاءت على لسان النبى محمد باللغة العربية الفصحى ؟ ما العمل مع القرآن الشريف ؟ ان نفس فكرة ترجمة القرآن هى اهانة .

ماذا سيفعل العرب بلغتهم — هذه قضيتهم . اذ انه من الصعب على الاجنبى واحيانا من المستحيل ان يحكم فى هذه القضية الصعبة مثل الاصلاح اللغوى الجذرى . لكن مع استمرار النقاش حول هذا الموضوع ما زال معظم المصريين اميين ومعزولين عن لغة الكتابة عن الكتب والجرائد وبالتالي عن الثقافة . وتشير الاحصاءات الشكلية الى ان ثلثى السكان البالغين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة . الا اننى لا اصدق هذه الاحصاءات . فالطفل القروى الذى تعلم ٤ او ٥ فصول فى المدرسة حيث عرف مبادئ اللغة العربية الفصحى الغربية عليه يعود لبيئته حيث يسمع ويتحدث اللغة العامية فقط وينسى بسهولة كل ما علموه اياه . فهو يعرف مبادئ القراءة والكتابة وكذلك ايضا من وجهة

نظر الاحصاءات فهو وحدة غير أمية فى المجتمع ، لكنه امى
عمليا . اما البنات فان معظمهن لا يذهبن الى المدرسة .
وقد جاء بأمر اللواء الشاذلى رئيس الأركان العامة للقوات المسلحة
المصرية الخاص باقتحام قناة السويس وتدمير «خط بارليف»
فى ٦ اكتوبر ١٩٧٣ المقدمة التالية : «ابنائى الضباط والجنود
يا ابناء مصر ، يا افضل جنود على الارض ! يا احفاد الفراعنة
العظماء ! ، يا ابناء العرب الامجاد !» .

لقد كتبت لتوى عن ان العرب المصريين فى الاسلام نسوا
ماضيهم الفرعونى . والان فى اهم امر تاريخى ذى اعظم مسئولية
نقرأ— «يا احفاد الفراعنة العظماء !» الا يوجد هنا تناقض ؟
حتى القرن التاسع عشر كان هناك صمت مطبق على العصر
الفرعونى والماضى المصرى القديم . ولم تفصح عن محتواها
آلاف وآلاف الكتابات الهيروغليفية على الجدران والتماثيل والمقابر وعلى
اوراق البردى ، ولم يستطع احد من سكان الارض ان يقرأها .
وكانت المعابد والاهرام التى مثل بها الاقباط غريبة عن العرب
المصريين . والان وحتى اليوم يعتبر الفلاح المصرى ان
الاهرام من بناء الجن ، ومنذ مئتى سنة كان هذا هو رأى الجميع
تقريبا .

وفى تلك السنوات نظرت اوربا باحتقار وتكبر الى الشرق
«المنحط» متباهية بقوتها العسكرية وقدرتها الاقتصادية وتنظيمها
الاجتماعى . وكان الشرق بالنسبة للرأسمالية الفتية المملوءة بالطاقة
عبارة عن هدف للتوسع الاستعمارى والنهب العسكرى والاقتصادى .
لكن اوربا كانت محبة للاستطلاع . فهى لم تأت بجنود غلاظ
وموظفين استعماريين وتجار جشعين فحسب بل اوجدت ايضا رحالة
شجعان ممتازين ، وعلماء فى الجغرافيا والاستشراق والفلسفة والتاريخ

والبحث والتنقيب والادب . حقيقة ، ان البحث العلمى البحث للشرق كان يحمل فى طياته «مهمة اضافية» لم يدركها الباحثون انفسهم وهى التأكيد على فكرة ان الحضارة الغربية هى تتويج لتطور كل البشرية وان تفوقها الحالى هو نهائى مما يعطيها حقا الهيا لا جدال فيه للتصرف فى مصائر العالم . الا ان التنفيذ النهائى لهذه «المهمة الاضافية» حمل فى طياته نواة لعملية القضاء على النفس . فبعد اكتشاف ماضى شعوب الشرق ، الذى نسبته هى نفسها ، اعاد علماء الاستشراق الاوربيون لهذه الشعوب امكانية الفخر باسلافهم العظماء ، واعطوهم ثقة اضافية فى قواهم ، وفى قدرتهم على مقاومة الغرب القبيح وفى نهاية المطاف لرفض التكبل باغلال الاضطهاد الاستعمارى .

لقد اكتشف المستشرقون الاوربيون للعرب والاتراك والاييرانيين ماضيهم ما قبل الاسلامى العظيم . وعلى هذا الطريق سار كثير من علماء الشرق الممتازين رغم ان استنتاجاتهم كثيرا ما استخدمتها المجموعات والقوى السياسية المختلفة لتحقيق اهدافها المغرضة . وكان علماء التركيات المجرزيون هم المؤسسين الحقيقيين ، وان لم يعترف بهم ، لدعوة الجامعة التركية الايرانية (التي تقلصت الى حدود الجامعة التركية فحسب) .

وقد اصبح الاتراك الذين راحوا يدرسون ماضيهم قبل الاسلامى يبدأون العد لوجودهم التاريخى ليس منذ تاريخ هجرة محمد من مكة للمدينة عام ٦٢٢م بل من تاريخ دول الهون والخزر الرحل حتى وصل عدد امبراطورياتهم الى ١٦ «امبراطورية تركية عظيمة» استمرت على مدى آلاف السنين . وتعيش هذه الاساطير الآن فى قاعة البرلمان — المجلس الوطنى العظيم لتركيا — الذى تضيئه ١٦ ثريا تعبيرا عن الـ ١٦ امبراطورية القديمة .

ويعد اسم جان فرانسوا شامبليون من اعظم اسماء المستشرقين بالنسبة للعرب المصريين . فى عام ١٩٥٦ وبعد العدوان الثلاثى على مصر القى الطلاب والجنود بتمثال ديليسبس من على قاعدته فى قناة السويس ، كما ازال العمال اليافطات الفرنسية من على الشركات المؤممة واعطوا الشوارع اسماء عربية . لكن لم يرفع احد صوته مناديا بتغيير اسم احد الشوارع الرئيسية فى العاصمة والذي يصل بين المتحف القومى وشارع ٢٦ يوليو ، لانه شارع شامبليون الفرنسى الذى وهب حياته لمصر والذي اكتشف للمصريين وللعالم كله مصر القديمة .

وقد عرف شامبليون اللغات اللاتينية واليونانية والقبطية والعربية والامهرية واللغة السانسكريتية واللغة الكلدانية وغيرها من اللغات . وقد صاحب معرفته لهذه اللغات عقل محلل ومتحرر وقدرة فائقة على العمل . فحينما كان عمره ١٧ عاما اصدر فى جرينوبل كتابا عن الاقباط وفى العشرين من عمره اصبح بروفيسورا فى الجامعة . وقد جلب له شهرة اوربية ذلك الكتاب الذى كتبه عن «مصر فى عصر الفراعنة او بحث فى الجغرافية والدين واللغة والحفريات وتاريخ مصر حتى غزو الهكسوس» . وكان شامبليون جديرا بمأثرته العلمية . وحينما وقعت فى يديه صورة حجر رشيد الذى اكتشفه جنود نابليون وسقط فيما بعد فى ايدى الانجليز والذي كانت عليه نقوش اغريقية وهيروغليفية وباللغة المصرية القديمة ، انكب شامبليون على دراسته . وقد درس نقوش حجر رشيد عشرات من العلماء . واقترب العالم الانجليزى يونج من تفسير النقوش . لكن كآى اكتشاف عظيم ، ظلت امكانية اكتشاف سر اللغة المصرية القديمة تحوم فى الهواء الى ان حققها جان فرانسوا شامبليون .

وقد زار شامبليون مصر عدة مرات . وهو اول من استطاع ،
ربما على مدى الفى سنة ، ان يقرأ الحروف الهيروغليفية المنقوشة .
وقد عمل طوال حياته بدأب ومثابرة لدرجة انه توفى فى عمر لم
يتجاوز الـ ٤٢ عاما .

ولقد سمح اكتشاف شامبليون بتمديد تاريخ البشرية المكتوب
الى الفين او ثلاثة آلاف عام اى بمرتين تقريبا . لكن هذه الفترة
كانت ٣ آلاف عام اضافية للتاريخ المصرى بالذات حيث خاطبت
آثار القدم العظيمة عقول وقلوب العرب المصريين الذين حلموا
بيعث وطنهم .

ان التعرف على عبقرية وعظمة المصريين القدماء قد اصبح
يغذى القومية المصرية . اننى لم اخطأ وكرر المصرية وليست
العربية .

ويطمح كثير من المفكرين المصريين الى دور اب القومية
المصرية . وان لم يكن الاب فعلى الاقل فان الرائد الاول او
الأب فى العماد هو نابليون بونابرت . فقد اعلن فى ندائه المتفاخر
الموجه للشعب المصرى والذي كتبه باللغة العربية المستشرقون الفرنسيون
والمالطيون : «على مدى قرون عديدة تضطهد هذه الطغمة (المقصود
المماليك — الكاتب) . . . أفضل دولة فى العالم . . . وبعون
الله العلىّ القدير سيستطيع كل مصرى من الآن فصاعدا ان يشغل
المناصب العليا ويحصل على الشرف العظيم . وسيقوم المتعلمون
والاذكياء منكم بادارة شئون البلاد ، وبهذا الشكل تتحسن اوضاع
كل افراد الشعب» .

ان الفكرة الاساسية لاعلان نابليون هى مواجهة العرب المصريين
المضطهدين بالمماليك . وقد قدمت هذه الفكرة لغرض غير
نزيه : وهو اقامة قاعدة للتعاون بين الفرنسيين والعرب المصريين ،

اي بين المستعمرين الفرنسيين والسكان المضطهدين .
وقد عرفت الامبراطورية العثمانية طريقة تقسيم الناس الى
جماعات دينية — او ملل ، لكن لم تعرف التقسيم بالمعيار
القومى . فالمسلمون العرب ينتمون مع الاتراك لملة واحدة ،
اما الاقباط فينتمون لملة اخرى ، واليونانيون لثالثة ، والارمن
لرابعة . وقد تشكلت عناصر القومية تحت طيات الملابس الدينية ،
لكن القضية تعقدت امام العرب نظرا لسيطرة وجهة النظر الدينية
ولوجود الاقليات المسيحية وسط بيئتهم ، خاصة وان هذه الاقليات
تنتمى لشعوب ذات تقاليد تاريخية مختلفة ، ناهيك عن الحديث
عن نوع عرقى آخر .

وقد كانت محاولات علي بك الكبير ، باشا مصر فى النصف
الثانى من القرن الثامن عشر للتخلص من سلطة الحكومة الامبراطورية
العثمانية ، كانت لاسباب غطوسة ذاتية . وكان محمد على
وهو المصلح المصرى فى النصف الاول من القرن التاسع
عشر الالبانى الاصل الذى اسس امبراطورية مصرية ضخمة كان
مسترشدا ايضا بصفات حب النفس . فهو لم يعرف العربية وكان
يحتقر المصريين . حقيقة ان ابنه ابراهيم قال : «انى لست
تركيا — فقد وصلت الى مصر طفلا ومنذ ذلك الحين مصرتنى
شمس مصر وتغير دمي واصبح عربيا» . لكن موضوعيا ، وقد
يكون عن غير وعى ، فان علي بك الكبير ومحمد على عبرا
عن فكرة استقلال مصر ، دون ان تشكل الآمال القومية للمصريين
حينذاك بعد .

ولذا فالافكار التى حملها نابليون الى مصر سقطت على
تربة غير صالحة بعد . فقد طرد الشعب المصرى المتفرض بمساعدة
الاتراك والانجليز الفرنسيين من مصر . لكن بعض البذور التى

بذرها الفرنسيون اخترقت الارض وبدأت تعطى ثمارها ، وعلى اية حال ليست تلك الثمار التي انتظرها الاوريون .

فمفهوم «القومية» ذاته يعود للعصر الحديث . وهو الابن النامي مع الثورة الفرنسية ، رغم ان كلمة «قومية» اقدم من ذلك بكثير . ولم توجد لدى العرب هذه الكلمة او تلك . وكلمة «امة» التي اصبحت المرادف العربى «لقومية» تحمل فى طياتها معنيين . وبهذه الكلمة يعنى العرب الان ، كما فى السابق ، تجمع المؤمنين . وقد جاء العرب بكلمة «قومية» من المصدر «قوم» الذى يعنى «شعب» ، او «مجموعة قبائل» . وفى اللغة العربية فان كلمة «عصية» هى الاقرب لكلمة «قومية» ، و«عصية» هى الكلمة التى استخدمها ابن خلدون — المغربى العظيم ابو علم السياسة والاجتماع العربى الذى عاش فى القرن الرابع عشر . ولكن مثلما كان فى السابق والآن تعنى هذه الكلمة (عصية) التضامن القبلى والاخلاص له وللأصل وقد يكون ايضا الاخلاص للاسرة الكبيرة ولمصالحها وعاداتها وتقاليدها ولقوانين سلوكياتها . وفى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين اصبح المصريون المتعلمون فى اوربا والشخصيات السياسية يستخدمون كلمة «وطن» . فبعد بحثهم فى مصدر تسمية وطنهم «ايجبت» وبالعربية «مصر» ، توصلوا الى اصلها الفرعونى . وكلمة ايجبت هى تحريف للكلمة اليونانية «خيت كا بتاح» بمعنى «قصر قرين الاله بتاح» . اما كلمة «مصر» فانها محرفة من الكلمة المصرية القديمة «بيير اوسيريس» ، اى «بيت الاله اوزيريس» ، مؤكدين ان الشكل الثانى لهذه الكلمة ظل موجودا فى التسمية الجغرافية لاحدى المدن المصرية — أبو صير . وعلى اية حال فان مصدر كلمة مصر ظلت مادة لنقاش طويل بين المتخصصين فى علم اللغة .

لكن التعرينات في ايجاد مصدر الكلمات ظلت مهمة
 قلة من المتعلمين المصريين فقط . والاهم هو القومية كشعار
 سياسى ، القومية كراية للنضال ضد الغزاة الاجانب وضد المضطهدين
 الاجانب . وحتى العشرينات والثلاثينات من قرنا الحالى جرت
 القومية المصرية والقومية العربية في تيارين منفصلين لم يصبا
 كل منهما في الاخر . وكان لهما اعداء مختلفون واهداف مختلفة .
 فشعار «مصر للمصريين» الهم ثورة ١٨٨٢ التى قادها احمد
 عرابى باشا . وكان هذا الشعار موجها ضد الغزو الانجليزى —
 الفرنسى من جهة وضد السيطرة القومية التركية من جهة اخرى
 وضد الارستقراطية الشركسية في مصر . واصبح هذا الشعار واضح
 التعبير بعد ان احتلت انجلترا البلاد وضممتها عمليا للامبراطورية
 البريطانية . وكان هذا الشعار هو القوة المحركة لاول حزب وطنى
 لعرابى باشا ، ولثانى حزب وطنى اسسه عام ١٩٠٧ الخطيب
 البارح المثلثى مصطفى كامل الذى خلفه محمد فريد . وكانت
 هذه قومية مصرية ذات صبغة اسلامية . وكانت مصر بالنسبة
 لهم هى كل وادى النيل بما فى ذلك السودان الذى ضمه محمد
 علي لمصر . وكانت بريطانيا العظمى هى عدوهم اللدود ، وقد
 ارادوا الاستعانة فى مواجهتها بالخليفة السلطان العثمانى الذى
 ظل الحاكم الاقطاعى الشكلى لمصر وايضا الاستناد الى فرنسا
 المنافسة لانجلترا . لكن الائتلاف الانجليزى-الفرنسى على ابواب
 الحرب العالمية الاولى خيب آمالهم ، كما ابعدهم ميولهم
 النسبية للسلطنة العثمانية عن الحركة العربية التحررية التى نهضت
 فى المناطق الاسيوية من الامبراطورية العثمانية .
 ان سوريا ولبنان والى حد ما العراق ايضا هى وطن القومية
 العربية . وكانت القومية العربية تهدف الى النضال ضد الاضطهاد

العثماني وتأسيس الدولة العربية الواحدة . ولاول مرة طرحت فكرة ان العرب هم قومية واحدة في باريس من قبل مجموعة من القوميين عام ١٩١٣ . وكان طارحوها سوريين وليس مصريين . وعموما فان المقصود كان تأسيس القومية العربية الواحدة والحكومة العربية الواحدة على الاراضى الواقعة شرق السويس . وقد ادت هذه الفكرة ذاتها بالقوميين العرب من سوريا والعراق الى تأييد انتفاضة الحجاز التي قادها الشريف حسين ضد الاتراك اثناء الحرب العالمية الاولى ، وهى الانتفاضة التي اندلعت لاسباب محلية لكن دعمت ونظمت الى حد ما بايعاز من قبل انجلترا . وقد عقد القوميون حسنو النية والليبراليون الموالون للغرب ومعظمهم من خريجي الجامعة الامريكية في بيروت ، عقدوا الامل على مساعدة «الديمقراطية الغربية» لهم من فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة في النضال من اجل تأسيس دولة عربية مستقلة . وكان الثمن غاليا وقاسيا وهو تقسيم الشرق الاوسط بين انجلترا وفرنسا بعد الحرب العالمية الاولى .

وكانت اوهام المصريين اقل تجاه نوايا الغرب . فقد جربوا على انفسهم منذ النصف الثانى للقرن التاسع عشر ماذا يعنى النهب المالى للدول الغربية . احتلت انجلترا مصر وحولتها الى شبه مستعمرة لها . واصبحت اوربا محطاً لكراهية القوميين المصريين ، ولم تعد بعد مبعثاً للمدح والحسد . ويخيل للمرء ان كلمات الشاعر الروسى الكسندر بلوك المقتطفة من شعره انها مكتوبة عن مصر مباشرة : «روسيا — ابو الهول فرحة آسية مضرجة بالدماء السوداء ، انها تنظر ، تنظر وتنظر اليك محدقة بمحبة وكراهية» .

وكانت احدى طرق تأكيد الذات القومية هى فكرة ان مصر لا تعد

جزءا من العالم العربى وانها تشغل مكانا خاصا فى الحضارة العربية الاسلامية ، وكما لو كانت تشغل مرتبة اعلى من الاخرين . ومنذ نهاية القرن الماضى دأب الليبراليون المصريون المتعلمون فى اوربا على عزل مصر عن العرب ، متذكرين عصور الفراعنة . وقد شاطرتهم هذه الافكار مجموعة من الكتاب والادباء والشخصيات السياسية التى تربت فى مصر فى بداية العقود الاولى من القرن العشرين .

فقد اعتبر قائد ثورة ١٩١٩ ورئيس حزب «الوفد» سعد باشا زغلول ان مسألة تحرير مصر ، بما فى ذلك السودان ، من قبضة الانجليز وتحقيق استقلالهما هى مهمة قومية . وفى خطبه هاجم احيانا القومية العربية رغم انه تجاهلها فى اكثر الحالات . ولم تتقدم الاطر الجغرافية والسياسية للوفديين والمصريين القوميىن الاخرين فى العشرينات والثلاثينات ابعد من شعار «مصر للمصريين» الذى ظهر فى نهاية القرن الماضى .

وقال الدعاة الوفديون ان «الفلاحين فقط هم الذين من حقهم ان يسموا انفسهم مصريين ويعتبروا اصحاب البلاد الشرعيين» آملين بذلك جذب الجماهير الفلاحية لجانبهم فى الحملات الانتخابية .

وقد رفض الوفديون هذا الحق حتى للبدو المصريين . وكان تطور التفسير التالى لمؤيدى «الوفد» هو ان «الفلاحين هم الورثة المباشرين لسكان هذا الوادى . وهم مدينون بأحسن صفات طبعهم لعبيد الفراعنة ، بناه الاهرام . ان «أمة» الفلاحين دون التفريق فى العقائد هى واحدة ، يوحدنا السعى للعمل الجماعى والحياة العامة معا التى تضاعف قوتهم عشرات المرات» . وفى عام ١٩٢٢ اكتشفت مقبرة توت عنخ آمون . وقد عرضت

نجاحات الفن المصرى القديم والثقافة والمهن والعلم والتكنيك بشكل حازم وواضح . وقد ارتبطت عظمة الماضى فى رؤوس الليبراليين المتعلمين فى الغرب والقوميين المصريين ، وهم الذين اتخذوا من جامعة القاهرة قلعة لهم ، بعظمة المستقبل الذى لا يمكن تحقيقه دون تحقيق الاستقلال .

وقد طرحت فى صحيفة «الجريدة» التابعة لحزب «الامة» الذى رأسه احمد لطفي السيد فكرة عن خصوصية «الطابع القومى المصرى» التى كانت تعنى مهمة نضال المصريين فقط من اجل مصر . وقد رفضت فكرة المجتمع الاسلامى المشترك . فقد كتب احمد لطفي السيد : «نحن فراعنة مصر ، ونحن عرب مصر ، نحن مماليك مصر ، ونحن اترك مصر وكلنا مصريون . وكل هذه عناصر طابعنا القومى المادية او المعنوية والروحية الموروثة والمكتسبة— كل هذا جعل منا اتحادا قوميا اقوى من اى اتحاد بيننا وبين آخرين ، واقوى فى بيئتنا من اغلب القوميات الاخرى» .

وقد حاولت شخصية سياسية وليبرالية كبيرة اخرى فى ذلك الوقت وهو محمد حسين هيكل تحديد الطابع القومى المصرى ، والشخصية المصرية عن طريق قدرتها على تذويب شعوب مختلفة عبر كل سنوات التاريخ وتمصيرها ودمجها فى الشعب المصرى . ووصل بعضهم ، وخاصة سلامة موسى ، فى تغنيهم بالطابع القومى المصرى الى حد التغنى «بالفرعونية» . وقد دعا للاهتمام باللهجة المصرية وابعاد لغة مصرية جديدة على اساسها . وكتب سلامة موسى : «نحن الاسرة التى عاشت فى هذا الوادى اكثر من عشرة آلاف سنة ، ولا يوجد لدينا مصرى واحد لم تسر فى عروقه ولو قطرة واحدة من دم رمسيس وخوفو واخناتون» .

وقد أكد العالم حسن صبحي ان لمصر حضارة خاصة وان العرب انضموا ببساطة لها وليست حضارتهم هي التي انتصرت على الحضارة المصرية . انه يمكن ايجاد عناصر الحضارة المصرية في بنية المنزل وفي الاغانى التي يغنيها الفلاحون وايضا في اللغة العامية وفي الادوات الزراعية التي ظلت منذ عهد الفراعنة . ويمكن اضافة اسم طه حسين — قمة اللغة العربية الفصحى — الى الداعين للطابع المصرى غير العربى . فقد أكد ان مصر هي جزء من «حضارة حوض البحر الابيض المتوسط» ولا تنتمى اطلاقا لاي حضارة شرقية . وكتب طه حسين فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» ان العقل المصرى منذ القرون الاولى خضع لتأثير ثقافة البحر المتوسط وتدخل مصر فى اسرة الشعوب القاطنة سواحل البحر المتوسط .

وكان الكاتب والمؤلف المسرحى توفيق الحكيم احد المساندين لمثل هذه الافكار وقد عكسها فى روايتى «عودة الروح» و«أهل الكهف» . وفى رواية «عودة الروح» بالذات لفظ بوضوح وبصوت عال نشيد «الفرعونية» للماضى المصرى المثالى وللفلاح ، وللروح الثابتة المثابرة عبر آلاف السنين . وقد اجبر الكاتب الاثرى الفرنسى (فى الرواية) ان يغنى هذا النشيد فى مناجاته الموجهة للانجليزى ، معبرا عن فكرة الكاتب نفسه — فكرة توفيق الحكيم : «ان هذا الشعب الذى تحسبه جاهلا ليعلم اشياء كثيرة ، لكنه يعلمها بقلبه لا بعقله ! . . ان الحكمة العليا فى دمه ولا يعلم ! . . والقوة فى نفسه ولا يعلم ! . . هذا شعب قديم : جىء بفلاح من هؤلاء وأخرج قلبه تجد فيه روااسب عشرة آلاف سنة من تجارب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض وهو لا يدرى ! . . نعم . . ان أوروبا سبقت مصر اليوم ، ولكن بماذا ؟ . . بذلك

العلم المكتسب فقط ، الذى كانت تعتبره الشعوب القديمة عرضا
لا جوهرها ، ودلالة سطحية على كنز دفين ، لا انه هو فى ذاته
كل شىء ! . . .

ان كل ما فعلناه—نحن الأوربيين الحديثى النشأة— أن سرقنا
من تلك الشعوب هذا الرمز السطحي دون الكنز الدفين ؛ لذلك
جىء بأوربى وافتح قلبه تجده خاليا خاويا ! . . .

قوة أوربا الوحيدة هى فى العقل ! . . . تلك الآلة المحدودة
التي يجب أن نملأها نحن بارادتنا . . . أما قوة مصر ففى القلب
الذى لا قاع له . . .

واستمر الكاتب يقول على لسان «الأثرى الفرنسى» : «نعم
الأهرامات ! . . . التى قصدها شامبليون بقوله : «لا استطيع أن
اصفها ؛ اذ أن شيئا من اثنين : اما أن كلامى لن يعبر عن جزء
من ألف مما يجب أن أقول ، واما انى لو أردت رسم أبهت صورة
للحقيقة ، لعدتني الناس مغرقا فى الحماسة أو مجمونا ، ولكنى
أقول شيئا : أولئك القوم كانوا يشيدون كعمالقة طولها مائة ذراع !» .
. . . اننا لا نستطيع أن نتصور تلك العواطف التى كانت تجعل

من هذا الشعب كله فردا واحدا ، يستطيع أن يحمل على اكتافه
الأحجار الهائلة عشرين عاما ، وهو باسم الثغر مبتهج الفؤاد ، راض
بالألم فى سبيل المعبود . . . انى لموقن ان تلك الآلاف المؤلفة
التي شيدت الأهرام ، ما كانت تساق كرها كما يزعم «هيروودوت»
الاغريقى عن حماقة وجهل . . . وانما كانت تسير الى العمل زرافات
وهى تنشد نشيد المعبود ، كما يفعل أحفادهم يوم جنى المحصول . . .
نعم كانت اجسادهم تدمى ، ولكن ذلك كان يشعرهم بلذة خفية ،
لذة الاجتماع فى الألم من أجل سبب واحد ! . . .

وكانوا ينظرون الى الدماء تقطر من أبدانهم فى سرور لا يقل

عن سرورهم برؤية الخمر القانية تقدم قرابين الى المعبود ! . . » .
ولا تختفى سذاجة ومثالية الحكيم حتى وراء القدرات الفنية
الكبيرة لاعماله ولكن هكذا كانت تلك الفترة التاريخية . وكانت
هذه هي آراء القسم الاكبر من المثقفين المصريين . وهناك علاقة
وراثية بين رواية «عودة الروح» لتوفيق الحكيم والمجموعة النحتية لتمثال
«نهضة مصر» لمحمود مختار . فقد تلقى المؤلفان تعليما غربيا
ليبراليا . وعبر الاثنان في صورة فنية واضحة عن فكرة واحدة ،
عن مثل القومية المصرية .

ولكن كلا منهما في «فرعونيته» مثلها مثل كل الداعيين لشعار
«مصر للمصريين» عبر بشكل ضعيف التمويه عن السعي لادخال
«النمط الغربى» و«النمط الاوربى» في مصر . وسعود فيما بعد
لهذه المسألة ، لكن سنذكر الآن انه مع رفضهما للغرب الاستعماري
البعيض فقد نظرا بحب لحضارته وتنظيمه الاجتماعي وحلما بان
تصبح مصر جزءا من الغرب ، وتستعين بانجازات حضارته ، وتصبح
متساوية مع كل الشعوب الاوربية . وقد فهما تحت مصطلح
«الحضارة» — الحضارة الرأسمالية الغربية والبناء البرجوازي — الديمقراطية
للدول الغربية المتقدمة . ونصح سلامة موسى المصريين بان «يولوا
وجوههم الى اوربا» ، وهو الذى اصبح فيما بعد من مؤيدى
الاشتراكية الفايبة والصدى الوفى للاتحاد السوفيتى .

وكتب حسين مؤنس فى كتابه «مصر ورسالتها» : «ان ما نسميه
اليوم بحضارة الغرب ليست فى الواقع سوى الحضارة المصرية القديمة
التي تتطور فى اتجاه ثابت وصحيح» .

ومهما بلغ حد تمويه هذه الافكار وما شابهها فان الكثيرين
رأوا فيها دعوة للتخلي عن الماضى الاسلامى ، عن الحضارة
الاسلامية .

ولم تصدر هذه الدعوة في اى بلد عربى بالوضوح والقطع الذى صدرت به في تركيا ايام كمال اتاتورك في العشرينات والثلاثينات . فقد كان هناك جو اجتماعى-سياسى ونفسى آخر . وكانت هذه الدعوة بالنسبة للاتراك تعنى التخلي لحد ما عن الحضارة العربية-الاسلامية وجزئيا عن الحضارة الفارسية-الاسلامية ، الامر الذى لم يكن ممكنا للعرب سواء في مصر او في البلاد الاخرى . فارتباط اللغة العربية بالقرآن والاسلام اقوى واعمق وأخلص .

ومن المثير مقارنة مصير مصر بمصير تركيا . وهناك الكثير مما يشير الى تشابههما . فلدى الدولتين عدد سكان متقارب يقترب من الخمسين مليون نسمة . وهما تقعان على تلاقى قارتين : آسيا واوربا لتركيا ، وافريقيا وآسيا بالنسبة لمصر . والدولتان تقعان على تلاقى اهم الطرق البحرية العالمية ، واصبحتا مصدرا للهجرة الجماعية . ولكن بمجرد ان نعود للتاريخ سرعان ما يتحول هذا التشابه الى تناقض . ولا نتحدث هنا عن الاختلاف فى الطبيعة والمناخ والقدرات الاقتصادية . لقد جاء الاتراك الى الأناضول وتراقيا فقط فى الالف سنة الحالية ، اما المصريون فقد عاشوا فى دلتا ووادى النيل فى عصور ما قبل التاريخ . ويتكون النوع العرقى للاتراك من خليط من القبائل التركية واليونانية والارمنية والجيورجية والسلافية والمنغولية . اما المصريون فقد حافظوا على ملامحهم التى لم تتغير كثيرا عبر آلاف السنين . وهذا الشعب وذاك ينتميان الى جنس البحر المتوسط ، لكن بعض المصريين مختلطون بالجنس الاسود ، وبعض الاتراك مختلطون بالجنس الاصفر .

واستخدم المصريون اللغة العربية بدلا من القبطية . لكن الاتراك حافظوا على انتماء لغتهم للغات المجموعة التركية ، وفى العقود الاخيرة وعوا «لتنظيفها» من المقتبسات العربية والفارسية . وعرف المصريون الهيروغليفية

والكتابة الهيراطيقية واللغة الديموطيقية والقبطية والابجدية العربية . اما الاتراك فقد انتقلوا من استخدام اللغات الاينيتسية والأرخونية ، ثم الابجدية الصغدية ثم الى العربية ليرفضوها فيما بعد ويفضلوا الابجدية اللاتينية في تركيا والابجدية الكيريليتسية في الجمهوريات السوفيتية . وفي مصر تطابقت عملية الاسلمة مع التعريب ، لكن ظلت قلة كبيرة من المسيحيين — الاقباط التي اصبحت جزءا من المصريين العرب . اما عملية اسلمة الاتراك وانتقالهم من الشامانية للاسلام فقد كانت شاملة للجميع ، اذا لم نضع في اعتبارنا مجموعة صغيرة من المسيحيين — الجاجاوزيين الذين يعيشون خارج الاراضى التركية ، لكن الاقلية الكردية الموجودة في تركيا لم تتأثر . وخضع المصريون منذ القرن السادس قبل الميلاد لقبضة الغزاة . اما الاتراك فلم يروا ابدا سلطة الاجانب . وظلت مصر لمدة اربعة قرون في اطار الامبراطورية العثمانية (التركية) ، التي تحولت لدى انهيارها لاسوأ وافضع .انواع الاستعمار . وقد اسست مصر بعد تحررها من التبعية العثمانية في القرن التاسع عشر امبراطوريتها التي لم تدم طويلا . وبعد ان فقدت الدولتان ممالكها في القرن العشرين ظلنا تقريبا داخل حدودهما القومية .

وبدأت مصر وتركيا عملية التحديث وادخال النمط الاوربي في بداية القرن التاسع عشر ، لكن النتائج كانت غير مرضية للبلدين . فرغم ان تركيا خطت خطوات أكثر من مصر على هذا الطريق الا ان الدولتين دخلتا مرحلة الازمة ، وبمحاولة كل منها تحقيق مستوى عال من التنمية مع المحافظة على الاصاله القومية تعاني كل منها ، ولو بدرجات متباينة ، من نهوض الاصولية الاسلامية .

وقد طرحت جانبا افكار القوميين — الليبراليين المصريين ، والموالين للغرب و«الفراعنة» بعد استهواء قصير بها من قبل الشباب الجامعي

والمثقفين ، رغم اننا نقابل ترجيعا هذه الافكار في حياتنا اليومية الآن .
فقد اتضح ان كل الحديث حول عظمة ومجد الفراعنة غريب
على الأغلبية العظمى من السكان التي كان الاسلام بالنسبة لها دينا
ونمطا للحياة ومثالا واساسا حقوقيا . وكان الاعتماد على «الفرعونية»
خسارة في نظر الشخصيات السياسية ذات التوجه البراجماتي ، اما
الدعوة الى ادخال «النمط الغربى» فقد افتضحت بعد تعاون الاحزاب
الليبرالية مع الانجليز .

وقد قوبلت الهجمات المترددة المموهة على بعض العقائد الدينية
بمقاومة جماعية كبيرة من جانب ممثلى الدوائر الدينية من علماء
الاسلام بجامعة الازهر حتى «جماعة الاخوان المسلمين» التي ظهرت
عام ١٩٢٨ والكتاب والمفكرين المحافظين ، حتى ان انصار هذه
الحملات تراجعوا على الفور وبرروا امرهم بحيرة وارتباك .

وقد ادت محاولة عميد الادب العربى طه حسين لتعميم التفسير
المنطقى للشعر الجاهلى على الصفات الادبية للقرآن الى انفجار
احتجاجى فى الازهر والى التهديد بالاتهام بتدنيس المقدسات .
وقد كلفته تجربته العلمية-الادبية كرسى الاستاذية فى جامعة القاهرة
كما اصبحت هذه التجربة درسا لكل الادباء الآخريين . وقد
تميزت الفترة الاخيرة من النشاط الابداعى والاجتماعى والعلمى لطله
حسين بتوجهه أكثر فاكثرا الى اليمين فى الاتجاه المحافظ . وقد
املت الانتهازية السياسية والحياتية على المثقفين المتعلمين فى اوربا
وعلى الشخصيات السياسية الاخرى عدم التعرض ، على الاقل
علنا ، لقضية الدين الحساسة .

وبظهور العلامات الاولى من الوعى الطبقي للعمال ونشاط
الشيوعيين المصريين انزعج البرجوازيون الليبراليون واتجهوا أكثر يمينا
باحثين عن دعم ومساندة لدى الدوائر المحافظة والدينية لكنهم

انسطروا لدفع ثمن ذلك مغيرين شعاراتهم ولون افكارهم السياسية ، الامر الذى لم يكن عموما بالصعب عليهم عمليا .
ولدى النظر فيما حولهم وتعرفهم بالاوضاع فى الشرق الاوسط اكتشف الوطنيون المصريون بل وكل القوميون وحدة مصائرهم مع مصائر الشعوب العربية الاخرى . وقد اعترفوا بان الاستعمار الاوروبى هو العدو المشترك لعرب الشرق والغرب . واصبح من الواضح ان مصر وحدها لن تستطيع تحقيق مهماتها الوطنية . وقد ملأت فكرة التضامن العربى فى مواجهة المستعمرين كل القلوب والعقول .
وجذبت عطف واهتمام المصريين انتفاضة السوريين ضد الفرنسيين وقيام حكومة الريف فى المغرب . وابقظت المشكلة الفلسطينية باستمرار عقولهم ، وهى المشكلة التى ظهرت نتيجة سياسة السلطات الاستعمارية الانجليزية والاستعمار الصهيونى للبلاد . وتطورت الاتصالات والتبادل الثقافى بين مصر وبقية الدول العربية الاخرى . وكثرت زيارات المصريين لجيرانهم القريبين والبعيدين وزيارة السوريين والعراقيين وسكان الجزيرة العربية لكل من مصر والمغرب .
وبينما صممت الاهرامات وابو الهول ، كانت تصيح دمشق او القدس .

واخيرا فى السياق وليس فى الاهمية : لقد فكرت البرجوازية الكبيرة فى مصر فى الوقت الذى ستصبح فيه الحدود الدولية لمصر ضيقة عليها ، وبدأت تنظر فيما وراء هذه الحدود بحثا عن اسواق جديدة . كيف لنا الا نتذكر هنا «عروبة» مصر وعلاقتها الاخوية مع الدول العربية اذا كانت هذه السياسة ستساعد على زيادة حركة السلع المصرية فى الاسواق العربية ؟

واصبحت تناقش بنشاط اكبر مسألة الوحدة العربية . فقد أكد احد قادة البرجوازية المصرية — طلعت حرب — مؤسس بنك مصر انه

من الضروري في البداية تحقيق الوحدة الاقتصادية والتعاون بين الدول العربية ، بالطبع برئاسة مصر ، ثم التفكير بعدها في الوحدة العربية الشاملة .

وهناك الكثير من الاقباط بين الوفدين الذين نظروا بحذر لافكار القومية العربية واصبغتها الاسلامية . وأيدوا الطابع العلماني للقومية العربية خوفا من فقدان حقوقهم ومواقعهم ، لكنهم لم يعارضوا فكرة العروبة الكاملة اذا كان ذلك سيفتح اسواقا جديدة للبرجوازية المصرية .

وقال احد زعماء «الوفد» الاقباط مكرم عبيد— «نحن عرب والدم القبطي او بمعنى ادق الدم المصري في الدم العربي» مؤكدا على ذلك بالاستناد الى الاسطورة كحقيقة تاريخية . «فقد كانت ام اسماعيل— الاب الاسطوري للعرب— مصرية واخت للفرعون رمسيس . ولذلك فرعون مصر كان خالا لابى العرب اسماعيل . فالقربى والعلاقات الوطيدة تربط الشعين» .

وفي ذلك الوقت كانوا في بعض الدول العربية يعتبرون ان سير عملية القومية العربية والعروبة في مصر بطيئة ولا تتفق مع الدور الكبير لمصر . ووجه نقد لاذع لما يقال عن الطابع غير العربى لمصر ولشعار «مصر للمصريين» . وكانت الامزجة المعادية للاستعمار والامزجة القومية قوية بشكل خاص في سوريا والعراق . وقد حمس هذه الامزجة الى حد ما الملك فيصل الذى كان ملكا لفترة قصيرة على سوريا قبل ان ينصب من قبل انجلترا فيما بعد ملكا على العراق . وقد تذكر انتفاضة العرب في الحجاز ضد الاتراك واهام تلك الايام . وقد ايد هذه الافكار البعض من البرجوازية القومية التى ظهرت حينذاك في بعض الدول العربية الواقعة شرق السويس . وقد نشر الملك فيصل وخلفاؤه السياسيون في العراق خطط اقامة دولة «الهلال الخصيب» الذى

يشمل العراق وسوريا والاردن ولبنان وفلسطين . وتحدث الامير عبد الله شقيق الملك فيصل والذي اصبح فيما بعد ملكا على الاردن ، عن «سوريا الكبرى» التي تضم الاردن وفلسطين وسوريا ولبنان . وتلخصت هذه السخرية في ان انجلترا كانت وراء هذه الخطة التي ولدت ميتة سواء في عهد الملك العراقي او الاردني . وقد قتل الملك عبد الله على يدى فلسطينى .

وقد اصبح ساطع الحصرى السورى مفكر القومية العربية . وقد عاش ساطع فى العراق ثم فى مصر . وقد أيد مشروع الملك فيصل الخاص «بالهلال الخصيب» ونادى بالوحدة العربية ولكن دون صلات اسلامية معتبرا انه من الضروري فصل الدين عن القومية . وفى هذا التوجه كان ساطع الحصرى رائدا للبعث وجزئيا للناصرية . وحسب تعريف الحصرى للقومية فهى — جماعة من الناس مرتبطة ببعضهم بوحدة الوعى وتوحدهم اللغة والتاريخ . «من تحدث العربية فهو عربى» — وكانت هذه الكلمات التى تعود للنبي محمد اقصر تعريف للقومية العربية والتى اصبحت عقيدته . وقد رفض الحصرى الحدود بين الدول العربية معتبرا اياها من مخلفات الاستعمار ، كما رفض وجود قوميات عربية منفصلة فى اطار العالم العربى ، اى ذلك العالم الذى يتحدث سكانه العربية . وكانت القوميات المحلية مثل المصرية والسورية واللبنانية والعراقية بالنسبة له دعوات ملعونة . وحينما اعلن طه حسين ان اللغة لا تكفى لاقامة الوحدة العربية ، وان النداء بالوحدة هو عاطفة ، وليس واقعا ، اصبح الحصرى خصما ايديولوجيا له . وقد كتب الحصرى : «ان على كل مصرى ان يدرك ان الحضارة المصرية القديمة ، مثلها مثل حضارة السومريين والاشوريين — والفينيقيين — هى ميتة ولا يمكن اعادتها للحياة . ان العروبة ليست ماضيا محنظا بل حاضرا حيا» . وقد اعتبر الحصرى منذ البداية ان

مصر بموقعها الجغرافي وقدراتها السكانية والاقتصادية لا بد وان تكون القائد الطبيعي للقومية العربية لكن ذلك يتطلب ان تسيطر على مصر فكرة الرسالة المصرية في العالم العربي .

بعد هزيمة الفاشية ودول «المحور» في الحرب العالمية الثانية وبعد تشكيل المنظومة الاشتراكية العالمية اصبح من المفهوم لكل الناس ذوى التفكير الواقعي بما في ذلك في مصر ان عصرا جديدا قد بدأ . فلم يبين الاتحاد السوفيتي للجميع بمثاله كيف يحل القضايا التي كان يثن منها الشعب المصري فحسب ، بل انه تحول الى عامل هام واقعي في السياسة الشرق اوسطية ، كما اصبح سندا لكل من كان الاستعمار عدوا له . وحصلت الهند على الاستقلال ، وانتصرت الثورة في الصين . كما اقل نجما انجلترا وفرنسا — المسيطرتين المستعمرتين السابقتين في الدول العربية — كإمبراطوريات استعمارية . وكانت الولايات المتحدة دولة بعيدة وغير مفهومة . ولم يتشع بعد في «العالم الثالث» ، بما في ذلك في مصر ، الشكل الاسطوري للولايات المتحدة اى «الحلم الامريكى» .

وقد اكتسبت الافكار القومية السابقة في مصر والعالم العربي عموما نغمة جديدة . وتحولت مهمات الحصول على الاستقلال السياسى الحقيقى من الشعارات الى مجال الممارسة السياسية . وتشكل نظام علاقات متبادلة جديد بين الدول العربية . وبارادة التاريخ فان مصر ، التى ابتعدت فى العشرينات والثلاثينات عن القضايا العربية العامة ، اصبحت قائدة للعالم العربى نظرا لقدراتها السكانية والاقتصادية والعسكرية والسياسية . وكانت القاهرة مقرا لجامعة الدول العربية . وقد زادت المأساة الفلسطينية وهزيمة العرب فى الحرب الفلسطينية الاولى من حدة ضرورة القومية العربية وايقظت المشاعر العربية فى مصر . وقد بين عام ١٩٤٨ الى اى درجة يرتبط مصير مصر بمصير

كل العرب . واصبح الوعي القومي العربى واقعا . وتأكدت القناعة
بمعادة الصهيونية والامبريالية للمصالح العربية .
وقد شددت افكار العروبة والقومية العربية اليها الضباط الشباب
الذين جاءوا للسلطة فى مصر نتيجة لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وقد
حدد جمال عبد الناصر فى كتاب «فلسفة الثورة» مكانة مصر فى
٣ دوائر : فى العالم العربى ، فى افريقيا وفى العالم الاسلامى .
وقد اعلن فى دستور عام ١٩٥٦ ان مصر جزء من الامة العربية .
واعتبر جمال عبد الناصر ورفاقه ان الحدود بين العرب هى حدود
اصطناعية فرضها الاستعمار . وترك شعار «مصر للمصريين» مكانة
لشعار الامة العربية التى يجب ان تقوم فيها مصر ، طبيعيا ، بدور
القائد . ودعت مصر الثورية للحرب الفدائية فى فلسطين ، وقد
وجهت اسرائيل اولى ضرباتها بالذات لمصر فى عام ١٩٥٥ .
وقد تلاحم العرب لمساندة مصر اثناء العدوان الثلاثى عليها
عام ١٩٥٦ . فقد قدمت سوريا اكبر دعم لمصر بتعبثها للقوات
المسلحة وقطعها العلاقات مع انجلترا وفرنسا وحشدتها للقوات السورية
على الحدود مع اسرائيل . ودمرت اثناء هذا العدوان خطوط انابيب
البتروال الواصلة من السعودية والعراق لسواحل البحر المتوسط . وفى
تلك الايام اوقف الانذار السوفيتى المعتدين .
وقد اكتسب اسم عبد الناصر شهرة سحرية من المغرب حتى
الامارات الخليجية . وقد سمع الجميع محطة اذاعة «صوت العرب»
من القاهرة . واصبحت القاهرة رمزا للبعث والامل العربى ،
وللاستقلال السياسى وقاعدة لحركات التحرر الوطنى فى العالم العربى
من الجزائر حتى اليمن .
وكان فى العالم العربى ٣ تيارات اعلنت شعارات قومية وافكار
«الوحدة العربية» — الناصريين والبعثيين وحركة القوميين العرب .

وقد عمل الناصريون على التحقيق التدريجي للوحدة العربية تحت قيادة مصر . اما البعثيون فقد نادوا بالوحدة العربية على اساس وحدة اللغة والروح والتاريخ والثقافة . وبالمناسبة لم يذكر الدين في هذه القائمة على الاقل لان مؤسس البعث هو ميشيل عفلق المسيحي . واعتبر البعثيون ان الشعوب العربية جاهزة للوحدة (طبعا تحت القيادة البعثية) وتعيقها فقط بعض العقبات الاصطناعية .

وقد تأسست حركة القوميين العرب عام ١٩٤٨ بعد قيام دولة اسرائيل وظهور المأساة الفلسطينية . وقد لعب دورا في تأسيسها هؤلاء الذين درسوا في الجامعة الامريكية ببيروت ، وكثير منهم فلسطينيون . فقد نادوا بالوحدة العربية على اساس ديمقراطي تقدمي شعبي ، وبتحرير فلسطين وكل العرب من الاستعمار بالطرق الثورية . وكانت المواقف الماركسية قوية في هذه الحركة . وبالمناسبة فان الحزب الحاكم الان في اليمن الديمقراطية تشكل على هذه الاسس ، وأعلن الاشتراكية العلمية ايديولوجيته .

وقد تركت التجربة الفاشلة لوحدة مصر وسوريا من عام ١٩٥٨ حتى عام ١٩٦١ جرحا عميقا لدى القوميين العرب . اذ تأكدوا كم هو صعب تدليل الاختلافات الاقتصادية والحكومية والطبقية والايديولوجية بين الدول العربية . لقد انهارت الجمهورية العربية المتحدة التي تأسست بالحاح من سوريا بعد ان حدث الانقلاب الحكومي في سوريا وفصل هذه الدولة عن مصر .

الا ان الاصابة الكبرى لمؤيدي الوحدة العربية ، الذين حلموا باعادة المجد والعظمة للعالم العربي وبوضع الدول العربية على مستوى متساو مع الغرب ، جاءت بعد هزيمة ١٩٦٧ . فقد اتضح ان الالة العسكرية الاسرائيلية المدعمة من قبل الولايات المتحدة اقوى من الجيوش العربية .

ودفعت الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٧٣ وارتفاع الاسعار العالمية للنفط بالممالك والامارات المحافظة في الجزيرة العربية الى مقدمة الساحة السياسية العربية . وفي السبعينات قامت في مصر الثورة المضادة الساداتية دون اراقه دماء . وهدمت انجازات الناصرية في جميع المجالات . وتخلي السادات عن فكرة العروبة ، وعن السياسة العربية المشتركة ومضى نظام السادات الى كامب ديفيد والى صفقة السلام المنفردة مع اسرائيل والى قطع العلاقات مع الدول العربية الاخرى .

وكان الغطاء الايديولوجي لهذا النهج هو العودة للحديث عن فكرة الطابع «غير العربي» الخاص لمصر ، وعن عظمة عصر الفراعنة ، ومواجهة القومية المصرية بالقومية العربية . واندلعت المناقشات حول «شخصية مصر» — هل هي عربية ام مصرية خاصة . وأشعل فتيل المناقشة ما قاله شيخ الادباء المصريين توفيق الحكيم كان الحكيم انيقا بشيخوته في يبريهه الفرنسى ، وبدلته الممتازة التفصيل على الطريقة الاوربية . وكان الحديث معه شيقا وممتعا . وقد لمع الحكيم بأرائه الفجائية والتحويلات المتناقضة في الافكار . وكفنان كان يضع يده بعبقرية على ما يقوله الرأى العام المصرى ويعكسه باتقان . وكمفكر سياسى استطاع ان ينتزع البسمة الساخرة من زملائه واحيانا البسمة المتساهلة واحيانا البسمة اللاذعة . لقد قابلته للتحدث معه عن كتابه «عودة الوعى» — وهى التسمية المشابهة لرواية «عودة الروح» التى اثارت ضجة فى الثلاثينات . وكان كتاب «عودة الوعى» هجوما على كل عهد عبدالناصر من وجهة نظر مثقف ليبرالى . فهو لم ير اى بصيص من النور فى حياة مصر بعد عام ١٩٥٢ فقد تدمر مسن أن «الضباط الاحرار» خيبيوا ظنه وهم الذين رفعوا شعارات جذابة حينما

جاءوا للسلطة . ويشعر المرء ان الحكيم حمل عبر عشرات السنين «الفرعونية» الساذجة للعشرينات والثلاثينات ، ومثل سعد زغلول ، والحنين الى نماذج وانظمة اوربا الغربية .

وقد استقبلنى توفيق الحكيم فى مكتبه بجريدة «الاهرام» . وكان مبنى الاهرام هو برج المثقفين المصريين . وفاحت رائحة البن فى الممرات وكذلك رائحة السجائر الغالية الثمن والروائح الباريسية . وحمل المصعد الصامت الموظفين والضيوف للطابق الاعلى حيث كانت هناك الكافيتيريا التى يمكن ان تلىق تماما بجريدة فى المانيا الغربية او الولايات المتحدة . ومن هذا الطابق الاعلى يتكشف من ناحية منظر شارع من طابقيين ملئ بالسيارات المسرعة ، ومن الناحية الاخرى منظر حى بولاق وهو احد احياء القاهرة حيث تتركز فيه الحوارى والمنازل القذرة والسكان الاميون الفقراء . اما هنا فى برج «الاهرام» فكان لدى المثقفين المصريين الذين يعيشون فى الواحة الاربوية مكاتب وسكرتيرات ومرتبات ليست صغيرة .

وقال توفيق الحكيم بحسرة : «لقد قامت مصر بالحرب من اجل الاخرين ، للدفاع عن مصالح الغرباء وليس عن المصالح المصرية . ونزفت مصر الدماء مضحية باقتصادها . نحن نتهامى وهم يزدهرون . هؤلاء البدو الاغنياء الجدد . . . انهم يأتون الينا ليشتروا شققنا بالجملة ، ويشتروا اراضينا ونساءنا ، ونحن ، المصريين ، نقف امامهم نمد يدا لحنساتهم . انظر الى صحفيينا ومهندسينا واطبائنا . انهم يأخذونهم ، تشتريهم الدول النفطية العربية الغنية . انهم يقيمون باموالهم بمساعدة المصريين المراكز الثقافية والحضارية . هروب العقول ! فى القرن السادس عشر بعد ان غزا الاتراك مصر ، كانوا يرسلون بمئات المصريين المهنيين والعلماء من مصر لتركيا مدمرين بذلك ما نسميه اليوم بالقدرات العلمية — التكنيكية

للبلاد . فليتوحد العرب معنا فى دولة واحدة وليتقاسموا معنا همومنا ،
ونضالنا . والا . . . فعلىنا ان نخرج من المواجهة مع اسرائيل ،
علينا ان نكف عن الحرب من اجل العرب ، علينا ان نكون
محايدين . يجب ان نكون سويسرا الشرق الاوسط» .

وبعد عامين ، حينما سافر السادات للركوع فى القدس ، وسار
للسلام المنفرد مع اسرائيل ، نشر توفيق الحكيم افكاره هذه فى
جريدة «الاهرام» . واندلعت النقاشات ، التى شملت افضل العقول
المصرية . وجرت هذه المناقشات على صفحات الجرائد والمجلات
وفاقت فى حدتها المبارزة الثقافية بين مؤيدى ومعارضى «الفرعونية»
فى الثلاثينات ، والجدالات الحادة حول «شخصية مصر» بعد
هزيمة ١٩٦٧ .

ويبدو ان الاديب الكبير لم يتوقع رد فعل القنبلة التى تفجرت
اثر ما نشره . ولربما انه لم يرغب فى ان يكون الزينة العقلية او
الغطاء للسياسة الساداتية . وليس صدفة ان زميله الاصغر يوسف
ادريس ، الكاتب المصرى المشهور الذى يكن الاحترام لتوفيق
الحكيم ، رغم انه لا يتفق معه ، حاول انقاذ ماء وجهه . فقد كتب على
صفحات الجرائد «ان توفيق الحكيم ينكت — انها نكتة الكاتب» .
وقال احمد حمروش الكاتب الذكى اللاذع ومؤرخ المرحلة الناصرية ان
توفيق الحكيم فنان وليس مفكرا سياسيا ولذلك فان اخطائه مفهومة .
ان توفيق الحكيم لم ينكت كما لم ينكت مؤيدوه ومعارضوه .
وأدرك يوسف ادريس ذلك : «ان الدعوة للحيداد تعنى الرغبة فى
اعاقة مصر عن سماع صوت اصدقائها وصوت الضمير ، وعن رؤية
ما يجرى حولها ، وعدم امتلاكها لرأيها . لقد فرضوا الحرب على
مصر ولم تفرض هى على نفسها الحرب» .

وقد كتب خيرى عزيز الكاتب والسياسى الذى عمل حينذاك

في مركز الدراسات الاستراتيجية «بالاهرام» : «ان استراتيجية الامن
المصرى تتطلب التعاون مع الدول العربية الاخرى . اذ تقع مصر
في قلب العالم العربى . ويمثل موقعها السياسى والجغرافى وضعا
يجعلها هى والدول العربية المجاورة تشكل منطقة واحدة . . . ان
الدعوة لحياد مصر تعنى الدعوة الى عزلها عن الشرق العربى والتقليل من
امنها . وتقليديا فان مصر كانت دائما مرتبطة بالاتجاه الشمالى-الشرقى .
وكانت فلسطين ركيزة وقلعة للدفاع عن مصر من هجمات الامبراطوريات
الغاشمة التى تواجدت فى الشمال . وسوريا التى لم تمثل تهديدا
بحد ذاتها فى يوم من الايام لمصر ، كانت رأس جسر ومعبرا للغزاة .
ولذلك فان كل من هدد سوريا هدد مصر . وقد جرت المعارك
الاساسية للامن القومى المصرى فى سوريا وفلسطين . انهما خط
الدفاع الاول والاساسى لمصر» (ومن الطبيعى ان هذا كان صحيحا
فقط حتى ظهور تلك الدول البحرية مثل انجلترا . الا ان الكاتب
لمح بان اسرائيل التى احتلت كل الاراضى الفلسطينية تظل عدو
مصر المهدد لامنها) .

وقد ايد الاديب الكبير علنا فقط الاديب المحافظ حسين فوزى
واثنان او ثلاثة آخرون وبيعض التحفظات . اما من كانوا «ضد»
فمجموعة كاملة من الاسماء المرموقة . الا ان أحد هذه الاراء كان
ذا ديناميكية وقوة لدرجة انه طرح قضية مكانة مصر فى العالم
العربى ، قضية التناسب بين الوطنية المصرية والقومية العربية ومسألة
اخطاء السياسة العربية وآثامها والثقافة السياسية بالشكل الذى جذب
كل المناقشة اليه . وكان يمكن لهذا الرأى ان يشد اليه الاهتمام
بما يحتويه فقط ، الا انه كان مديلا بتوقيع الكاتب والناقد
البارز لويس عوض ذى العقل البراق وسعة الاطلاع العميقة والقلم
الحاد . حقا ، انه لم يناقش توفيق الحكيم فقط بل كل النظام

الساداتي ، وليس هذا فحسب . لقد وجه نقده القاتل ، احيانا الصحيح وحيانا المتطرف ، للقومية العربية و«القومية المصرية» اذا صح التعبير .

فكتب لويس عوض : «الحياد ، الحياد السياسي — انه اسطورة وخرافة . هناك مطالب جغرافية سياسية . ان امن مصر يتوقف على مواقف الدول العربية والدول الافريقية . ولا مناص من ذلك . القومية العربية ميتافيزيقا أما التعاون السياسي بين الدول العربية فهو امر آخر» .

واضاف لويس عوض : حينما يتحدثون عن حياد مصر يتون بالحجج كما لو كانت مصر في حاجة الى الكسب من السياحة ، (والهدف ليس هو توفيق الحكيم بل السادات نفسه) . اذا كانت مصر هي «متحف العالم» و«فندق العالم» فلم لا تكون ايضا «كابارية العالم» اذا كانت الدولة في حاجة الى اموال ؟ ان لكل دولة مصالحها القومية الخاصة ، الا ان الامن قضية عامة ، هكذا قال لويس عوض معتبرا ان التعاون بين الدول العربية ضرورة .

وعلى اية حال فقد كانت مقالته مرة . فقد كتب يقول انهم يعلمون الاطفال في المدارس تاريخ القرون الوسطى وهم اغراب عن قضايا اليوم . وبنظرة للوراء ، اشار لويس عوض الى ان العسكريين وقفوا في منتصف الطريق ، والثورة وقفت في منتصف الطريق . والمجتمع ايضا غير محدد ، يقف في مرحلة انتقالية بين القديم والجديد ، وبين التخلف والتقدم . كما انه لا يستطيع تحمل الحمل الثقيل الكامل ولا الثورات الكاملة . وأكد لويس عوض على ان كل هذا كان مثل النفخ في قربة مقطوعة . «لقد كتبنا كل هذا لانفسنا بانفسنا ، لان بعضنا يعرف الطريق للقوة ويخاف السير في هذا

الطريق . ويظن بعضنا ان طريق الضعف هو طريق القوة .
والاخرى لا يفكرون لا فى النفخ ولا فى القربة التى ينفخون فيها .
وهم يفضلون الترتيب المريح لامورهم حتى لو كان الاخرى حولهم
يعيشون فى جهنم» .

وسخر لويس من فكرة تحويل مصر الى سويسرا او سويد الشرق
الاوسط ، لان هناك فارقا كبيرا فى المصالح والظروف التاريخية
والجغرافية والثقافية ، تلك الظروف التى تعيش فيها دول الشرق
الاوسط ودول اوربا الغربية .

واستمر الاديب يقول ان اسطورة العزلة والخيال العجيب عن
تحويل مصر الى سويسرا لا تقل خطرا عن خرافة اخرى . وهى خرافة
الوحدة العربية ، المؤسسة على ان الشعوب والقوميات من الخليج
الفارسى الى المحيط الاطلسى كما يزعمون يمثلون «امة واحدة» .
امة واحدة ليس فقط من وجهة نظر الثقافة والحضارة ،
بل وايضا من وجهة نظر الدماء والجنس . وترتكز هذه الاسطورة على
مقدمة كاذبة عن «الرسالة العربية» واعادة المجد السابق للعصر
العربى العظيم ايام الفتوحات العربية . ان الاسطورة حول الجنس
العربى خارج الجزيرة العربية لا تقل خطرا عن اسطورة الجنس
الارى اثناء عهد النازيين والاساطير المشابهة عن تفوق المصريين
والفينيقيين والاسرائيليين . ان كل دعوة قومية شوفينية تعتمد على
مهمة الغطسة العنصرية والتفوق العنصرى لشعب على الشعوب الاخرى
فى الارض ، وعلى بناء مجد الامة على حساب السيطرة على اجناس
اخرى او على التميز المتوارث لها على اجناس اخرى . ويبرر هذا
الاستعمار والاستعباد والتفرقة العنصرية . . . وتدعو هذه النظرية الى
حل القضايا الاجتماعية والاقتصادية لبعض الشعوب على حساب
شعوب وأمم اخرى .

وكتب لويس عوض : «اننا نشعر بضرورة التضامن العربى فى سبيل الامن العربى الشامل وفى سبيل امن كل دولة عربية على حدة . ومن اجل ذلك لا توجد ضرورة لوجود جيش واحد وميزانية واحدة كما يدعوتوفيق الحكيم ، على نحو ما كان اثناء الوحدة الفاشلة مع سوريا . ولذلك فان المشكلة ليست فى الحياد الحقيقى ، بل ان المشكلة تتلخص فى ضرورة تخليص العالم العربى من اساطير الوحدة والاندماج ، وايضا من اساطير انعزال دولة ما عن الدول العربية الاخرى . كما ان المهمة المطروحة هى بناء التعاون العربى من اجل الامن العربى ، والبناء العربى على الوقائع السياسية بدلا من الرومانسية التى تفترض ضرورة وحدة كاملة او انعزال فى ابراج عاجية . والمشكلة ايضا تتعلق بان العرب لا يدركون مصالحهم الحقيقية . كما انهم لا يعرفون الطرق التى تؤدى الى تحقيق مصالحهم الحقيقية» .

وفى الحجج التى ساقها لويس عوض اماكن ضعف واضحة يمكن المجادلة معه فيها . فلم يترث بشأن بعضها . ولن اتحدث هنا عن المقولة اللينينية المعروفة حول الوجهين المتعلقين بالقومية المضطهدة . او عن موقف كثير من المفكرين التقدميين العرب ، الذين يعتبرون انه توجد امة عربية وفى اطارها شعوب مختلفة . وكانت مقارنة القومية العربية بالنازية تطرفا فى الجـدل . وقد سمى احد نقاد مقالة لويس عوض هذه بانها «هجوم ظلامى على القومية العربية» . وقد اكد خصومه ان من حق المفكرين فى الاوقات العصيبة للتاريخ ان يستعينوا بالانجازات العظيمة للماضى حتى يعيدوا للشعب الثقة فى قواه وبالمعنى الضمنى انه يمكن «المغلاة» فى تمجيد القومية وان القومية العربية ليس لها اسس عنصرية .

ويرد لويس ، الا توجد لها اسس عنصرية ؟ — فماذا يعنى
اذن كتاب ناجى معروف من جامعة بغداد المعنون : «الاصل العربى
للعلماء المنسوبة اسمائهم لشعوب الشرق الاسلامى الاخرى» ؟ فى
هذا الكتاب يوجد ٣١٣ اسم عالم من الدول الاسلامية عاشوا فى
الفترة من القرن السابع حتى القرن الحادى عشر ، ورغم كل الحقائق
المعروفة يورد لنا الكتاب برهنة «علمية» على انهم كانوا عربا بالدم .
وقد حاولوا تفسير موقف لويس عوض من منطلق انه قبطى .
ورد لويس على النقاد بقوله : «انا مصرى ، ولا يتوقف ذلك على
ديانتى ، فالاقباط والمسلمون فى مصر شعب واحد . لديهم لغة
واحدة وتاريخ واحد ونوع عرقى واحد . هناك أمة مصرية ، تختلف
عن الأمم العربية الاخرى» .

لكن مهما كان الامر فان الاقباط المصريين دعموا موقفه أكثر من
المسلمين . وكانت حججهم هى انهم ليسوا «مع» ولا «ضد» القومية
العربية والوحدة العربية . وكل القضية هى ماهية هذه الوحدة وما هى
الحقوق التى ستضمنها لهم .

صحيح ان لويس عوض فهم على الفور انه بمقارنته فى سخونة
النقاش بعض افكار القوميين العرب بالافكار النازية ، اعطى سلاحا فى يد
الدعاية الصهيونية . واعترض خصومه بحق على ان اليهود قبل قيام دولة
اسرائيل لعبوا دورا بارزا فى مصر ، وفى العراق وفى المغرب واليمن
وسوريا . وشغل بعض اليهود مناصب وزراء وكان بينهم فنانون وادباء
ناهيك عن دورهم فى الاقتصاد والمال . وذكر لويس عوض بنفسه
ان اليهود فى الدول العربية لم يتعرضوا لتلك المطاردات التى
واجهوها فى اوربا .

وكان لويس عوض لحد المأساة وحيدا ، ولم يجد مساندة
علمية من احد . واتسمت مقالاته الثانية والثالثة بالطابع الدفاعى

(في رده على النقاد) وباللهجة الناعمة . واذا ما صنف موقفه فهو موقف مفكر يسارى يحاول الارتفاع فوق الصراع بعقله ومعرفته ، موقف قريب من الماركسى ولكن ليس ماركسيا . وكان كل حديث لى معه فى ادارة تحرير «الاهرام» ذاتها يتطلب تشغيل العقل لكنه كان يبعث على الرضاء . وقد اوجت لى اللقاءات به بالثقة فى الشعب المصرى الذى يمتلك مثل هذه الرؤوس المفكرة . لقد طرد لويس عوض عام ١٩٥٤ من جامعة القاهرة ، وفى عام ١٩٥٩ ادخل معسكر الاعتقال حيث امضى سنتين وخرج عام ١٩٦١ . ورفع جمال عبد الناصر عاليا حيث شغل منصب رئيس القسم الثقافى «بالاهرام» ، واصبح احد ابرز النقاد والادباء والشخصيات الثقافية فى مصر . وبالرغم من التجربة الشخصية المرة ، والعقل المرتاب فانه عقد الآمال على التجربة الاجتماعية-السياسية للمرحلة الناصرية . ومع كل عام من استمرار نظام السادات كان وضعه الروحى يظلم أكثر فأكثر .

لقد ودعت لويس عوض عام ١٩٧٩ . وغادرت القاهرة بعد انتهاء اربعة اعوام من العمل كمراسل . ولدى الوداع كان عوض حزينا وصارما . ومضى تقريبا عام على تلك المناقشة التى اثارته ضجة . ووقع السلام المنفرد مع اسرائيل . وظهرت السفارة الاسرائيلية فى القاهرة . وفى سيناء اتخذت كتيبة من «قوات الانتشار السريع» الامريكىة مواقعها . وقطعت الدول العربية ، ما عدا السودان وعمان ، علاقاتها مع مصر .

وتقلب السادات على وجهه باحثا عن مبررات لهذا الثمن ، الذى دفعه مقابل السلام . فقد كان الخطيب الدائم والاساسى بالتليفزيون شاغلا البرامج لساعات طويلة ، كما كان الكاتب الاجتماعى الاساسى والاقتصادى الاساسى والرجل العسكرى-

الاستراتيجى الاساسى فى مصر . وسألت لويس عوض : كيف ترى الحجج التى يسوقونها لصالح السلام المنفرد مع اسرائيل ؟ حيثند لمعت فى عينى الانسان المتعب والمريض شرارة المجادل . واجاب بتهكم وسخرية : «انها السوق التى يبيعون فيها الاساطير ، السوق التى يبيعون فيها الاحلام» .

الباب الثامن

الشرق هو الشرق

اننى ارفض رفضا قاطعا التأكيد بان الدين هو القاعدة
المناسبة للعمل السياسى . ولا بد ان تستند قوميتنا الى
مصالحنا وليس الى العقائد .

احمد لطفى السيد ، قائد ومفكر الحزب الوطنى . بداية
القرن العشرين .

الله إلهنا ، والرسول زعيمنا ، والقرآن دستورنا .

حسن البنا ، مؤسس جمعية الاخوان المسلمين . عام ١٩٣٦ .

... . حظر اى دعاية للتمايز العرقى او الدينى ، والتي
تمس وحدة المصريين ، وتقوية الدعوة للتسامح
الدينى فى اطار التقاليد المصرية العظيمة : الدين لله
والوطن للجميع .

من البرنامج الانتخابى لحزب التجمع الوطنى الوجدوى .
مايو ١٩٨٤ .

لقد توهمنا بالامس بانه على المجتمع ان يقفز
عبر المراحل التاريخية بمجرد الايماء بالعصا
السحرية بمساعدة المنقذ العام — وهو التحديث . اما
اوهام اليوم فهى تتلخص فى ان عودة الاسلام
تشبه الرياح الآتية من الصحراء لتمسح كل

التقدم على طريقها . لكن فكرة اليوم يمكن ان تخذعنا
مثلما خدعتنا فكرة الامس . ويخطئ كلا الجانبين :
من يأمل في ان الحضارة المهدومة والتي منيت بالهزيمة
منذ عدة قرون مضت تبدو وكأنها على ابواب البعث ،
كما يخطئ من يخاف من ان التأكيد الجديد على الاسلام
سيكون بمثابة تمرد عظيم ضد انحياة المعاصرة .
لا بد ان ندرك من اجل ماذا يحارب البعض ومن
اجل ماذا يناضل المجتمع وما هي مشاغلهم .
الحقيقية ، هذا اذا كنا نريد فهم سبب تلويحهم بهذا
السلاح او ذاك وسبب لجوئهم لاستخدام بعض الرموز
المعينة .

فؤاد عجمي . العرب في وضع صعب . عام ١٩٨١ .

في السادس من اكتوبر ١٩٨١ جرى في القاهرة عرض عسكري
بمناسبة الذكرى الثامنة لعبور الجيوش المصرية قناة السويس . وقد
جلس رئيس الجمهورية انور السادات على المنصة مرتديا البدلة
العسكرية المطرزة بالذهب والمقلدة تماما من بدل العرض العسكرية
التي كان يرتديها الجنرالات النازيون . ولم ينتبه الضيوف والحرس
المتعبون من المرور الطويل لوحدات الجيش الى الشاحنة التي تجر
مدفعا والتي وقفت مباشرة امام المنصة ، وفجأة اطلق بعض الجنود
الرصاص من البنادق الاوتوماتيكية والقوا بالقنابل التي لم تنفجر . وفي
هذه اللحظة قفز الجنود من الشاحنة وتقدموا من جانب المقصورة
واطلقوا الرصاص عن قرب على السادات . وبعد ان أفاق الحرس
فتح النيران على المهاجمين ، لكن كان الوقت متأخرا . ومات
الرئيس متأثرا بجراحه قبل ان يعود لوعيه في المستشفى العسكري

بالمعادى فى نفس المكان الذى مات فيه شاه ايران السابق .
وقد اتضح ان المشاركين فى الحادث والذين شنقوا بعد التحقيق
هم من مقاتلى منظمة «الجهاد» المكونة من اعضاء الجماعات الدينية
المتطرفة . وما زال احتمال مشاركة المخبرات المركزية الامريكية
فى الحادث والذى تقدم به بعض الباحثين فى مرحلة الاستنتاج
الذهنى لهؤلاء الباحثين .

وفى رأى المتطرفين المسلمين ومعظم المصريين فان السادات
اصبح عميلا للغرب المفسد والمستغل للمسلمين ، وخائن الاسلام
والعرب الذى عقد الصلح مع الصهاينة . وفى هذا السياق فانه من
العدل ما عبر عنه ببلاعة رئيس الوزراء اللبناني حينذاك شفيق الوزان
حيث قال : «ان كامب ديفيد هو الذى قتل السادات» .

وقد هز القتل الشجاع للسادات اثناء العرض العسكرى كل مصر
والشرق الاوسط . ان يكون هذا دوى الرعد الاول للعاصفة
القادمة ؟ والن تصبح مصر ايران الثانية ؟ والن تكتسحها موجة
الاصولية الاسلامية مثلما اغرقت ايران ؟

لقد مضت عدة سنوات ، لكن لا توجد اجابة قاطعة ومحددة
بعد على هذه الاسئلة .

لقد اتضح افلاس النظام الساداتى . فقد حاول استبدال القومية
العربية بالقومية المصرية الضيقة المغرضة . وتحول حوارهم مع العالم
الخارجى بعد القطيعة مع الاتحاد السوفيتى تحول الى استسلام
سياسى فى كامب ديفيد والى عزلة فى العالم العربى . واطيح
بالاصلاحات والتجارب ذات الصبغة الاشتراكية من اجل المشاريع
الرأسمالية المتهتكة . وبدلا من الضابط الوطنى صعد
على المنصة تاجر جشع . فقد مجدت الدعاية الملياردير الكبير
قريب السادات عثمان احمد عثمان او الكومبرادور السعودى عدنان

خاشقجي ، وارتفعت الضجة على المشاريع الجبارة التي ستجمع
الرأسمال السعودي والجهد المصري والاراضى السودانية ، وعلى
خطط جلب احدث انواع التكنولوجيا لدفع مصر والدول العربية
الاخرى الى الربع الاخير من القرن العشرين دون ثورات ودون تحولات
جادة ، ودون حل اعقد المشاكل الاجتماعية . وظلت الكلمات
كلمات والمشاريع خطوطا على رمال الصحراء التي غطتها اهدأ رياح
الواقع .

ونظرت الجماهير بغضب حائق او يأس يحتضر الى طفيلية
الفئات الجشعة الجديدة-«قطط الانفتاح السمان» والى
ابتعادهم المستمر عن التقاليد القومية . ولم يكن هذا الابتعاد هو
الجوهر الاقتصادي-الاجتماعى والسياسى للكومبرادورين الجدد (ولم
تفطن الجماهير بوعيها بالذات لهذا الجانب) ، بل كان يعنى
ايضا امركة حياتها ومعايير سلوكها ونظراتها وعاداتها .

وقد اكتسب الجشعون البيروقراطيون الكومبرادوريون والمثقفون الذين
باعوا انفسهم لهم تلك الصفات المعروفة فى الغرب تحت اسم
«الكسموبوليتزم» وهنا فى الشرق الاوسط معروفة باللاوطنية .
وقد ادى الاختراق التجارى الاوربى للشرق الاوسط فى القرن
التاسع عشر لظهور فئة الوسطاء الكومبرادورين . وقد يكون هؤلاء
يونانيين او ارمن او يهودا او فلسطينيين ، سوريين ، واحيانا مصريين .
وتعنى روح اللاوطنية الجديدة ان الكومبرادورين الجدد ذوى الاصل
المصرى يتعاملهم مع الغرب سيعطون له كل مواقعهم القومية فى
مجال الثقافة والعادات والخلق .

ويصاحب التسريب اللاحد له لرأس المال من مصر (مثلا من
كل الشرق الاوسط) للغرب انتقال الصفوة التي تفضل الحياة فى
عالمين فى وقت واحد فى مصر والغرب . ومن القاهرة الكبرى

المزدهمة ومن القيود التي تفرضها تقاليد المجتمع يمكن بسهولة للكومبرادورين المصريين الانتقال للتجوال في الغرب وشراء الشقق في باريس ونيويورك . لكن ذلك لا يعتبر «هجرة العقول» — رحيل العلماء والاطباء والمهندسين المغادرين للإقامة الدائمة في الغرب . بل هذا بالضبط هو الوضع الوسيط ، الذي يحدد استعداد الكومبرادورين للسكن في الغرب في حالة الاخطار الاجتماعية او السياسية ، دون التفكير في غد وطنهم ، او حتى في اجراء اصلاحات من شأنها ان توطد سلطتهم وامتيازاتهم لمدة طويلة . ويعتبر الباحث اللبناني فؤاد عجمي انه «لم تكن امكانية الهرب في تاريخ الحضارات متوفرة بهذه السهولة . ولم يكن ممكنا تصور النهضة اليابانية في القرن التاسع عشر ، اذا كان امام الصفوة اليابانية مثل امكانيات الهرب هذه التي تتمتع بها الصفوة العربية . لقد اتضح ان الثورة اليابانية من اعلى فعالة لان الساموراي قاموا بها وسخروها لعالمهم الخاص وكانوا حاملين حقيقيين للثقافة القومية» .

وكتب عالم الاجتماع الانجليزي اللبناني الاصل البرت حوراني في الاربعينات : «ان تكون لوطنيا معناه ان تعيش في عالمين او اكثر ، دون ان تنتمي لاحدها . واذا ما كنت على استعداد للقبول بالاشكال الخارجية التي تحدد الانتماء لقومية او ديانة معينة او ثقافة معينة دون الامتلاك الفعلي لها ، معناه انك لا تملك نظام القيم الخاص بك ، بل تستطيع فقط تقليد نظم الاخرين ، وحتى ليس التقليد الصحيح ، اذ ان مثل هذا التقليد يفترض اصالة معينة . ويعنى هذا عدم الانتماء لاي مجتمع او امتلاك اى شيء مشترك مع المجتمع . ويبدو هذا في مشاعر فقدان والتصنع والاستهتار واليأس» .

ويحدد كلام البرت حوراني في المقام الاول ايدولوجية اللاوطنية وليس الحاملين المحددين لها . ورغم ان الكومبرادورين المصريين الجدد يتمتعون تماما بالتصنع والاستهتار لكنهم لا يشعرون بالفقدان وباليأس . فالفطرة التجارية والاستهتار الكومبرادورى — الكوسموبوليتى يعبدان اليأس عنهم ، اذ انهم لا يشعرون بالارتباط القومى ولا بالمسئولية القومية . ويظل اليأس والشك من نصيب جزء من المثقفين الموالين للغرب . ورغم توجههم الغربى ويبيع انفسهم مقابل المنح الدراسية وامكانيات ايجاد عمل او دراسة فى الخارج ، فهم يظلون متمتعين بمعرفة وعلم كافيين للتفاعل الحقيقى مع انقطاعهم عن جذورهم القومية وايضا لرؤية الطريق الخطر الذى تنطلق فيه باقصى سرعة آلة الكومبرادورية ، آلة «الانفتاح» .

ايضهم القادة المصريون مدى الكراهية التى تبعثها «قطط الانفتاح السمان» لدى السكان الذين يعانون الفقر ؟ وهل يدركون مدى الخطر الذى يمثله الكومبرادوريون الجدد بابتعادهم عن التقاليد القومية ، الامر الذى يشكل فراغا ايدولوجيا هائلا ؟ تقريبا يدركون ، لكن ليس بشكل كامل . لذلك كان السادات يستعين دائما بالاسلام ، بالمشاعر الاسلامية وهذا ليس فقط لضرب القوى اليسارية الوطنية ، بل ايضا لتبرير «الانفتاح» بالاستناد الى وجهاء الاسلام والمشيمة الالهية . فقد كان يستخدم باستمرار مقتطفات من القرآن والسنة لدى دفاعه عن الظلم الاجتماعى ضد الدعاة الدينيين والماركسيين والديمقراطيين الثوريين المنادين بالمساواة ، وسعيا لتأييد رجال الدين السنيين الرسميين .

فى عام ١٩٧٥ تحدث شيخ الازهر عبد الحليم محمود بمناسبة النقاش الحاد الذى اندلع فى الصحافة حول مدى تطابق روح الطمع الرأسمالى مع مبادئ

الاسلام . فقد اعلن ان «الاسلام كان دائما مع الملكية الخاصة وان النقاش حول المساواة هو هراء ، ومن مات دون ان تكون له ملكية خاصة فهو معذب» . وقد شكلت فتاوى شيخ الازهر بصدد حق الملكية الخاصة وهجومه على الماركسية كتابا كاملا . وحينما بدأ الجدل حول وجهات نظره المحافظة وبعد ان ظهرت اخبار عن الثراء والمشاريع السرية والنشاط الرأسمالى لبعض علماء الازهر المرموقين منعت السلطات هذه النقاشات وحظرت مجرد الاشارة للسلوك غير الصحيح لعلماء الاسلام . وكان الشيخ بالنسبة للنظام هو «رمز لكل المسلمين ولا يمكن السماح بالهجوم عليه» .

وحاول علماء الدين بنفوذهم تبييض وجه اتفاقيات كامب ديفيد والصلح المنفرد مع اسرائيل وذلك باصدارهم فتوى خاصة بذلك : «يعتقد علماء الازهر ان المعاهدة المصرية-الاسرائيلية تتفق مع القانون الاسلامى . فقد وقعت من موقع القوة بعد معارك الجهاد والانتصار الذى حققته مصر فى ١٠ رمضان عام ١٣٩٣ هجرية (فى اكتوبر ١٩٧٣ . الكاتب)» . وكأنما من اجل ان يبين الازهر كيف يمكن استخدام السنة بمرونة ، وجد للمعاهدة المصرية-الاسرائيلية سابقة من دبلوماسية الرسول محمد ، واستشهد بعلاقة الحرب والسلام من الاتفاق الذى عقد فى عام ٦٢٨ مع شيوخ قريش التى كانت تحكم مكة

وكان السادات دؤوبا فى تبرير نشاطه «بالقدر الالهى» . ولم ينقصه التواضع للتأكيد على ان يد الله هى التى اشارت له الى طريق الحياة . وقد كتب فى كتابه «البحث عن الذات» ان نجاته من الموت المحقق ، وصموده فى عصر «النضال والجنون» (فى مرحلة الناصرية) كان بفضل ايمانه . فقد وجد الطريق «للمهمة المقدسة» — وهى نشر أفكار المحبة والاخوة . وقد كتب فى مقدمة كتابه عن

قصة حياته — «هذه هي قصة حياتي التي هي في نفس الوقت
 حياة مصر منذ عام ١٩١٨ لان هذا هو حكم القدر» .
 كما ان القدر حكم بان يكون في الجيش الذي تحذلق السادات
 باستمرار بتسميته «جيشي» ضباط شباب كان السادات يسميهم
 ايضا «ابنائى» ، لكنهم كانوا يعتبرون سياسة السادات خيانة .
 وصلوا واستعدوا لقتله . ثم نفذوا ذلك وقتلوه .
 اذا هناك اسلام واسلام .
 اسلام مختلف ومتعدد الوجوه ومتناقض . ويمكن لمختلف
 التيارات السياسية-الاجتماعية ان تتستر وراء رايته .
 وتميز خصائص السبعينات والثمانينات في ان المسلمين الاصوليين
 المصريين ، اى مؤيدى التقاليد والعودة «للعصر الذهبى» للاسلام
 لا يعترفون بادعاء النظام دور المعبر الحقيقى عن امزجتهم
 وتطلعاتهم . فاسلام الازهر الرسمى هذا شىء والاسلام الشعبى وآراء
 وافكار «الاخوان المسلمين» والكثيرين غيرهم من المجموعات
 الدينية شىء آخر . ومن الطبيعى ان الاحداث الايرانية وانتصار الثورة
 الاسلامية الشعبية على الشاه وحاشيته الامريكية لم تترك ارواح المصريين
 دون رد فعل ، رغم ان التطور اللاحق للاحداث اتى بخيبة الامل
 وحتى الكراهية «لسلطة رجال الدين» التى كانت فى ايران . لا بد
 من ملاحظة ان الحالة الدينية فى مصر لا تتطابق مع مثلتها فى
 ايران . فقد كانت الشيعة الدينية باستمرار تاريخيا فى موقف المعارضة
 من السلطة العلمانية ، ومعتبرة اياها غير قانونية . اما هنا فان جزءا
 كبيرا من رجال الدين السنيين يمثلون جزءا من الجهاز الحكومى .
 وفى سنوات محددة كان يواجه السلطة فى المعارضة ممثلو الاسلام
 الشعبى الجماهيرى وليس ممثلو «المؤسسة» الاسلامية وعلى رأسها
 الازهر .

لكن الازدواجية الثقافية ، او الازدواجية الحضارية واضحة في كل من المجتمعين الايرانى والمصرى ، مما يحمل في طياته عناصر عدم الاستقرار . ويتضح هذا بالذات حينما تتواجد البنى الاجتماعية التقليدية والمعاصرة او العصرية المزيفة فى المجتمع ، حينما يعمل بجانب الاسرة الاسلامية الكبيرة ، او الجماعة الزراعية مشروع رأسمالى حديث . ويصبح الامر غير محتمل حينما يعيش ويزدهر الاخير على حساب الاولين وخاصة اذا كان مفروضا على المجتمع من الخارج . واذا كان هؤلاء الذين تخلوا عن هويتهم ويحاولون الاندساس والتقرب «للغربيين» مكروهين من قبل الحاملين للثقافة التقليدية فان الامر بالنسبة للجماهير التى تقاسمهم المشاعر يصبح اكثر احتداما حول قضية الخبز اليومى . فهم غرباء واعداء للتحديث الرأسمالى (او التحديث غير الحقيقى) ، المشكوك فى افضليته علاوة على الوضوح الفج لجوانبه السلبية . ويتوجه هؤلاء وهؤلاء الى «القيم الابدية للاسلام» كنمط للحياة ، وايدولوجيا وراية للنضال السياسى .

وبالنسبة لاي سياسى فان هناك اهمية برجماتية لبعث تأثير البنى الاجتماعية التقليدية وايدولوجياتها . فقد اصبحت تخرج الى الساحة السياسية الجماهير الشعبية الواسعة التى كانت فى وقت ما خارج هامش النضال الاجتماعى . الا انهم اتوا معهم بلغتهم وبنظام الرموز الخاص بهم وبمعتقداتهم وبخرافاتهم وبتقافتهم السياسية . واتضح ان الثقافة الشعبية اكثر رسوخا مما تصور اتباع مذهب العصرية من مختلف الالوان والدرجات .

ومن السذاجة وقصر النظر السياسى اعتبار الاسلام يد الماضى الميتة . وفى العشرينات والثلاثينات كان يمكن لكمال اتاتورك مؤسس تركيا الحديثة ان يصيح قائلا : «انا سنسير فى طريق

الحضارة وسنصل اليها . . . ومن سيتخلف سيغرق في فيضانها الهادر . . . ان الحضارة هي تلك النيران القوية التي تحرق وتهلك من يتجاهلها . . . اننا سنعيش كامة تقدمية متحضرة» . وكانت الحضارة تعنى لمؤيدى كمال اتاتورك اتباع النمط الحياتى الاوربى دون اى مساومة .

وكان اتاتورك ايضا بمثابة نموذج لمحاولة التحديث الفاشلة التى قام بها امان الله خان فى افغانستان فى العشرينات ، وايضا لمحاولة التحديث المزيفة التى قام بها الشاه رضا فى ايران فى الثلاثينات . وقد درس عبد الناصر الشاب باهتمام تجربة مصطفى كمال اتاتورك . لكن مع بداية الثمانينات تحدث المراقبون غير المتحيزين عن الازمة العميقة للمجتمع التركى : انقلاب حكومى ، ملاحقات ، ازدياد التبعية للئاتو والخضوع للاملاء المالى لصندوق النقد الدولى . ومما لا شك فيه ان تركيا تقف بمستوى تطورها الاقتصادى — الاجتماعى فى مقدمة اى دولة عربية ، لكن الى اى مدى هى تقدمت ؟ وهل اقتربت من اوربا ؟ وكان الثمن الثقافى الذى دفعته تركيا مقابل التعميم الشامل للنمط الاوربى من وجهة نظر الاصوليين كبيرا جدا اما الامتيازات (او العائد) فقليل .

وإذا ما تتبعنا تاريخ مصر خلال المائتين سنة الاخيرة فاننا سنرى مدا وجزرا فى المشاعر الاسلامية ، توجهها للقيم الاسلامية او رفضها ، تقلبات نقاش لم ينته بعد بين «الموالين للغرب» و«الاسلاميين» ، والذى يصل عبر ضجته صوت الماركسيين والديمقراطيين الثوريين . وبدءا من عصر محمد علي كان النظام المسيطر يقف الى جانب التقدم ، والتحديث والاصلاحات فى مراحل نهوض ما ومراحل انجاز ما ، توارت فيما بعد وراء قشرة الاساطير والتقاليد فى مرحلة الرجعية والانهار . وقد ارتبطت فترات النهضة والتحولت

او على الاقل الامل فى النهضة والتقدم بفترة حكم محمد علي (١٨٠٥ - ١٨٤٢) ، الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) وبمرحلة ازدهار البرجوازية الوطنية. المعادية للانجليز (١٩١٩ - ١٩٣٦) ، وبالنظام الثورى الديمقراطى لجمال عبد الناصر (١٩٥٢ - ١٩٦٧) . الا ان التوجه للتقاليد وللذكريات وللأساطير حول «العصر الذهبى» للإسلام بدأت تسود حينما منى نظام التحديث بالهزيمة . كان هذا هو الوضع فى عهد حكم الخديوى عباس الاول (١٨٤٨ - ١٨٥٤) وفى فترة الاحتلال الانجليزى المباشر منذ عام ١٨٨٢ وحتى الثورة البرجوازية عام ١٩١٩ ، ومن ١٩٣٦ حتى عام ١٩٥٢ ، واخيرا بعد هزيمة حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ ، وبشكل خاص بعد نصف الانتصار الذى تحقق عام ١٩٧٣ وفترة الاستقرار المؤقت لسلطة السادات .

ولقرون وقرون عاش المصريون والعرب وكل العالم الاسلامى فى ايمانهم العميق الراسخ بتفوقهم الكامل والمطلق واللاشك فيه على اوروبا «الكافرة» . وبعد الرسالة الالهية لمحمد «خاتم الانبياء» ، كانت المسيحية بالنسبة للمسلمين تمثل حضارة الناس الضالين ، وفى احسن الاحوال المحتاجين للعناية والشفقة . وحتى القرن السادس عشر الميلادى كان المصريون والعرب الآخرون فى تجارتهم او تعاملهم مع الاوربيين على ثقة تامة بان الاوربيين لا يتفوقون عليهم بالانجازات العلمية التكنيكية وبمستوى تطور المهن والزراعة . اما انتصارات السلاح العثماني (المسلم) على «الكفار» فجعلت من المضحك نفس فكرة تعلم اى شىء ما حتى من العدو الضعيف او نقل شىء ما عنه . وكل ما كان يخصنا فهو جيد وحكيم وخير ، وما هو غريب فتعيس وسخيف ومقرز واثيم . ولم يلاحظ احد فى الشرق ، بما فى ذلك فى مصر ، البواكير الجديدة القوية المشحونة بالحياة للحضارة الغربية

والتي بدأت عملية البعث . وحتى الهزيمة العسكرية للاتراك في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر والانهييار المأساوى لمصر في نهاية القرن الثامن عشر والمجاعة الجماعية والموت الجماعى للسكان وانهييار منشآت الري— كل هذا لم يغير علاقة المصريين بالاوربيين .

وايقظت المصريين دفعة فجائية خشنة .

فقد اقام جيش حملة نابليون الذى حطم الجيوش التركية— المملوكية عام ١٧٩٨ السيطرة الاستعمارية لفرنسا على مصر . وقد استمرت هذه السيطرة اول عن آخر ٣ سنوات لكنها تركت فى الوعى الاجتماعى المصرى اثرا عميقا لدرجة انها اصبحت نقطة العد الاولى لكل تاريخ مصر التالى . فقد تأكد المصريون من تفوق التنظيم العسكرى «للكفار» ، وظلت عملية تقليد النماذج العسكرية الاوربية لمحاولة تأسيس قوات عسكرية تتفق مع المعدلات الغربية ظلت حتى يومنا هذا الشاغل الاساسى والهاجس والصداع للحكام المصريين . وكانت هذه المهمة سهلة التحقيق فى النصف الاول من القرن التاسع عشر عنها فى النصف الثانى من القرن العشرين . وكانت عملية ادخال نظم الجيش الاوربية فى مصر واللوائح والمدارس والخبراء النابليونيين والمهندسين والمصانع العسكرية واحواض بناء السفن قد أدت الى تحويل مصر لقوة عسكرية اساسية فى الشرق الاوسط مما تطلب تدخل الدول الغربية للقضاء عليها فى اربعينات القرن الماضى .

وقد وصلت مع جيوش نابليون الى مصر بعثة علمية فرنسية مكونة من نخبة الفكر العلمى— الفنى والانسانى الاوربى وكان تفوقهم واضحا للعيان لدرجة ان المصريين العقلانيين الشرفاء توصلوا لاستنتاج وحيد— وهو ضرورة التعلم من اوربا ، تعلم الرياضيات

والفيزياء والكيمياء والهندسة والطب والبناء والنشاط الصناعي ،
وباختصار ، كل مجمل المعارف العلمية-التكنيكية . حتى المؤرخ
المصرى العظيم عبد الرحمن الجبرتي دعا الى ذلك . وكان الجبرتي
آخر المؤرخين العظماء ، ومن رجال الازهر ، وقد ترك وثائق قيمة
عن حملة نابليون وبداية حكم محمد علي . ونادى بذلك
ايضا بعض رجال الدين الاخرين . ولم يكونوا مطلقا لا محدثين
ولا «موالين للغرب» .

وقد استطاع محمد علي الباشا التركى الالبانى الاصل الاستيلاء
على السلطة فى مصر والاستقلال عمليا عن سلطة الباب العالى فى
اسطنبول وحتى تحديها . وقد بدأ اجراء اصلاحات ادارية وعسكرية
بهدف توطيد سلطته والقدره العسكرية للبلاد . واصبح الحاكم
المصرى ينتقى ويرسل الشباب الموهوب لدراسة المعارف العسكرية
والعلمية-الفنية فى اوربا الغربية .

وهكذا اصبحت ضرورة التعامل والتوجه لانجازات الغرب فى
المجال العلمى-الفنى والعسكرى لا تثير شك احد ما . لكن ما
العمل اذن مع التنظيم الاجتماعى والبنية السياسية ، والحقوق ودور
ومكانة الانسان فى المجتمع ، ووضع المرأة ، والايديولوجيا والادب
والفن والاعداد ؟ وهل هناك انجازات عسكرية وعلمية-فنية يمكن
نقلها مباشرة وبشكل معزول دون ان يعكر ذلك صفو العقيدة والاسس
الحضارية ، او ان هذه الانجازات من لحم ودم الحضارة الغربية
بالمعنى الواسع للكلمة ؟ لكن اذا ما اعترفنا بتفوق الغرب فى الحياة
الاجتماعية والروحية وبدأنا فى تقليده ألن يضر ذلك التقليد اركان
العقيدة والنظم الاجتماعية السابقة ؟

واختلفت الاراء فى المجتمع المصرى وكل الشرق بخصوص
هذه الاسئلة . ولم تنته لليوم المناقشات والجدالات بين مؤيدى

ادخال الانماط الغربية والاوربية والمحدثين البرجوازيين وبين الغيورين على الاصاله القوميّة الدينية وعلى الطريق «الاسلامى» الخاص للتطور . ودعا المتطرفون «الموالون للغرب» الى نقل الحضارة الاوربية بالكامل بورودها واشواكها ونفض غبار القرون عن ارجلهم ، وابعاد كل التراث الاسلامى كبقايا للماضى ، والسير على طريق التقليد الكامل وغير المشروط للغرب فى كل المجالات — من المجال الاجتماعى السياسى والحقوقى حتى الثقافى والادبى والفنى . وكما ذكرنا ان تركيا سارت ابعد الخطوات على هذا الطريق ايام مصطفى كمال اتاتورك . وكان له مؤيدوه فى مصر لكن صوتهم لم يكن عاليا او ذا وزن ولم يقاسم افكار «المتطرفين الغربيين» سوى حفنة من المثقفين .

وترددت فى مصر بقوة اكثر ، رغم انها لم تكن هى المحددة باستمرار ، نداءات التقليديين ، الذين يسمونهم فى الادب الانجلو ساكسونى وفى الصحافة فى السبعينات والثمانينات الحالية الاصوليين ، اما فى الادب الفرنسى فيسمونهم التكاملين . وهم يعتبرون ان القرآن والسنة هما بداية ونهاية كل شىء . فالعالم الاسلامى سار للانحدار ليس لتأخره فى السير على الطريق الغربى للتطور ، بل لانه نسى «الايمان الحقيقى» وتعاليم الرسول والخلفاء ، وسقط فى الاثم والتدهور الخلقى . وكان على العودة للاصول الاولى ، «للاسلام الحقيقى» وللقرآن «والسنة السليمة» وليس للتقليد الأعمى للغرب او محاولة «التحديث» ، ان تعيد «العصر الذهبى» للاسلام . وسيعيد الايمان المبعوث من جديد المكمل بالتكنولوجيا الغربية الى العالم الاسلامى قوته العسكرية وكرامته واحترامه للذات وازدهاره . وهناك تيارات للفكر الاجتماعى-السياسى غير معزولة مطلقا بحائط اصم بين الاتجاهين المتطرفين ، اللذين يدعو احدهما بالقبول المطلق

للحضارة الغربية والاخر الداعى لرفضها . وقد اعتبر احد هذه التيارات انه بعد المحافظة على اسس العقيدة دون لمسها من الضرورى تحديثها وتكييفها لمطالب العصر وبوعى او بدون وعى اقامة اطر اجتماعية-سياسية وايدولوجية للتطور الرأسمالى الممكن . وكان جمال الدين الافغانى اكبر شخصيات هذا التوجه فى نهاية القرن التاسع عشر— بداية القرن العشرين ، والذي عاش فترة طويلة فى مصر ، كما تبعه المفكر المصرى الدينى الاصيل الشيخ محمد عبده . وكان الافغانى ابا الجامعة الاسلامية وهى افكار توحيد الشعوب الاسلامية تحت قيادة حكومة اسلامية عامة ، يرأسها سلطان خليفة عثمانى . وباتحادهم سيستطيع المسلمون مواجهة المطامع الاستعمارية للغرب المسيحى . وحينما يتوطد الاستقلال ستظهر ضرورة تحديث الاسلام من اجل توفير تقدم وازدهار المسلمين . وكان الافغانى مؤيد اقتباس ليس فقط المعارف العلمية-التكنيكية والعلمانية بل نادى ايضا باتباع مبادئ البرلمانية والدستور . ودافع المعلم الدينى عن حق كل مسلم فى التفسير الحر للقرآن .

وإذا كانت افكار الافغانى الدينية والاجتماعية قد اعتبرت روح الاصلاحية فان شعاراته السياسية كانت مناسبة للرجعية المتطرفة وقد استخدمتها الحكومة العثمانية كراية فى طموحاتها لابقاء وحتى توسيع الامبراطورية العثمانية الآيلة للسقوط .

وقد تميز الشيخ محمد عبده بالثقة فى الرسالة الخيرة التى كان يظن ان السلطان — الخليفة العثمانى يقوم بها من اجل مصر . ونشير الى ان اغلبية الوطنيين المصريين ابدوا التعاطف مع الاتراك : وكانت انجلترا هى العدو الاساسى ، وفى النضال ضدها حاول الوطنيون المصريون الاعتماد على مساعدة السلطان التركى . ولم يرد المثاليين-الوطنيين المصريين الا سياسة الامبراطورية العثمانية الموجهة

نحو اتركة المناطق العربية وهى السياسة التى اتبعت بدأب على ابواب الحرب العالمية الاولى . ورغم نضال محمد عبده ضد انجلترا الا انه فضل بنيتها السياسية واعتبرها نموذجا ووثق فى امكانية التعاون مع الانجليز من اجل مصالح مصر . ولم يؤمن كثيرا بواقعية تأسيس حكومة اسلامية عامة واقترح للبداية تجديد الدين من اجل تغيير نمط حياة المصريين وتحقيق التغييرات الاجتماعية . وقد ظل الشيخ محمد عبده فى ذاكرة المصريين كأكبر مصلح اجتماعى دينى .

اما المصلحون الآخرون الذين شكلوا توجهها لبراليا ، كالعادة ذا تكوين غربى ، فقد افترضوا انه مع الابقاء على الدين فى مجال العبادات والاخلاق وقد يكون فى مجال الحقوق الاسرية ايضا ، من الضرورى اتباع النموذج الغربى فى المجال السياسى الاجتماعى . لكن يجب ان تكون هذه النماذج مستوعبة فقط من النخبة وتعد مجالا لنشاطها ، اما الدين فيستخدم كزمام للسيطرة على الجماهير . وقد جرى تطور الفكر الاجتماعى المصرى فى بلد لم يكن معزولا مطلقا عن العالم الخارجى . ولم يكن الغرب محبا للسلام وجارا محبا للخير . ولم يكن من السهل تتبعه وملاحظته ببساطة ، ودراسته واحتساب ما يمكن اقتباسه من خبرته وما لا يمكن . فقد اقتحم الغرب البرجوازى مصر دون تكليف فى القرن التاسع عشر بسلعه وقروضه التى كبلت البلاد وكذلك باحتلاله المباشر لها . ولم يأت الغرب فى شخص بريطانيا العظمى كفاعل خير وليس كأخ كبير مادا يداه لمصر المتخلفة او من اجل رفع مستواها الحضارى ، بل كمستغل مستهتر وناهب ميعقا لتقدم مصر وكعسكرى امبريالى غليظ استقر فى أكثر معاقل آسيا وافريقيا استراتيجية . وكانت الثكنات العسكرية الانجليزية فى وسط القاهرة على شاطئ النيل

حيث يوجد الان فندق «الهيلتون» وفي منطقة قناة السويس اكبر دليل مقنع على كيفية تفكير لندن لعلاقتها المتبادلة مع مصر . وكم من المرات تحطمت اوهام الليبراليين العرب لدى مواجهتهم المباشرة مع وحشية الغرب .

ولذلك فان صورة الغرب منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم في نظر المصريين متناقضة ومزدوجة . فهو مثل مغر للتقليد ، وهو ايضا نموذج للمستغل المكروه والمعتدى-المضطهد . وقد ادت ثنائية تقييم الذات والعالم الخارجى الى التركيب المتناقض لمجمل العيوب والنواقص تجاه الغرب مع مجمل صفات افضلية المسلم عن اى مسيحي .

وكان التطور الرأسمالى بحد ذاته الذى بدأ فى مصر قبل الاحتلال الانجليزى مشوها ومريضا وبلا شكل سليم ولا قوميا . وقد اصبحت العناصر الاجنبية المتدفقة على البلاد هى الحاملة للعلاقات الرأسمالية مثل- اليونانيين ، والايطاليين ، والفرنسيين والارمن واليهود . وبعد ان تحلّى بعضهم بالخلق المحلية واجادوا اللغة العربية ، اصبحو يعرفون فى مصر ايضا بغير الوطنيين . فلم يكونوا مصريين او اوريبيين ، وكانوا نصف عرب ونصف اوريبيين ومن ناحية جوهرهم الاجتماعى كانوا ذوى توجهات غربية كاملة . وقد ازداد الطابع الاجنبى والمعادى للمصريين للرأسمالية المحلية قوة اثناء فترة الاحتلال الانجليزى . وطبيعى ان اكبر نصيب من الكعكة - من شركة قناة السويس ومن تجارة القطن - كان فى ايدى رأس المال الانجليزى والفرنسى الانجليزى الكبير . ولم تتطور سوى تلك القطاعات الاقتصادية التى كانت ذات فائدة للمستعمرين . واصبحت مصر بلد المحصول القطنى الواحد ، وموردة المواد الخام لمصانع النسيج فى لانك شاير . ولم يؤد ظهور رجال الاعمال ذوى الاصل

المصرى ورجال البنوك والتجار الكبار فى العشرينات والاربعينات الى تغيير الطابع شبه الاقطاعي وشبه الاستعمارى ، الكومبرادورى للرأسمالية المحلية . وكانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ هى رد الفعل على ذلك ، وهى التى وضعت نقطة البدء للتجربة الثورية-الديمقراطية للمرحلة الناصرية التى تعد تجربة عظيمة فى تاريخ مصر .

الا انه من الزعم المفرط ان يدعى المرء ان بامكانه تلخيص تطور مصر الاجتماعى-الاقتصادى والسياسى على مدى مائتى سنة فى عدة فقرات . فقد نظرنا فقط لهذا بشكل مختصر تماما من اجل العودة للحديث عن تطور الفكر الاجتماعى المصرى . ولم يأت قاذفو القنابل — جنود نابليون (جريناديرى) بالكبرياء الاستعمارى الفرنسى فقط على سناكيهم ، بل اتوا ايضا بشعار الثورة الفرنسية — «الحرية والمساواة والاخاء» . وحاولت الدولة المستعمرة ان تزرع فى التربة المصرية بعض عناصر بنيتها الحكومية والادارية والحقوقية ، وافكار التمثيل البرلمانى ، وفصل السلطة التشريعية والتنفيذية ، والدستور . وقد لعبت كل هذه العناصر المدخلة الجديدة دورا غير مألوف . ومع ان الوسائل التى استخدمها الاستعماريون وضعت لتحسين وزيادة فعالية سيطرتهم وتغطت بالديماغوجية المطلوبة الا انها لاول مرة ومنذ مئات ومئات السنين اصبحت تعوّد المصريين على ادارة بلدهم . وكانت «الحكومة» المصرية اثناء الوجود الفرنسى فى مصر لافقة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية . لكن لم يكن لدى المصريين اثناء الحكم المملوكى صوت واحد فى الحكومة ولا اية حقوق او ضمانات للحياة او العقارات . وكانت الادارة الاستعمارية الفرنسية افضل من الاستبداد العثمانى-المملوكى ، لكنها كانت مرفوضة من قبل المصريين كشىء مفروض عليهم من الخارج ، وكشىء غريب ، مسيحي فى نهاية الامر ، وضع المسلمين فى وضع

الخاضع . وقد استوعب تلامذة الفرنسيين الدرس اسرع مما اراد
المدرسون . وكان اول رد فعل لدى المصريين الذين تعرفوا على
الاشكال الادارية الجديدة هو السعى لاستخدام هذه الاشكال ليس
للمصلحة الفرنسية بل للمصلحة المصرية الخاصة . وكان رد الفرنسيين
هو التنكيل ورد المصريين هو الانتفاض . وبعد طرد الفرنسيين
بمساعدة دولة «كافرة» اخرى هى بريطانيا العظمى لم ينس المصريون
الدروس الفرنسية . ولم يستطع المصريون تذوق طعم الديمقراطية
البرجوازية الاوربية الغربية ، الا ان رائجتها النفاذة وصلت الى انوفهم
على الاقل . فلم يكن لدى المصريين الثقافة السياسية المطلوبة ولا
التنظيم ولا الخبرة . لكن ظلت الذاكرة التاريخية كعامل حيوى
للحياة الاجتماعية المصرية ، رغم ان محمد علي اسس نظاما
استبداديا لم يستطع احد اثناءه الحديث عن الدستور او عن البرلمان .
وقد خضع بعض المصريين ، الذين ارسلهم محمد علي الى
فرنسا ولبعض الدول الاوربية الاخرى لدراسة الهندسة العسكرية
والطب ، خضعوا تماما للثقافة الاوربية . كما انهم لم يظلوا صمًا
تجاه الافكار الاجتماعية-السياسية لاوروبا الغربية ، ولم يختفوا في
قلعة جهلهم المهدئ من الاشكال الغربية غير المعروفة للحياة
الاجتماعية-السياسية . وكان رفاة الطهطاوى اكثر المصريين بروزا
ومؤسس كل تيار المصريين «الغربيين» ، وهو الذى ذكرناه لدى
الكلام عن قضية تحرير المرأة .

وبعد ان قضى الطهطاوى خمس سنوات فى فرنسا وتعلم اللغة
الفرنسية ، عاد الى الوطن مليئا بالافكار والانطباعات ، واصبح
منظما ومديرا لمدرسة المترجمين ، التى اهدت مصر اكثر من الفين
من الترجمات ، كما اصبح محررا لاول جريدة مصرية وهى «الوقائع
المصرية» . وقد سجل الطهطاوى وجهات نظره فى كتاب «تخليص

الابريز في تلخيص باريز» وكذلك في كتاباته الاخرى . وكل من يدرس الليبرالية المصرية لا بد وان يبدأ من رفاة الطهطاوى ، على الاقل للتأكد من مدى ضآلة المقلدين المعاصرين لليبرالية مقارنة بالحجم الضخم لشخصية اول مصرى «غربى النزعة» . ويستعان بالطهطاوى بالذات من اجل ايجاد جذور كثير من الافكار والفكرات الصغيرة ، الخاطرة والخويطات المعاصرة التى تشكل الاساس الايديولوجى الهلامى والعابر لليبرالية المصرية المعاصرة الموالية للغرب . وكان الطهطاوى ابنا لبلده وزمنه ، وبعد ان اصبح «اماما ذا نزعة غربية» لم ينس دوره كامام مسلم . فقد قسم العالم الى عالم مسلم وجد فيه تفوق المبادئ الروحية ، وعالم اوربى حيث يسيطر العلم . واعتبر الطهطاوى ان توحيد هذين العالمين فقط اى تركيب الحضارتين الشرقية والغربية هو الذى سيضع الاساس لبعث وتحديث مصر .

وتشكلت آراء الطهطاوى الاجتماعية-السياسية تحت تأثير روسو وسان جوست وفولتير ومونتسكيو . واذا كان الطهطاوى قد ابتعد فى وقت متأخر من عمره تدريجيا عن الاهتمام ببعقوية وروسو وسان جوست من اجل ان يتخذ مواقف مونتسكيو المعتدلة فانه حتى هذه المواقف كانت كافية الثورية لمصر فى القرن التاسع عشر .

وقد علق الطهطاوى فى كتاب «تلخيص الابريز فى تلخيص باريز» على الميثاق الدستورى للويس الثامن عشر بما يلى : «ورغم ان ما يحتوى عليه الميثاق لن تجده فى القرآن او السنة . . . الا انك ستدرك ان العدالة والانصاف هى ادوات توفير رفاهية الدولة والشعب» .

ولم يغب مصطلح «الحرية» الذى يعتبر جديدا على المجتمع الاسلامى عن اهتمام الطهطاوى . وكان هذا المصطلح يعنى لعلماء

الشريعة الحالة الحقوقية فقط والمعاكسة للاستعباد . وعلى اثر المفكرين الفرنسيين اعتبر الطهطاوى ان الحرية هي الوضع الطبيعي للانسان الذى يضمه مساواة الناس امام القانون . ولذلك فان السلطة لا يمكن ان تكون مطلقة ، ولا يمكن تبريرها بارادة الله . ويجب ان تكون محدودة بالتمثيل البرلمانى . وكتب الطهطاوى ان «الملك الفرنسى ليس حاكما مطلقا يستطيع ان يفعل ما يشاء . فهو يظل ملكا بقدر ما يتبع القوانين التى اصدرت بمساعدة اعضاء الجمعيات المختلفة . . . ويدافع البرلمان عن حقوق الشعب» .

ولن نحكم على الامور بصرامة دقيقة اذ ان اهتمامات الطهطاوى تنطلق من الخبرة التاريخية للمائة وخمسين عاما السابقة ولن نستند الى تحليلنا الماركسى للبرلمانية البرجوازية . بل سنحاول ان ننظر اليه من وجهة نظر مصرى مستنير من القرن التاسع عشر . ولنذكر انه من وجهة نظر علماء الشريعة فان الله هو مصدر السلطة والقانون . اما من وجهة نظر ايديولوجى الثورة الفرنسية فان الامة هي مصدر السلطة والقانون . ورغم ان هذا الوضع وذاك هما وهم حقوقى يعطى الشكل القانونى لسيطرة الطبقة الحاكمة (الاقطاعيين فى الشرق الاوسط فى الحالة الاولى والبرجوازية الاوربية الغربية فى الحالة الثانية) فان هناك هوة كبيرة بين نظامى الفكر السياسى والقانون الحكومى . واصبحت عملية بناء جسور فوق هذه الهوة من المهمات المزمنة والصعبة للبراليين المصريين .

وفى وصفه لثورة ١٨٣٠ فى فرنسا ذكر الطهطاوى عملية فصل الكنيسة عن الدولة ، ملمحا بذلك الى امكانية فصل السلطتين الدينية والعلمانية فى مصر ، ومن هنا الى استقلال مصر عن السلطان — الخليفة التركى . وقد حكى الطهطاوى لقراءه المصريين

عن دور التنظيم السياسى فى المجتمع . ولاول مرة فى التاريخ عرف المصريون أنه حتى الرعية يمكنهم تكوين حلف للدفاع عن مصالحهم والالتحام حول المبادئ الاقتصادية والسياسية العامة . اذ انه حسب الشريعة فان اخلاص الرعية للسلطان يجب ان يكون بلا حدود ، كما كان من المستحيل الانفاق على حقوق الرعية . وكتب الطهطاوى عن حرية اعتناق العقيدة وعن علانية المحاكم والقضاء ، عن الديمقراطية وعن حقوق الانسان وذلك فى الوقت الذى لم يسمع فيه المصريون عن هذه الاشياء ، وفى البلد الذى لم يكن فيه مكان لا للدستور او لحقوق الشعب او للديمقراطية . وقد اسكرت هذه الكلمات الليبراليين المصريين حينذاك كما تسكرهم الان . وفى ظروف مصر لم يثبت الطهطاوى على افكار سيادة الامة و«التمثيل البرلمانى» . وقد اختار انجلترا كنموذج بعد مونتسكيو . ورأى ان انسب شكل لادارة مصر هو الملكية الاستشارية التى يتخذ فيها الحاكم القرارات بعد استشارة اصحاب المقامات الكبرى . اما مصدر القوانين فقد رآه فى الملك وليس الامة . وكانت افكار الثورة الفرنسية غريبة عن المجتمع المصرى التقليدى . ومن اجل التخدير من مساوئها لجأ الطهطاوى منذ البداية الى الطريقة القديمة والمجربة وهى ادخال الافكار المقتبسة مصوراً اياها كأفكار اسلامية تخصه . وقال الطهطاوى ان الاشكال الاوربية للتنظيم الاجتماعى لا تناقض الاسلام بل انها كانت معروفة منذ زمن لهم ، اما افكار الثورة الفرنسية فهى تتطابق مع القرآن وأورد للبرهنة على رأيه عشرات من المقتطفات من القرآن والسنة . وكان الطهطاوى واحداً من اوائل من تحدثوا عن القومية المصرية ، وعن القومية بشكل عام وهى امور لم تكن معروفة للمصريين من قبل . وحسب تفسيره فان الوطنية تعنى حب التجديد والبناء وتقوية مصر .

كما لم يغيب عن اهتمام «امام ذوى النزعة الغربية» مبادئ الاقتصاد السياسى . فقد كتب ان العمل هو اساس الثروة واساس القيمة الناتجة ، كما شجب الاستغلال المفرط للفلاحين والاجراء . ودافع عن الملكية البرجوازية والرأسمالية البرجوازية . وبتكراره ما قاله ارزام روتردامسكى افترض ان الدين والامور الدينوية لا يناقض بعضها البعض .

وقد ايد المثقفون المصريون الاصغر مكانة افكار الطهطاوى . ولم يكونوا مناضلين بل مثقفين رأوا مهمتهم فى نشر التربية العلمانية والمعارف الفنية-التكنيكية والافكار الاجتماعية-السياسية الجديدة . ولذلك فاننا نستطيع ان نكرر وراء الباحث الغربى جابريلى : «على المؤرخ ان يدين اليوم بالعرفان للصحافة العربية ملتقى القرنين كأول مظهر هام من مظاهر البعث العربى . فحينما تقرأ الان اعمال هؤلاء الكتاب فانك كثيرا ما تسمع وراء الاسلوب الشرقى المزوق احيانا بصوت عال وحيانا بصوت منخفض اصوات روسو وفولتير وجون ستيوارت ميل وهوجو وغارibaldi ومازىنى» .

وقد تبع الطهطاوى فى مجال الفكر الفلسفى والسياسى المفكر الكبير قاسم امين ، الذى تحدثنا عنه كمنشد لمساواة المرأة ، وكذلك الشخصية السياسية احمد لطفى السيد . وقد استرشد الى حد كبير بافكارهما سعد زغلول قائد ثورة ١٩١٩ ومؤسس الحزب البرجوازى الاقطاعى «الوفد» . وقد عكس الدستور المصرى الصادر عام ١٩٢٣ الانتصار المؤقت للوفدية .

فقد اعلنت مصر «دولة حرة ومستقلة وذات سيادة» ، الامر الذى رفض فكرة «الدولة» الطائفية الاسلامية برئاسة السلطان-الخليفة . وحدد الدستور مساواة المصريين امام القانون ، رغم ان الشريعة كانت تعنى تميز المسلمين عن المسيحيين ، واليهود والزرادشتيين .

واخيرا نصت المادة ٢٣ من الدستور على : «تتبع كل السلطة من الشعب وتجد تعبيراً لها في النظام الدستوري الذي يفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية» .

وقد خيل انه حان وقت انتصار الافكار الليبرالية المظلمة بظلال رفاة الطهاوى . كما خيل ان مصر ستصبح جزءاً من اوروبا . لكن مرة أخرى ظهر في اليد الممدودة للشعب المصرى حجر بدلا من الخبز . فقد خدع الليبراليون المصريون المنحلون الجماهير المصرية عن وعى . وكانت بنود الدستور نفس الديماجوجية التي سادت في خطب وبرامج الحملات الانتخابية .

«فالدولة الحرة المستقلة ذات السيادة» كانت مثلما سبق محتلة من قبل الجيوش الانجليزية ، وابتقت معاهدة ١٩٣٦ ، التي اعترفت شكليا باستقلال البلاد ، الجنود الاجانب في اراضى البلاد . وكانت المساواة بين المصريين امام القانون في ظروف الظلم الاجتماعى الواضح استهزاء بملايين المحرومين من الحقوق الانسانية وبالفلاحين المجهولين الاحول لهم ولا قوة وبفقراء المدينة . وقد احتفظت السفارة الانجليزية والقصر الملكى «بكل السلطة» ، وشاركهم كذلك الجهاز البيروقراطى الضخم والاحزاب العلنية المنغمسة فى الدسائس السياسية والتطاحن على الاماكن الدافئة . وكان الدستور والشعارات الليبرالية كلمات تلبى فى احسن احوالها حاجات الفئات العليا والقطاع المحدث من المجتمع المصرى ، والرأسمالية شبه الاستعمارية ، اما فى اسوأ الاحوال فمجرد ثرثرة . ولم تستطع الرأسمالية التابعة وشبه الاستعمارية ان تساعد على النهوض الاقتصادى وتحسين مستوى معيشة الجماهير .

واستمرت اغلبية المصريين فى الحياة فى اطار المجتمع التقليدى ، سواء فى مجال الانتاج المادى ، او الثقافة والايديولوجيا والحقوق

والقيم الاجتماعية والخرافات . وقد رفضت الاغلبية المطلقة من السكان التحديث البرجوازي بالذات لانه يعنى تقوية الاستغلال والنهب المباشر الذى اقترن فى نظر الجماهير بالسيطرة الاجنبية . وقد ظلت المثل الثقافية والسياسية «الذوى النزعة الغربية» امورا غريبة ومعادية للجماهير ، خاصة وان كثيرا من الوفديين كانوا اقباطا ، واكثر تعرضا لمؤثرات الحياة الاوربية . وكانت «الانتخابات» والبرلمان وغيرها من المتطلبات الخارجية للدولة المعاصرة عبارة عن «لعبة الافندية» ، ولهو للسادة ولم يكن لها اى اساس مشترك مع المصالح الملحة للمجتمع المصرى .

وقد ادت هذه الاوضاع الى بعث جبار للحركات السياسية-الدينية وذلك كظاهرة مميزة للحياة الاجتماعية المصرية بدءا من الثلاثينات ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى الى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الديمقراطية الوطنية .

وهناك آراء مختلفة حول تناسب التقليدية والتحديث فى الحياة السياسية-الاجتماعية لمصر فى القرن العشرين . وسأورد احد هذه الآراء وهو للمستشرق السوفيتية تشيرنوفسكايا وهى كاتبة البحث المرجعى الجاد الثرى بالمعلومات حول «نشأة الانتليجينسيا المصرية فى القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين» :

فقد كتبت انه «فى النصف الاول من القرن العشرين حينما اصبح واضحا اتباع مصر لطريق التنمية الرأسمالية ، لم تستطع الايديولوجيا الدينية التى كانت تعتنقها الانتليجينسيا التقليدية حينذاك القيام بالدور المقرر فى حياة المجتمع . ووجدت فئة المثقفين الصغار سندا لها فى الشعب — وسط الفلاحين والفئات شبه البروليتارية فى المدينة وايضا وسط الفئات الانتقالية الاخرى من السكان التى انفصلت عن المجتمع التقليدى لكنها ما وجدت مكانا فى المجتمع

الجديد . الا ان التوجهات الموضوعية لتطور مصر حددت عدم المستقبلية التاريخية للحركات الجماهيرية ، التي تشكلت ايدولوجيا على ايدى ممثلى الانتليجينسيا القديمة .

وقد بينت تجربة مصر بجلاء ان المستقبل مع القوى السياسية الجديدة ، التي كان الشكل المعاصر من الانتليجينسيا يعبر عن طموحاتها . ففي هذه الفئة الاجتماعية كان الشعور حادا بعدم التناسق بين وجهات النظر القديمة الموروثة عن الاجداد ، وطرق التفكير وبين ظروف الحياة الجديدة . وفي بداية القرن العشرين بدأ كثير من ممثلى الانتليجينسيا الابتعاد عن مثل الجامعة الاسلامية والاصلاح الاسلامى» . لكن هل يتفق الواقع المصرى مع تنبؤات باحثتنا الذكية الواسعة الاطلاع ؟ أليس هناك استعجال فى الاستنتاجات ؟ والا تصور المرغوب على انه واقع ؟ والا نضع انفسنا لدى اعطائنا هذه التقييمات فى اسر التأكيدات الرائجة عن أن «التحديث» كما لو كان ينتصر دائما على «التقليدية» ؟ فيما يتعلق بالانتصار فانه سينتصر فى نهاية المطاف لكن هل فى كل مكان ؟ وبعد اى فترة تاريخية ؟ لكن ما العمل اذن فى تجربة ايران وباكستان والعربية السعودية ؟ اضافة لذلك فان هناك تحديث و«تحديث» . والمقصود بالتحديث الاخير بالضبط هو التطور الرأسمالى المشوه والمعادى للمصالح القومية . واحتماء من هذا التحديث يغرق الكثيرون فى مستنقع التقليدية . واذا «كان فى بداية القرن العشرين بدأ كثير من ممثلى الانتليجينسيا الابتعاد عن مثل الجامعة الاسلامية والاصلاح الاسلامى» فقد اتضحت صورة مدهشة : فى الثلاثينات والاربعينات بدأوا الابتعاد ليس للامام الى اصلاح اعمق بل للخلف ، لرفض ضرورة الاصلاحات حتى السطحي منها المتعلق بادخال بعض عناصر النمط الاوروبى .

في ان نفق كل ما لدينا واكثر وكل قوتنا وجهدنا ووقتنا واموالنا من اجل حث المصريين مجموعات وافرادا على ان يشعروا بان الله خلقهم للمجد وليس للمذلة ، للقوة وليس للضعف ، وللسيادة وليس للخضوع ، للتجديد وليس للرجعية ، وازال من قلوبهم الوهم المجرم الفظيع بأنهم خلقوا من طينة اخرى تختلف عن تلك التي صنع منها الاوربيون ، وتشكلوا بطريقة ما تختلف ولديهم عقل يختلف عن ذلك الذي لدى الاوربيين» .

وقد اثار برنامج البرجوازية الليبرالية الذي كتبه طه حسين بالذات معارضة حادة لدى الاصوليين المسلمين الذين كانوا قد بدأوا في النهوض حينذاك . وقد اجاب مصرى آخر على طه حسين وهو سيد قطب المفكر الدينى-السياسى واحد قادة «الاخوان المسلمين» بان تقسيم العالم الى شرقى وغربى امر يذهل بمحدوديته وعدم اكتماله . لقد نسى الليبرالى ذو النزعة الغربية عالما متكاملا له نظريته وهو العالم الاسلامى . ومصر بالذات تنتمى لهذا العالم ، وما هو غير ذلك فهو مكر واحتيال ، وای محاولة للسير فى طريق آخر للانسلاخ عن هذا العالم ستبوء بالفشل .

لقد توفى سيد قطب منذ زمن . وهو الذى كان منظما للمعارضة ضد نظام جمال عبدالناصر ودفع مقابل ذلك ثمنا غاليا . الا ان الاراء التى اوحى بها له معلمه حسن البنا وآراءه الشخصية آخذة فى الانتشار . فهى تجد مؤيدين لها بين الشباب والفتيات الاتقياء فى العديد من الجامعات اذ انها تعطى اجابات ، او بمعنى اصح ردودا ظاهرية مقنعة على الاسئلة المعقدة التى تواجه المجتمع الذى وقف امام طريق مسدود . فبطريقة بسيطة وبتركيز على المشاعر والنظام الخاص بالرموز—تجد صدق فى ارواح الفئات الامية من القاعدة العريضة التى يعتبر الكثيرون منها مهاجرين من الريف—

فلاحى الامس الذين لا حول لهم ولا قوة والذين وجدوا لهم ملجأ
فى ازقه المدن الكبرى والمنبوذين من «التحديث» الرأسمالى .
فالكوارث الاقتصادية والاختلالات والصعوبات والجوانب المشوهة
«للانفتاح» وازدياد الظلم الاجتماعى وانهيار المجتمع القديم وغياب
بديل واضح له وفشل النظام فى تعامله مع الغرب وضعفه فى الدفاع
عن الاصاله القومية — كل هذه العوامل تبعث عدم الرضا فى العقول
والقلوب وتثير البلبلة فى نفوس الناس . وتفتح عملية الامركة المفروضة
على وعى جماهير الشعب من التليفزيون الطريق الى عالم غريب
جدا عن الاغلبية لدرجة انه يثير الاحتجاج والصد ، وهى تجبر
الناس على البحث عن شىء مستقر ثابت خاص بهم . ويقوم
الاصوليون المسلمون بمخاطبة الجماهير بلغتها ويستخدمون
المفاهيم والثوابت التى تستوعبها . وتتضمن دعايتهم التقيض الواضح
لابتذال ونفاق وسائل الاعلام الرسمية .

وقد بين كامب ديفيد والصلح المنفرد مع اسرائيل الى اى مدى
اهان السادات ونظامه المسلمين . ويقوم موقف «الاخوان المسلمين»
على رؤيتهم الخاصة للتاريخ وللأحداث التاريخية . فقد تذكروا
نضال الرسول محمد ضد اليهود مطبقين ومقارنين اياه بنضال العالم
الاسلامى الان ضد الصهيونية واسرائيل . ويشير الاصوليون باستمرار
الى «ان اليهود لن يتخلوا عن الايمان ، بأنهم شعب الله المختار» .
وكانت خطة السادات كاذبة : فقد قبل فكرة نظام الشرق الاوسط
رغم ان نفس مفهوم «الشرق الاوسط» يعتبر غير مقبول من المشاعر
الاسلامية لانه يحدد العالم الاسلامى عن طريق علاقته بالغرب —
«بالهيمنة اليهودية» . واعتبر الاصوليون انه لا يمكن التحادث مع
المحتل والتخلى له عن الحقوق التاريخية . لقد غزا الكثيرون مصر
سابقا . وقاومت مصر المحتلين ولا بد ان تقاوم الان ايضا .

لا بد ان يغادر الحكام «قصورهم العاجية» وان يتخلوا عن سياراتهم الفارهة الغالية حتى يقودوا النضال والا فستطرح قضية شرعية سلطتهم .

وحيثما نتحدث عن «الاصوليين الاسلاميين» فاننا نعنى ليس فقط «الاخوان المسلمين» ، اذ ان الاطار الذى يشمل كل من يتوجه للقيم الاسلامية ويعيش على امل اعادة «العصر الذهبى للاسلام» — هو اطار واسع . فتوجد فى مصر حوالى مائة منظمة دينية مختلفة التوجهات ومختلفة من حيث درجة تسييسها ، فمن هؤلاء الذين فقط يجتمعون معا للصلاة الى المقاتلين المسلمين الذين يؤمنون ليس فقط بالعنف بل ويلجأون لاستخدامه ويمثلون بذلك المعارضة المسلحة الوحيدة ضد النظام . لكن اذا لم ندخل فى تفاصيل فان وجهة نظر اغليبتهم تتفق فى خطوطها العريضة مع المبادئ الايديولوجية «للاخوان المسلمين» .

ففى رأيهم بدأ الاسلام ينهار ليس فقط فى القرن التاسع عشر او العشرين بل بعد حكم الخلفاء الراشدين الاربعة . فقد كانت الدول التى حكموها «دولا اسلامية حقيقية من وجهة نظر العقيدة والنظام» . فقد كان الحاكم ، يختار كما يدعون ، من الشعب وفقا لصفاته . كما يدعون ان الجماهير كانت تدرك انها مصدر السلطة والقاضى الاعلى للحكام بمساعدة الاسلام ، وان الحاكم التقى عرف روح وقوانين الاسلام . وكانت الخزانة العامة فى خدمة الشعب لانه كان «من حق» الشعب ان يطالب الحاكم والدولة بتحمل المسئولية فى تلبية احتياجاته . وفى «العصر الذهبى» للاسلام لم ير «الاخوان» ولم يريدوا رؤية النضال الدموى من اجل السلطة ولا الدسائس السياسية ولا الانتفاضات الاولى للجماهير المضطهدة . وفى بداية نشاطه شعر حسن البنا مؤسس حركة «الاخوان

المسلمين» بخيبة الامل القوية للإوضاع الدينية التي كانت فيها البلاد . فقد استطاع مقابلة علماء الازهر وصب عليهم غضبه لهذه الاوضاع ، الا انه لم يجد تفهما لدى ممثلى المؤسسة الاسلامية الرسمية . لذا فقد قرر حينئذ التوجه مباشرة للشعب . وعمليا فقد كانت حركته تحديا واضحا لتنفيذ الازهر وتعريه لضعفه . وفى تعليقه على انهيار العالم الاسلامى قال حسن البنا ان علماء الازهر يرونه ويسمعون عنه لكنهم لا يفعلون اى شىء .

وفى رأى «الاخوان» فانه حينما اصبح علماء الازهر لا يقومون بعمل شىء تبعتهم فى ذلك بقية العشيرة الاسلامية . ولم يستطع علماء الازهر القيام بواجباتهم فى الدفاع عن الاسلام . كما لم يستطع الازهر مقاومة الدولة المحتلة والاحزاب والقصر وشارك بالتالى فى فساد البلاد . والاسوأ من ذلك ان علماء الازهر لم يناضلوا ضد الامبريالية .

ويرى «الاخوان» ان علاقة مصر بالاسلام كانت علاقة فريدة . ومنذ بداية التاريخ الاسلامى كان مصير مصر مرتبطا بمصير الشعوب الاسلامية . وكانت مصر مركز اقدم الحضارات الانسانية وقاعدة منطقية ومركزا للاسلام . وقد حملت مصر بالذات راية الاسلام ضد الصليبيين والمغوليين . وعلى مصر الان ان تلعب دورا خاصا فى بعث الاسلام .

وإذا كان علماء الاسلام يتحملون المسئولية فى انهيار الاسلام بسبب عدم قدرتهم على القيام بشىء فان السبب الاساسى للانهيار هو الاستعمار الذى فرض نفسه وحضارته على مصر . وقد حدد «الاخوان» «نوعين من الاستعمار» : خارجى — وهى قوى دول الاحتلال الغاشمة الاجنبية ، وداخلى محلى وهى تلك الفئات الاجتماعية التى بوعى او بدون وعى ، وفى افضل الاحوال بسبب لامبالاتها

وفي أسوأها بسبب خيانتها لاحتياجات وارادة العشيرة الاسلامية ،
خدمت مصالح هذه الدولة الاجنبية . وقام الاستعمار المحلى
بنشر الهزيمة المعنوية والانهار وابعاد نظر المصريين عن عقيدتهم
التقليدية الى مسالمتهم الميتة واذلالهم التعس وقبولهم بالحالة الراهنة .
ورفض «الاخوان» الاحزاب السياسية والقادة السياسيين والانتماء
الحزبى كاشكال للحياة السياسية-الاجتماعية لمصر الاسلامية .
فقد قاد الناس الاحزاب وسخروها لخدمة اهدافهم الشخصية الانانية .
ولم يكن لديهم برامج حقيقية ولا اهداف حقيقية .

وتوصل «الاخوان» لاستنتاج بان الحياة البرلمانية والحكومة
الديمقراطية فى مصر قد فشلتا . «فالطبقة العليا» التى ركزت السلطة
السياسية-الاقتصادية فى يدها قد «احتكرت» الحكومة لنفسها . وكان
الشعب مضطرا لاختيار اعضاء البرلمان من مضطهديه . وكانت
الادارة ايضا ضحية للفساد السياسى للاحزاب . وكانت اكثر الصفات
التى تميز البيروقراطية هى عدم فعاليتها وفسادها ومماطلتها واساءة
استخدام السلطة لنفوذها الشخصى . فقد جرت التعيينات دون اى
اعتبار لصفات وامكانيات الشخص المعين .

وفى مجال الحياة الاقتصادية اشار «الاخوان» الى التوزيع الظالم
للسلطة والاراضى مطلقين على ذلك «الرأسمالية المصرية» والاستغلال
الاقتصادى الاجنبى .

وتؤدى هذه الحالة فى المجالات الدينية والاقتصادية والسياسية
الى آثار سلبية . فهى ، فى رأيهم ، تشل قوة الامة وتحطم الصفات
الانسانية وتفسد الطباع . وهى تخالف الروح الدينية «وتدفع الناس
الى أيدي الشيوعيين» . واعتبر «الاخوان» ان هذا الوضع لا يمكن
تحمله .

وحينما جاءت الجيوش الاوربية الى مصر جلبت معها قوانينها

ومدارسها ولغاتها وعلومها وايضا «خمورها ونساءها وآثامها» . وقد ادى العمل بتقاليد وقيم الغرب الى انحلال المجتمع ، واتى بالخلاعة وحطم القيم التقليدية الموروثة للمجتمع الاسلامى . كما فسدت الحياة الاسرية والاجتماعية بالسينما «الرخيصة» والمسارح والراديو والموسيقى والمشاكل الخلقية والجنسية للشباب لها علاقة مباشرة بالنساء «العرايا» فى الشوارع ، وبالافلام «القدر» والموسيقى المغربية ، والصحافة الخارجة عن السيطرة ، والسماح بالخمير . وقد ادت عملية اختلاط الجنسين دون اى تفريق الى العريضة . وقد فقدت النساء صفاتهن الاسلامية بسبب مشاركتهن البذيئة فى السهرات والرقصات ، التى تواكب الحياة «المعاصرة» الرسمية وغير الرسمية . لماذا ؟ لان النساء الاوربيات يفعلن ذلك «ونحن نريد تقليد اوربا فى كل شىء» . ونتيجة لذلك فان الامة مقسمة الى نمط حياة اوربى وآخر اسلامى . فقد ظل البعض مسلمين ، «وفاق الاخرون ذوى النزعة الغربية انفسهم» .

وهكذا ، فان صورة مصر فى نظر «الاخوان» تبعث على الاسى . فاللامبالاة الدينية والاستعمار بكافة درجاته وضعنا مصر فى فوضى نفسية ، وجعلا منها فريسة لخيبة الامل «القاتلة» والذبول والجبن الحقير . وقد اقتحمت الحضارة الاوربية بحزم العشيرة الاسلامية المنحلة والضعيفة وتركتها فى حطام . كما أفسدت الحضارة الغربية المصريين .

ويفهم «الاخوان» تحت مفهوم الغرب كلا من العالم الرأسمالى والعالم الاشتراكى الذى يسمونه كما تطلق عليه الدعاية الغربية «العالم الشيوعى» . وللحضارة الغربية جوانب سلبية وايجابية . ومن بين الجوانب الايجابية نذكر الديمقراطية والتمثيل البرلمانى . ومن ميزات «العالم الشيوعى» التى تستحق الاهتمام هى العناية بالفقراء ،

والمساواة والاخوة والانسانية فى العلاقات بين الشعوب . ويمكن ان
تؤدى هذه الصفات مستقبلا الى العدالة الاجتماعية على المستوى
المادى . ويمكن «للسيوعية الروسية» ان تكون طريقا ممكنا لتطور
المسيحية الاوربية الغربية . وكتب «الاخوان» انه ليس هناك اسباب
للعداوة بين الاسلام وفكرة العدالة الاجتماعية ، مثل تلك العداوة
بين المسيحية الغربية والشيوعية . وبفضل اعتماد «الاشتراكية الروسية»
اللايدنية على العدالة الاجتماعية فهى تمثل البديل الوحيد للاشترائية
الاسلامية ، المؤسسة على القواعد الجذرية للوحدانية الالهية واخوة
البشر .

وقد يكون الغرب هو الذى اسس عملية سياسية جيدة ، الا ان
الديمقراطية الغربية ادت الى فساد الافراد وبالتالي فساد المجتمع .
ونتيجة لذلك فقد ظهرت انانية الافراد التى ظهرت على اثرها مواجهة
الانسان للانسان والطبقات ضد الطبقات . وادت هذه الفردية الى
عدم المسئولية المعنوية والى التدهور والفوضى الاجتماعية . وأثار
كل ذلك الازمة داخل الاسرة وادى الى تغيير مكانة المرأة فى الاسرة
والمجتمع والى انهيار الاسرة . واصبحت الديمقراطية مرادفا للرأسمالية
باستغلالها وللربا المعترف به علنا . واخيرا فان القضية العرقية لم
تحل بعد فى الدول الغربية المتقدمة على اسس المساواة والعدالة .
واصبحت امريكا القائد والمدافع عن امبراطورية الانسان الابيض .
وفيما يخص فهم الاوضاع فى الاتحاد السوفيتى والدول
الاشترائية الاخرى فان «الاخوان» لم يذهبوا الى ابعد من ترديد
القوالب التى صنعتها الدعاية الغربية . ومهما كان الامر فان
الرأسمالية هى مرادف للفردية الوقحة وبالتالي الفوضى الاجتماعية ،
اما الشيوعية — فهى تعنى الالحاد وهما متفتتان فى المادية .
والمرارة التى يشعر بها «الاخوان» تجاه الرأسمالية المصرية تدفعهم

الى فكرة اعتبار كل الغرب الرأسمالى وزعيمته — الولايات المتحدة
الامريكية عدوهم الواقعى .

ونادى «الاجوان» : «اطردوا الاستعمار من ارواحكم وحينئذ
سيغادر اراضيكم» . ويتذكر «الاجوان» الان تحذير سيد قطب
من ان الخطر الحقيقى يكمن فى الاستعمار الروحى والعقلى ،
لانه بخلاف الامبريالية العسكرية والسياسية التى تولد المعارضة فان
هذا النوع من الامبريالية يعتبر كمنوم ومهدأ وخادع لضحاياه .
ويشبه ظهور اسرائيل بالحملات الصليبية ، والصهيونية بالاستعمار
الغربى . وتحمس العمليات العدوانية التى تقوم بها تل اييب امزجة
«الاجوان المسلمين» المعادية لاسرائيل .

اما المخرج الذى يقترحه «الاجوان» فهو «العودة للاسلام
الصحيح» . ويمكن للمسلمين ان يواجهوا ويصمدوا امام الايديولوجية
الغربية والاجنبية عموما .

والهدف النهائى «للاجوان» هو اقامة نظام مسلم يتضمن تشكيل
«دولة اسلامية مقامة على الشريعة الاسلامية» . «القرآن دستورنا»
هكذا اعلن حسن البنا فى منتصف الثلاثينات ، ويرددون اليوم
هذا الشعار بقوة وضغط لا يقل عما سبق . وازافة للقرآن فان
الدولة الاسلامية يجب ان تبنى على اسس الدستور ، وعلى الاحكام
ان يربطوا بين تعاليم الاسلام وازادة الشعب . وفى رأيهم ايضا فان
تعاليم الاسلام وازادة الشعب يجب ، طبعا ، ان يفسرها قادة
«الاجوان» ، كما يجب على الاحكام ان يستشيروهم .

لكن كيف يمكن تكييف القوانين التى صدرت منذ ١٠ — ١٣
قرنا مضت لمشاكل اليوم ؟ والا يتعارض التنفيذ الدقيق والصارم
للشريعة مع واقعيات عصرنا الحالى — مجتمع نهاية القرن العشرين ؟
لا ، يؤكد «الاجوان» انها لا تتعارض ، مقترحين «اعادة فتح ابواب

الاجتهاد من جديد» . ويعنى هذا المصطلح حق رجال الدين —
الفقهاء الادلاء بافكارهم عن ظواهر الحياة الاجتماعية التى لا
تضمنها الشريعة . وفى نهاية القرن الثالث الهجرى حينما تم
تشريع الحقوق الاسلامية ، اغلقت «ابواب الاجتهاد» ، لانه افترض
ان المعايير الحقوقية الجديدة لا ضرورة لوضعها ، اذ ان المعايير
الموجودة شملت كل نواحي الحياة ، وكانت هذه المعايير بحد ذاتها
تجسيدا لارادة الله . وحسب رأى «الاخوان» وغيرهم فان التوجه
للاجتهاد كان عليه ان يعطى الفرصة لتكيف المسلمين وحقوقهم
لمتطلبات العصر .

ويعلن «الاخوان» «المساواة المطلقة لكل المواطنين» ، و«الحرية»
فى كل مظاهرها مثل حرية العقيدة وحرية الكلمة والتعليم وامتلاك
العقارات . وتحت مفهوم الحرية الاجتماعية يقصد «حرية» الخضوع
للدولة الاسلامية الشاملة ولايدولوجية «الاخوان المسلمين» . وهنا
لا يعترف باى نوع من انواع التفكير الآخر .

ومن الجدير بالاهتمام الحديث عن «حق امتلاك العقارات» .
فيرى «الاخوان» ان الاسلام حدد بان من حق الانسان ان يمتلك
ما يشاء وذلك فى الأطر التى يحددها القانون . ويمكن حيازة
الملكية حسب فائدتها ، لكن دون الافراط ودون البذخ الزائد .
ويجب ان توزع الثروات الزائدة حسب القانون الاسلامى .

وتظهر بجلاء تركيبة الاساطير الدينية مع سعى الجماهير الى
المساواة التامة فى قضية الملكية . ويمكن الحصول على الثروة فقط
«عن طريق القيام باى عمل من اى نوع» . ولذلك فانه حسب
تعاليمهم فانه لا توجد بالاسلام فوارق طبقية قائمة على اساس
امتلاك العقارات المادية ، اما الفوارق الموجودة بين الناس فهى
ذات طابع روحى وذهنى .

ولكل انسان الحق فى الملكية الخاصة ، لكنها لا يجب ان تتناقض مع الرفاهية العامة . ومن حق الناس ان يزيدوا من ملكيتهم الخاصة لكن فى حدود القانون فقط . ومن المحظور الحصول على الملكية بطريق غير شرعى او بطريق الاحتكار والربا والذى تدخل فى اطارهما النسب المئوية البنكية .

واذا كان «العمل» هو اساس الملكية فهو ايضا الصفة الاقتصادية والاجتماعية الاساسية . ولذلك فالاسلام ، فى رأى «الاخوان» يضى على «العمل» «قدسية» و«وقارا» . ويجب ان تقوم العلاقة بين العامل وصاحب العمل ، بالذات ، على اساس «العطف والاحترام المتبادل» اضافة الى الحقوق والواجبات المتبادلة . فللعامل الحق فى السكن والاجر الذى يوفر له المتطلبات الحياتية ، كما ان له الحق فى يوم عمل محدد بعدد معين من الساعات . وفى المقابل عليه ان يؤدى عمله بالكامل وبضمير . ولا يرى «الاخوان» تناقضا بين صاحب العمل والعامل المستغل لديه .

وفى رأى «الاخوان» ان الاسرة هى اساس استقرار التنظيم الاجتماعى . الا انه لا ممثلو الغرب ولا ممثلو الشرق لم يفهموا العلاقات المتبادلة داخل الاسرة بشكل صحيح . فاذا كان ممثلو الشرق قد بينوا ضيق العقل والتفكير فى هذا الموضوع فان ممثلى الغرب نادوا بالتحريم المطلق والحرية الكاملة للمرأة «دون اعتبار لمسئولية سلوكها» . ويعتبر «الاخوان المسلمون» ان المكان الاساسى للمرأة هو المنزل والاسرة .

وتتخذ «الامة» فى رأى «الاخوان» وضع الشىء المقدس . فقد اعتبروا من الضرورى التعبير عن المشاعر الوطنية والاستعداد للدفاع عن «الامة» والوطن . لكن ليس عن مصر فحسب بل عن مصر كجزء من العالم الاسلامى . وتقديس القومية لانها تخدم العقيدة .

وتفترض القومية قبل كل شيء النضال ضد الامبريالية كخطوة اولى ، لان تحرير مصر هو الخطوة الاولى لبعثها . يقول «الاخوان» ان مصر هي «جزء من الامة العربية وحينما نعمل من اجل مصر فاننا نعمل من اجل العروبة والشرق والاسلام» . وفى هذا المفهوم للقومية — وهو الدفاع عن الوطن ضد المعتدى — يتركز «الواجب الدينى ، لان الاحترام الذاتى للدين يمكن ان يكون فقط فى ظروف التحرر من السيطرة الاجنبية» . ويرفض «الاخوان المسلمون» القومية بالمعنى الغربى للكلمة . فرغم ان القومية الغربية قد اسست «دولا حديثة» الا انها قضت على وحدة العالم الاسلامى وتركته ضحية للامبريالية المسيحية والصهيونية . و باعلان «الاخوان المسلمين» عن اخلاصهم للعروبة فانهم يعتبرون انهم «يخدمون الاسلام وكل العالم» . ومن الطبيعى ان وجهة النظر هذه ، وليس فقط بصدد الجامعة العربية ، تضع «الاخوان» على طريق الصدام مع الاقلية المسيحية فى مصر .

ويعتبر «الاخوان» ان فلسطين ليست فقط هدفا للعدوان الصهيونى ، ولكن ايضا خط دفاع امامى عن الامة العربية و«الوطن العربى» . وهى «قلب العالم العربى» و«مركز للشعوب الاسلامية» و«اولى القبلتين» (فالمسلمون الاوائل توجهوا فى صلواتهم ليس الى مكة بل الى القدس) . ويوجد فى فلسطين الحرم الاسلامى المقدس الثالث من حيث الاهمية بعد مكة والمدينة . ومن الطبيعى ان تجذب هذه التعاليم المنتقاة اليها ممثلى مختلف الفئات والطبقات فى المجتمع المصرى . ومن الطبيعى ايضا ان تركيبة شعارات المساواة التامة مع الدفاع عن مصالح المستغلين وسلطة الملاك حملت فى طياتها بذور التناقضات المستقبلية والانشقاقات فى نفس تنظيم «الاخوان» . فقد ابتعدت عن الجمعية

بعض المجموعات ذات الميول الاكثر يسارية وذات الميول الاكثر
يمينية ، اى تلك المجموعات التى نادى بمساواة اجتماعية اكثر
وتلك التى نادى بالسماح بالاستغلال الرأسمالى تحت العباءة
الاسلامية .

وقد قادت جمعية «الاخوان المسلمين» التى تأسست عام
١٩٢٨ بحلول نهاية الاربعينات مئآت الآلاف وربما الملايين من
اتباعها . وكانت فى البداية قاعدتها الاجتماعية مكونة من الفئات
المحرومة فى المدينة ، ثم اصبحت تجند اعضائها من بين الطلاب
والموظفين والعمال والضباط . وتوارثت الجمعية من الخلايا الاسلامية
السرية القديمة التدين العميق والرمزية والتحديد الدقيق للفرق بين
الاعضاء العاديين وبين الصفوة «المتعلمة» . وقد توافقت هذه
الصفات مع التنظيم والطرق المقتبسة من الاحزاب البرجوازية اليمينية
المتطرفة التى تتلخص فى المركزية الكاملة تحت القيادة الصارمة
للزعيم ، وفى تأسيس نظام الخلايا التى يعين ويختار رؤساؤها بمعرفة
الجهات الاعلى . وقد اقامت الجمعية تنظيمات نسائية فى اطارها ،
وتنظيمات الجواله والاندية الرياضية . وزادت جمعيتها
«الاخوان» من تأثيرها باقامتها للمستوصفات الطبية ، والمدارس سواء
للاطفال او للكبار ، والجمعيات التعاونية وبيوت العجزة . وقد استطاع
«الاخوان» بقدرتهم التحكم فى الجماهير وقيادتها اثناء الاجتماعات
والمظاهرات واخيرا من حيث المكان وليس الاهمية — فان «الاخوان»
اسسوا فرقتهم المسلحة الخاصة بهم . فقد اعتبروا ان «القوة هى
افضل ضمان للحق وهى واجب تماما مثل الصلاة والصيام» .
وقد جلبت لهم مشاركتهم فى حرب فلسطين شعبية اضافية وكذلك
مشاركتهم فى الحرب الفدائية ضد الانجليز فى منطقة قناة السويس .
وشهدت نهاية الاربعينات قمة تأثير حركة «الاخوان المسلمين» .

ثم أخذت الجمعية تلجأ للارهاب . كما اصبحت تتعاون مع القصر ، في الوقت الذي استعدت قيادتها للقيام بانقلاب . واكتشفت حكومة النقراشي باشا هذه الخطة وافشلتها ، الامر الذي كلف النقراشي حياته . وردا على ذلك فقد قتل رجال البوليس حسن البنا . وحلت جمعية «الايخوان» ، ثم سمح بنشاطها مرة اخرى في عام ١٩٥١ . وقد اصطدمت بالتوجه السياسى الديمقراطى-الثورى لعبد الناصر ولجأت حينئذ مرة اخرى للارهاب ، حيث قامت بمحاولة فاشلة لاغتيال الرئيس عبد الناصر مما ادى للقضاء عليها تنظيميا .

وفي عهد السادات انتقل الاخوان الى وضع شبه علنى واصبحوا يصدرون نشرة صحفية ، لكن برفضهم لكامب ديفيد وضعوا انفسهم فى معارضة حازمة ضد السادات . ولم يكن المقاتلون الذين قضوا على السادات من تنظيم «الايخوان» لكنهم استلهموا كثيرا من الافكار من ايدولوجى الجمعية .

وفي السبعينات والثمانينات لم تستطع الجمعية ان تعود لوضعها المتجانس والمتعدد التنظيمات مثلما كانت ايام حسن البنا ، اثناء قمة نهوضها ونشاطها فى نهاية الاربعينات . الا انه من وجهة نظر الاختراق الايدولوجى لكل مجالات الحياة الاجتماعية ومن وجهة نظر تجنيد المؤيدين لافكارها السياسية والدينية دون ربطهم بتنظيم ملتزم فان تأثير الجمعية فى هذه الفترة كان اكبر عما كان عليه وضعها عشية ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ويضطر قادة البلاد والحزاب السياسية ان يأخذوا فى اعتبارهم هذا التأثير . ويكفى القول بان وحدة حزب «الوفد الجديد» الليبرالى اليميني مع «الايخوان المسلمين» سمحت له بان يصبح الكتلة البرلمانية الثانية من حيث الاهمية عام ١٩٨٤ . ولا شك فى انه اذا ما توافرت ظروف انتخابية حرة فان

تمثيل «الاخوان المسلمين» في السلطة التشريعية للبلاد يمكن ان يرتفع اكثر من ذلك بكثير .

ورغم الاختلاف الايديولوجى بين الليبراليين ذوى النزعة الغربية وبين الاصوليين الاسلاميين فانهم فى ممارستهم السياسية يتوحدون فى عدائهم للماركسيين والديمقراطيين الثوريين . وللتصحيح نذكر : ان هذا العداء لا يعنى انه احيانا لا تتطابق وجهات نظر ممثلى مختلف التيارات الفكرية الاجتماعية-السياسية فى مصر او حتى بعض اجزائها بصدد بعض القضايا . وتبين الممارسة السياسية «للاخوان المسلمين» فى سوريا والسودان وفى افغانستان انه فى ظروف معينة ينسون امزجتهم المعادية للامبريالية ويصبحون حصنا للقوى اليمينية المتطرفة .

وبدأت اول الافكار الاشتراكية فى دخول مصر فى بداية قرننا الحالى . وقد تحولت الافكار الاشتراكية الى تيار اجتماعى-سياسى قوى بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى فى روسيا .

وطالب الحزب الشيوعى المصرى الذى تأسس لتوه فى العشرينات بدمقرطة الحياة السياسية فى مصر وباعادة النظر فى الدستور وقانون الانتخابات من اجل جعل الشعب «مصدرا حقيقيا للسلطة» .

وتضمن برنامج الشيوعيين المطالبة بتحديد ٨ ساعات عمل يوميا واقامة المساواة بين العمال المصريين والعمال الاجانب . وتعاربت شعارات المطالبة بالاستقلال السياسى مع شعارات الوفديين . واعلن الشيوعيون المصريون ان «الحزب يناضل من اجل الاستقلال الكامل لكل وادى النيل سياسيا واقتصاديا واجتماعيا» . ولاول مرة فى تاريخ مصر اعلنوا شعار «تحويل قناة السويس لملكية قومية» وفى الجزء الخاص بالسياسة الخارجية فى البرنامج طالبوا بالاعتراف بروسيا السوفيتية .

ورغم ان آراء الشيوعيين المصريين الاوائل كانت ذات طابع

مبهم الى حد ما ولم تتعد المطالب الوطنية والديمقراطية العامة ذات الصبغة اليسارية ، الا انهم تحدثوا لأول مرة عن الاشتراكية العلمية وعن الصراع الطبقي . وبعد الممارسات السياسية الاولى للحزب ، مثل تنظيم الاضرابات ، واجه اضطهادا من جانب الحكومة الوفدية . ولم يفلح في الحفاظ على وحدة التنظيم اثناء انحسار الحركة الشيوعية فى العشرينات والثلاثينات . كما لم تنهض الحركة الشيوعية اثناء النهوض العام فى الاربعينات . وكانت اغلبية اعضاء الخلايا الماركسية فى مصر من غير المصريين ، مما حد من تأثيرهم . ولم يستطيعوا بث جذورهم وسط الفلاحين المصريين . وقد كتب الباحثان السوفييتان بيليايف وبريماكوف فى كتاب «مصر فى عهد عبد الناصر» انه : «من الظروف الاخرى التى حددت لدرجة كبيرة الاطارات الضيقة لتأثير الحركة الشيوعية فى مصر كان طابعها الانعزالي . فقد تقوى ضرر الانعزالية نتيجة نزاع المجموعات الشيوعية الصغيرة المتناثرة على القيادة المنفردة للكادحين فى مصر فى النضال ضد النظام الاستعماري ومن اجل حقوقهم وتحريرهم الوطنى . وباصرارهم على هيمنتهم فى الحركة الشيوعية المصرية اقامت هذه المجموعات والتنظيمات عقبات لا يمكن التغلب عليها على طريق الائتلاف والاتحاد مع المنظمات الوطنية المصرية الاخرى . واعلن ان التعاون مع «العناصر البرجوازية» كالعادة «خيانة» ونتيجة «للتأثير البرجوازى» على اعضاء الحزب .

وعانت حركة الماركسيين المصريين قبل عام ١٩٥٢ من غياب سياسة واقعية حقيقية لتقييم الاوضاع الداخلية فى البلاد ، ومن الاعتبار الضعيف ، وفى حالات عديدة من الاهمال لخصائص الشعب المصرى المهمة ، مثلا ، تدينه . ان غياب حزب ماركسى موحد ، وتعدد الحلقات والتنظيمات الماركسية ووجود

الخلافاً بينها بما في ذلك غير الأساسية منها إضافة إلى جوانب الضعف الأخرى في الحركة الشيوعية المصرية — كل هذا لم يسمح للمشاركين فيها بأن يلعبوا دور القادة المعترف بهم وذوى النفوذ للنضال الوطنى-التحررى فى مصر عشية ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

واستمرت فى مصر على مدى حوالى ١٥ عاماً تجربة سلطة الديمقراطيين الثوريين . ومن خصائصها البارزة ان الممارسة تغلبت على النظرية . فقد وضع نظام عبد الناصر قانون الاصلاح الزراعى وامم رأس المال الاجنبى ، كما امم رأسمال البرجوازية الكبيرة وجزء من المتوسطة فى مصر ، لكن البحث النظرى لهذه التحولات بدأ متأخراً . وبعد ان قطع الديمقراطيون-الثوريون العلاقات مع الشيوعيين واليساريين ووجهوا ضدهم حملات التنكيل ، توصلوا فيما بعد لضرورة التعاون معهم . وتبين ان الكثير من الاجراءات الناصرية والمقولات النظرية الناصرية مصبوغة بالافكار الماركسية . لكن تقارب الديمقراطيين-الثوريين مع الماركسيين كان يجرى دون انتظام وبشكل متقطع ولم يتم حتى النهاية .

وحدد عبد الناصر مفهومه «للمجتمع الاشتراكى» فى خطاب له فى عام ١٩٦٠ فى مدينة بورسعيد اذ قال : «اذا اعلنا اننا نتحرك تجاه المجتمع الديمقراطى الاشتراكى التعاونى فانه ضرورى اضافة اننا نفعل ذلك من اجل ان يشعر شعبنا باننا نعمل على تحقيق امانه . ماذا يعنى المجتمع الديمقراطى الاشتراكى التعاونى ؟ انه المجتمع الذى يرتفع فيه مستوى المعيشة والذى يتميز بالعدالة الاجتماعية والذى قضى فيه على الاقطاع والاستغلال وسيطرة رأس المال ، والذى توجد فيه الفرصة لكل مواطن يعيش فى هذا البلد . لا عبيد لدينا ولا اسياذ ، وكلنا مواطنون فى جمهورية واحدة . واننا متساوون ونشعر بكرامتنا» .

في عام ١٩٦٢ واثناء مؤتمر قوى الشعب العاملة والذي انتهى بالتصديق على ميثاق العمل الوطنى عدد عبد الناصر الفوارق التي اعتقد انها كانت بين الاشتراكية العلمية «والاشتراكية المصرية» . اذ قال «ان اشتراكيتنا تتفق تماما مع ظروفنا . اننا لا ننقل اتوماتيكيا تلك الخبرة الموجودة في العالم عن بناء الاشتراكية . وهناك اختلاف جوهرى بين اشتراكيتنا المنصوص عليها في ميثاق العمل الوطنى وبين الاشتراكية الماركسية-اللينينية . ان الماركسية-اللينينية لا تؤمن بالدين . ونحن نؤمن بالدين ونؤمن بالله .

والماركسية تتطلب الانتقال من ديكتاتورية الرجعية الى ديكتاتورية البروليتاريا . ونحن لا نقول اننا سنعطى الديكتاتورية لطبقة واحدة . اننا سننتقل من ديكتاتورية الرجعية الى ديكتاتورية كل الشعب . وتتطلب الماركسية-اللينينية القضاء على الطبقات المستغلة بالوسائل العنيفة . ونحن نقول اننا سنقضى على صعوباتنا دون اراقة الدماء وسنعطى الفرصة للطبقات المستغلة لكي تعيش حياة كريمة . والماركسية-اللينينية ترفض الملكية الخاصة والملكية الشخصية . ونحن نؤمن بوجود الملكية غير المستغلة بجانب الملكية المستغلة . نحن ضد الملكية المستغلة فقط .

وتفترض الماركسية والشوعية تأميم الاراضى . اما اشتراكيتنا فلا تفترض تأميم الأرض . نحن نؤمن بالملكية الشخصية — والملكية الخاصة للارض» .

وفي معرض تقييم خطاب عبد الناصر كتب يليايف وبرنيماكوف ان : خطاب عبد الناصر «احتوى على كثير من عدم الفهم الحقيقى للماركسية-اللينينية ، اذ قيل عنها انها تتطلب بالضرورة القضاء القهرى او حتى الجسمانى على المستغلين او الضرورة الحتمية لتأميم الاراضى

ورفض الملكية الشخصية ومساواتها بالملكية الخاصة . . . الخ .
لكن تصريحات عبد الناصر حملت بصمات التفكير التكتيكي ،
وهي لم تعكس مطلقا شكل تفكيره الحقيقي . لقد حاول عبد
الناصر بتصريحاته تخطي المقاومة العنيفة للرجعية المحلية» .

لقد اعلن ميثاق العمل الوطنى الصادر فى عام ١٩٦٣ اختيار مصر
للطريق الاشتراكى للتطور ورفض الطريق الرأسمالى . وقد فسر
الديمقراطيون-الثوريون المصريون هذا الاختيار بعدد من الاسباب .
اولا : — ان الرأسمال المحلى المصرى بين انه غير قادر على منافسة
الاحتكارات الدولية . وكان يمكن ان يصبح فقط ذبلا لهذه
الاحتكارات والوصول بالبلاد الى الافلاس . ثانيا : — كان من
المستحيل توفير الاحتياجات الحياتية الملحة للتغلب على التخلف
الاقتصادى والتكنيكي عن طريق افراد مثل رجال الاعمال الذين
يسترشدون فى نشاطهم بمصالحهم الخاصة فى جمع الارباح .
وكانت الدولة فقط هى القادرة على تعبئة المدخرات المحلية وتوجيهها
لصالح التنمية على اساس خطة قومية وباستخدام منجزات العلم
والتكنيك . وقد اولى الميثاق اهتماما خاصا بقضايا التخطيط على
مستوى مصر كلها . اذ اشار الميثاق الى ضرورة الرقابة الشعبية على
جميع وسائل الانتاج وعلى استخدام الموارد فى اطار الخطة التى
شملت كل قطاعات الاقتصاد .

وجاء بالميثاق ايضا ان الرقابة الشعبية على وسائل الانتاج لا
تعنى بالضرورة تأميم كل وسائل الانتاج والقضاء الكامل على الملكية
الخاصة . الا ان مثل هذه الرقابة يمكن ان تقام عن طريق اقامة قطاع
عام فاعل ، يقوم بالدور الاساسى فى كل قطاعات الاقتصاد المصرى
ويتحمل المسؤولية الاساسية عن تنفيذ خطة التنمية .

فى عام ١٩٦٤ تم الافراج عن الشيوعيين من السجون ومعسكرات

الاعتقال . وعبر الديمقراطيون-الثوريون عن استعدادهم للتعاون معهم بشرط تخلى الشيوعيين عن نشاطهم الحزبى . وقام ممثلو بعض التنظيمات الشيوعية بالاعلان عن حل تنظيماتهم . وكانت هذه الخطوة صعبة ومعقدة . وقد اثارت نقاشا حادا حينذاك والان ايضا . وتفسر هذه الخطوة ايضا بان الكثير من شعارات الشيوعيين كانت تتحقق عمليا فى ظل نظام عبد الناصر ، مما وحد الاهداف بين الماركسيين والديمقراطيين الثوريين . وشغل بعض الشيوعيين البارزين مناصب عليا فى ادارة عبد الناصر ، وفى وسائل الاعلام . واصبح الماركسيون يقومون بالتأثير على تشكيل وتطور ايدولوجية الديمقراطيين-الثوريين .

وقد حددت شخصية عبد الناصر البارزة لدرجة كبيرة التحولات الداخلية التى جرت فى مصر بعد ثورة ١٩٥٢ وكذلك النهج السياسى الخارجى للبلاد . واثناء وجوده فى قيادة البلاد تطور عبد الناصر كقائد واصبح يقترب من نوع القائد الديمقراطى-الثورى ، الذى كان يمكن ان يقوم بتحويلات اعمق ، او على الاقل الاحتفاظ بما تحقق . الا ان خصوصيات قيادته تمثلت فى ان هذا النظام كان نظام سلطة الفرد . ولم يترك الرئيس الذى وافته المنية قبل الاوان تلك الهيئات الاجتماعية-السياسية التى كان يمكن ان تضمن استمرارية نهجه . وقد جرى العكس .

وبالرغم من القيود الحازمة التى وضعت امام الاقطاعية الكبيرة وامام نشاط رأس المال الاجنبى وجزء كبير من البرجوازية الكبيرة والمتوسطة المحلية ظهرت فى مصر توجهات ، تعتبر طبيعية للنظم الديمقراطية الثورية حينما لا يكون فى السلطة حزب بروليتارى او حزب ذو ايدولوجيا بروليتارية ، ذات طابع يودى الى «برجزة» الاجهزة الادارية والحكومية والعسكرية . ولم تكن هناك اى عوائق جادة

خلاف الشخصية الفذة الشريفة للرئيس عبد الناصر . واستمر الفساد واستمرت البيروقراطية الفظيعة للادارة المصرية . وبجانبها وداخلها نمت على المقاولات والمضاربات وعلى السرقة والرشوة ما يسمى «بالبرجوازية الطفيلية» . وتقوم في القرية فئة «الكولاك» وقد تحولت هذه الفئة الى القوة المسيطرة خارج المدن الكبيرة ، وقد قامت مصالح هذه الفئة بالضغط على «الجهات العليا» حتى فى السنوات الاخيرة لحكم عبد الناصر اذ ان هذه المصالح لم تتوافق مع سياسة تعميق التحولات الاجتماعية والاصلاحات فى البلاد .

وبقدر ما توارت فى الماضى السيطرة السياسية المباشرة للغرب على الدول النامية بالروح الاستعمارية القديمة ، فقد انتقلت التناقضات بين البرجوازيات «القومية» وبرجوازيات الدول المتقدمة الى علاقات بين الشركاء الكبار والصغار فى اطار النظام الرأسمالى . وقل اهتمام البرجوازية «القومية» بالشعارات التى طالبت بالتضحية بالمصالح الشخصية الانانية والطبقية من اجل الاهداف القومية العامة .

وتعتبر الطبقة الحاكمة المصرية خليطا معقدا يتكون من قمة الاجهزة العسكرية والادارية ومن البرجوازية «الطفيلية» والبرجوازية «الوطنية» ، التى تتركز الى قاعدة الكولاك العريضة . وحاولت هذه الطبقة التحرر من القيود التى تعوق ثراءها المفرط . وكانت الفئات العليا من المجتمع المصرى الفزعة من التحولات الراديكالية على استعداد لعقد صفقة مع اى قوى مقابل ايقاف تعميق هذه التحولات على الاقل . فلم يريدوا التنازل للجماهير الشعبية وسعوا لاستخدام القطاع العام لمصلحتهم الشخصية وليس للمصالح القومية العامة .

ولدى تفسيرنا لمقدمات اعادة النظر العامة للسياسة الخارجية

والداخلية المصرية فاننا لن نتوقف خصيصا على العامل الجديد للحياة الشرق اوسطية وهو القدرة السياسية والمالية الهائلة للحكومات الملكية فى الجزيرة العربية والتي شجعت التوجهات المحافظة داخل المجتمع المصرى .

ويمكن القول ان الامكانيات قد نضجت فى مصر فى بداية السبعينات لقيام الثورة المضادة «دون اراقة دماء» . الا ان بعض الشخصيات المحددة بمعتقداتها واراتها المختلفة تؤثر اثناء وجودها فى قيادة دولة مثل مصر على شكل هذه التوجهات مساعدة اما على كبحها او بالعكس على اندفاعها . وبهذا المعنى فان تغيير الرئيس فى بداية السبعينات لعب دورا حاسما .

وكانت هناك قوى فى مصر مساندة لاستمرار سياسة عبد الناصر ، ولكنها لسوء الحظ لم تستطع او لم تلحق ان تنظم نفسها سياسيا .

وقد تبقى من عهد عبد الناصر تنظيم سياسى وحيد هو الاتحاد الاشتراكى العربى . وقد لعب دورا فى نشر الافكار الاشتراكية وفى توطيد القطاع العام لكنه لم يكن ، بشكل محدد ، لا حزبا ولا جبهة بل كان يمثل تجمعا لمختلف القوى الاجتماعية المساندة لسياسة التحولات التى اعلنت عام ١٩٦٢ فى ميثاق العمل الوطنى . وقد فشلت محاولة تأسيس «من اعلى» حزب سياسى فى اطار الاتحاد الاشتراكى العربى . وقد انتهت منظمة «طلیعة الاشتراكيين» وجودها بعد وفاة عبد الناصر ، وهى المنظمة السرية التى اسست عام ١٩٦٦ كنواة للحزب . وبدأ الاتحاد الاشتراكى العربى المدعو لان يكون «اتحاد قوى الشعب العاملة» يفقد اهميته السياسية متحولا لذيل متحجر للجهاز البيروقراطى وفاقد القدرة على التعبير عن مصالح اى قوة ما الا مصالح الدوائر البيروقراطية العليا .

واصبح حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحىوى هو الوريث السياسى
للديمقراطيين-الثورىين للعهد الناصرى . فكما اعلن قادة الحزب
فان ثلثى اعضاء الحزب كانوا من الناصريين والباقيين من الماركسيين او
من المتعاطفين مع الماركسية .

وقد اشار اليساريون فى برنامجهم الى ان «الاشتراكية العلمية هى
الطريق الوحيد لتحرير الشعب الكادح» . كما جاء بالبرنامج «الهدف
الاساسى على الساحة المحلية هو التأكيد على النظام الاشتراكى على
اساس الملكية العامة لوسائل الانتاج الاساسية» . وفى مجال السياسة
الخارجية فان برنامجهم وضع هدف «تقوية الصداقة مع جميع
القوى المعادية للامبريالية . . . واقامة التعاون مع الانظمة الوطنية
العربية ومع الاتحاد السوفيتى» .

ويعمل الحزب الشيوعى المصرى الذى اعيد تأسيسه عام ١٩٧١
بشكل سرى . ومن بين موضوعاته البرنامجية — عودة مصر الى طريق
الاستقلال والتقدم ورفض اتفاقيات كامب ديفيد المنفردة مع
اسرائيل وشجب المعاداة للسوفيت .

وما زال تأثير الديمقراطيين-الثورىين والماركسيين الذين يعانون
من المطاردة والاضطهاد فى مصر محدودا . لكن هناك تيارا سياسيا-
اجتماعيا آخر لم يتخذ شكله التنظيمى بعد فى مصر يطالب بتغييرات
عاجلة .

وهناك قلة قليلة من المصريين الذين ولعوا بالثورة . فقد رفضوا
النظام الناصرى كنظام قليل الثورية والراديكالية رغم انهم اشتاقوا اليه
اثناء حكم السادات وحلموا بالاطاحة بالنظام الموجود دون ان تكون
لديهم رؤية واضحة للنظام الجديد الذى يجب ان يكون . فقد
كانوا شبابا يملئهم الحماس الثورى الذى عبر عنه فقط فى «الغليان
فى افعال فارغة» .

وقد تعود كثير من المصريين وعموما من المثقفين العرب النظر الى انفسهم فى المرآة الغربية وقياس انفسهم بمعايير غربية رافضين هذا الحماس . وكثيرا ما نظر الراديكاليون اليساريون فى السبعينات والثمانينات الى انفسهم والى الاوضاع فى العالم العربى بنظرات «اليساريين الجدد» الغربيين واليساريين المتطرفين . وقد عبر افضل من الجميع عن مشاعرهم وافكارهم كاتب ليس مصريا بل سورى وهو صادق العظم الذى تلقى تعليمه فى الولايات المتحدة الامريكية وعمل مدرسا لفترة ما فى الجامعة الامريكية ببيروت . وقد كان كتابه «التقد الذاتى بعد الهزيمة» الذى صدرت طبعته الاولى عام ١٩٦٨ احد الامثلة الواضحة والمتناقضة للفكر السياسى العربى لمدة خمسة عشر عاما مقدما . فقد راق هذا الكتاب للراديكاليين المصريين من الشباب . الا ان حقيقة ان كاتب الكتاب سورى كانت تعنى الكثير . فالمصريون حتى الراديكاليون المتطرفون منهم يتركون دائما مواقف احتياطية ، مقدمين الفرصة للاخرين للتعبير عن افكارهم التمردية المتطرفة .

وتعتبر طريقة واسلوب كتابة صادق العظم فى منتهى الصرامة والوضوح . فقد كتب بطريقة لاذعة عن ذلك الوضع الذى اصبح فيه الدول والشعوب العربية ، كما تجرأ على الحديث عن الاسلام بشكل حاد لم يسبق له مثل خاصة فى ذلك الوقت ، وحتى الان . ورغم ان الكتاب جاء نتيجة خيبة الامل والاهانة الكبرى التى منى بها العرب بعد هزيمة ١٩٦٧ ، والتى تم تعويضها جزئيا فى الحرب العربية- الاسرائيلية فى عام ١٩٧٣ ، الا ان السهام الحادة للكتاب كانت موجهة ضد البناء الاجتماعى المتهالك للعالم العربى وضد المعايير الخلقية البالية ، وضد التقاليد وطرق التفكير القديمة . وبمرارة وربما بسخرية لاذعة وحرارة ، وربما بحرارة بالغة يصدر العظم

حكمه على العربي كفرد وعلى العربي كإنسان في نظام العلاقات الاجتماعية . وقد رأى الشباب العرب من المتطرفين اليساريين مهمتهم في إيقاف العقلاء ونفض حمل التقاليد عنهم ، وإعادة تكوينهم ، وإيجاد مقدمة نفسية للعمل الثوري والتغييرات الاجتماعية العميقة . وقد أعجب الراديكاليون الشباب في مصر وفي الدول العربية الأخرى ببعض جوانب الحضارة الغربية ، إذ اعتبروا أنها قادرة على رفض الماضي من أجل المستقبل وعلى إجبار الناس على التحرك والعمل . وفي رفضهم للإمبريالية والاستعمار الجديد والاستغلال والفساد ، اقترحوا اقتباس العقلانية والتناول العلمي للمفاهيم والظواهر من الغرب . واعتبروا أن تراكم الأسلحة والآلات لا يعنى أنه بذلك يتم التعامل مع العصر . واعتبروا أيضا أنه من الضروري توفر توجه محدد للعقل وللعنصر الإنساني .

وقد انتقد الراديكاليون اليساريون أمثال العظم الأنظمة التقدمية العربية بدرجة أكبر مما انتقدوا الأنظمة الرجعية ، دون التمعن في جدوى ومكان هذا النقد ، وفي مدى واقعية أي بديل لهذه الأنظمة الثورية-الديمقراطية . وقيل أنه لا يمكن انتظار شيء من الرجعية فهي ستفضح نفسها بنفسها . لكن الأنظمة التقدمية تثير الكثير من الضجيج والقليل من الأفعال الواقعية . وهدر اليساريون المتطرفون بقولهم : «لم تكن الثورة العربية لا اشتراكية ولا ثورية» . وقد قام العرب فقط بتغييرات تبدو في ظاهرها ثورية وتقبلوا بعض الظواهر الخارجية للاشتراكية وحقيقة لم يغيروا أي شيء في أعماقهم . وفي هذا السياق فإن التجارب التي نفذت في مصر وسوريا كانت نصفية وقابلة للجدل : ولم يقرر الديمقراطيون-الثوريون العرب مع ذلك ماذا يريدون : هل الاشتراكية أم رأسمالية الدولة المنحصرة في الإصلاح الزراعي والثورة الزراعية . وهل أرادت الثورة العربية

الحفاظ على حياة الفرد العربى فى اطار القوانين التى سنت منذ مئات السنين ، والتركيز على القيم المستمدة من الماضى ، او انها ارادت اقامة «نظام حقوقى جديد» مأخوذ من الفكر الاشتراكى العلمى ؟ وقال الراديكاليون اليساريون انه اذا نزعنا غطاء التضليل عن الدول العربية التى اعلنت الاشتراكية وصرفنا النظر عن الضجيج الذى اثارته فانهم سيبدون كاي حكومات عادية . ويفسر ذلك تلك الطاقة التى فقدتها هذه الانظمة على السفسطة البحتة وعلى حججها الواهية عن مطابقة اشتراكيتهما للاسلام ، وعن مدى اصالة شكل اشتراكيتهما ، التى تصلح دون الصراع الطبقي مفضلة عنه الطريق التعاونى للاشتراكية . . . وتحدث العظم ومؤيدوه باستهزاء عن ان الدول العربية بعدم امتلاكها الارادة والعزيمة لاتباع السياسة الاشتراكية اثارت ضجة اشتراكية فى الوقت الذى ظلت فيه اسس مجتمعاتها تقليدية .

وقد جمع بين الراديكاليين اليساريين العرب فى مصر وخارجها احتقارهم للتقاليد ، اذ قالوا انه من الضرورى التخلى عنها اذا كان الناس يريدون التغلب على وضعهم الحالى . واعتبر العظم ومؤيدوه فى مصر ، مثلهم مثل كثير من المثقفين من دول آسيا وافريقيا الاخرى الذين يتبنون آراء راديكالية يسارية ، ان القضاء على التقاليد وبناء المستقبل عملية وثيقة الارتباط ولا يمكن تجزئتها : واذا ما لم يتم الجزء الاول (القضاء على التقاليد) فان الباقي عديم الجدوى . . . وفى رأيهم فان نظام عبدالناصر ترك كل الاسس الهامة للنظام التقليدى دون تغيير او لمس ، وبعد هزيمة ١٩٦٧ اضطر الى التنازل لارادة الحكومات المحافظة ولتلك الفئات فى المجتمع المصرى التى لم تقبل فى اى وقت ما سياسته اليسارية .

وقد قارنوا هزيمة العرب فى حرب ١٩٦٧ بهزيمة روسيا فى

الحرب مع اليابان عام ١٩٠٤ . وقد رأى العظم في انتصار اسرائيل واليابان على العالم العربى وروسيا الضخمين لكن المنغمسين في النوم انتصار الطاقة على الجمهرة ، انتصار الاخلاص والعمل على فخامة تظاهرية وطقوس السلطة ومراسمها . واعتبر العظم ان هزيمة الاسطول الروسى شبيهة بهزيمة القوات الجوية المصرية . لكن روسيا تلقت درسا من هزيمتها . فقد جرت ثورة ١٩٠٥ ثم ثورة اكتوبر العظمى . وكان من الضرورى ان تؤدى هزيمة ١٩٦٧ الى نفس العملية في العالم العربى . الا ان الراديكاليين العرب تبينوا بخيبة امل ان هذا لم يحدث . اما نصف الانتصار الذى تحقق في الحرب العربية-الاسرائيلية عام ١٩٧٣ فقد اعطى للمحافظين سلاحا ماضيا من اجل الصراع به ضد التغييرات الاجتماعية-الاقتصادية العميقة .

واصبحت الليبرالية عمليا لجزء من الشباب الثورى لعنة محرمة ، مرادفة للاستعمار الغربى ، اما الاصولية الاسلامية فهى قوة القرون الوسطى الطاغية . وفي رأيهم ايضا ان «الافكار القومية» فشلت مثلما فشلت الديمقراطية الثورية للعهد الناصرى . واصبح اليساريون الراديكاليون المصريون يبحثون عن مصدر الهام آخر . وقد تساءلوا : «اذا كانت الجامعة العربية قد فشلت ، واذا كانت المحاولات السابقة لادخال العالم العربى في النظام الليبرالى الغربى لم تؤد لشيء فلماذا لا نلجأ للطرق التى أتت بنتائجها فى كوبا وفيتنام ؟» . واخذوا يبحثون عن اجابات لاسئلتهم لدى كلاسيكى الماركسية-اللينينية ، لكن فى معظم الاحوال لدى «اليسارين الجدد» فى الغرب .

وكانت النتائج السياسية والايديولوجية لبحثهم وترنحهم ، على الاقل لمصر فى السبعينات واولئ الثمانينات ، لا تبعث على الرضا .

فلم يستطع ضوء افكار الراديكاليين اليساريين الغربيين المنعكس ان يضىء ويؤدى الى المخرج من الطريق السياسى والايدىولوجى المسدود ، الذى تواجدوا فيه . وقد خلبت المقولات والامثال الغربية عقول المتطرفين اليساريين ولكنها لم تجد آذانا صاغية لدى الجماهير ، بل لم تصل للجماهير ، اذ لـ سم تسمح السلطات بذلك . فلم تعط الفرصة للراديكاليين اليساريين المصريين ان ينظموا انفسهم وان يعملوا وسط الجماهير الذين استمروا فى الحياة فى عالم آخر ، وفى مناخ اجتماعى- نفسى آخر ، وعمليا فى حضارة اخرى . وقد بعثت اغانى الشيخ امام التى يغنيها على اشعار احمد فؤاد نجم بهجة واعتزاز عشرات ومئات وربما آلاف المصريين . لكن هتافات ونداءات المؤذنين للصلاة فى المساجد ، وهتافات «الله !» فى حلقات ذكر الصوفيين كانت اعلى صوتا ، اما صلوات ومواعظ «الاخوان المسلمين» فقد جمعت العديد والعديد من مريديهم .

وهناك امر آخر : فلم يكن الشباب اليسارى الراديكالى عاديا . فكالعادة كانوا فى مقدمة ذوى سنهم من ناحية الكفاءات وبحجم ومستوى المعارف والطاقة والقدرة على العمل . وكان يمكن زيادة قدرتهم الثورية لو لم يجدوا استخداما لقواهم فى المجتمع . لكن كان هناك لها منفذ فى الهجرة . فالمصرى الشاب الغاضب كان بإمكانه السفر للدول العربية النفطية والعودة بعد عدة سنوات بدفتر شيكات فى جيبه وبالهدوء والسكينة فى روحه . وكان يمكن الدفع مقابل الكفاءة والمعرفة والطاقة بشكل جيد بشرط واحد وهو الكف عن اى عمل ثورى سواء قولاً ، او خاصة عملاً . وقد قدمت لمصريين اذكياء من الشباب فرصة الدراسة والبحث فى جامعات ومعاهد امريكا واوروبا الغربية ومراكزها العلمية ، وكما لو كان يقال

لهم — اكتبوا وابعثوا واتشروا اعمالكم وتسلموا مقابلها المكافآت لكن يجب ان تصيح يساريتكم الراديكالية من احلام الشباب الرومانسية او التجريد العلمى . واذا لم يرق هذا او ذاك لاحد فلدى المجتمع ولدى سلطة الملاك امكانية اللقاء بك فى القاع او فى اسوأ الظروف ايداعك السجن .

وكان المتطرفون اليساريون فى مصر وما زالوا موجودين . لكنهم قلة ، وليسوا هم الذين يحددون الاتجاهات الاساسية للحياة الاجتماعية-السياسية المصرية .

ونعود الان مرة اخرى للقضية الاساسية ، واذا اردتم الجذرية ، التى ظهرت بعد اغتيال السادات : هل هناك مستقبل للاصوليين الاسلاميين فى مصر ، ايا كانوا «اخوان مسلمين» او غيرهم ؟ قد يبدو ان هناك الكثير من المعطيات الموضوعية التى تدفعنا لاعطاء رد ايجابى على هذا السؤال . افلم يفضح نموذج «التحديث» البرجوازى-الليبرالى نفسه كنموذج معاد للشعب وموال للغرب وذى طابع استعمارى جديد ؟ والم يبين المجتمع انه غير جاهز بعد لاستيعاب الاشتراكية العلمية كايدولوجيا ، والم يبين الجهاز الحكومى قدرته على التخلص من الحركات اليسارية العلمانية كتنظيمات سياسية ؟ والم يتبق من التجربة الديمقراطية-الثورية للناصرية سوى مجموعات من المؤيدين وحزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدهى الذى لم يصبح حزبا جماهيريا بعد ؟ والا يودى التطور الرأسمالى (المشوه) فى المجالات الاجتماعية-الاقتصادية سوبا مع الغزو الغربى للثقافة والايديولوجيا الى الانهيار او الانتقال المؤلم للبنى الاجتماعية التقليدية ويضطر ملايين الجماهير الفقيرة المعدمة والمبنوذة من «التحديث» للهروب تحت قشرة العلاقات الاجتماعية التى تعودوا عليها وللرموز والطقوس والعواطف ، وباختصار شديد للتوجه للاسلام ؟ الا يعطى

الاصوليون الاسلاميون من وجهة نظر المصرى عميق الايمان رؤيه
شاملة للعالم المقسم لاجزاء ؟

كل هذا صحيح ، لكنه من الممكن طرح حجج واسباب
مضادة لدى الرد الايجابى على هذه الاسئلة . افلم يذهب المجتمع
المصرى عموما بعيدا للامام والى هذا الحد الذى لاعودة بعده ؟
عودة للمعايير الحقوقية ولتنظيم الاجتماعى والحكومى والى الايديولوجيا
والعادات الاجتماعيه التى تشكلت منذ الف سنة مضت والتى مهما
حاولنا دفعها او تجميلها فلن تلبى متطلبات العصر النورى ؟ والم
يثبت فشل تلك التجارب التى تضمنت استخدام الاصولية الاسلاميه
بكل اختلافاتها والوانها فى الممارسة الاقتصادية-الاجتماعيه والسياسيه
مثلما حدث فى ايران والمملكه العربيه السعوديه وباكستان ؟ والا
يعنى التدويل السريع للعلاقات الاقتصادية والتبعيه غير المشروطه
لمصر لهذه العلاقات ، وانخراط مصر فى عمليه الاتصالات الدوليه
بموقعها الجغرافى الفريد وبخبرتها التاريخيه - الا يعنى كل هذا
ببساطه عدم امكانيه اقامه مثل هذا المجتمع المنغلق الذى يضع
حاجزا بينه وبين العالم الخارجى ؟

وهناك سبب آخر هام وذو وزن وهو الطابع القومى للمصريين .
شعب «الامور الوسطى» المعادى للتطرف الذى تجنب دائما
القرارات المتطرفه والطوباويات غير المجربه . ويعرف كثير من
المصريين المطلعين على تاريخ «الاخوان المسلمين» ان نشاطهم
الاجتماعى-الخيرى وديماجوجيتهم السياسيه اصبحا يختلطان
بالارهاب الدموى فى الاربعينات والخمسينات . ويعرفون ايضا
مصير «المرشد العام» للجمعيه حسن البنا الذى شجع
«الاخوان» فى البدايه على ممارسه الارهاب ، ثم محافظا على
حياته ، الامر الذى لم يتمكن من تحقيقه تخلى عن اتباعه مسما

ايهم لا «اخوان» ولا مسلمين . وماذا عن محاولات تعاون «الاخوان» مع الملكية المتعفة المعادية للوطن ؟ وماذا عن اطلاق «الاخوان» الرصاص على جمال عبدالناصر ؟ واخيرا ، مثال اخير هو تعاونهم مع حزب «الوفد الجديد» الموالي للغرب — الذى يعتبر تجسيدا لنفس البرجوازية الليبرالية التى يرفضها «الاخوان» كلاما فقط .

وقد كانت التناقضات الاجتماعية فى مصر دائما حادة لدرجة انها كانت تلهم المتطرفين من اى نوع : من المتطرفين يساريا الى المقاتلين المسلمين والفاشيين . فى الثلاثينات تأسس فى مصر حزب «مصر الفتاة» على منوال الاحزاب الفاشية فى اوربا الغربية . وكانت شعاراته الاخلاص للوطن وللدين وللملك . وكان برنامج هذا الحزب جزءا من الافكار الفاشية والاصلاحية والقومية المتطرفة . وقد تفضل حزب «مصر الفتاة» على المشاعر المصرية الوطنية المعادية للانجليز . وكان مؤيدو هذا الحزب بالذات ، الذى غير اسمه بحلول ذلك الوقت ، هم الذين خرجوا لشوارع القاهرة يصيحون «الى الامام ياروميل !» فى عام ١٩٤٢ حينما اندفعت الدبابات النازية نحو مدينة الاسكندرية . ولكن روح التحفظ والحذر تغلبت فى امزجة المصريين حتى فى مرحلة التحولات الاجتماعية-السياسية . وقد ظل اعضاء «مصر الفتاة» قلة ورغم انهم غيروا اسم الحزب اكثر من مرة الا انهم ذابوا فى المجتمع دون اثر . وبعد ان نسي بعضهم عواطفهم الميالة للنازية انضموا لحزب العمل الاشتراكى اليسارى الوسطى ، الذى تأسس فى نهاية السبعينات ولم تصمد الفاشية كايديولوجيا عموما فى مصر .

وحتى فى مرحلة اليأس والصعوبات الاجتماعية ولدى الاختيار بين القرارات المتطرفة وبين السعى للتوصل الى حل وسط للمحافظة على السلام فضل معظم المصريين الطريق الثانى . وتعد هذه الظاهرة

معروفة ولا يعتبر كاتب هذه السطور انه مكتشفها . وقد كتب عنها
المصريون والاجانب . . .

وتبين التجربة التاريخية ان حركة الاصوليين الاسلاميين يمكن
ان تززع اسس استقرار النظام القائم وتنزع عنه الغطاء الديني وتمزق
ثياب العلنية الاسلامية عنه . ولمن سيمهدون الطريق حينئذ : لانفسهم
ام لمن ؟ من الصعب الرد على هذا السؤال . والطابع القومى المصرى
الذى تحدثت عنه واستشهدت به لن يظل متحجرا وللابد ساكنا .
فهو يتغير ببطء كبير تحت فعل المتغيرات فى مجال العلاقات
الاجتماعية-الاقتصادية ، والثقافة ، والتعليم ، والاتصالات ،
وبالطبع متأخرا عن هذه المتغيرات . لكن المتغيرات نفسها تتسارع ،
وتعجل بذلك اعادة بناء الطابع القومى .

ليس هناك شىء ابدى لا يتغير .
حتى على شواطئ النيل ، فى ظلال ابى الهول والاهرامات .

الخاتمة

على مدى تاريخها ، اطول تاريخ في العالم ، شهدت مصر نهوضا لمجد ان لم يكن عالميا فهو اقليمي ، كما شهدت دمارا واذلالا . وتغير وزنها وتأثيرها باستمرار . اذ تحولت في فترات الى دولة قوية عسكريا ، وفي فترات كانت مستعمرة عديمة الحقوق لدول قريبة او بعيدة .

وقد بدأ المنافسون لمصر في الظهور منذ الالف الثاني قبل الميلاد في المنطقة التي نسميها الان بالشرق الادنى والوسط . وكان المركزان العسكريان الآخريان : احدهما في آسيا الصغرى والبلقان والآخر في ايران والجزيرة ما بين النهرين قد بدأ بالتدرج في ازاحة مصر للقيام بالادوار الثانوية . وكثيرا ما تقدم المصريون في دوائر بدلا من التقدم حلزونيا للامام . وما تغير هو العالم المحيط وليس مصر . وكانت بلاد النيل فريسة سهلة مغرية جدا لجذب الغزاة .

ومنذ القرن السادس قبل الميلاد تقريبا حتى قرننا الحالي سيطر الاجانب على مصر . ونهب الغزاة خيرات الشعب المصرى الفين وخمسمائة عام . وبدأت نهضة البلاد في الوقت الذى جعل الغزاة فيه من مصر مركزا لامبراطورياتهم ووفروا تطور اقتصادها . وهكذا كان الوضع في عصر البطالمة الاوائل ثم الفاطميين وفي المرحلة الاولى من العصر المملوكى واثناء حكم محمد علي .

وفي مرحلة اسلام القرون الوسطى كانت عملية الانتماء القومى مسألة غير اساسية مما سهل «تمصير» الغزاة الذين استقروا في مصر . وقام صلاح الدين الايوبى بطرد الصليبيين من القدس اعتمادا

على موارد مصر ، وحطم المماليك المغول في عين جالوت . الا ان تقوية الامبراطورية العثمانية سلبت مصر استقلالها . وحينما حصلت مصر على الاستقلال مرة اخرى في القرن التاسع عشر سقط كل الشرق الاوسط فريسة لتنافس الدول الاوربية الكبرى ، التي احكمت سيطرتها تدريجيا على الدول العربية .

وادى الحاق مصر بالامبراطورية البريطانية الى تحولها الى نقطة ارتكاز للهند ، وتحول قناة السويس الى ممر مائي هام للامبراطورية . وانقذت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والتعاون مع الاتحاد السوفيتى مصر من هذه التبعية . الا ان النظام الساداتى وضع مصر فى الفلك الامريكى .

وقد ادى تدويل السياسة والاقتصاد فى عصرنا النوى الى التقليل من الاهمية الاستراتيجية لمصر وقناة السويس . وقد اغلق اهم طريق تجارى وبحرى من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٥ . وطبعى انه كان من السهل للعالم ان يحيا حينما كانت القناة مفتوحة للملاحة ، لكنه استطاع التصرف بدونها .

وفى السابق كانت خطوط الدفاع الاولى لمصر فى فلسطين . الا ان ظهور اسرائيل قلب مفهوم التوازن الاستراتيجى السابق للقوى فى الشرق الاوسط . ومصر مكشوفة من الشمال الشرقى ومن البحر . ولم يؤد الصلح المنفرد الى تغيير هذا الواقع الاستراتيجى . وظلت اسرائيل هى العدو رقم واحد والخطر المحتمل والحقيقى ولا يمكن لهذا الا ان يؤثر على النهج السياسى لاي حكومة عاقله فى القاهرة . وكما سبق فان سكان مصر ما زالوا يمثلون ثلث سكان العالم العربى . ولدى مصر اكبر القدرات من حيث الكوادر واحتياطي من القوى العاملة المؤهلة وغير المؤهلة واكثر الصناعات تطورا . الا ان اليرادات الضخمة من النفط اعطت الدول العربية النفطية فى

اياديهها وسائل التنمية الاقتصادية . وبالمعايير الشكلية للنتائج القومية الاجمالي فان كثيرا منها سبق مصر حتى بالحجم العام . وكان سكان مصر القديمة (٦ - ١٠ مليون نسمة) يمثلون حوالي ٥ ٪ من سكان العالم حينذاك ، و٢ - ٢,٥ ٪ من سكان العالم في القرون الوسطى . اما سكان مصر الان (حوالي ٤٨ مليون نسمة) فلا يزيدون عن ١ ٪ من سكان العالم . الا ان الديموغرافيا في شكلها النقي لا تحدد وزن الدولة في العالم . فقد احتلت مصر القديمة قمة العالم بمستوى تطور القوى المنتجة ، والعلم ، والتكنيك ، والثقافة ، والفن . اما مصر الحديثة فهي تدخل في عداد عشرين دولة من حيث عدد سكانها ، وستين من حيث المنتج القومي الاجمالي ، وتسعين من حيث نصيب دخل الفرد من اجمالي الدخل القومي . وتعتبر انتاجية الفلاح المصرى مائة مرة اقل من انتاجية الفلاح الامريكى . ونظرا لعدد السكان فقد عاشت مصر دائما على اقصى امكانياتها . وتفيد الاستخدام التوسعى للاراضى الزراعية بوجود الصحراء ، اما الاستخدام المكثف فقد تقيده بمستوى المحاصيل الزراعية . وقامت الطبيعة والمجتمع الانسانى بقساوة بالغة بتنظيم وتسوية تعداد المصريين . وقد ادت الحروب والفيضانات الى الجوع والابوثة والقضاء على الملايين . وانخفض عدد السكان ليزداد بعد عدة اجيال لاقصى حدوده .

وببدء الحملة الفرنسية على مصر انخفض عدد سكان مصر لاقبل مستوى له تقريبا على مدى التاريخ الحضارى اذ وصل ٢,٥ مليون نسمة . وقد ادت اقامة السلطة القوية والاصلاحات الادارية وتحسين منشآت الري ونقله من النظام الحوضى للنظام الدائم الى زيادة الانتاج الزراعى وفتح المجال لزيادة السكان . فقد تضاعف عدد السكان اربع مرات خلال مائة سنة ، ثم ازداد اربع مرات اخرى

في اقل من ٧٥ سنة . ويعتبر النمو السريع للسكان مأساة للبلاد وليس انجازا لها . فلاكثر من ربع قرن فانها تتغذى بتناسب مطرد على الاستيراد . اذ تستورد معيلة روما سابقا قمحها الان من الولايات المتحدة وكندا واورسترااليا .

لكننا حينما نتحدث عن مستوى التطور فان الارقام البسيطة للنتائج القومي الاجمالي او نصيب الفرد منه يمكن ان تضللنا . ولن نشير للامثلة التقليدية للكويت او ابي ظبي التي سبقت شكليا بفضل الايرادات النفطية كلا من الولايات المتحدة والسويد وسويسرا . ولنقارن بين مصر واليابان . وفي ظروف اليوم يمكن ان تثير هذه المقارنة الابتسام الساخر . لكن في الماضي القريب كان لكل من مصر واليابان — عام ١٩٤٩ — مستوى واحد من نصيب الفرد من الدخل القومي — ١٠٠ دولار . وكان غذاء المصري المتوسط يفوق غذاء الياباني . فلماذا الان وبعد ٣٥ سنة وصل نصيب الفرد من الناتج القومي الاجمالي حوالي ٩ آلاف دولار في اليابان ، بينما وصل هذا الرقم في مصر حوالي ٥٠٠ دولار ؟ وقد تجلب الاجابة الكاملة والمسببة على هذا السؤال المجد والشهرة العالمية للكاتب ، اذ ان من اجل البحث عن اجابة لواحدة من اهم قضايا العصر جذرية يعمل آلاف وآلاف من الاقتصاديين وعلماء التاريخ وعلماء النفس من جميع انحاء العالم . ويتوقف اختيار المليارات من سكان العالم الذين يعيشون في «العالم الثالث» لطرق تنميتهم على الاجابة على هذا السؤال . وربما كان ايسر تفسير هو القول بأن الاشتراكية تكفل أسرع معدل لتقدم المجتمع الاقتصادي والاجتماعي . لكن اولا ، لا تعتبر اليابان دولة اشتراكية ، وثانيا فان اى ماركسي يدرك انه لا توجد ظروف موضوعية بعد للتطور الاشتراكي في معظم بلدان آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية .

وإذا ما عدنا للمقارنة مرة أخرى بين اليابان ومصر فاننا سنجد ان اليابان محت اميتها كاملا في عام ١٩٤٩ ، وعلى اية حال فقد كانت لديها قدرة علمية-تكنيكية ضخمة منذ مائة عام مضت ، وكان فيها فروع صناعية متقدمة ، حددت لعشرات من السنين اللاحقة التقدم العلمى-التكنيكي فى اليابان ، ولم يوجد فى مصر شىء من هذا القبيل ، وان مصر كانت فى مواجهة عسكرية مع اسرائيل على مدى ٣٠ عاما ، وانفقت مصر موارد ضخمة على الاغراض الدفاعية ، وان السوق المحلية وسكان مصر كانا اقل مما فى اليابان .

وإذا ما تعمقنا أكثر فسنجد ان الاخلاق او الفلسفة الانتاجية افضل لدى اليابانى مما هى عليه لدى المصرى . واذا ما وضعنا المسألة اوسع من ذلك فاننا سنجد انه للان لم تصل بعد لا مصر ولا اى من دول «العالم الاسلامى» او اقتربت بمستواها من دول العالم المتقدمة اقتصاديا .

ولا اعتقد ان فكرة ضرورة اجراء اصلاحات عامة او رفع المستوى الثقافى ومستوى المعيشة العام للسكان فكرة غير معروفة للطبقات الحاكمة سواء فى مصر او فى الدول الاسلامية الاخرى . لكن الامر يختلف اذا ما نظرنا الى عناصر منفصلة متاثرة للاوضاع عنه اذا ما فهمنا الاسباب وترباطها . لا بد من نضوج مجمل الظروف الضرورية لتحقيق طفرة فى التطور .

ويمكن للتاريخ المصرى ان يقدم امثلة براقعة لقضية ، كيف يمكن نسيان واهمال الانجازات الضخمة للعبقرية الانسانية ولطاقاتها وهمتها ، وذلك لانها لم تكن حينذاك ضرورية لا لمصر ولا للبشرية ، ولم تكن هناك ظروف لاستخدامها وللحفاظ عليها او لتطويرها .

لقد قام الفينيقيون باوامر من الفرعون نبحو بالمرور عبر طريق رأس الرجاء الصالح والدوران حول افريقيا في القرن السابع قبل الميلاد قبل فاسكودي جاما باكثر من ألفى سنة ، وهو الطريق البحرى حول افريقيا الذى اعتبر اعظم اكتشافات الرحالة البحرين على تخوم القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

وقد حفرت القناة الموصلة بين البحرين الاحمر والمتوسط ، حقيقة باستخدام احد فروع النيل منذ الفين وخمسمائة عام قبل الميلاد ، وقد ردمت هذه القناة اكثر من مرة وحفرت من جديد . وقد رأى العرب الذين قدموا لمصر هذه القناة الا انها اهملت فيما بعد . ولن يستطيع احد ان يقنع كاتب هذه السطور بان اكتشاف الطريق البحرى الى الهند هو الذى كان السبب الاساسى لانهييار الشرق الاوسط ، بما فى ذلك مصر ، بدءا من القرن السادس عشر . فكم من هذه المراكب الشراعية ذات الحمولات الصغيرة فى عدة مئات من الاطنان دارت حول افريقيا كل عام ؟ وهل لم يكن الحجم الكمى لحمولات الترانزيت عبر الشرق الاوسط اكبر من الحمولات التى نقلت عن طريق رأس الرجاء الصالح ؟ وهل كانت تجارة الترانزيت هى التى تحدد كل التطور ؟ فلماذا اذن لم تظهر فكرة بناء قناة من النيل للبحر الاحمر من جديد وجعل الابحار التجارى حول افريقيا عملا لا جدوى له ؟ وقد اضطرت الحاجة الملحة للملاحة البحرية الدولية فى القرن التاسع عشر الى تشييد قناة جديدة تصل بين البحرين .

ونحن نتنهد بألم حينما نتذكر ان العرب هم الذين حرقوا مكتبة الاسكندرية . (حقيقة ان الكتاب ذوى الميول الاوربية ينسون ان الحارق الاول لهذه المكتبة لم يكن سوى يوليوس قيصر) . ومما لا شك فيه ان مثل هذه الحرائق جلبت الخسارة للثقافة الانسانية

كلها . لكن هل كانت الانسانية على استعداد لتقبل واستخدام افكار العلماء الذين نظروا للمستقبل لقرون ولالاف السنين ، تلك الافكار التي كانت مرسومة على الرقائق المكتيبة المحترقة ؟

فقد اكتشف ممثل مدرسة الاسكندرية للرياضيات أريستارخوس الساموسى ان الارض تتحرك حول الشمس وتدور في نفس الوقت حول محورها وذلك في القرن الاول الميلادى . ولم يرسل به احد للنار الا ان الأمر الواضح خيل للبشرية مستحيلا ، وازيحت تعاليمه لالف وخمسمائة سنة حول «النظرية» الخاصة بمركزية الارض التي تقدم بها كلوديوس بطليموس في نفس مدينة الاسكندرية بعد قرن من هذا الاكتشاف ، اذ افترضت هذه النظرية ان الارض هي مركز الكون . واكتشف علماء الاسكندرية قوة البخار وايضا تطلب الامر الف وثمانى مائة عام لنبداً استخدام هذه النظرية .

ومثما تستطيع الافكار العلمية-التكنيكية تستطيع ايضا الافكار الاجتماعية السياسية ان تسبق عصرها لمئات السنين . فهى قد تنضج في مجتمع غير مستعد بعد لاستيعابها . وهى يمكن ان تكون موجودة وفعالة في بعض البلدان وتبوء بالفشل لدى استخدامها في بلدان اخرى . ويتطلب الاستخدام الناجح للاكتشافات ليس فقط المحلية بل والغريبة واستخدام نماذج التطور والخبرات التاريخية ظروفًا اجتماعية-سياسية واقتصادية وسيكولوجية وثقافية مناسبة . فهل توجد هذه الظروف الان في مصر وفي بقية الدول الاسلامية التي تسلك طريقًا تابعًا للتطور الرأسمالى المريض ؟ ان الانتعاش العام للفكر الاجتماعى-السياسى والادب والفن في مصر وفي الدول العربية الاخرى في القرنين التاسع عشر والعشرين اطلق عليه تسمية عربية «النهضة» . ويسحب البعض هذه التسمية على القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، ويسحب الآخرون هذه «النهضة» على يومنا المعاصر .

ويترجم هذا المصطلح كالبعث (عصر النهضة) . ولدى الاصطدام بهذا العصر اردت ام لم ترد فانك تتوقف عنده . هل من الممكن اطلاق اسم النهضة على اى نهوض ثقافى بما فى ذلك فى مصر ؟ وهل يمكن تفسير هذا المصطلح بتوسع اكثر مفترضين ان المصريين وكل العرب فى القرنين التاسع عشر والعشرين عاصروا تلك العمليات التاريخية الشبيهة التى عاشها الاوروبيون فى القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ؟

وتعتقد القضية بان بعض العلماء يقصدون بكلمة «النهضة» مرحلة واحدة فقط من عصور تاريخ الثقافة ، ويعتقد الآخرون ان النهضة هى حلقة خاصة من حلقات العملية التاريخية رابطين بذلك بين المحتوى الثقافى لعصر النهضة والمحتوى الاقتصادى-الاجتماعى . واكثر من ذلك فان مفهوم عصر النهضة الاوربية البحت اصبح شاملا وعالميا للكثيرين . واصبحوا يطلقون على عصر النهضة «الموجة التى عمت كل القارة الاورواآسيوية او بمعنى اصح الافروآورواآسيوية الضخمة وقد بدأت هذه الحركة فى القرن الثامن الميلادى فى الشرق ، وفى الطرف الشرقى من القارة الاورواآسيوية وانتهت فى القرن السابع عشر فى الطرف الغربى على شواطئ المحيط الاطلنطى» . ويتحدث كبار العلماء ذوى الوزن والنفوذ العالمى التقدير عن النهضة الصينية (فى القرون من الثامن حتى الثانى عشر) ، ونهضة وسط آسيا وايران وشمال غرب الهند (فى القرون من التاسع حتى الثالث عشر) ، وعن النهضة العربية (فى القرون من الثامن حتى الثانى عشر) .

ويبحث هؤلاء العلماء ويجدون المظاهر العامة لنهضة كل العصور والشعوب فى العودة للقدم والنهوض الثقافى والمناخ الانسانى . ويشيرون الى ان العراقة الكلاسيكية كانت مجرد اداة للنضال

ضد الثقافة القديمة والآراء البالية وايضا قاعدة لاعداد الثقافة والآراء الجديدة .

ومع ان الكاتب لا يدعى شمولية معارفه التاريخية الا انه ومع ذلك يشك في عدالة التفسير الشامل وسحب مفهوم عصر النهضة على كل المناطق . وكما نرى فان المهم في النهضة الاوروبية كان في تحرير الشخصية من قيود الدين والعادات وتحرير الاحساس بالعالم المحيط ووجهات النظر من الجمود بمساعدة منطق الشك وحرية التفكير ، والحصول على ذلك الوضع الذى يجعل المجتمع يعترف بهذا التحرير . وسعى الانسان الجديد الى ان يحقق النجاح فى الحياة بفضل جهوده الشخصية والمراس والعقل والمعرفة . واستطاع الانسان الوقوف على قدميه بثبات واطع نفسه مكان الرب وقد اصبح مركزا للكون .

وقد سعى انسان عصر النهضة بتوجهه للعقل وللتفكير الابداعى الحر الى الحصول على حق التطوير الكامل لشخصيته ونفسه والتحرر من سيطرة الكنيسة وجمودها وتقاليدها . وقد جرى تثبيت للشخصية الفردية فى البداية فى صورة انسانية وفيما بعد ، فى عملية الاصلاح ، اخذت صورة تراكمية اقتنائية . وجعل النقد العقلانى للدين من الممكن ظهور الالحاد وظهور الافكار الاجتماعية السياسية الجديدة . وادى كل ذلك الى ايجاد تلك المقدمات الاجتماعية-النفسية والثقافية والايديولوجية التى صاحبت تطور انتاج الخيرات المادية ومهدت لظهور الحضارة الغربية الدينامية ، ولظهور المجتمع البرجوازى الذى بدأت تنمو فيه ، فى حينه ، المقدمات الاشتراكية . وقد اتضح ان ظواهر النهضة فى القرون الوسطى فى الشرق سلكت طريقا مسدودا . فلم تؤد هذه الظواهر الى اقامة ظروف للتقدم الاجتماعى اللاحق ، وظلت معزولة رغم مظاهر الثقافة

المتمازة التي داستها الاقدام بدورها او تجمدت في العملية التاريخية التالية .

ولا يمكن تسمية عمليات «تغريب» او تقليد اوربا في مصر او في بلاد الشرق الاخرى ، بالمعنى الصارم للكلمة ، عمليات نهضة ليس فقط لاننا لا نعود هنا للثقافة القديمة شبه المنسية (رغم اننا يمكن ان نتذكر شكليا «الفرعونية» المصرية التي عبر عنها محمد مختار ، والجامعة التركية والجامعة العربية) بل لان «التغريب» ، في المقام الاول ، كان يعنى محاولة اقتباس ثمار حضارة غريبة وليس اسسها وجذورها . وفي مجال الخيرات المادية اقتباس الاستهلاك وليس الانتاج . هكذا كان الوضع في عصر محمد علي . وهكذا كان الوضع في عصر السادات . ان اقتباس الشكل وليس المحتوى والمظهر وليس الجوهر ، والكلمات وليس الروح نفسها وغياب العنصر الهام وهو تكوين الانسان الجديد—كل هذا لا يسمح باستخدام مصطلح «النهضة» لظواهر الثقافة والحياة الاجتماعية لمصر والدول العربية الاخرى في العصر الحديث والحالى . ويؤدى التطور الرأسمالى التابع والمشوه الى ميلاد نوع جديد من الشخصية الشرقية الكومرادرورية التي يعنى التحرير الروحى بالنسبة لها فقط المزيد من الجشع والنهب الوحشى . وفي العصر الحديث فان البروليتاريا والمثقفين الثوريين الذين مروا عبر التجارب والمعارك الاجتماعية الصعبة هم فقط القادرون على خلق انسان من طراز جديد .

وهناك ملاحظة اخرى فان النهضة (حتى النهضة التي سارت في طرق مسدودة خارج حدود اوربا)—هى عصر العمالقة في الفن والثقافة والفلسفة والذين اصبحت ابداعاتهم في متناول البشرية جمعاء . دانتي ورابيه وشكسبير وليوناردو دافينتشى وحينما اختار الاديب والكاتب الاجتماعى لويس عوض المصريين الذين كان يمكن ان

يعطوا الثقافة العالمية شيئا ما خلال ١٥٠ سنة ذكر اسماء كل من :
 رفاعة الطهطاوى ، محمد عبده ، احمد لطفى السيد ، طه حسين ،
 توفيق الحكيم ، يحيى حقى ، على عبد الرازق ، حسين فوزى ،
 نجيب محفوظ ، يوسف ادريس . ولنتحن امام كل اسم من اسماء
 هؤلاء الامجاد رغم تناقضاتهم ، والذين لا يمكن تخيل الثقافة لا
 المصرية ولا العربية بدونهم . انهم يبعثون الاحترام والفخر ، رغم
 عدم الموافقة احيانا مع آرائهم . لكن من المستبعد ان يصعد احد
 منهم لمرتبة العمالقة العالميين . اذ ان معظم الاسماء المذكورة
 وليس جميعها معروفة فقط للمستشرقين لدينا . ويجوز ان القارئ
 العادى لدينا قد سمع عن طه حسين ويوسف ادريس وتوفيق
 الحكيم . وقد يكون لديهم من يفضلونهم ، لكن لم يستطع احد
 من الفنانين المرموقين المصريين فى مجال الكتابة ان يتساوى فى
 تأثيره على قرائنا على الاقل مع ارنست همنجواى ، ناهيك عن
 الحديث عن مبدعى عصر النهضة .
 هذا هو الواقع .

وفيما يخص المستقبل فان كاتب هذه السطور يؤمن بمصر
 وبالمصريين . وان هذا التحول الاجتماعى الجذرى او الجزئى ان
 اردتم ، وهذا الغليان من التناقضات ، والحماس الفردى والاجتماعى ،
 وهذا الانفتاح لسيل المعلومات من الخارج الذى تستوعبه العقول
 التقدمية للبلاد بتعطش وذلك الكم الهائل من الثقافة الذى يقدر
 بالعديد من القرون والعديد من آلاف السنين — كل هذه الامور
 مجتمعة يمكن ان تؤدى لميلاد الكثيرين من امثال محمود مختار جدد
 ذوى مستوى وحجم لم تشهده مصر من قبل . وسيعرف الشعب
 المصرى فى ابداعهم نفسه ويعترف بنفسه وتصبح ابداعاتهم فى
 متناول الثقافة لا المصرية والعربية فحسب بل والثقافة العالمية ايضا .

ويمكن ان يظهر فى بلاد النيل مفكرون وقادة سياسيون على مستوى تحديات العصر .

وسيجد الشعب المصرى طريقه للتطور والتقدم .
وتبقى ضرورة فقط القدرة على الانتظار .
والتحمل .

وليس امامنا فى نهاية المطاف سوى ان نكرر وراء الفلاح
المصرى : «الصبر خير !» .

محتويات

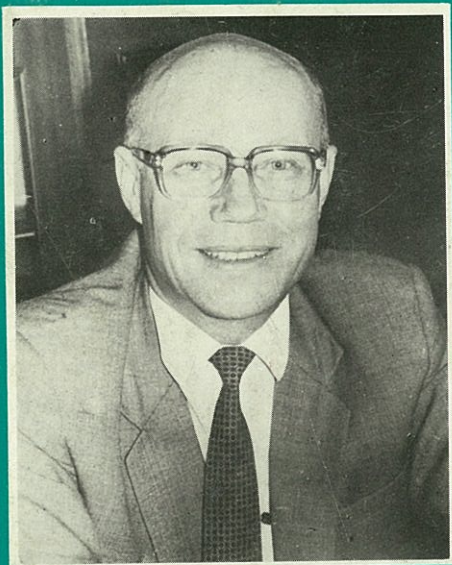
٣	تمهيد
٨	الباب الاول . الاصحراء
٤٩	الباب الثانى . قاعدة الهرم
٨٩	الباب الثالث . رأس عملاق على جسد ضعيف
١٣٦	الباب الرابع . ستة آلاف سنة من الصبر
١٩٠	الباب الخامس . ألدى المرأة روح ؟
٢٣١	الباب السادس . اركان الايمان
٢٦٧	الباب السابع . مصريون أم عرب ؟
٣١٧	الباب الثامن . الشرق هو الشرق
٣٧٥	الخاتمة

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم
وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ،
وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن
رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧
موسكو — الاتحاد السوفيتى

اليكسى فاسيليف مصر والمصريون



الكسى فاسيليف مؤرخ ومستشرق معروف وكاتب مهتم بقضايا الشرقين الاوسط والادنى . عمل مراسلا لصحيفة «البرافدا» وطاف العديد من بلدان آسيا وافريقيا ، وامضى زهاء عشر سنوات في بلدان الشرقين الاوسط والادنى . كتب مئات المقالات وعددا من الكتب العلمية والصحفية بينها «الوهابية والدولة السعودية الاولى في الجزيرة العربية» و«بيبلوغرافيا العربية السعودية» و«مشاعل الخليج» و«النفط : الاحتكارات والشعوب» و«الخليج في قلب العاصفة» و«رحلة الى الجزيرة العربية السعيدة» و«جسر عبر البسفور» . ومن اهم كتبه «تاريخ العربية السعودية» الذي اصدرته مرتين دار التقدم باللغة العربية . ويعرض المؤلف في كتابه «مصر والمصريون» جملة من وجهات النظر الاصلية حول تطور المجتمع المصرى منذ اقدم الازمنة الى الوقت الحاضر ويعبر اهتماما كبيرا للاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الجديدة في البلاد .

ISBN 5-01-001351-7

دار التقدم . موسكو